

خير الأنام وصحبه الكرام

الجزء الأول

حياة

خير الأنام
ﷺ

تأليف

دكتور / حسن عشاوي

الطبعة الثالثة

نسخة محققة

تحقيق . محمد عبد الهادي عبد الفضيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة

٢٠٢٢ م / ١٤٤٢ هـ

توزيع مؤسسة الأهرام

رقم الايداع ٣٨٦٧ / ٢٠١٤



الإدارة العامة للتوزيع

ت : ٢٧٧٠٤٢١٣ - ٢٧٧٠٣١٩٥

إهداء

إلى من علمنى حب العطاء، وحب الإيثاء على النفس،
حتى ولو كنت لا أملك إلا القليل رحمة الله - والذى .
وإلى من علمتنى أصول دينى، وكيف أؤدى فروضى إلى الله
بل وأحب أن أكون عبداً لله - رحمة الله - والذى .
- اللهم رب ارحمهما كما ربياني صغيراً -
وإلى من كانت لى عوناً وداعماً فى كل ما أقوم به من أعمال
لخدمته دينى، وفى إخراج هذا العمل المتواضع - إلى زوجتى العزيزة .

حسن عشاوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الكرام .
إنه لمن دواعي سرورنا وسعادتنا أن نرى ثمار الجهد المبذول من صديقنا العزيز وأخانا الأكبر
الدكتور حسن عشاوي تصدر الآن في صورة كتاب " خير الأنام وصحبه الكرام " بعد عقود
من العمل المخلص والدؤوب للتعريف بالتاريخ الإسلامي بدءاً من السيرة النبوية العطرة .
فقد قام الدكتور حسن عشاوي بإلقاء العديد من المحاضرات في مساجد مختلفة بالبلاد ، وتم
تسجيلها وتوزيعها على نفقته الخاصة وقد لاقت هذه التسجيلات إقبالاً كبيراً من المسلمين
بدولة زيمبابوي والبلاد المحيطة بها في زامبيا وبوتسوانا وجنوب إفريقيا وغيرها ، ولا زالت
تلاقي إقبالاً كبيراً.

وها نحن اليوم نرى هذا العمل يظهر في صورة كتاب " خير الأنام وصحبه الكرام " فهذا
فضل من الله ومنة وعلامة من علامات القبول إن شاء الله .

وقد قام الدكتور حسن عشاوي بهذا الجهد وتلك التضحيات إلى جانب عمله كطبيب وجراح
، وما قام به من جهد مشكور لمساعدة أبناء وطننا في زيمبابوي ، وفي هذا الصدد أسس
الجمعية الطبية الإسلامية لدولة زيمبابوي ، والتي تعنى بمساعدة الفقراء والمحتاجين وعلاجهم
بالمجان ، والحمد لله أصبح لها فروع في معظم محافظات البلاد .

فنسأل الله تعالى أن يحفظ أخانا الدكتور حسن عشاوي ، وأن يجزيه خيراً على ما قام به من
جهد وعمل مضمن لخدمة الإسلام والمسلمين ، وإنني لعلى يقين أن هذا الكتاب سيكون فيه
الفائدة والنفعة العظيم لنا جميعاً ، لعل الله يتقبل هذا الجهد ويكتب له الاستمرار آمين .

الشيخ / إسماعيل موسى منك

مفتي دولة زيمبابوي

الجمعة ٢٦ شعبان ١٤٣٤

الموافق ٥ يولييه ٢٠١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه .
رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

بهذا الدعاء كنت دائماً أبدأ حديثي ومحاضراتي التي كنت ألقياها في مدينة بولاوايو بدولة زيمبابوي ، حيث أعمل هناك فإن شغفي وحبّي لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، وما لاحظته من حاجة ماسة للمسلمين هناك لمعرفة دينهم وحياتة رسولهم وصحبه الكرام هو ما دفعني لتنظيم هذه السلسلة من المحاضرات عن السيرة النبوية وعن حياة الصحابة .

وبفضل الله وحمده قمنا بعمل هذا البرنامج عدة مرات في جميع مساجد المدينة . بولاوايو .
وكذلك المدن المجاورة لها والحمد لله قد لاقت إقبالاً واستحساناً من المسلمين لعل الله ينفع بها ، ويتقبلها خالصة لوجهه الكريم ، وزيادة في شرف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد الانتهاء من هذه السلسلة من المحاضرات وتسجيلها على أسطوانات مدمجة (C.D) وقد تم بحمد الله توزيعها في جميع أنحاء الجمهورية (دولة زيمبابوي) وما حولها من دول (زامبيا وبوتسوانا وجنوب أفريقيا) وغيرها من الدول المجاورة . فكرت في كتابة السيرة النبوية العطرة وسيرة الصحابة ، لكنني كنت متردداً في الكتابة وقلت : ما عساني أضيف إلى سيرة الحبيب المصطفى ﷺ وقد نخرت المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التي تناولت حياته ﷺ ، وكتبت بأقلام علماء أجلاء هم أعلى وأرفع مني علماً وقدرًا .

لكني تذكرت قول الحبيب المصطفى : " بلغوا عني ولو آية " (١).

وإن حياته ﷺ كالبحر الفياض وبها من الدروس والعبر ما يحتاج إلى كل جهد وكل قلم ، خاصة بعد الهجمة الشرسة الحاقدة عليه ﷺ ، والتي ظهرت حديثا وإن كانت قديمة ، وهي تُنم عن جهل عميق وحقد دفين على الإسلام وعلى رسوله الكريم. لذلك شرعت في كتابة هذا الكتاب عن حياة رسول الله ﷺ وصحبه الكرام " خير الأنام وصحبه الكرام " وإن شاء الله سيتم ترجمته إلى اللغة الإنجليزية لتكون الفائدة منه أكبر وأعم . وسيكون الكتاب من عدة أجزاء .

وها هو الجزء الأول منه " حياة خير الأنام " وسيتلوه إن شاء الله أجزاء أخرى عن حياة الصحابة الكرام .

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويتقبل منا هذا العمل المتواضع ، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ، إنه هو الحميد المجيد .

دكتور / حسن عشاوي

بولوايو _ زيمبابوي

(١) - صحيح البخاري رقم الحديث ٣٤٦١

الهدف من سرد السيرة النبوية

إن الهدف من سرد سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ليس كتابة قصص للتسلية ، ولكن هناك أهداف هامة لهذا العمل ، نلخصها فيما يلي :-

أولاً : التعلم وأخذ الدروس والعبر من حياته ﷺ :

فإن في حياته ﷺ الكثير والكثير من الدروس التي يجب علينا التوقف عندها ودراستها لتكون نبزاساً ومنهجاً لنا في حياتنا ، فإنك إن تحدثت عن أفضل معلم في التاريخ ، وأفضل سياسي عرفته البشرية ، وأفضل قائد عسكري ، وأفضل أب ، وأفضل زوج ، وأفضل طبيب يداوي القلوب والنفوس فهو الحبيب المصطفى ﷺ ، ليس ذلك فحسب فهو أعظم الرسل وإمام المرسلين .

وقد نعته ربه بعظيم الخلق ، فقال : " وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) " [القلم]

فأحرى بنا أن ننهل من هذا البحر ونتعلم منه أمور ديننا ودُنيانا .

ثانياً : إحياء حب رسول الله ﷺ في قلوب الناس :

فإن حب رسول الله ﷺ ليس أمراً اختيارياً أو أمراً هيناً ، إنما هو فرض من الله عز وجل على كل مؤمن ومؤمنة ، فقد أمرنا بذلك الله سبحانه وتعالى في قوله : " النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ " [الأحزاب : ٦] - أي أن المؤمن الحق لا بد أن يكون حبه لرسول الله ﷺ أكبر وأولى من حبه لنفسه.

الصحابة وحبهم لرسول الله ﷺ

ولقد أدرك صحابة رسول الله ﷺ هذه الحقيقة جيدا ، وكان حبهم لرسول الله ﷺ أكبر من حبهم لأنفسهم والأمثلة كثيرة نسرذ بعضها منها على سبيل المثال وليس الحصر .. سوف تُسرد بالتفصيل في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله . وهاك بعض الأمثلة :

١ - أبو بكر الصديق :

• في رحلة الهجرة وعند وصوله مع رسول الله ﷺ إلى الغار دخل هو أولاً ؛ ليستكشف ما بداخل الغار إلا يكون هناك أي كائن مؤذٍ ، عقرب أو ثعبان أو غير ذلك . فإن كان هناك أذاً فليواجهه هو ولا يصيب رسول الله منه شيء .. ولما لاحظ وجود ثقب كثيرة في الغار أخذ يسدها بقطع من القماش حتى لا يدخل منها شيءٍ قد يؤذي رسول الله .

• بقى الصحابان في الغار ثلاث ليالي ، وفي ليلة من هذه الليالي وضع رسول الله رأسه الشريف في حجر أبي بكر واستغرق في النوم ، وأثناء ذلك وجد أبو بكر فتحة في جدار الغار لم يرها من قبل فسدها بإصبع قدمه ، وبينما هو كذلك إذ أتى عقربٌ ولدغ إصبعه فلم يحرك قدمه ، ولكنه نظر إلى رسول الله وبكى ، حتى وقع الدمع على وجه رسول الله ﷺ فاستيقظ^(١)

فلما علم ما حدث سأل أبا بكر لما لم يسحب قدمه ؟

فرد عليه أبو بكر قائلاً : خشيتُ أن أوقظك يا رسول الله ، وكأنه لا يعبأ بلدغ العقرب طالما أنه لن يوقظ رسول الله ﷺ .

• في الرحلة نفسها وفي الطريق إلى المدينة استوقف أبو بكر راعياً للغنم وأخذ منه لبناً ، فأعطاه لرسول الله ﷺ ليشرب ، فلما كان أبو بكر يروي هذه الواقعة كان يقول : " فشرب رسول الله ﷺ حتى ارتويت " ^(٢) فكأنه بارتواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتوى هو وإن لم يشرب شيئاً . رضي الله عنه وأرضاه .

٢ - عمر بن الخطاب :

دخل يوماً على رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله إني أحبك . فسأله رسول الله : أكثر من

(١) - أوردها السيوطي في الدر المنثور و ابن كثير في البداية و النهاية ولم ترد بسندٍ صحيح

(٢) - (فشرب حتى رضيت) في صحيح البخاري رقم ٩٧٦٩

مالك ؟ قال : نعم. قال : أكثر من عيالك ؟ قال : نعم . قال : أكثر من نفسك ؟ قال : لا . فقال له رسول الله ﷺ : لم يكتمل إيمانك بعد يا عمر " - أو كما قال -

بعدها بقليل جاء عمر إلى رسول الله ﷺ لا وقال له : يا رسول الله أشهد الله أنك أحب إلي من مالي و عيالي ونفسي . هنا قال له رسول الله ﷺ : ((الآن اكتمل إيمانك يا عمر)) . ثم قال : ((لا يكتمل إيمان المرء حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ^(١))) أو كما قال . ولما سأل عبد الله بن عمر أباه : ما حملك على أن تغير رأيك بهذه السرعة وفي هذا الوقت القصير ؟ قال عمر : إني أدركت . وعلينا أيها الأحباب أن ندرك أيضاً . أن حبي لعمر بن الخطاب لن يغني عني شيئاً يوم العرض على الرحمن ، أما حبي لرسول الله ﷺ لا فهو أنفع لي لأنه ﷺ هو من سيشفع لي يوم القيامة وأسقي من كفه الشريف شربة لا أظمأ بعدها أبداً .

٣- خبيب بن عدي :

عندما أخذه كفار قريش وهموا بقتله ^(٢) (بعث الرجيع) وصلبوه وعذبوه قبل قتله ، فمر عليه أبو سفيان ، وهو في هذه الحالة وقال له : أيسرك أن محمداً مكانك ها هنا تُضرب عنقه وأنت آمن في أهلك .

فرد عليه خبيب رداً أذهل أبا سفيان ومن معه . قال له : والله ما يسرني أن شوكة تُصيب قدم رسول الله ﷺ وأنا آمن في أهلي .

فرد أبو سفيان متعجباً : والله ما رأيت أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحابُ محمد محمداً . ثم أمر بقتله .

هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ لا يحبونه أكثر من أنفسهم . وكما ذكرنا فالأمثلة كثيرة ولا مقام لذكرها جميعاً .

(١)-وردت في البخاري رقم الحديث ٦٦٣٢

- كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال النبي ﷺ : لا ؛ والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال له عمر : فإنه الآن ، والله لأنت أحب إلي من نفسي ، فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر .

(٢)-القصة في صحيح البخاري رقم ٣٠٤٥

النسب الشريف

من هو رسول الله ﷺ ؟

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (قريش) بن مالك بن النضر بن كِنَانَة بن جُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن الياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَد ابن عدنان .

وما فوق عدنان بضع وثلاثون جيلاً " إلى قَيْدَار بن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم عليهما وعلى نبينا السلام .

وفي بحثنا هذا سنذكر عن أحوال هذه السلسلة من إِبْرَاهِيم عليه السلام حتى رسول الله ﷺ ثم حياته ﷺ بالتفصيل .

إبراهيم عليه السلام

مولده ونشأته :

ولد إبراهيم في مدينة أور بالعراق ، وكان أبوه نحاساً ماهراً ، يصنع تماثيل للآلهة التي يعبدها الناس ، ومهنته هذه أسبغت عليه قداسة خاصة في قومه .

كَبُر إبراهيم وعائش مراحل صنع التماثيل ، ورأى كيف أنه أحياناً ينشق الخشب وينكسر التمثال فيلقي به والده جانباً ، وقد يستعمله كوقود للنار ويصنع غيره .

الديانات والمعتقدات المنتشرة في قومه :

كانت المعتقدات الموجودة آنذاك ثلاثة :

١-عبادة النجوم والكواكب .

٢-عبادة الأصنام .

٣-عبادة الملوك .

أما عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فلم تقر نفسه أي من هذه الديانات وكان دائماً يفكر أن هناك إلهاً أكبر وأعظم مما يعبدون ، فكان قراره أن يتحدى أصحاب هذه الديانات الثلاث بالدليل والبرهان ، فحاض هذا الصراع في جولات ثلاث :

الجولة الأولى : ضد عبدة النجوم :

بدأ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - صراعه بعبدة النجوم ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام في حوار مع نفسه، وإن كان فيه درس وعبرة لهؤلاء عبدة النجوم. فقال تعالى : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لمَّ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام ٧٦.٧٨]

وكان هذا الحوار محاولة من إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لإثبات ضلال ما يعتقدون بطريقة عملية فكيف أعبد رباً يأتي ثم يختفي ، يأفل ثم يُشرق ؟ كررها مع النجوم ثم القمر ثم الشمس لعلهم يعقلون ، فكان قراره الحاسم :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ﴿٧٩﴾
[الأنعام ٧٩]

الجولة الثانية : ضد عبدة الأصنام :

وما أن انتهى من صراعه مع عبدة النجوم حتى بدأ صراعه مع عبدة الأصنام ، فكانت أشد ضراوة إذ أن أباه . كما أسلفنا . عنصر هام في هذه العبادة ، فهو صانع الأصنام ومُعدها للعبادة ، فمرَّ صراعُ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مع عبدة الأصنام بالمراحل الآتية :

١ . حوار إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مع قومه :

خرج إبراهيم يوماً على قومه ودار بينهما الحوار التالي :

إبراهيم : (مَا هَذِهِ التَّمَاتِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) [الأنبياء : ٥٢]

قومه : (وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) [الأنبياء : ٥٣]

إبراهيم : (لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [الأنبياء : ٥٤]

قومه : (أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) [الأنبياء : ٥٥]

إبراهيم : (بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) [الأنبياء : ٥٦-٥٧]

٢ . حوار إبراهيم مع أبيه :

ثم كان بعد هذا الحوار مع قومه حوارٌ أكثر صرامة مع أبيه :

إبراهيم : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا

تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) [مریم : ٤٢-٤٤]

فكان رد الأب أشد صرامة وبه من التهديد والوعيد .

فقال : (أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)

[مریم : ٤٦]

فخرج إبراهيم تنفيذاً لقرار الأب بالطرد وقرر أن يهجر قومه وما يعبدون من دون الله .

٣ . إبراهيم يبرهن لقومه ضلال ما يعبدون :

ولكنه كعهده وقبل أن يهاجر أراد أن يثبت لقومه بالتجربة العملية أنهم في ضلال

مبين . كما فعل مع عبدة النجوم .

فكان يومٌ الناس فيه يحتفلون احتفالاً عظيماً على الضفة الأخرى من النهر وانصرفوا

جميعاً إليه فانتظر حتى خلت المدينة ثم خرج وهو يقصد بخطاه المعبد فوجد الأصنام

ونظر إلى الطعام الذي وضعه الناس أمامها كذخور وهدايا ، فقال موجهاً حديثه إلى تلك الأصنام : (أَلَا تَأْكُلُونَ) ٩١ (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ) [الصفات ٩١-٩٢]

ثم بدأ يحطم الأصنام كلها وترك كبيرهم وعلق برقبته الفأس . تجمع الناس بعد عودتهم ليروي ما حدث لآلهتهم وبدءوا يفكرون فيمن يكون عساه مرتكب هذه الفعلة ؟

فقفزت إلى عقولهم صورة إبراهيم وهو يتحداهم ويحدثهم (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) [الأنبياء : ٦٠]

ثم عقدوا له محاكمة فورية وسألوه :

(أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) [الأنبياء : ٦٢]

فرد متهكماً :

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) [الأنبياء : ٦٣]

فكان قرار المحكمة :

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) [الأنبياء : ٦٨]

فقد ألزمهم الحجة والبرهان وناقشهم بمنطق الفكر ، فكان قرارهم الإعدام حرقاً في النار .

النار برداً وسلاماً على إبراهيم :

وتنفيذاً لهذا الحكم فقد حفروا حفرة كبيرة ، وملأوها بالحطب والخشب وأشعلوا النار وأحضروا " المنجنيق " وهي آلة جبارة ليقذفوا إبراهيم منها فيسقط في حفرة النار .

وكان الناس ينفرون بعيداً عن الحفرة من فرط الحرارة اللاهبة . وبعد تقييد إبراهيم من يديه وقدميه وُضع في المنجنيق ، وجاءت لحظة الحسم وهنا جاء جبريل يسأل إبراهيم : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . أما إلى الله فعلمه بحالي يغني عن سؤالي .

فانطلق المنجنيق مُلقياً إبراهيم في حفرة النار تنفيذاً لقرار المحكمة الظالمة ، وهنا كان قرار رب الأرباب ذي القوة العزيز القهار ، قراراً مضاداً لقرار المحكمة بأن أعطى أوامره إلى النار : (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء: ٦٩]

وكان هذا الحكم من الله الخالق القوي العزيز الجبار خالق النار فأمرها بأن تُوقف العمل بخواصها الفيزيكية كنار ... فلم تحرق ولم تدمر إلا القيود التي كان مربوطاً بها إبراهيم .

ليس ذلك فحسب بل كانت برداً وسلاماً عليه . فلم تكن برداً فقط وإلا استمرت في التبريد حتى وصلت إلى درجة الجليد وتجمد إبراهيم ، فكانت سلاماً عليه وجلس إبراهيم وسطها وكأنه يجلس وسط حديقة غناء .

وبعد وقت طويل جلس الجميع في انتظار رؤية إبراهيم جثةً هامدة وقد تفحمت بعد أن خدمت النار ، فإذا بهم يرون إبراهيم يخرج إليهم سليماً كما دخل ، وجهه يتلألأ بالنور وثيابه كما هي لم تُحرق في حين أن ثيابهم قد احترق نصفها بسبب ما تساقط عليها من الأخشاب الملتهبة فكانت الخسارة الكبيرة والبهتان الشديد للكفرة (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) [الأنبياء: ٧٠]

الجولة الثالثة : ضد عبدة الملوك والحكام :

وهنا ذهب إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى رأس الشرك مباشرةً الملك الذي يُعبد من دون الله وحاجه وتحده ، ودار بينهما الحوار التالي الذي صورته الله سبحانه وتعالى في قوله : (أَمْ تَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ) [البقرة: ٢٥٨] فلم يدخل إبراهيم - عليه السلام - في مناقشة طويلة لا طائل منها فكانت إجابته القاضية : (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة ٢٥٨]

فكان رداً قاطعاً لا جدال بعده ، ونلاحظ أن السياق القرآني قد تجاوز اسم الملك ومكانه لانعدام أهميته .

الهجرة إلى بلاد الله :

بعد هذا الصراع الطويل مع كل صنوف الشرك والكُفر وما كان من معجزات بينة خرج إبراهيمٌ مهاجراً من تلك البلاد إلى بلاد الله الواسعة يدعو إلى الله الواحد الأحد.

يا ترى كم كان عدد أتباع إبراهيم عند خروجه ؟

هل كانوا بالآلاف ؟ أم بالمئات ؟ أم حتى بالعشرات ؟

كلا !! كان رجلاً واحداً ، هو ابن أخيه لوط - عليه الصلاة والسلام - هو من خرج معه واتبع دينه .

من هذا نأخذ العبرة أن لا يبأس الإنسان الداعي إلى الله فكما قال رسول الله ﷺ : " لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم " (١) أو كما قال . فهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فلم يقنط ولم يبأس وظل يدعو إلى سبيل ربه . وها نحن اليوم وبعد آلاف السنين نرى المؤمنين على الأرض كلهم هم من أتباع إبراهيم - عليه السلام - وعددهم بالمليارات الآن سبحان الله . .

إلى بلاد الشام :

هاجر إبراهيم - عليه السلام - من أور بالعراق إلى الشام (دمشق) ومنها إلى حلب وفيها وقعت قصة نود أن نعرج عليها ، فقد بدأ أتباع إبراهيم التي يتزايدون وكان هو بطبيعته كريماً شديداً الكرم ، لذا كان إذا مر عليه غريب قام بذبح ما تيسر له من أنعام .

(١) - صحيح ابن حبان ، رواة سهل بن سعد

وفي يوم مر عليه رجل وطلب طعاماً فأعطاه ما يريد ، وبعد الأكل بدأ الرجل يشكر ويصلي لصنم صغير يحمله معه .. هنا ثارت ثائرة إبراهيم وقال له : بعد أن منّ الله عليك بطعام وشراب تشكر غيره ؟ وطرده من منزله .

وهنا جاء جبريل برسالة من رب العزة يقول له فيها : " هذا عبدي أطعمه وأسقيه مائة عام وهو يعبد غيري ، ولم أكل أو أملّ من إطعامه ولم أطرده من مملكتي وأنت بعد إطعامه مرة واحدة تطرده من بيتك ^(١)!!

هنا قرر إبراهيم الركوض وراء هذا الرجل حتى أدركه وقص عليه ما حدث ، فقال الرجل : لهذا هو الإله الحق وهو أحقُّ أن يُعبد وشهد أن لا إله إلا الله وأسلم.

ومن هذه القصة نعتبر أن لا بد من الإحسان إلى كل خلق الله مسلماً كان أو كافراً .

إلى فلسطين :

كانت محطته التالية بعد الشام هي فلسطين حيث كانت إقامته في حبرون " مدينة الخليل حالياً " وفيها قابل سارة وتزوج منها وقضى بعضاً من الوقت هناك يدعو إلى الواحد الأحد.

إلى مصر :

ثم كانت بعد ذلك رحلته إلى مصر مع زوجته ، وفيها قابل ملكها الذي أهدها هاجر فكانت زوجته الثانية . والاعتقاد بأن هاجر كانت جارية اعتقاد غير دقيق ، حيث كانت بنتاً لملك من الملوك وقد وقعت في الأسر بعد معركة مع ملك مصر فكانت من السبايا ، وعاملها الملكُ معاملة حسنة لذا أهدها إلى إبراهيم حتى لا تعامل معاملة الجواري .

(١) - هذه القصة لم ترد إلا في كتاب نزهة المجالس

البشري بـغلام حليم :

بلغ إبراهيم السبعين من عمره ولم يرزق من الأولاد ، فلما تزوج من هاجر " المصرية " دعا ربه : (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) [الصفات : ١٠٠] فكانت استجابة الله له سريعة : (فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) [الصفات : ١٠١] فكان هذا هو ابنه إسماعيل ، وإسماعيل بالعبرية معناها : اشمع أي سمع وإيل أي الله . أي أن إسماعيل هو استجابة الله لما سمع دعاء إبراهيم ، ثم بعد ذلك عاد هو وأسرته إلى فلسطين مرة أخرى .

إلى مكة :

وظل إبراهيم في دعوته إلى الله وفي يوم أتاه أمر الله هو وزوجته هاجر وابنها الرضيع بالرحيل إلى مكة !

ما هي مكة ؟ وأين تقع مكة ؟ لا يدري ولكن عليه اتباع ما أمره الله به ، فسار إلى مكة تُسيره الغمام كما كان رسولنا الكريم ﷺ .

فلما وصل مكة إذا هي أرضٌ جدباء لا زرع فيها ولا حياة ، مكث بها مع زوجته هاجر وطفلها وقتاً غير طويل حتى أتاه أمرُ الله بالرحيل داعياً إلى الله وتاركاً زوجته وطفلها ومعها جراب فيه بعضُ الطعام وقليلٌ من الماء .

أسرعتُ هاجرُ خلف زوجها المسافر وهي تقول له : إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ؟ لا زرع فيه ولا حياة . قال : هو أمر الله . فردت الزوجة المؤمنة : لن نضيع ما دام الله معنا وهو من أمرك بهذا .

وهنا رفع إبراهيمُ يده يدعو الله قبل أن يغادر مكة :

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) [إبراهيم : ٣٧]

وترك إبراهيم زوجته وابنها الرضيع في الصحراء وعاد إلى كفاحه في الدعوة إلى الله.

هاجر ورضيعها بلا ماء ولا غذاء :

مضى يومان على رحيل إبراهيم انقضى فيهما الماء والغذاء ، وبدأت الأم ورضيعها تحس بالجوع والعطش وبدأ الطفل يبكي والأم في حيرة ! ماذا تفعل وسط هذه الصحراء الجرداء ؟

فبدأت تسعى بحثاً عن ماء حتى وصلت إلى جبل الصفا فصعدت عليه ولم تجد شيئاً ثم نزلت مسرعة من الصفا إلى الوادي حتى جاوزته ووصلت إلى جبل المروة فصعدت عليه ونظرت لكنها لم تر أحداً .

وهكذا راحت تذهب وتجيء بين الجبلين الصفا والمروة سبع مرات ، وهو ما أصبح منسكاً من مناسك الحج إحياء لذكرى هاجر وابنها إسماعيل - عليه السلام - .

حاولت هاجر بكل ما تستطيع من قوة تبحث عن مُعين من الناس ولكنها لم تجد .. هنا فقط توجهت إلى الله بالدعاء .

فكانت المعجزة .. وأي معجزة في هذه الصحراء الجرداء التي لا ماء فيها ولا زرع ولا حياة ، إذ ضرب الطفل الرضيع إسماعيل بقدمه فانفجرت بئر وتدفق ماء غزير فشربت وشرب ابنها والماء ما زال ينهمر . فقالت : زُمي زُمي حتى لا تغرق الأرض .. فكان بئر زمزم المعجزة الكبرى . فإنك تحتاج إلى آلات حفر ومعدات غاية في القوة لحفر بئر وقد تجد الماء أو لا تجده ، إما بقدم طفل رضيع يضرب بها الأرض فينفجر هذا البئر الذي يرتوي منه الناس إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة ، فإنها المعجزة الكبرى وقدرة الله سبحانه الذي يقول للشيء كُنْ فيكون .

الحياة تُدب في الصحراء :

فحيثما يوجد الماء توجد الحياة ، ولما كان ماء زمزم أصبحت الصحراء كلها حياة وبدأ الطير يحوم حولها ، وهنا جاءت جماعة من جُرهم إلى الوادي لما رأوا الطير تحوم فعرفوا أن هناك ماءً ، فالطيور لا تحوم إلا حول الماء ، وعهدهم أن هذا الوادي لا ماء فيه ولا حياة .

فلما عرجوا على الوادي وجدوا هاجر وابنها وبئر الماء فاستأذنوا منها للإقامة معها بجوار البئر فأذنت لهم ، فجاءت جُرهَم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها . وكذلك فعل العماليق . فإذا بالوادي الذي كان غير ذي زرع ولا حياة إذ بدأ يُعمر وينبض بالحياة ، وهكذا تحققت دعوة إبراهيم (**فَجَعَلَ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**) [إبراهيم : ٣٧]

فهوت قلوب جُرهَم والعماليق وأصبحت أفئدة العالمين إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين معلقة بهذا الوادي المبارك ، وبفضل الماء اخضرت الأرض وارتوت الإبل وتكاثرت الثمرات (**وَأَرْزُقُهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ**) [إبراهيم: ٣٧]

جُرهَم و العماليق يُعمروا الوادي

كانت القاعدة المعروفة في البادية أن مَنْ حفر بئراً أصبح مالكاً لها وإذ أن بئر زمزم انفجر ببركة إسماعيل فأصبحت البئر ملكاً لهاجر وأصبحت قبائل جُرهَم والعماليق يعيشون معها وقاموا برعايتها وابنها وحمايتها . وكانوا يسارعون في خدمتها . وشب إسماعيل وأصبح شاباً يافعاً جلدًا .

ومرت الأيام وعاد إبراهيم إلى مكة ليجدها قد تغيرت من وادٍ غير ذي زرع إلى وادٍ كله حياة وأناس كثيرة ووجد زوجته هاجر وابنها إسماعيل وقد وصل سن الثالثة عشر من عمره وأن أمه أنشأته على دين الحنفية مُوحداً بالله .

بناء الكعبة :

كان إبراهيم - عليه السلام - في كل أسفاره يبني مكاناً أو مُصلىً للتعبد . وكلما شاهد معابد الوثنيين في البلاد التي مرَّ بها ، العراق والشام ومصر ، كان يحلم بأن يكون هناك بيتٌ لله يُعبد فيه ، فكان له ما تمنى وكان أمر الله له ببناء الكعبة أو رفع قواعدها وبوأ الله لإبراهيم مكان البيت - أي دله عليه - وأذن في بنائه (**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**) [الحج: ٢٦]

فشرع إبراهيم وكان عونه ابنه إسماعيل شَرَعَا في بناء الكعبة بأمر الله . (وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة :
[١٢٧]

ولا ريب أن الكعبة قام بينائها إبراهيم -عليه السلام - وولده إسماعيل ، إلا أن بعض
المفسرين يذكرون روايات تُرجع بناء الكعبة إلى ما قبل إبراهيم بآلاف السنين ، بل إن
بعضها يُرجح أنها كانت منذ أيام آدم وإبراهيم - عليه السلام - رفع قواعدها (١) .

على أي حال بدأ إبراهيم وولده إسماعيل ببناء بيت الله الحرام وجعل إبراهيم بيني
وإسماعيل يناوله الحجارة ويدعو له ، وارتفع البناء حتى بلغ مكان الركن ، فقال إبراهيم
الإسماعيل : اطلب لي حجراً حسناً أضعه هاهنا . فلما أبطأ عليه جاءه جبريل بالحجر
الأسود .

وكان أبيض وأسود من خطايا الناس . فلما جاء إسماعيل بحجر ووجد الحجر الأسود
في مكانه قال : يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك (تفسير ابن
كثير ج ١ ص ١٧٨) .

مقام إبراهيم :

ولما ارتفع الجدار كان إبراهيم يقف على حَجَرٍ يقوم عليه لبناء الكعبة وكلما كملت
ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة الأربعة وكانت آثار
قدمه ظاهرة في هذا الحَجَر الذي يقف عليه ، وهو ما يُعرف بمقام إبراهيم .

وكان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً حيث تركه إبراهيم لما فرغ من البناء وأخره
عن جدار الكعبة عمر بن الخطاب .

وهو الذي نصلي عنده ركعتين بعد الطواف .

(١)- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني

قصة الذبح :

بعد أن تم لإبراهيم - عليه السلام - ما كان يتمنى وتم بناء البيت تعرض هو وأسرته لمحنة شديدة تنوء بها الجبال.

إذ رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء كالوحي في اليقظة ... ترى ما عساه أن يفعل ؟

فلما أصبح " تروي " في ذلك اليوم وأخذ يفكر من الصباح إلى الرواح لذلك سُمي ذلك اليوم " يوم التروية " ويقال أيضاً : أنه سُمي بيوم التروية لأن الناس كانوا يجمعون الماء فيه ليرتووا به في أيام الحج . فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله سبحانه وتعالى لذلك سمي هذا اليوم " يوم عرفة " ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهُم لينحر ابنه إسماعيل فسُمي ذلك اليوم " يوم النحر " .

إبراهيم يمثل لأمر الله والشيطان يحاول أن يمنعه :

في صبيحة ذلك اليوم (يوم النحر) قال إبراهيم لابنه : خذ الحبل والمدية ، ثم انطلق بنا إلى الخارج لنحتطب .

وأخذ ابنه وهو عازم على أن يمثل لأمر الله ويذبحه .. هنا تدخل الشيطان كعادته عندما تقرر الامتثال لأوامر الله تجده دائماً يجد المبررات والمعوقات التي يغوي بها عباد الله ويلهيهم عن طاعته وامتثال أوامره .

قرر الشيطان أن يحاول مع هذه الأسرة ، فبدأ بالأضعف وهي الأم ، أتاها في شكل رجل وسيم . فقال لها : أتدريين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب ليحتطب . قال : لا والله بل ذهب ليذبحه . قالت : ولماذا ؟ قال : إنه يزعم أن الله أمره بذلك . فكان جواب الزوجة والأم الصالحة : إن كان الله أمره بذلك فقد أحسن في امتثال طاعة ربه واستسلامه لأمره .

لم ييأس الشيطان فخرج من عندها وذهب إلى الابن حتى أدركه وهو يمشي على أثر أبيه فدار معه نفس الحوار الذي دار مع أمه ، ولقي الشيطان صفة أخرى بأن كان جواب الابن هو ما أجابت به الأم .

هنا قرر الشيطان أن يحاول مع الشيخ الكبير إبراهيم فلما سأله : إلى أين أنت ذاهب ؟ قال : لأحطب . قال الشيطان : إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك يأمرك بذبح ابنك . هنا عرفه إبراهيم وقال : إليك عني يا ملعون وسار فلحقه عند جمرة العقبة ، وقال له ما قال فرماه إبراهيم بسبع حصوات حتى ذهب ، فلحقه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصوات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الصغرى فرماه بسبع حصوات حتى ذهب . وهنا أدرك الشيطان أنه لا طاقة له بإبراهيم وأهله ، فاخفى من المشهد إلى غير رجعة .

إبراهيم يهّم بذبح ابنه :

لكن إبراهيم قبل أن ينفذ أمر الله ، رأى أن يخبر ابنه بحقيقة ما ينوي فعله فقال : (يَا

بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) [الصفات : ١٠٢]

فلما أخبره بالأمر أدرك إسماعيل أن رؤيا الأنبياء حق وهذا أمر من الله فقال وبلا

تردد : (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) [الصفات : ١٠٢] وليس هذا فحسب بل قال : (سَتَجِدُنِي

إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) [الصفات : ١٠٢]

وكان من علامات صبره وامتناله لأمر الله وعونه لأبيه أنه قال لأبيه :

- لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني فلا تُجهز علي ، فاربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض .

- اكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فترأه فتحزن .

- أسرع مرّ السكين فتكون أهون للموت عليّ .

- إذا رجعت فلتسلك طريقاً آخر غير الذي سلكناه حتى لا تذكرني فتحزن .

- وإن عُدت إلى أمي فافزأ عليها السلام ولا تجعلها ترى من هم في سني فتذكرني فتحزن .
وكأنما أراد إسماعيل أن يأخذ أبوه الثواب الكامل بلا نقصان في الأجر من الله سبحانه
وتعالى .

ولما همَّ إبراهيم بذبح ابنه بعد أن وضعه على وجهه ليذبحه من قفاه ... هنا تدخلت
القدرة الإلهية مرة أخرى ، فكما أمر الله النار أن تُوقف خواصها كنار تحرق وتدمر وجعلها
برداً وسلامة ، أمر السكين ألا تقطع ، وأرسل الله ملكاً ينادي على إبراهيم : أن يا إبراهيم
قد صدَّقت الرؤيا ، فرفع رأسه ، فرأى الكبش ينحط عليه وكان كبشاً عظيماً فحره فداءً
لإسماعيل ، وقد لخص الله سبحانه وتعالى هذا الحدث الجلل في قوله تعالى :
**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) (إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ
عَظِيمٍ (١٠٧) [الصفات ١٠٣: ١٠٧] .**

عودة إبراهيم وولده :

وعاد إبراهيم وولده إلى أمه . كم كانت فرحة إبراهيم وزوجه وابنهما بفضل الله عليهم
ورحمته ، فإلى جانب فرحتهم بفداء إسماعيل بذبح عظيم كانت فرحتهم الأكبر بامتثالهم
لأمر الله واجتيازهم الاختبار الصعب ..

الأذان بالحج :

مرت هذه التجربة على إبراهيم برداً وسلاماً وبدأ يفكر في مهمته الأصيلة وهي الدعوة
إلى الله فقد بني البيت كما أمره الله وفداً الله ابنه ، فدعا الله : **(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)**
[البقرة : ١٢٨] فكان دعاء إبراهيم لربه ليريه كيف يعبد الله ويتقرب إليه ، فعلمه الله
مناسك الحج من طواف وسعي ورمي جمرات ، وكلها للتذكرة بهذه الأحداث وأخذ الدروس
والعبر منها .

ولما أراه الله ترتيب مناسك الحج أمره أن يؤذن في الناس بالحج (وَأُذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُؤُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج : ٢٧]

فقال إبراهيم : يا ربي وما يُبلغ صوتي ؟ وكأنه يقول كيف لي بصوتي هذا سأسمع العالمين ؟ فلم يكن هناك من وسائل الاتصال التي نراها في أيامنا هذه من وسائل سلكية ولا سلكية ومحمول وأقمار صناعية وخلافه .

فكان جواب الله له : عليك الأذان وعلينا البلاغ.

وهنا لنا وقفة وعبرة : إذ أن علينا العمل والجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب ، أما نتائج هذا الجهد فهي على الله سبحانه وتعالى ولنأخذ هذه المقولة من الله سبحانه لخليله إبراهيم ، فعلينا العمل وعلى الله الفلاح والنجاح إن شاء الله

فأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله ، وسمعه أهل الأرض جميعاً وأتوا رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق وما زالوا وسيستمرون مُلَبِّين دعوة إبراهيم إلى يوم الدين " لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك "

أنا دعوة إبراهيم :

اكتمل لإبراهيم ما أراد وما أمر الله به وجاء وقت الرحيل يريد العودة إلى حبرون بعد أن بيّن الله له ترتيب المناسك حتى يتبعها ويعلمها للناس وتتبعها ذريته من بعده .

وأتبع إبراهيم ذلك بدعاء أخير ، وهو أن يبعث الله في ذرية إسماعيل رسولا منهم (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ : إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [البقرة : ١٢٩]

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" سأخبركم بأول أمري : أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني " (١).

وهنا انتهت مهمة إبراهيم في مكة وطاف طواف الوداع وعاد إلى حبرون .

(١)- رواية أحمد (١٢٨/٤) ، و البزار (١٣٥/١٠) وابن حبان (٣١٢/١٤) ، و الطبراني و الحاكم و البيهقي .

إسماعيل عليه السلام

مرّت سنوات ثلاث بعد رحيل إبراهيم وبلغ إسماعيل الثامنة عشر وتزوج من إحدى فتيات جُرهَم يقال إنها صَدا بنت سعد ، وكانت كثيرة التبرم بضيق العيش وشظف المعيشة .

إبراهيم ينصح ابنه :

كان إبراهيم -عليه السلام - كلما تاقّت نفسه للبيت الحرام شد الرحال إلى مكة وكان دائماً ما يقصد بيت هاجر ، وعلم أن إسماعيل قد تزوج فقصد بيته فلم يجده فسأل زوجته عن معيشتهم . فقالت : نحن في ضيق وشدة وشكّت إليه وهي لا تعرفه . فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له : " يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ " ^(١) فلما جاء إسماعيل وأخبرته زوجته بأمر هذا الشيخ وما تركه من رسالة له أدرك آنذاك أنه أبوه وأنه يأمره بأن يفارق هذه السيدة ويطلقها فطلقها .

ومرت الأيام وتزوج إسماعيل من أخرى يقال لها عاتكة بنت عمرو وبعد عامين تاقّت نفس إبراهيم للحج وزيارة ولده إسماعيل ، وذهب إلى منزله فلم يجده فسأل امرأته : كيف أنتم ؟ قالت : نحن بخير وسعة والحمد لله ، فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له " يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ " فلما عاد إسماعيل وعلم بالرسالة قال : ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن أبقى عليك .

وهكذا أراد الله أن يكون من نسل هذه الزوجة البارة أبناء إسماعيل الذين سيكون منهم خاتم أنبياء الله وخير خلقه سيدنا محمد ﷺ .

إسماعيل نبياً:

وتمضي الأيام ويُبشِرُ إسماعيل بالنبوة ويكمل رسالة أبيه في الدعوة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى : (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) [مریم : ٥٤-٥٥] .

(١)- صحيح البخاري

ذرية إسماعيل :

وقد رزق الله إسماعيل من زوجته عاتكة بنت عمرو اثني عشر ولداً وكان أولهم ثابت
وثانيهم قيّدار ، وقد تفرقوا جميعاً في أنحاء شتى من الجزيرة إلا قيّدار فلم يزل أبناؤه
بمكة ، يتناسلون هناك حتى كان منهم العرب المستعربة التي أتت بعدنان ثم ولده معد.
وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي الشريف .

أحوال الجزيرة العربية

الحالة الدينية :

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب وظلوا على دين إبراهيم سنوات طويلة .. إلى أن جاء عمرو بن لُحَيّ الخزاعي . رئيس خزاعة . حيث سافر إلى الشام فرآهم يعبدون الأوثان ويتقربون بها إلى الله فاستحسن ذلك وأتى معه بهُبل وكان أول وثن يُعبد من دون الله بمكة ، وكان من العقيق الأحمر في صورة إنسان كُسرت يده اليمنى التي استبدلت بيد من ذهب .

ثم بدأت تنتشر هذه العقيدة حتى أصبح لكل قبيلة صنمها ، فكانت اللات لتثيف بالطائف ومناة لهُذيل وخزاعة ، والعزى لقريش وبني كنانة .

ولم يكتب عمرو بن لُحَيّ بذلك بل أقدم إلى أصنام نوح . وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً . وأخرجها من جدة حيث كانت مدفونة هناك وأتى بها إلى الكعبة . وهكذا انتشرت عبادة الأصنام في الجزيرة كلها حتى كان لكل قبيلة ثم لكل بيت فيها صنم ، وكان المسجد الحرام قد ملئ بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ٣٦٠ صنماً ، فجعل يضعها بعود في يده حتى تساقطت كلها .

عمرو بن لُحَيّ يجر قُصْبَه في النار :

وهنا لنا وقفة .. فإن الأمور كلها تبدأ بانحراف بسيط عن المسار الصحيح ، فما كان من عمرو بن لُحَيّ إلا أن أتى بهذه الأصنام اعتقاداً منه إنها تقربهم إلى الله ، فأل الأمر إلى ما آلت إليه من عبادة للأصنام وشرك بالله . لذا قال رسول الله : " رأيت عمرو بن عامر بن لُحَيّ الخزاعي يجر قُصْبَه (أي أمعاه) في النار " (١) فكان عليه وزره فيما اقتترف ووزر كل من تبعه إلى يوم الدين .

(١) - صحيح البخاري رقم الحديث ٤٣٤٧

الحالة السياسية في الجزيرة العربية :

ظل أمر مكة في يد جرهم زهاء ٢٠٠٠ سنة إلى أن أتت خزاعة ، لما ضعفت جرهم وغلبتهم ، وتولت خزاعة أمر الكعبة والمعلوم أن من يملك أمر مكة والكعبة يكون له الغلبة في جزيرة العرب ، فلما سيطرت خزاعة وحان لجرهم الرحيل فما كان منهم وعلى يد آخر ملوكهم " عمرو بن مضاء الجرهمي " إلا أن اتبعوا . ما نسميه في أيامنا " سياسة الأرض المحروقة " . فسدوا بئر زمزم ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها غزالان من ذهب وأشياء أخرى أملاً في العودة مرة أخرى . الأمر الذي اضطر خزاعة لجلب الماء من خارج مكة مع ما في ذلك من مشقة .

ظلت خزاعة قائمة على أمور البيت والحج حوالي ٣٠٠ سنة حتى كان قصي بن كلاب " الجد الخامس لرسول الله ﷺ " وهو من بني عدنان " المنحدر من قيدار بن إسماعيل -عليه السلام - " فأعاد الأمر إلى نصابه وعادت له ثم لقريش السيادة والأمر النافذ في مكة .

قُصي بن كلاب

استولى قُصي على أمر مكة بعد حرب مع خزاعة كان له فيها الغلبة ، وبهذا عادت مكة لبني عدنان الذين هم بني قيدار بن إسماعيل عليه السلام . وصار قُصي هو الرئيس والمسئول عن البيت العتيق .

من مآثر قُصي ومظاهر الرئاسة :

١ . أسس دار الندوة : كانت مجمع قريش وفيها تفصل أمورهم ، فكانت مثل البرلمان في عصرنا الحديث .

٢ . اللواء : وهو مثل وزارة الدفاع في أيامنا هذه ، وكان أمره بيد قُصي وأولاده من عقد الراية أو إعلان حرب وحماية الحجيج .

٣ . الحجابة : وهي خدمة الكعبة وسدانتها فكان قُصي هو الذي يلي أمرها ومعه مفاتيحها ، وكان أول من بني سقفاً للكعبة .

٤ . السقاية : وهي أنهم (قُصي وأولاده) كانوا يملأون للحجيج حياضاً من الماء ليشرب الناس .

٥ . الرفادة : وهي إطعام الحجاج وضيوف بيت الله .

وكان قُصي قد فرض على قريش خرجاً يخرجهُ الموسعون من أموالهم فيصنع به طعام للحجاج .

أبناء قُصي :

وكان لقُصي رئاسة كل هذا في حياته ، وأوصى بأن يؤول كل هذا إلى ابنه الأكبر " عبد الدار " رغم شرف وسيادة ابنه عبد مناف " الجد الرابع لرسول الله ﷺ

وظل الحال هكذا حتى هلك عبد الدار ، وهلك عبد مناف ، فنازع بنو عبد مناف أبناء عمومته على هذه المناصب ورأوا أنهم أحق بها وكادت تقوم حرب بينهم تأكل الأخضر

واليابس وتقضي على قریش بأكملها . إلا أنهم تداعوا إلى الصلح واقتسموا المناصب بينهم ، فكانت السقاية والرفادة لبني عبد مناف .

وبقيت الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار ، وظلت كذلك حتى جاء الإسلام وكان أبناء عبد مناف: هاشم " الجد الثالث لرسول الله ﷺ " ، المطلب ، شمس ، نوفل .

هاشم

كان أكثر أبناء عبد مناف شرقاً وسيادة ، وكان مؤسراً فكان له السقاية والرفادة .

مآثر هاشم :

١. كان شديد الكرم والعطاء فلم يقتصر برُّه بزوار بيت الله الحرام بل امتد إلى أهل مكة ، فكان يأتي بهم ويضع لهم الطعام ويثرد لهم الثريد . كان اسمه عمرو فما سُمي هاشماً إلا لهشمه الخبز . أي أنه كان يهشم الخبز بكثرة ليصنع منه الثريد
٢. على الصعيد الاقتصادي : فهو أول من سن لقریش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .
٣. على الصعيد السياسي : عُقدت في عصره عدة معاهدات أمن وسلام مع الامبراطورية الرومانية ومع النجاشي " الحبشة " ومع الحُميريين في اليمن وهو ما جعل قریش تجوب في تلك البلاد في أمن وطمأنينة .
٤. ازدهرت مكة وسمتْ مكانتها بفضل حكمة وبعد نظر هاشم حتى أصبحت العاصمة المعترف بها لجزيرة العرب .

منافسة أمية لهاشم :

وظل الأمر كله لهاشم لا يفكر أحد في منافسته حتى خُيل لابن أخيه أمية ابن عبد شمس " أمية الأكبر " أنه بلغ مكاناً يسوغ له هذه المنافسة لكنه غلب على أمره ، وكان الحكم عليه بتترك مكة إلى الشام لعشر سنوات ، وسنلاحظ أثر هذا الحادث في سيرة النبي ﷺ وما كان له من عداوة وحقد غير مبرر من بني أمية على رسول الله ﷺ لا لشيء إلا أنه من بني هاشم .

زواج هاشم :

وفي أحد أسفاره خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم يثرب تزوج من سلمى بنت عمرو الخزرجية وهي من بني النجار ، وقد أعجب هاشم بها ولكنها بقيت بيثرب وهو يروح ويجيء عليها ، وولدت له ولداً ودعته شيبية . لوجود خصلة بيضاء في مقدم رأسه . ومات هاشم في أحد أسفاره ودُفن بغزة .

المطلب :

لما مات هاشم تولى أمر مكة والكعبة أخوه المطلب ، وكان أصغر من أخيه عبد شمس ولكنه كان ذا شرف وفضل في القوم وكانت قريش تُسميه " الفيض " لسماحته وكرمه ، إلا أنه لم يُرزق من العيال ، فلما كبر في السن فُكّر في ابن أخيه هاشم فذهب إلى يثرب يستأذن من أمه سلمى أن يأتي معه إلى مُلك أبيه وإلى حرم الله فأذنت له .

فلما قدم به إلى مكة وقد أُرِدِف الفتى (شيبية) على بغيره ، فظن الناس أنه عبد جاء به فتصايحت : عبد المطلب عبد المطلب .. فقال لهم المطلب : وَيَحْكُم إنما هو شيبية ابن أخي هاشم قدمْتُ به من يثرب . إلا أن هذا اللقب غلب على الفتى فدُعي به ونسى الناس اسم شيبية الذي دُعي به منذ وُلد .

عبد المطلب

دخل هذا الفتى " عبد المطلب " إلى مكة مع عمه وهو لا يعلم أنه سيكون جداً لخير خلق الله وما سيكون له من شرف عظيم . ولما مات المطلب وكان قد أوصى بالرياسة إلى ابن أخيه عبد المطلب ، فلما آلت إليه وثب عمه نوفل عليه وأراد اغتصاب الرياسة منه ، فطلب النُصرة من أخواله من بني النجار فوجدوه في ثمانين راكباً ومكَّنوه من الرياسة ، فكانت له سيادة قريش مع السقاية والرفادة للحجيج .

من مآثر عبد المطلب :

كان من أهم مآثر عبد المطلب : إعادة حفر زمزم ، ووقعة الفيل .

١ . إعادة حفر زمزم :

تولى عبد المطلب أمر الكعبة من سقاية ورفادة ، وظل كما كان جده قصي يجمع من أغنياء مكة للمساهمة في إطعام زوار بيت الله .

أما السقاية فكانت همه الأكبر ، فراح يصنع أحواضاً بفاء الكعبة ويملؤها بماء من آبار خارج مكة ليشرب الحجيج ، وكان هذا الأمر فيه مشقة بالغة وعناء كبير . وهو ما كان يشغل فكر عبد المطلب خاصة وأن أعداد الحجيج في تزايد عاماً بعد عام . فما عساه أن يفعل في العام القادم ؟

البشارة تأتي عبد المطلب :

وفي ذات يوم وهو في غمار هذه الأفكار نام فرأى في منامه من أتاه فقال له : احفر طبيه ، فقال عبد المطلب : وما طبيه ؟ ثم أفاق من نومه .

وفي الليلة الثانية أتاه نفس الآتي وقال : احفر برة^(١) . لكنه لم يبين له ماهيتها . وفي الليلة الثالثة أتاه الهاتف وقال : احفر زمزم ، وما زمزم يسأل عبد المطلب . فجاءته الإجابة هذه المرة : زمزم التي لا تنزف أبداً ولا تُرم ، تسقي الحجيج الأعظم .

(١)-البداية و النهاية لابن كثير .

وَبَيَّنَ الهاتِف له مكانها ومن علامتها أنه يرى غراباً ينقر هناك . وكانت الروايات المأثورة تروي قصة جدِّهم إسماعيل وزمزم وما حدث لها ، لكن لا أحد يدري أين هي ؟ وفي الصباح استيقظ عبد المطلب وأخذ ابنه الوحيد آنذاك الحارث ، وذهب إلى المكان الذي وُصف له وهناك رأى غراباً ينقر الأرض فعرف إنها هي وتصادف وجودها بين تمثالي إساف ونائلة .

فبدأ الحفر بمعونة ابنه فارتطم معوله بالحجارة التي كانت البئر قد طمرت بها

قريش تعترض :

فما كان من أشرف مكة إلا أن اعترضوا ورأوا ألا يكمل هذا الحفر حسداً منهم أن يكون هذا الشرف لعبد المطلب وحده ، ولكنهم وجدوا أذكاراً لموقفهم مثل : ألا يكون الحفر بجوار إساف ونائلة وهي من أكبر آلهتهم .

ومثل هذا للأسف الشديد هو ما يحدث في أيامنا هذه ، فما أن يبدأ إنسان في عمل أو مشروع لنهضة الأمة إلا وتجد كل من في نفسه غرض ما ، يعمل بكل جد ليقف هذا الخير حقداً أو حسداً ، وغالباً ما يكون هناك من الأسباب الظاهرة ما لها من وجهة ولكنها تخفي حقداً دفيناً ، لعل الله يشفي صدورنا وعقولنا من هذا .

المعجزة تؤيد عبد المطلب :

فلما احتدم الخلاف بين عبد المطلب وأهل قريش ، فكان الرأي أن يحتكموا إلى كاهنة بالشام فخرجوا طالبين الكاهنة وإذا هم بالطريق والمسافة طويلة إذ نفذ الماء حتى أشرفوا على الهلاك ، فظلوا في أماكنهم ثم قرروا الاستمرار في السير لعلهم يجدوا ماءً . وركب كل واحد منهم راحلته وسار ؛ فلما ركب عبد المطلب راحلته ليسير بها ، انفجر الماء من تحت أقدامها فكبروا جميعاً وشربوا حتى ارتووا .

وقالوا لعبد المطلب : إن الذي سقاك بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فلن نخاصمك فيها أبداً . وعادوا ليكمل عبد المطلب حفر زمزم ، ولما عمق الحفر وجد فيها غزالتين من

ذهب وأسياقاً وأدرعاً (هو ما كانت جُرهم قد دفعتها بالبئر عند خروجها من مكة على يد خزاعة) .

فلما رأَت قريش ذلك تنازعوا فيها ، ثم استقر الرأي على ضرب القداح عليها . أي عمل قرعة . فخرج الغزالان للكعبة والأسياف والأدرع لعبد المطلب ، ولا شيء لقريش ، فضرب عبد المطلب الأسياف والأدرع باباً للكعبة وضرب في الباب الغزالتين من الذهب ، فكان ذلك أول حلية ذهب تزين بها الكعبة .

وأقام حوضاً للماء حول زمزم لسقاية الحجيج والناس كلهم .

نذر عبد المطلب :

كان لهذا الحدث أثر كبير في نفس عبد المطلب أن لو كان له من الأولاد ما يكفي لما منعه واستطاع حفر البئر من دون اعتراض ، فنذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور يمنعونه ويشدون أزره ليذبحن أحدهم قرباناً لربه .

ومرت السنون وولد له بنون فلما اكتملوا عشرة جمع أبناءه وأخبرهم بنذره وسألهم عونهم على الوفاء بنذره ، فكان الرأي بالاحتكام إلى القداح (القرعة) فخرج القداح على ابنه عبد الله وكان أصغرهم وأحبهم إليه ، فأخذه بيده ليذبحه .

فداء عبد الله :

فلما علمت قريش بهذا استنكروا عليه ما ينتوي فعله ، خاصة وأن عبد الله كان شاباً وسيماً ، هادئاً محبوباً بين الناس حتى أن بعضهم عرض عليه أن يأخذ أحد أبنائه مكانه لكنه رفض ، فعرضوا عليه الاحتكام إلى عرافة بالحجاز لعلمهم يجدون عندها مخرجاً ، فلما جاءوها وقصوا عليها ما حدث سألتهم : كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل .

فقالت : ارجعوا إلى بلادكم ثم قَرَّبوا صاحبكم وقَرَّبوا عشراً من الإبل ثم اضربوا القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا الإبل حتى يرضى ربكم فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم بالإبل عوضاً عنه ، فعادوا إلى مكة وفعلوا ما نصحت به ، وضربوا

القداح فخرج القداح على عبد الله فزادوا الإبل عشراً ولم يزلوا يزيدون عشر عشراً ويخرج القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة ، ثم ضربوا القداح فخرج على الإبل فذبحوها وتم فداء عبد الله بمائة من الإبل . كما كان فداء جدهم إسماعيل بذبح عظيم .

لذلك روي عن رسول الله لا أنه قال ﷺ " أنا ابن الذبيحين " (١) يعني جده إسماعيل وأباه عبد الله .

زواج عبد الله :

فرح عبد المطلب كما فرحت قريش لنجاة ابنه عبد الله ثم زوجه من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهي أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً فأبوها سيد بني زهرة ، ولما تم الزواج أقام عبد الله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام . على عادة العرب .

ثم انتقل بعدها إلى منازل بني عبد المطلب التي لم يقيم فيها إلا شهراً وخرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملاً ... في خير خلق الله الحبيب المصطفى ﷺ .

مرض عبد الله ووفاته :

وأثناء عودته مر بيثرب وهناك مرض مرضاً شديداً فتخلف عند أخواله بني عدي بني النجار فأقام عندهم شهراً ومضى أصحابه فوصلوا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فأخبروه بمرضه ، فبعث إليه ابنه الأكبر الحارث فوجده قد توفي ودفن وهو ابن الخامسة والعشرين من عمره .

فرجع إلى أبيه فأخبره وانتشر الخبر مقبضاً مؤلماً كالحريق فحزن عليه هو وإخوته . وما أن وصل الخبر إلى زوجته آمنة حتى انكفأت تبكي وخاصة لما أدركت أنها حامل ، فبكت لنفسها وللجنين الذي مات أبوه قبل أن يولد .

(١)-المستدرك على الصحيحين للحاكم حديث ٣٩٧٠ إسناده ضعيف

ولم تكن آمنة تعلم أن هذا الجنين الذي يتحرك في أحشائها سيكون رحمة مُهداة للعالمين ، سيكون رسول الله وخاتم المرسلين ، وهكذا كتب على رسولنا الكريم ﷺ أن يكون يتيماً من قبل أن يولد .

هذا ما كان من أمر حفر زمزم وما تبعه من نذر عبد المطلب . أما الأثر الثاني لعبد المطلب فهو وقعة الفيل .

٢ . وقعة الفيل :

كان أبرهة حاكماً حبشياً لليمن ، في الفترة التي خضعت فيها اليمن للحبشة بعد طرد الحاكم الفارسي منها ، وكان قد بنى كنيسة كبيرة في اليمن وكانت لها كل أسباب الواجهة ، وكانت نيته صرف العرب عن البيت الحرام بمكة ، إلا أن البيت الحرام هو ما تهوى إليه أفئدة الناس تلبية لدعوة إبراهيم ، فلم ينصرفوا عن البيت الحرام إلى كنيسته .

الهجوم على الكعبة لهدمها :

فما كان من أبرهة إلا أن قرر هدم البيت الحرام حتى لا يكون هناك غير كنيسته يحج الناس إليها ، فأعد جيشاً كبيراً عدته ٦٠ ألف جندي مُدججين بالسلاح يتقدمه فيلٌ كبير ، ويضم إليه مجموعة من الفيلة العظيمة الشرسة ، وزحف أبرهة في جيشه العظيم يهدم كل شيء في طريقه إلى الكعبة . ولم يجد مقاومة تُذكر بل كان الخوف والفرار لكل من قابلهم ، ووصل إلى الطائف ولما عزم على هدم بيت اللات ظناً منه أنه الكعبة ، فما كان من أهلها إلا الولاء والخضوع ودلوه على البيت الذي تهوى إليه قلوب العرب جميعاً ، والذي يربط بينهم وإن اختلفوا في الآلهة التي يعبدونها .

فلماً وصل إلى مكة استولى على ما في مراعيها من إبل وغنم ، ومن بين ما أصاب مائتاً بغير كانت لعبد المطلب ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، وهمت قريش ومن حولها من قبائل للدفاع عن الحرم ، لكنهم لما عرفوا أنهم لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده تركوا الأمر كذلك .

للبيت ربّ يحميه :

ولما وصل أبرهة إلى مكة بعث رسوله يحمل رسالة تقول : أنه لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم البيت ، فإذا كان سيد هذا البلد لا يريد حرباً فليأتوا به إلى الملك .

فلما بلغت الرسالة عبد المطلب قال : والله ما نريد حربه وما لنا من طاقة به . فانطلق الرسول مع عبد المطلب إلى أبرهة وكان لعبد المطلب وسامة وجمال وعظمة كما كانت له هيبه واحترام ، فلما رآه أبرهة أحس بهذا الاحترام ونزل عن سريه وجلس على بساط وأجلس عبد المطلب إلى جواره ودار بينهما هذا الحوار التاريخي عبر الترجمان :

أبرهة : ما حاجتك ؟

عبد المطلب : حاجتي أن تُرد عليّ مائتي بعير أصابها لي .

أبرهة متعجباً : أتكلمني عن مائتي بعير وتترك بيتاً هو دينك ودين آباءك وأجدادك جئت لهدمه ولا تكلمني فيه ؟

عبد المطلب في ثقة كاملة : أنا رب الإبل ، أما البيت فللبيت ربّ يحميه .

أبرهة : لن يحميه مني .

عبد المطلب : أنت وذاك .

انتهى الحوار وأعطى أبرهة عبد المطلب ما اغتصبه من الإبل ، وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم بما حدث ونصحهم بالخروج من مكة إلى كهوف الجبال .

وخلت مكة من سكانها ووقف عبد المطلب ممسكاً بحلقة باب الكعبة وبدأ يدعو الله أن يحمي بيته ، وكان توجه عبد المطلب هنا لله وحده الذي يجيب المضطر إذا دعاه^(١) .

مواجهة جيش أبرهة مع جند الله :

فلما كان الصباح تهيأ أبرهة لدخول مكة وبدأت الحرب بين جيش أبرهة العرمم وبين جند الله ، أمر أبرهة جيشه بالتحرك تتقدمه الفيلة وأمر الله الفيلة أن تجمد في مكانها فأطاعت أمر الله .

(١) - وردت في السيرة النبوية لابن هشام .

انهالت السياط على الفيلة فلم تتحرك وثقلت في الأرض أكثر وأكثر ، عجب أبرهة ، لماذا لم يتحرك الجيش ؟ وازداد عجبه لما رأى الفيلة لا تتحرك في اتجاه مكة ، أما إن دارت بوجهها إلى الطريق المعاكس فهي تسير مسرعة .

وهنا أمر الله سبحانه وتعالى قواته الجوية " طيراً أبابيل " بالهجوم على جيش أبرهة المغرور الذي لم يقهر ، وبدأت الطيور ترمي حمولتها من الذخيرة التي كانت أحجاراً صغيرة قدر حبة الحمص أو العدس ولكنها لها من الأثر المدمر ما يعادل آثار قنبلة ذرية .

فكان الحجر لا يصيب أحداً إلا حرقه وكأنما انفتحت نافذة من نوافذ الجحيم ، والطير تقصف الجيش بحجارة من سجيل . انكفاً أبرهة وجنوده عائدين ولحمهم يتساقط في الطريق ومات أبرهة وانهزم جنده .

وهو ما وصفه الله تعالى في قوله : ﴿ **الْمَ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ① **الْمَ** ②

يَجْعَلُ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ③ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ④ **تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ**

⑤ **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ⑤ ﴿ [الفيل ٥ : ١]

فكان هذا النصر العظيم لجند الله على أبرهة ، وهو ما زاد البيت تشريفاً وتعظيماً ، وأصبح العرب بعد ذلك يؤرخون بعام الفيل .

وكانت هذه المعجزة الإلهية لتهيء الأرض لاستقبال أهم حدث في التاريخ وهو قدوم خير خلق الله الحبيب المصطفى الذي كان مولده خمسون يوماً بعد وقعة الفيل .

ميلاد النبي ﷺ

مرت أيام الحمل على آمنة في لطف ويسر ، فقد رُوي أن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ قالت : " فما وجدت له مشقة " (١) ولم تشعر بألم أو أي عرض مما يحدث للنساء في أيام الحمل حتى وضعته .

فكان مولده ﷺ في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من عام الفيل (٥٧٠ ميلادية) وهو ما اتفق عليه الجمهور وإن كانت هناك آراء أخرى .

وحيث إن الحدث جَلل والمولود عظيم ، فكان لمولده مبشرات وكرامات :

• فقد رأت أمه في منامها أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، ولما

وضعته قالت : " خرج مني نور أضاء ما بين المشرق والمغرب " (٢) .

• ورُوي أن لحظة مولده سقطت ١٤ شرفة من إيوان كسرى ، وخدمت النار التي

يعبدها المجوس وهي لم تخدم بألف عام ، كما غاصت بحيرة ساوه ،

- وهي بحيرة مقدسة لهم - (٣)

• أما قابله " الشفاء أم عبد الرحمن " فيروي أنها حين استقبلته وسقط على

يديها سمعت قائلاً يقول : " يرحمك الله "

• ومما رُوي (٤) عن حسان بن ثابت أنه قال : " إني لغلام يفعة ابن سبع سنين

أعقل ما رأيت وسمعت ، إذ يهودي في يثرب يصرخ ذات غداة : يا معشر اليهود . فلما

اجتمعوا إليه قال : قد طلع نجم أحمد الذي يُولد به في هذه الليلة" .

(١)- البداية و النهاية ص ٣٨١

(٢)-رواة أحمد عن العرياض بن سارية .

(٣)-روى ذلك الطبري و البيهقي ، وليس له إسناد ثابت .

(٤)-السيرة النبوية لابن هشام .

فرح عبد المطلب بالمولود :

فلماً علم جده عبد المطلب بمولده ﷺ فرح فرحاً شديداً وذهب إلى آمنة فلما أخبرته بما رأت قال : إن ابني هذا سيكون له شأن عظيم ، وسماه محمداً وهو اسم لم يكن مألوفاً عند العرب ، ولما سئل عبد المطلب عن سبب تسميته بهذا الاسم قال : ليكون محمداً في الأرض ومحموداً في السماء .. أي يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض .

مرحلة الطفولة

• مرضعه وحواضنه ﷺ :

ونال شرف إرضاع النبي بعد أمه آمنة بنت وهب " ثوية " جارية أبي لهب بن عبد المطلب أرضعته مع ابنها " مسروح " وكانت بركة " أم أيمن " تحضنه وهو في بيت أمه آمنة .

حليمة السعدية :

إلا أن أشهر من أرضعته هي حليمة بنت أبي ذؤيب من قبيلة بني سعد "حليمة السعدية" ، وقد كان من عادة أشرف مكة أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً بهم عن أمراض الحواضر ولتقوى أجسامهم ، وكانت حليمة السعدية قد قدمت إلى مكة في عشر نسوة من بني سعد يلتمن بها الرضعاء .. وكان عام جذب وجفاف وقد جاءت على ناقه مُسنة ومعها صبي لها قد لا يجد في ثديها قطرة لبن تبل ريقه ومعها شاة مُسنة عجفاء ، لذلك جاءت متأخرة عن صويحباتها وعلمت أن مولود عبد المطلب قد عُرض عليهن جميعاً فكنن يتركه إذا علمن أنه يتيم ويأخذن رضيعاً غيره .

فلما وصلت حليمة ولم يبق من الرضع إلا هذا اليتيم مولود عبد المطلب كادت هي الأخرى تفعل مثل صويحباتها وتتركه ، إلا أنها قالت لزوجها الحارث بن عبد العزي : والله إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع . لأنطلقن إلى ذلك اليتيم ولأخذنه .

وما أن وقعت عيناها على هذا اليتيم إلا وامتلاً قلبها حباً له ، وهي لا تعلم أن هذا الطفل اليتيم هو الرحمة التي أرسلها الله للناس أجمعين .

الرحمة تنزل على حليلة :

فما أن حملته إلا وامتلاً ثديها الجاف بلبن غزير فشرب حتى روي وأرادت أن تعطيه ثديها الآخر فرفض وكأنه يريد أن يدخره لأخيه فشرب هو الآخر حتى روي ، وبدأت رحلة العودة إلى بني سعد فإذا بالشاة الجذباء وُجد ضرعها مملوئاً باللبن فحلب زوجها وشرب وشربت حليلة حتى ارتويا .

وإذا بالناقة المسنة تجري وتسبق من خرجوا قبلها وإذا صواحبها يتعجبون ويقلن : ويلك يا بنت أبي ذؤيب أهذه ناقتك التي خرجت عليها معنا ؟ فتقول: نعم والله إن لها شأنًا عظيمًا .

وعند وصولهم أرض بني سعد إذا بالأرض الجذباء ينهمر عليها الماء فتصبح مخضرة وبها خير كثير .

ولندع حليلة تروي لنا بعضاً من بركة رسول الله ﷺ عليها وعلى أهلها إذ تقول : " كانت غنمي لتسرح وتروح شباعة فتحلب لبنة ما شئنا وما حولنا أحد يحلب قطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعا حتى أنهم ليقولون لرعاتهم : ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم فيسرحون مع غنمي حيث تسرح ، فتروح أغنامهم جياعا وتروح أغنامي شباعا " .

فهم لا يعلمون أنها تحمل الرحمة المهداة من رب العالمين ﷺ .

رسول الله ﷺ عند سن سنتين :

وظل رسول الله ﷺ في بني سعد وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلما بلغ السنيتين من عمره وكان غلاماً قوياً - كما تروي حليلة - كان ميعاد الفطام وعودته إلى أمه ولكن هل يُفطر في مثل هذه البركة وهذا الخير ؟ فذهبت حليلة به إلى أمه وهي

أحرص على مُكثته معهم فكلمت أمه وقالت : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ فإنني أخشى عليه وباء مكة ... فوافقت أمه وردّته معها .

رسول الله ﷺ ؛ سنوات . حادثة شق الصدر :

وعاد رسول الله ﷺ مع حلّيمة وظلت ترعاه مع ابنها عبد الله وابنتها الشيماء ، إخوان رسول الله ﷺ في الرضاعة .

ولما بلغ سنّ الرابعة حدث له حادث أفرع الجميع . ففي يوم من الأيام إذا بحلّيمة تجد ابنها عبد الله يأتي مسرعاً فزعاً أماه ... أماه أخي محمد القرشي قُتل . أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجت حلّيمة وزوجها مسرعين نحوه فوجداه قائماً مُمتنع اللون . أي متغير اللون . فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان .

ورُوي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : " إن جبريل أتاه وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشقّ عن قلبه واستخرج منه علقة سوداء وقال : هذا حظ الشيطان ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم ثم لأمه . أي جمعة وضم بعضه إلى بعض ، ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه . أي حلّيمة . فقالوا : إن محمداً قد قُتل فاستقبلوه وهو مُمتنع اللون " قال أنس : " وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ " (1)

في أحضان أمه الحنون :

ألقت هذه الحادثة بظلالها على حلّيمة وزوجها ، فبعد أن أخذاه وعادا به إلى بيتها . قال زوجها : يا حلّيمة لقد خشيت أن يكون الغلام أصابه الجن . فانطلقني بنا نرده إلى أمه . قبل أن يحدث له ما نخشاه . فاحتملاه وقدا به إلى أمه . فلما رأتهما قالت : ما شأنكما ؟ فأخبارها بما حدث ، فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ؟ فلا والله ما للشيطان عليه من سبيل . وظل رسول الله ﷺ مع والدته تُظله بحنانها حتى بلغ ست سنوات .

(1)- صحيح مسلم ص ١٦٢ ، حديث صحيح

رسول الله ﷺ في ٦ سنوات . وفاة أمه آمنة:

رأت آمنة وفاءً لذكرى زوجها الراحل ، أن تزور قبره بيثرب فأخذت رسول الله ﷺ وخرجت إلى يثرب ومعها أم أيمن . ولا شك أن عبد المطلب أرسل معها بعضاً من محارمها يحرسونهم وقضى رسول الله ﷺ شهراً مع أخواله وزار مع أمه قبر والده الذي لم يره . وفي طريق العودة وعند الأبواء إذا بآمنة تمرض مرضاً شديداً وتفارق الحياة ماتت آمنة..... .

وأى خسارة يتكبدها المرء بوفاة أمه ، فاليتيم الحقيقي هو ما يشعر به الإنسان إذا ما فقد الأم الحنون ، وأصبح رسول الله ﷺ يتيم الأب والأم .
ماتت الأم وتركت وحيدها مع أم أيمن . خادمتها . وعاد الحبيب وحده دافع العين ، باكي القلب . قد أدرك نضجه بعد أن صهرته أحزان الحياة .

في كفالة جده عبد المطلب :

عاد رسول الله ﷺ إلى مكة وجسمه الصغير يحمل هم اليتيم كاملاً ، وهو ما زاد من إعزاز عبد المطلب إياه حيث كانت مشاعر الحنو تربو نحو حفيده اليتيم ، فكان يؤثره على أولاده .

فقد روي : أنه كان لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه . يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد منهم ، إجلالاً له ، فكان رسول الله يأتي وهو غلام ليجلس على الفراش فيمنعه أعمامه فيقول عبد المطلب : دعوا ابني هذا . ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده .

رسول الله ﷺ ٨ سنوات . وفاة عبد المطلب :

كان في معاملة عبد المطلب تخفيف من الأحزان على رسول الله ﷺ إلا أنها لم تتم طويلاً ، فبعد وفاة أمه بعامين ، إذا بركن كبير وسند عظيم يموت .. مات جده وهو في الثامنة من عمره .

وسار الصبي وراء نعش جده صامتاً ، صلباً ، حزيناً ، في دموعه الصابره .

تُرى ما الحكمة الإلهية من حرمان رسول الله من عطف الأب وحنان الأم ثم رعاية

الجد ؟ فقد قال الله عز وجل مخاطباً نبيه موسى : **" وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي "** [طه :

٤١] ورغم ذلك لم يحرمه من حنان الأم وعاش وسط أسرته . ففعل الله شاء أن يحرم آخر

رسله من الحنان البشري لِيُؤَثِّرَهُ بِالْحَنَانِ الإلهي والحب الإلهي والتربية الإلهية ؟ فقد رُوي

عن رسول الله ﷺ أنه قال : **" أدبني ربي فأحسن تأديبي "** (١).

مر هذا الحدث الجلل وكان عبد المطلب قد أوصى ابنه أبا طالب . الأخ الشقيق لعبد

الله والد النبي ﷺ أن يرعى ابن أخيه حال وفاته ، وانتقل رسول الله من بيت جده عبد

المطلب إلى بيت عمه أبي طالب ومشاعر الحزن واليتم تملأ قلبه . فقد سئل رسول الله

بعد بعثته : ما طريقك؟؟ قال : **" المعرفة رأسمالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ،**

وذكر الله أنيسي ، والحزن رفيقي " (٢).

في كفالة عمه أبي طالب :

لم يكن أبو طالب أكبر إخوته سناً ، ولا أكثرهم مالاً ، لكنّه كان أمثلهم وأكرمهم في

قريش مكانة واحتراماً ، وهو ما جعل عبد المطلب يعهد إليه بكفالة رسول الله ﷺ وكان عند

حُسن ظنّ والده به ، فقد أحبّ رسول الله ورعاه ، وكان يُقدمه على أبنائه ، وكان يجدّ فيه

من النّجابه والذكاء والبرّ وطيب النّفس ما يزيدُهُ به تعلقاً .

رسول الله ﷺ ١٢ سنة . رحلة الشّام الأولى :

لما بلغ رسول الله ﷺ اثني عشر سنة ، خرج أبو طالب في تجارة إلى الشّام واصطحب

معه ابن أخيه ، وكانت هذه الرّحلة في صيف حار والسّماء صافية لا غمام فيها ، أمّا

رسول الله ﷺ فكانت تُظلّه غمامة على طول الطّريق .

(١)- حديث ضعيف ولكنه صحيح المعنى .

(٢)- ذكره القاضي عياض في الشفاء وقال عنه العراقي أنه موضوع لا أصل له .

الراهب بحيرى :

فلما وصل الركبُ إلى بصرى فإذا براهبٍ يُقالُ له بحيرى رأى هذا الركبَ وتُظله غمامة
مُثيرة للدهشة ، فإذا ما تحرك الركبُ تحركت معه ، وإذا ذهب إلى ظل شجرةٍ فإذا العمامة
تتفَشع .

فَعَلِمَ أَنَّ فِيهِمُ الرَّسُولَ وَالنَّبِيَّ الْمُنْتَظَرَ الْمَذْكُورَ فِي كِتَابِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى
الدُّخُولِ فِي دِينِهِ وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ مِنْ قَبْلِ ، فَدَخَلُوا جَمِيعًا وَاسْتَأْذَنَ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ
ثُمَّ دَارَ بَيْنَهُمَا الْحِوَارِ التَّالِي :

بحيرى : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى أن تُخبرني عما أسألك عنه. كان يُريد أن
يَعْرِفَ مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْثَانِ قَوْمِهِ وَأَصْنَامِهِمْ .

رسول الله ﷺ : لا تسألني باللات والعزى شيئاً ... فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطُّ
بُغْضَهُمَا .

بحيرى : بم أستحلفك إذا ؟

رسول الله ﷺ : بالله وحده .

راح بحيرى يسأل رسول الله ﷺ عن أسرته ومكانته في قومه وأحلامه وآرائه ، فتأكد
أنه أمام الرسول المنتظر ولما رأى خاتم النبوة زاد تأكده ويقينه . ثم نهض إلى أبي طالب
يسأله : ما هذا الغلام منك ؟ قال أبو طالب: إنه ابني ، فردَّ عليه بحيرى : ما ينبغي أن
يكون أبوه حياً ، فقال أبو طالب : إنه ابنُ أخي مات أبوه وأمه حاملٌ به . فقال له : اذهب
بابن أخيك هذا فإنه سيكون له شأنٌ عظيم ، ونصحه ألا يغفلوا به في بلاد الشام خوفاً عليه
من اليهود . فبعثه عمه مع بعض غلمانِه إلى مكة

مرحلة الشباب

شبابه حتى العشرين:

- شبَّ رسولُ الله ﷺ يحفظه الله برعايته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، فكان أفضلَ قومه مُروءةً وأحسنهم خلقاً ، وأصدقهم حديثاً وأشدَّهم أمانةً حتى أسَمَوْهُ "الصَّادِقَ الأَمِينِ" .
 - كان لا يقوم بما يقوم به الشبابُ في سنِّه من لعبٍ ولهو . بل كان كثيرَ الصَّمْتِ قليلَ الكلام ، دائمَ الفِكرِ والتأمُّل ، ولم يكنْ قانعاً بما فيه أهلهُ من وثنيةٍ غرِقُوا فيها ، فلم يستلِّم صنماً قطَّ أثناء طوافه بالكعبة ، وكان لا يشهدُ مَشاهدَ القومِ ولا يحضُرُ أعيادهم وما بها من طُغوسٍ وثنيةٍ إلا أنه كان يقفُ بعرفاتٍ أيَّامَ الحجِّ بالجاهلية .
 - وقد اشتغل راعياً للغنم ، وهو ما اشتغل به معظم أسلافه من الأنبياء والرُّسل ، ففيها ما يُهيء المرءَ للتفكُّر والتأمُّل ، فكان يرعى غنمَ أهله وأهل مكة ، وكان يذكرُ إياها مُعْتَبِطاً ، وكان يقول : " ما بعثَ اللهُ نبياً إلا راعي غنم " ويقول : " بعثَ موسى وهو راعي غنم ، وبعثَ داؤد وهو راعي غنم ، وبعثتُ أنا رعى غنم أهلي بأجباد " (١) .
- وهكذا سمَّا بنفسه ورُوحه عن كل ملذاتِ الحياة ، وجعلَ القدرَ يُوجِه نفسه منذ نُعومة أظفاره الوجْهة التي تُهيئهُ لذلك اليوم العظيم ، حين دعاهُ ربُّه لتبليغ رسالته ، رسالة الهدى والحقِّ للناس كافةً .

رسول الله عشرون سنة. حرب الفجار :

وسُميت بحرب الفجار لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها وخلاصتها : أن حرباً وقعت بين قريش وكنانة من ناحية وبنو قيس وعيلان من ناحية . ودامت هذه الحرب سجالاتاً بين الطرفين إلى أن تداعوا إلى الصلح على أن يُحصوا قتلى الفريقين ، فمن وُجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فاصطلحوا على ذلك ووضعوا الحرب . وكان رسولُ الله ﷺ في العشرين

(١) - الحديث بهذه الرواية ورد في كنز العمال

- " ما بعث الله نبياً إلا راعي الغنم ، فقال الصحابة ، و أنت يا رسول الله ، قال : نعم ، كنت أرهاها على قرابط لأهل مكة (البخاري) .

من عمره لما قامت هذه الحرب وكان ينبل على عُمومته . أي يُجهز لهم النبل للرّمي . ويردّ عنهم نبل عدّوهم .

حِلْفُ الْفُضُولِ :

على أثر هذه الحرب وما شَعَرْتُ بِهِ قُرَيْشٌ بما أصابها من تَفَرُّقٍ قَدْ أَطْمَعَ فِيهَا الْعَرَبُ فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ عَلَى الظالمِ حَتَّى يُؤَدَى إِلَيْهِ حَقُّهُ .

ويُقالُ إن سَبَبَ هَذَا الْحِلْفِ : أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ مَكَّةَ بِبِضَاعَةٍ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ الْعَاصِ بْنِ وائِلٍ وَأَخَذَهَا وَلَمْ يَدْفَعْ ثَمَنَهَا ، فَلَجَأَ الرَّجُلُ إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَمَخْرُومٍ وَعَدِيٍّ فَأَبَوْا أَنْ يَنْصُرُوهُ . فَلَمَّا لَجَأَ إِلَى قُرَيْشٍ مَسْتَجِدًّا بِهِمْ اجْتَمَعَ بَنُو هَاشِمٍ وَزَهْرَةَ وَتَيْمَ بْنَ مِرَّةٍ إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ فَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ حَتَّى يُؤَدَى إِلَيْهِ حَقُّهُ ، وَقَامُوا إِلَى الْعَاصِ بْنِ وائِلٍ فَانْتَزَعُوا مِنْهُ حَقَّ هَذَا الرَّجُلِ ، فَقَالَ النَّاسُ : لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلِ مِنَ الْأَمْرِ فَسُمِّيَ " حِلْفُ الْفُضُولِ " .

وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف، وروي عنه أنه قال: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت " (١).

رسول الله ﷺ وسنه ٢٤,٥ سنة . خديجة بنت خويلد :

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى (أخو عبد مناف) فهي تلتقي مع رسول الله ﷺ عند جدّه الخامس " قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ " ، وكان ورقة بن نوفل - ابن عم خديجة - أحد أربعة نفر أصدقاء من رجال قريش وهم : ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ، عم عمر بن الخطاب . وعثمان ابن الحويرث وعبد الله بن جحش . وهؤلاء الأربعة لم يرضوا عما كان حول الكعبة من أصنام يعبدها الناس . وقالوا : لقد أخطأ الناس دينَ أبيهم إبراهيم فالتمسوا لأنفسهم ديناً آخر ، وبعد بحثٍ طويلٍ تنصروا .

(١) -رواه البيهقي من حديث طلحة بن عبد الله بن عوف وورد في سيرة ابن هشام [١/١٣٣] .

يتضح من هذا أن خديجة بنت خُوَيْلِد كانت من أَعْرَقِ نساء قَرِيْشِ نسباً وأَعْلَاهِمِ حسباً ، نَبَتْ في بيتٍ مُلتزم بالأخلاق الفاضلة ومعروفٍ بالتدَيّنِ والبُعدِ عما يفعله العُرْشِيِّينَ .

وقد تزوجت خديجة مرتين من بني مخزوم وكانت من أوفر أهل مكة غنى ، وكانت تُعْرَف بحسُن سيرتها وجمال خُلُقها حتى أُطلقَ عليها لقب "الطاهرة" ، وتقدم الكثيرون لخطبتها فكانت ترفض كل من تَقدم إليها من سادات قريش وآثرت أن تتفرغ لرعاية أولادها وأن تُشرف على أموالها وتُتميها بالتجارة ، فكانت تختار للخروج بتجارتها من اشتهر عنهم الصدق والأمانة .

فلما اقترب موعد القافلة المسافرة إلى الشام وكانت تفكرُ فيمن سترسله في تجارتها ، وكانت قد سمعتُ عن رسول الله ﷺ وما يتمتع به من أمانةٍ وكرم أخلاق ، فأرسلتُ إليه وطلبتُ منه أن يخرج في تجارتها وأن تُعطيَه ضعف ما تعطي رجالاً آخرين . وكان رسول الله ﷺ من عادته لا يتخذ قراراً إلا بعد أن يَسْتشير عمه أبا طالب ، فلما قصَّ على عمه ما حدث ، بارك هذا العرض وقال له : هذا رزقٌ ساقه الله إليك .

خروج رسول الله ﷺ في تجارة خديجة :

كان رسول الله ﷺ قد بلغ ٢٤,٥ سنة من عمره عندما خرج مع غلام لخديجة يقال له " ميسرة " وأمرته خديجة ألا يعصى لرسول الله ﷺ أمراً ولا يخالف له رأياً .

وانطلقت القافلة في طريقها إلى الشام ، وفي الطريق الذي مر به رسول الله مع عمه أبي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره وأُحييت هذه الرحلة في نفسه ذكريات رحلته الأولى إلى الشام مع عمه .

واستطاع رسول الله بأمانته وحلو شمائله أن يتاجر بأموال خديجة ويربح ربحاً وفيراً لم يربحه أحد من قبله ، وهو ما جعله يكسب حب واحترام كل من كان معه وخاصة ميسرة ، فلما عاد إلى مكة قصد إلى دار خديجة فأحسنت استقباله وأطلعها على خبر رحلته وما

ريح فيها ، وهي تُنصت مغتبطَةً مأخوذة ، ثم أُقبل ميسرة وقص عليها ما لاحظته من أن الغمام ظله طوال الرحلة ويسير أينما سار ، وكذلك ما رآه من حسن خُلُقهِ ورقة شمائله، وهو ما زادها علماً به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة .

فما كان إلا أن انقلبت غبطتها حباً وهي في الأربعين من عُمرها وهي التي رَدّت من قبل أعظم رجال قريش شرفاً ونسباً ، ففكرتُ في أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته وكلماته إلى أعماق قلبها .

رسول الله ﷺ ٢٥ سنة . الزواج من خديجة :

تحدثت خديجة إلى أختها - على قول - والمشهور أنها تحدثت إلى صديقتها نفيسة بنت مُنيّة ، فذهبت نفيسة إلى رسول الله ﷺ فقالت : ما يمنعك من الزواج ؟ قال : ما بيدي ما أتزوجُ به ، قالت : فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاية ألا تحب ؟ قال : فمن هي ؟ فأجابت بكلمة واحدة : خديجة . قال : كيف لي بذلك ؟ وكان قد أنس هو أيضاً إلى خديجة .

وعادت نفيسة إلى خديجة وطمأننتها إلى رغبة رسول الله ﷺ فيها ، فأرسلت خديجة لرؤيته فلما رأته قالت له : يا ابن العم ، إنني قد رغبت فيك لقربتك وشرفك وحسن خُلُقك ، فعاد رسول الله ﷺ إلى عمّه يستشيرهُ كعادته ، فرحب عمه بهذا الزواج وتحدّد الميعادُ وذهب رسول الله ﷺ مع أعمامه فدخلوا على عمّها " عمرو بن أسد " وابن عمها " ورقة بن نوفل " (١).

وقام أبو طالب وقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، واستطرد يقول: إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمكم خديجة .

(١)-طبقات ابن سعد ص ١٠٥

وهنا وقف ورقة بن نوفل وقال : الحمدُ لله الذي جعلنا كما ذكرتَ وفضلنا على ما عدت ، فأنتم أهلُ ذلك كله ، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا في الاتصال بجلكم وشرفكم فاشهدوا يا معشر قريش إني قد رَوَّجْتُ خديجة بنت خويلد إلى محمد بن عبد الله . وبذلك تم إعلانُ زواجِ رسول الله ﷺ من خديجة بعد أن أُصدقها عشرين بكرة .

وكان رسولُ الله ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك ، وانتقل إلى بيتِ خديجة ليبدأ صفحةً جديدةً في حياته .. حياة الزوجية والأبوة .

الرسول الزوج :

عاش الزوجان عيشة راضية مستقرة ولمست خديجة عن قرب ما يتحلى به زوجها من الإخلاص ونبل العشرة ، وأيقنت أن كلَّ ما سمعته عنه قبل الزواج لم يكن إلا جزءاً يسيراً مما يتحلى به من مكارم الأخلاق .

واستمر رسول الله ﷺ بعد الزواج في ممارسته للتجارة وعهدتُ إليه خديجة بكلِّ أمورها التجارية ، وفي الحقيقة بعد الزواج لم يكن هناك فرق بين مالها وماله . وكان رسول الله ﷺ جواداً كريماً يُكثر من الصدقات للفقراء والمحتاجين ويصل ذوي القربى .

من أمثال ذلك :

بركة " أم أيمن " :

أعتق رسول الله ﷺ حاضنته بركة وكان ورثها عن أبيه وكانت ترعاه وتحضنه بعد وفاة أمه ، وكان يناديها " يا أمه " ، فلما أعتقها تزوجت وأنجبت ابناً البكر " أيمن " وأصبحت تُعرف بأم أيمن .

حليمة السعدية :

لما علمت مرضعته حليمة السعدية بزواجه أتت لزيارته فأكرمها ، ولما هممت بالعودة أوصى بها خديجة خيراً لما علم ما بهم من قحط ، فأعطتها ٤٠ رأساً من الغنم وبعيراً وأموالاً كثيرة .

زيد بن حارثة :

كان زيد قد خرج مع أهله ليزور الكعبة وهناك فُقد وكان طفلاً ، وبيع ببيع الرقيق إلى حكيم بن حزام ابن أخي خديجة الذي أهداه إليها واستراح زيد في بيتها لحسن معاملتها له ، ولما تزوجت رسول الله ﷺ وهبته هذا الغلام .

زيد يفضل رسول الله ﷺ على أهله :

وحدث أن علم أهله بمكان وجوده فشد حارثة (أبو زيد) وأخوه الرِّحَال إلى مكة ولما وصلا هرعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : يا ابن عبد المطلب أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون الأسير وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك فامئن علينا ، فإنا سندفع لك .

قال لهم رسول الله في هدوء ^(١) : " أدعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني فداء " .

وبعث رسول الله ﷺ في طلب زيد ، فلما جاء تعرف على والده وعمه . فقال له رسول الله ﷺ : " إنك وقد علمت ورأيت صحبتي فاخترني أو اخترهما " .

فرد زيد بإجابة أذهلت أهله ، فقال : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم ، فصعق الأب والعم لهذا الاختيار ، يختار العبودية على الحرية وعلى أبيه وعمه ، ولكنها عبودية في جوار من بعثه الله رحمة للعالمين فما أجملها صحبة

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخذه إلى محل جلوس قريش ، وقال : يا معشر من حضر اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه ^(٢) ، فطابت نفس حارثة واطمأن على ابنه وتركه في كنف رسول الله ﷺ .

وأصبح زيد يُدعى بعد ذلك " زيد بن محمد " وظل كذلك حتى أبطل الإسلام التبني بنزول قوله تعالى : (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) [الأحزاب : ٥] لكن زيدا ظل في قلب الرسول بعد أن أعتقه وكان له بمثابة الابن البار .

(١)-ابن الحجر في الإصابة .

(٢)-ابن حجر في الإصابة .

ضم علي بن أبي طالب :

كان أبو طالب ، عم النبي ﷺ بلغ من العمر ٦٥ سنة وقعدت به السن عن الخروج في القوافل ، وقل ماله ومع ذلك ظل بيته مفتوحاً للضيف وعابر السبيل ، وفطن رسول الله ﷺ إلى ضيق عمه وتذكر أيام كان يرعاه ويحنو عليه كأحد أبنائه ، فأراد أن يرد الجميل ، فذهب إلى عمه العباس وقال له : يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصابه ما ترى ، فانطلق بنا إليه لنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ رجلاً فنكفلهما عنه ، فوافق العباس . فانطلقا إلى أبي طالب فوافق وأخذ رسول الله ﷺ علياً وكان في السابعة من عمره ، وأخذ العباس جعفر^(١) ، كانت هذه بعض صور من كرم رسول الله ﷺ بالفقراء والمحتاجين وذوي القربى .

أبناء رسول الله ﷺ

القاسم : بعد عامين من زواج رسول الله ﷺ كانت خديجة تتوق إلى أبناء من رسول الله ﷺ يزيدون رابطة المحبة بينها وبين زوجها ، فكانت تضرع إلى الله أن يهبها الولد ، فكانت إجابة الله بأن وهبها القاسم ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يُكنى رسول الله ﷺ " أبي القاسم "

زينب : رُزق بها رسول الله ﷺ بعد عام من ولادة القاسم .

رقية : وقد وُلدت بعد عامين من زينب .

أم كلثوم : وُلدت بعد رقية .

فاطمة : وُلدت بعد أم كلثوم وهي خامس وآخر أبناء رسول الله ﷺ من خديجة .

ويقال إنه كان لرسول الله ﷺ ولد آخر اسمه عبد الله وكان يلقب بالطاهر .

وكان أولاد رسول الله ﷺ كلهم من خديجة ، سوى إبراهيم " ابن مارية القبطية " ومات بنوه كلهم في صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته سوى فاطمة ماتت بعده بستة أشهر .

(١)-المستدرك على الصحيحين .

رسول الله في سن ٣٥ - إعادة بناء الكعبة :

لم ينقطع رسول الله ﷺ عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب من الحياة العامة .

فلما كان عمره ٣٥ عاماً حدث أمر جلل للكعبة ولها ما لها في نفوس العرب ، حيث جاء الشتاء بأطار غزيرة هطلت على جبال مكة فجرت سيولاً انحدرت على البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الانهيار فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها ، واتفقوا على ألا يدخلوا في بنائها إلا طيباً فلا يدخلون فيها مهرٌ بغي ولا بيعٌ ربا ولا مظلمة أحدٍ من الناس ، وهنا كان التحدي العظيم :

فلكي تجدد لابد من الهدم أولاً ، ولكنهم كانوا يهابون هدمها خوفاً من عقاب قد ينزل بهم وقد علموا ما أصاب أبرهة حين حاول هدم الكعبة ...

لكن الأمر هنا مختلف فأبرهة كان يريد الهدم للتدمير ، أما الأمر هنا فهو هدم للتعмир . فتصدى لهذا الأمر بشجاعة "الوليد بن المغيرة" أبي خالد بن الوليد وبدأ الهدم وقد كتم الناس أنفاسهم إشفافاً عليه لما قد يصيبه ... فلما رأوا الوليد في الصباح ولم يصبه شيء ، راح كل واحد منهم يحمل معوله وبدأوا الهدم ، حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم .

ثم كان البناء فجزأوا الكعبة وجعلوا لكل قبيلة جزءا فقاموا بنقل الحجارة ورسول الله ﷺ ينقل معهم ويساعدهم .

وضع الحجر الاسود :

وتولى البناء بناء رومي اسمه باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واستمر النزاع حتى كاد الأمر أن يتحول إلى حرب أهلية ، فكان رأي أبي أمية بن المغيرة المخزومي وكان أسنهم وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم : اجعلوا الحَكَم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، أخذ القوم يترقبون

وقد حُبِسَتْ أنفاسهم ، فكان الداخلُ والمنقذُ هو رحمة الله للعالمين رسول الله ﷺ فلما رأوه هللاً : هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله رضيانا به حكماً .

فلما عُرض الأمر على رسول الله ﷺ ؟ فتقدم وقد هداهُ الله إلى فكرةٍ يُرضي بها جميع الأطراف ، فخلع رداءه وبسطه على الأرض وحمل الحجر الأسود ووضعه عليه ثم طلب رؤساء كل قبيلة أن يمسكوا بطرفٍ من أطرافِ الرداء ثم حملوه جميعاً حتى إذا وصلوا إلى مستوى الحجر أخذَه بيده الشريفة ووضعه في مكانه وسوى عليه .

فطابت النفوس وساد السلام وهكذا اكتمل بناء الكعبة ، ونجت قريش من حرب أهلية كانت على وشك الوقوع .

وكانت هذه الحادثة تدل على ما كان لرسول الله ﷺ من مكانة سامية في نفوس أهل مكة ، ومن تقديرهم لما عُرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد (١) .

رسول الله ﷺ في سن التاسعة والثلاثين سنة ، زواج زينب :

تعاقبت السنون ورسول الله ﷺ يشارك أهل مكة حياتهم ويجد في خديجة خير النساء حقاً ، وكانت زينب كبرى بنات الرسول قد بلغت العاشرة من عمرها ، وبدأت العيون ترنو إليها ، كلُّ يطمع أن ينال شرف مصاهرة هذا البيت الكريم .

فكان ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، أحد رجال مكة المعدودين شرفاً ومالاً هو من نال هذا الشرف ، وتم زفافُ زينب على أبي العاص بن الربيع وسط فرحة الجميع ، وأهدت خديجة فيما أهدتُ إلى ابنتها قلادةً كانت تتزين بها ، وأوصتُ ابنتها بالحرص عليها ، - وسنرى فيما بعد كيف كانت هذه القلادة سبباً في إطلاقِ سراحِ أبي العاص لما وقع أسيراً في يد المسلمين في غزوة بدر - .

(١)- المنتظم في تاريخ الملوك ٢/٣٢٤ لابن الجوزي .

رسول الله ﷺ في سن ٣٩,٥ سنة ، زواج رقية وأم كلثوم :

بعد ستة أشهرٍ من زواج زينب جاء وفد من بني هاشم إلى رسول الله ﷺ وقال شيخهم أبو طالب : إنك يا ابن أخي قد زوجت زينب إلى أبي العاص بن الربيع ، وإنه لنعم الصهر غير أن بني عمك يرون أن لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وهم ليسوا دونه شرقاً ونسباً .

فقال رسول ﷺ : صدقت يا عم ^(١) وكان طلبهم في زواج رقية وأم كلثوم إلى عتبة وعُتبية ابني أبي لهب ، فكان هذا الزواج رغم تخوف خديجة على ابنتيها من أم جميل زوجة أبي لهب ، فهي امرأة سريعة الغضب ، سليطة اللسان تقرض سلطانها على مَنْ حولها .

مرحلة النبوة

بشائر الوحي وبوادر النبوة :

وتمرّ السنون وتتوالى الأحداث ورسول الله ﷺ دائم الصمت كثير التفكير فيمن حوله وما يعبدون ، وقد نال حظاً من الفطنة وسداد الوسيلة والهدف .
فعاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجده حسناً شارك فيه وما كان سيئاً ابتعد عنه ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل ما ذُبح على النُصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً ، حتى لم يكن شيئاً أبغض إليه من هذه الأوثان.

رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء :

فبدأ رسول الله ﷺ يخلو بنفسه ، وكان من عادة العرب آنذاك أن ينقطع مفكروهم للعبادة من كل عام زمناً ، وكانوا يُسمون هذا الانقطاع بالتحنث أو التحنث . وقد وجد رسول الله ﷺ خير ما يُمكنه في الإمعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل . فوجد غاراً بأعلى جبل حراء على بعد ميلين من مكة وهو غار حراء .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام وذكرها الطبري وابن عبد البر .

فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل عام ، وفي هذا الغار وجد رسول الله ﷺ ضالته ، فكان يقضي فيه الشهر كاملاً بقليل من الزاد مُمعناً في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ملتصقاً بالحق والحق وحده ، وكان إذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره وظل هكذا حتى بلغ سن ٣٩,٥ عاماً حتى بدأ يرى الرؤيا الصادقة . فقد رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ((أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من النبوة الرؤيا الصالحة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح)) (١) .

واستمرت هذه الرؤى الصادقة لمدة ستة أشهر حتى بدأ الوحي .

فكانت هذه الرؤى جزءاً من النبوة ، كما قال رسول الله : ((الرؤيا الصادقة جزء من ٤٦ جزءاً من النبوة)) (٢) .

فكانت الرؤيا لمدة ستة أشهر (نصف سنة) ومدة النبوة ٢٣ سنة أي أن مدة الرؤيا كانت ١/٤٦ (جزءاً من ٤٦ جزء من النبوة) وصدق رسول الله ﷺ .

وكانت هذه التدابير من الله سبحانه وتعالى من انقطاع عن شواغل الدنيا ومن رؤيا صادقة ما هي إلا تمهيداً للنبوة حتى لا يُفاجأ بالوحي فلا يتحملهُ العقل البشري .

بداية الوحي

فلما تكامل لرسول الله ﷺ أربعون سنة ، وهي رأس الكمال ولها تُبعث الرسل ، وإذا هو بالغار في شهر رمضان كعادته وكان ذلك ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان (على قول الإمام أبو حنيفة) .

أتاه جبريل فغطّه أي - ضمه - حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله ، وقال : اقرأ ، فرد رسول الله ﷺ : ما أنا بقارئ (٣) .

(١) - صحيح البخاري رقم الحديث ٦٩٨٢ .

(٢) - رواة البخاري و مسلم في صحيحهما .

(٣) - البخاري ، عن السيدة عائشة .

فأخذه جبريل وغطه الثانية ، وقال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ . فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله .

بداية نزول القرآن :

وقال جبريل :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ۝٥﴾ [العلق : ١-٥]

فكان ذلك بداية نزول الوحي ونزول أول آيات القرآن الكريم ، نزلت على الرسول الكريم ﷺ فنقشت بحروف من نور على قلبه -كما قال عليه الصلاة والسلام -

فكانت هذه البداية بأمر الله بالقراءة ، والقراءة تعني الدراسة والبحث والتعلم والتفكير والاستنتاج ، وهي كلها مقومات البحث العلمي الذي به تنهض الأمم ، وهو للأسف ما ابتعدنا عنه هذه الأيام حتى سادت علينا أمم وسبقتنا بكثير لما لها من جهد وعمل في هذا الاتجاه البحثي.

فلعلنا نعود إلى منهج القرآن ونعود كما كان أسلافنا لنكون بحق " أمة اقرأ " .

رسول الله ﷺ ينطلق إلى خديجة :

عوداً إلى الحبيب ﷺ : فلما رأى ما رأى خرج مذعوراً من الغار وانطلق هائماً في شعاب الجبال .. ، حتى إذا كان وسط الجبل سمع صوتاً يناديه : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » فلما رفع رأسه إلى السماء فإذا به يرى جبريل على هيئته وجعل ينظر إليه في آفاق السماء فلا ينظر في ناحية منها إلا رآه وأقام على ذلك زمناً كانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتسمه في الغار ليعطيه بعض الزاد فلم يجده ، وهو ما زاد قلق خديجة عليه ، فماذا حدث له ؟ وإذا هي في قلقها وحيرتها إذا برسول الله ﷺ يدخل عليها .

زملوني زملوني (١) .

دخل رسول الله ﷺ على خديجة يرجف فؤاده ، ويضطرب خوفاً وهلعاً ممّا رأى ، فلما سألته عما أصابه قال : " زملوني .. زملوني ، دثروني وصبوا على ماءً بارداً " (٢) فزملته وهو يرتعد كأنّ به حمي ، فلما ذهب عنه الروح حدّث خديجة بما رأى وأفضى إليها بمخاوفه أن يكون به جنّة .

فما كان من هذه الزوجة العظيمة ملاك الرحمة ، وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف فلم تُبدي أيّ خوف أو ريبة بل نظرت إليه بنظرة إكبار وقالت له : " كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرّي الضعيف ، وتعين على نوائب الحق " .

يا لها من سيدة عظيمة سنداً ووعواً لزوجها ، ويا ليت نساءنا يتعلمن من أمهن أم المؤمنين السيدة خديجة كيف تكون الزوجة دعماً لزوجها عند الشدائد!

بهذه الكلمات من خديجة اطمأن روع رسول الله ﷺ ثم أحسّ جسمه متعباً وفي حاجة إلى النوم فنام

مقالة ورقة بن نوفل :

حدّقت خديجة فيه وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذي سمعت ، فلما رآته استغرق في نومه مطمئناً هادئاً انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان - كما أسلفنا - قد تنصّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية ، فلما أخبرته بما رأى وسمع رسول الله ﷺ قال لها : " قدوس قدوس والله لئن كنت صدقتيني القول ، فلقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له : فليثبت " (٣) .

(١) - صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رقم ٤٩٢٥

(٢) - البخاري .

(٣) - ابن هشام .

فَعَادَت خَدِيجَةَ تَحْمَلُ الْبَشْرِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِتَجِدَهُ مَا زَالَ نَائِمًا ، وَفِي مَا هُوَ فِي هِدَاةِ نَوْمِهِ إِذَا بِهِ اهْتَزَّ وَبَلَغَ الْعِرْقُ جَبِينَهُ فَقَامَ لِيَسْتَمَعَ إِلَى الْمَلِكِ يُوحَى إِلَيْهِ : **يَا أَبُهَا الْمُدَّتِرُّ (١) قُمْ فَأَنْدِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَسْتَكْبِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)** [المزمل : ١-٧]

انقضى عهد النوم والراحة :

ونلاحظ أن هذه الآيات أخذت شكل الأوامر العسكرية التي تُعطى للجنود في أقل كلمات وأسرع وتيرة ليكون الرد والاستجابة على مستوى سرعة السؤال والأمر .

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قام من نومه فلما رأته خديجة زادت إشفاقاً عليه وطلبت منه أن يعود إلى فراشه لينام أو يستريح . فكان جوابه : ((انقضى عهد النوم والراحة فقد أمرت أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد))^(١) أو كما قال ، فأمنت به خديجة وكانت أول من أسلم من العالمين ثم قصت عليه نبأ ورقة وما حدّثها به .

وخرج رسول الله ﷺ بعد ذلك يوماً ليطوف بالكعبة ، فلقيه ورقة بن نوفل فلما قص عليه أمره ، قال له ورقة : ((والله إن هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيه جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك " فقال رسول الله : " أو مخرجي هم ؟ " فقال : نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا " ولكن ورقة بن نوفل تُوفي بعد قليل ولم تدركه دعوة الإسلام^(٢) .

(١) - بغير سند .

(٢) - البخاري ٣٣٩٢ ، ومسلم ١٦٠

بداية عصر النبوة

أيقن رسول الله ﷺ أنه الرسول المختار لهذه الأمة وأنه آخر رسل الله ، وبدأ الوحي ينزل تباعاً .. وبينما كان النبي ﷺ راجعاً إلى بيته جعل لا يمر على شجرة ولا حجر إلا سمعه يسلم عليه " السلام عليك يا رسول الله " فظن النبي بنفسه مساً من الجن فنزلت الآيات تُطمئنه وتتفي عنه ما ظن أنه مس من الجن: ﴿ ت وَالْقَالِمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَّبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ١-٤]

الوضوء والصلاة :

ولما كان النبي ﷺ قد أختير لإبلاغ دين جديد كان لزاماً أن تُوضَّح له كيفية عبادة الله الواحد الأحد ، وكان أن خرج في يوم من الأيام وهو يتنقل بين شعاب الجبل ووديانه يتفكر في نعم الله وفضله ، فأتاه جبريل على هيئة بشرية ، وضرب الأرض برجله فانفجرت منه عين ماءٍ ، فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر إليه ثم توضأ كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام جبريل وصلى ركعتين بأربع سجعات وأمر النبي أن يصلي هكذا ركعتين في الصباح وركعتين في المساء .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى البيت توضأ وصلى ركعتين ، فلما رأته خديجة فصلت كما يصلي .

فتور الوحي :

حدث أن فتر الوحي لفترة عن رسول الله ﷺ ، ورؤي أن بعض أهل مكة قالوا له : " ما أرى ربك إلا قد قلاك " فتولاه الخوف والوجل وانقطع في حراء يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربه يسأله : لم قلاه ؟ بعد أن اصطفاه ولم تكن خديجة أقل منه إشفاقاً ووجلاً ، وبعد أيام من الانقطاع إذا بالوحي يعود وينزل جبريل بالآيات :

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ ۱ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ۲ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ۳ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ۴ ﴾
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴿ [الضحى: ١-٥] .

بداية الدعوة

خُطَّة رسول الله ﷺ الدعوية :

كانت الدعوة في أولها سرية وظلت هكذا لمدة ثلاث سنوات وكانت تعتمد على النوع وليس الكمّ في أولها .

لأن هؤلاء الصُّحبة من الأولين سيكونون هم دعائم هذا الدين وركائزه ، وهم من سيقوم على أكتافهم نشر الدين .. فكانت أعداد المسلمين في نهاية الأعوام الثلاثة لا تزيد عن مائة وثلاثين ، لكن الواحد منهم كان يعادل ألفاً - ولا نقول هذا من باب المبالغة فهم كانوا كذلك وأكثر - .

السابقون الأولون :

ولنُعْرَج قليلاً على بعض من هؤلاء الصحابة الكرام :

أولاً : في بيت رسول الله :

خديجة :

كانت السيدة خديجة - كما أسلفنا - أول من أسلم من العالمين ، وقد كانت من أهم وأقوى عون لرسول الله ﷺ في دعوته ، فلما عمَّ جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ الصلاة فكانت تصلي معه .

علي بن أبي طالب :

كان يقيم مع رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - ولما بُعث رسول الله كان علي صبيّاً في العاشرة من عمره ، وفيما يصلي رسول الله ﷺ ومن خلفه خديجة إذ دخل عليهما عليٌّ فرأهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن ، وما أن أتتَا صلاتهما حتى سألهما : لمن تسجدان ؟ فأجاب رسول الله ﷺ : " نسجد لله الذي بعثني نبياً " ^(١) ودعا رسول الله ﷺ عليّاً للإسلام فاستمهله بعض الوقت ليفكر في الأمر .

(١) - في البداية و النهاية عن ابن إسحاق قال :- ما هذا يا محمد ، قال دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له و إلى عبادته وأن تكفر بالآلات و العزى .

وما هي إلا ليلة واحدة قضاها هذا الفتى يفكر ، وإذا به في الصباح يعلن اتباعه لدين الإسلام ، فكان أول صبي أسلم .

زيد بن حارثة :

ومن بعد عليّ أسلم زيد بن حارثة وقد كان مولى رسول الله ﷺ

بنات رسول الله :

كذلك أسلم بنات رسول الله ﷺ كلهن ، وبذلك أصبح كل أفراد بيت رسول الله ﷺ مسلمين .

ثانياً : من خارج بيت النبوة :

أبو بكر الصديق :

كان أبو بكر بن أبي قحافة صديقاً حميماً لرسول الله ﷺ وكان محبوباً لقومه ، وأعلم الناس بالأنساب ، وكان تاجراً ذا خلق ، وكان رسول الله ﷺ يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق ، لذلك كان أول من دعاه رسول الله ﷺ إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان ، ولم يتردد أبو بكر في إجابة رسول الله ﷺ إلى دعوته والإيمان بها .
وقد قال رسول الله ﷺ فيما بعد : " ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبا بكر " (١) فكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ... رضي الله عنه وأرضاه .

رجال أسلموا على يد أبي بكر :

لما كان لأبي بكر من الخصال ما أسلفنا فكان رجال قومه يأتون مجلسه ويأمنون لحديثه ، فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به ويتوقع منه الاستجابة ، فكان ممن أسلموا على يد أبي بكر أسماء ، كان لها تاريخ طويل ودور كبير في نشر الدعوة أمثال : عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الرحمن بن عوف .

(١) - ورد في البداية و النهاية ، إسناده ضعيف .

فكان أبو بكر ينطلق بالواحد منهم إلى رسول الله ﷺ ليُسلم على يديه .

آخرون من وجهاء قريش :

ثم تبعهم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ابن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب (أخت عمر بن الخطاب) .. وغيرهم .

آخرون من فقراء قريش :

ولم تقتصر الدعوة على وجهاء قريش فحسب بل شملت أيضا الفقراء والعيبد ، فأمن بها كل ضعيف وكل بائس وكل محروم ، ومن هؤلاء : بلال بن رباح وياسر وابنه عمار وضُهب الرومي وعمار بن فُهيرة مولى أبي بكر ومن نسائهم : بركة (أم أيمن) وسُمية (أم عمار) وغيرهن كثيرات .

من خارج قريش :

وامتدت الدعوة إلى خارج قريش ، فكان إسلام عدد من غير قريش أمثال : عبد الله بن مسعود الهذلي ، مسعود بن ربيعة القاري ، عبد الله بن جحش الأسدي ، وأبو ذر الغفاري وآخرين .

وسنأتي بشيء من التفصيل عن حياة هؤلاء العظام من أصحاب رسول الله ﷺ في الأجزاء التالية من هذا الكتاب إن شاء الله .

واستمرت الدعوة الإسلامية تنتشر ببطء وتحدث الناس عنها ، إلا أن أهل مكة لم يعقبوا بها أول الأمر وظنوا أن حديث رسول الله ﷺ لن يزيد عن حديث الرهبان والحكماء أمثال ورقة بن نوفل وغيرهم ، وأن الناس عائدون إلى دين آبائهم و أجدادهم لا محالة .

المسلمون يمارسون شعائرهم في الخفاء :

١. كان المسلمون إذا حضرت الصلاة ذهبوا إلى الشُّعَاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يُصليان مرة ، فكلهما في ذلك ولما عرف حقيقة الأمر أمرهما بالثبات .

٢ . رأى رسول الله ﷺ بحكمته السامية أن يتخذ مقراً يجتمع فيه مع المسلمين ليعلمهم مبادئ الدين بعيداً عن الأنظار ، واختار هذا المقر في بيت عند الصفا بمكة : دار الأرقم بن أبي الأرقم .

الجهر بالدعوة :

وبعد ثلاث سنوات من الدعوة في السر ، ولما كانت جماعة المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتحمل عبء تبليغ الرسالة فكان أمر الله بالجهر بها .

أولاً : الدعوة في الأقربين :

وكانت البداية بأن أمر الله رسوله أن يدعو أهله وعشيرته : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فدعا رسول الله ﷺ عشيرته من بني هاشم وكانوا نحو ٤٥ فرداً إلى طعام فلما فرغوا من طعامهم حدّثهم رسول الله ﷺ داعياً إياهم إلى دين الله ، فقطع عمه أبو الهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا ، فقاموا وتركوه .

فدعاهم رسول الله ﷺ ثانية ، فلما طعموا قام رسول الله ﷺ وقال لهم بعد الحمد الله والثناء عليه :

" إن الرائد لا يَكْذِبُ أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتنّ كما تنامون ، ولتُبعثنّ كما تستيقظون ولتحاسبنّ عما تعملون ، وإنها الجنة أبدأً أو النار أبدأً " (١) .

(١) - ذكره ابن كثير في الكامل ص ٦٥٩ ، ولم يعثر له على إسناد صحيح .

فقال أبو لهب معارضاً للمرة الثانية : " هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن تأخذها غيركم " فرد عليه أبو طالب وقال : " والله لنمنعنه ما بقينا " وهنا نهض علي وهو ما يزال صبيّاً وقال : " أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت " فابتسم بنو هاشم وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه .

ثانياً : الدعوة للناس عامة :

ثم كان الأمر بالجهر بالدعوة للعامة :

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر : ٩٤] فصعد رسول الله ﷺ على جبل الصفا ثم هتف صائحاً ينادي بطون قريش ويدعوهم قبائل قبائل : " يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، يا بني فلان يا بني فلان " فلما سمعوا أقبلوا يسألونه ما له ؟ فقال : " رأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدّقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً ، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، فقال : " فإني نذيرٌ بين يدي عذاب شديد " وبدأ ينادي كلّ قبيلة باسمها يا معشر قريش .. يا بني كعب (١) " إن الله أمرني أن أنذركم ، انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم نفعاً ولا أغني عنكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله " أو كما قال (٢) .

أبو لهب يواجه رسول الله ﷺ :

ولما تمّ هذا الإنذار نفّض الناس دون أيّ رد فعل إلا أبا لهب نهض وواجه رسول الله ﷺ بالسوء ، وقال له : تبّاً لك سائر اليوم ألهدا جمعتنا ؟

فلم يكن لرسول الله ﷺ الذي أدبه ربّه فأحسن تأديبه أن يردّ على الإساءة ، وخاصة إن كانت من عمه الذي هو في مقام والده فأسرّها في نفسه ، وإن كانت شديدة الألم له خاصة وإنها من أقرب الناس " عمه " .

(١) - صحيح البخاري ٤٧٧٠ ، عن عبد الله بن عباس .

(٢) - في البخاري ٢٧٥٣ ، و مسلم ٢٠٤ باختلاف يسير .

الله يرد عن رسول الله الإساءة :

وقام أبو لهب وعاد إلى بيته وأخبر زوجته أم جميل بما قاله رسول الله ﷺ فأيدته في رفضه لدعوة رسول الله ﷺ وكان في رقبته عقد ثمين من ذهب لا يوجد له مثيل فأعلنت أنها ستبعية وتتفق منه في الكيد لرسول الله ﷺ ولمنعه من إبلاغ دعوته .

وهنا كان الرد الإلهي القوي السريع دفاعاً عن رسول الله ﷺ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ

الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ [المسد : ١-٥]

فإن كان أبو لهب قد أساء لرسول الله ﷺ مرة واحدة ، فقد لعنه الله في قرآن يُتلى ليل نهار إلى يوم الدين في كل يوم وعلى مدار الساعة ، فإن كان أناس في أقصى الشرق يتلون : (تبت يدا أبي لهب) ثم ينامون ليستيقظ غيرهم في الغرب ليتلوا : (تبت يدا أبي لهب) .. وهكذا كتب الله عليه اللعنة في الدنيا إلى يوم القيامة هو وزوجته ولعذاب الآخرة أكبر .

بعد هذا الحادث بدأ رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم ، وقد نالت الدعوة مزيداً من القبول وبدأ الناس يدخلون في دين الله ، فلم يمر يوماً إلا وكان هناك من أسلم .

وهنا بدأت قريش تعد العدة لمحاربة هذا الدين الجديد ... فكيف كان ذلك؟ وما خطة

رسول الله ﷺ لمواجهة هذه الحرب ؟

قلق قريش :

وما هي إلا أيام قلائل بعد الجهر بالدعوة حتى اقترب موسم الحج وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم ، وبدأت تشعر بخطر دعوة رسول الله ﷺ عليهم فكان طلب اجتماع طارئ لزعماء قريش قبل موسم الحج ، وهو ما يعكس ضعفهم في مواجهة الحجة

بالحجة ، وكذلك خوفهم من هذا الدين القادم ، فهرع زعماء قريش إلى الوليد بن المغيرة وكان له أسبابه الشخصية في محاربة رسول الله ﷺ إذ كان يرى في نفسه أنه أحق بالنبوة فكان الحقد والغيرة دافعة لحرب رسول الله ﷺ ومقاومة هذا الدين ، ذهبوا إلى الوليد بن المغيرة واجتمع القوم . قال الوليد : اجمعوا فيه رأيا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قول بعضكم بعضاً .

قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهَّان ، فما هو بزَمْرمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : نقول مجنون . قال : ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه .. قالوا : نقول شاعر . قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله فما هو بالشعر . قالوا : نقول ساحر . قال : ما هو بالساحر ، ولقد رأينا السُّحَّار وسحَّروهم .

قالوا : أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه ؟ فقال لهم : أمهلوني أفكر في ذلك . فظل يفكر ويفكر ثم ذهب إليهم وقال : أقرب القول فيه أن تقولوا : جاء بقول هو سحر يُفَرِّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته .

وفي الوليد نزل قوله تعالى يصف حاله بالتفصيل في ست عشرة حركة (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَفَعَّلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) [المدثر: ١٨-٢٥])

وبعد هذا القرار ، أخذوا في تنفيذه فلما كان موسم الحج جلسوا يحذرون الناس من أمر رسول الله ﷺ ويخوفونهم من الأمر الذي جاء به .

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس ويعرض عليهم أمره بينما عمه أبو لهب وراءه يقول : " هذا ابن أخي لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب " .

ومضى موسم الحج هذا العام وقد رحل الناس ، وانتشر ذكر رسول الله ﷺ في بلاد العرب كلها .

الصراع بين الحق والباطل

بدأت قريش تتحرك من جديد لإيقاف هذا الدين والقضاء عليه في مهده ، وكانت خطتها تقوم على ٦ محاور :

١ - السخرية والتحقير لكل ما يأتي به رسول الله ﷺ .

٢ - إثارة الشبهات والادعاءات الكاذبة حول رسول الله ﷺ .

٣ - الحيلولة بين الناس وسماعهم القرآن .

٤ - إيذاء أتباع رسول الله ﷺ .

٥ - مساومات مع رسول الله ﷺ

٦ - إيذاء رسول الله ﷺ نفسه .

فكانت خططهم تتطور من مرحلة إلى مرحلة أخرى حسب تطور الأمور .

أما رسول الله ﷺ فكان أيضاً يعمل بشكل علمي وممنهج رغم كل ما يُحاك له وبأصحابه ، فكانت خطته تقوم على محورين :

١ - نشر الدعوة وابتكار طرق مختلفة لها .

٢ - حماية أصحابه من الإيذاء .

والآن لك عزيزي القارئ ببعض من التفصيل لهذا الصراع :

أولاً : خطة قريش لهدم الدعوة :

١ - السخرية والتحقير والاستهزاء بكل ما يأتي به رسول الله ﷺ :

فكانوا يسخرون من رسول الله ﷺ ويرمونهم بالجنون تارة ، وبالسحر تارة أخرى ويقصدون من وراء ذلك تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فإذا جلس مع المستضعفين من أصحابه استهزأوا وقالوا : هؤلاء جلساؤه؟؟

وقد قص علينا القرآن بعضاً من هذه الصور : (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) [المطففين: ٢٩-٣٣]

وكثر هذا الاستهزاء والسخرية ، وهو ما كان يؤثر في نفس رسول الله ﷺ إلا أن الله كان يثبتته هو والذين آمنوا معه :

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مَنَّ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) [الحجر: ٩٥-٩٩]

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام : ٣٣]

٢- إثارة الشبهات والشائعات الكاذبة :

وقد أكثروا من ذلك وتغنوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجالاً للتدبر في دعوته والتفكير فيها ، فأشاعوا أنه (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) [الأنبياء : ٥] يراها الرسول بالليل ويتلوها بالنهار ثم يشيعوا " بل افتراه من عند نفسه " ويقولون (إنما يعلمه بشر) وقالوا (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) .

وادعوا أن النبي ﷺ مصاب بنوع من الجنون ، فهو يتخيل المعاني ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء ، فقال تعالى رداً على ذلك (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)

[الشعراء : ٢٢٤-٢٢٦] وهذه خصال ثلاث في الشعراء ، ليس برسول الله واحد منها .. ومعظم شبهاتهم كانت تدور حول التوحيد ثم بعث الأموات ونشرهم وحشرهم يوم القيامة ، وقد رد القرآن على شبهة من شبهاتهم وبيّن عجز آلهتهم عجزاً لا مزيد عليه ، فكان رداً

مُفحماً يقنع كل ذي عقل ولكنهم كانوا يستكبرون ، يريدون علوًّا في الأرض فبيقوا في طغيانهم يعمهون .

٣ - الحيلولة بين الناس وسماعهم القرآن :

كان المشركون بجانب إثارة الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ، ودعوة الإسلام بكل طريق ممكن فكانوا يطردون الناس ويُثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون إذا رأوا النبي يتهيأ للدعوة فقال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) [فصلت: ٢٦] .

٤ - الإيذاء الجسدي لأصحاب رسول الله ﷺ :

استمر المشركون في هذه الأساليب التي ذكرناها لإحباط الدعوة في بدايتها وتمضي الأيام والمسلمين في ازدياد ومحاولات المشركين لم تجد نفعاً في إحباط الدعوة ، فكان القرار بتعذيب المسلمين جسدياً وتهيئهم عن دينهم .. .

ولنا هنا وقفة : فقد أثبتت الأبحاث الحديثة في علوم النفس أن الإنسان إذا ما فشل في نقاش أو محاولة بإقناع الطرف الآخر بالحُجة والمنطق ثم انقلب الأمر من حوار العقول إلى التشابك واستخدام القوة ، فهذا يدل على ضعف المعتدى وقلة حيلته وينم كذلك على خوف عميق في داخله ، وكل ما يُبديه من اعتداء وأذى يكون على قدر درجة خوفه وقلقه فكلما زاد عنفه كان ذلك دليل على زيادة خوفه من الطرف الآخر الذي لا يملك إلا الحُجة واستعمال العقل والمنطق ، فكان هذا هو حال المشركين فقد انعكس ما بهم من خوف وقلق وقلة حيلة إلى عنف وإيذاء واضطهاد ..

أمثلة من إيذاء قريش للمسلمين :

كان المسلمون نوعان :

أ. بعضهم من سادات قريش ومن عائلات كبيرة أمثال : أبو بكر وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وغيرهم .

ب. آخرون مستضعفين من الفقراء والعبيد أمثال بلال بن رباح ، عمار بن ياسر وغيرهما .
فكان إيذاء قريش لكل نوع يختلف عن الآخر أما السادات فكانوا يُقبلون عليهم أهلهم
وذويهم ، ويضيقون عليهم في تجارتهم ، وأما العبيد فكان العذاب يأتيهم من ساداتهم .
وإليك عزيزي القارئ بعض أمثلة مما تعرض له صحابة رسول ﷺ من أذى واضطهاد :

أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله :

وكلاهما من تيم ، تقدم نوفل بن خويلد وهو حينئذ زعيم بني تيم فربطهما في حبل
واحد ونكل بهما معا ، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين لذلك كان يسميان " القرينين " .

عثمان بن عفان :

لما علم عمه الحكم بن العاص بإسلامه أوثقه كتاقاً وقال : ترغب عن دين أبائك إلى
دين مستحدث ؟ والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه ولا
أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه .

سعد بن أبي وقاص :

لما علمت أمه بإسلامه وهي من بني أمية فقالت له : لتدعن هذا الدين ولا أكل ولا
أشرب حتى أموت وحينئذ يُعيرك الناس بي ، فما كان من سعد الذي يحب أمه حباً شديداً
إلا أن ذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه فنزل قوله تعالى : **(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** [العنكبوت : ٨] .

فذهب سعد بعد نزول هذه الآية إلى أمه وقال لها : . والله يا أمي لو كانت لك سبعة
أرواح وخرجت كلها واحدة إثر الأخرى ، ما تركت ديني فُكلي إن شئت أو لا تأكلي ، فلما
رأت منه هذا العزم قررت أن تأكل وتركته ودينه .

كان هذا بعض مما تعرض إليه المسلمين من كبار وأشرف قريش أما المستضعفين
فكان الأمر سهلاً ميسوراً على كفار قريش ، ولا سيما ما لاقاه العبيد والإماء منهم .

بلال بن رباح

كان مولى أمية بن خلف ولما علم بإسلامه كان يضع في عنقه حبلاً ثم يُسلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه ، وكان يُخرجه إذا حميت الشمس في الظهر ، فيطرحة على ظهره في الرمضاء ثم يأمر بصخرة كبيرة ، فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيكون رده في أبلغ كلمات وأقصرها : أحدُ أحد ، وكم كانت هذه الكلمة تغيظ الكفار ومر عليه يوم أبو بكر ، وهم يصنعون به ذلك فاشترته واعتقه .

عمار بن ياسر

كان مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون وعلى رأسهم أبو جهل ، يُخرجونهم إلى الأبطح إذا حمت الرمضاء ويعذبونهم بحرماً ، ومَرَّ بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال : " صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة " (١) فمات ياسر من العذاب ، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - بحربة فماتت ، وكانت أول شهيدة في الإسلام .
والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها .

فأي إيمان هذا وأي عظمة هذه جعلت هؤلاء المسلمين الأوائل يصبرون على كل أصناف العذاب والهوان ، فقد هانت عليهم التضحيات الجسام وهان عليهم الموت في سبيل الحق والهداية ، وقد تعجب لهذا الإيمان الآخذ بالنفوس هؤلاء المشركين .

٥ - مساومات قريش مع رسول الله لصرفه عن الدعوة :

بعد فشل كل محاولات المشركين من اضطهاد لاتباع دين محمد ﷺ وعدد المسلمين في زيادة مما زاد من قلق قريش وخاصة وأنه في حماية عمه أبو طالب وبنو هاشم فرأت قريش أن تذهب إلى أسلوب جديد .. أسلوب المساومة والمهادنة .
وها هي بعض من مساومات قريش

(١) - حديث مرسل ورد في الإصابة لابن حجر، الراوي عبد الله بن جعفر .

أ. سفارة عُتْبة بن ربيعة :

طلب عُتْبة (والد هند بنت عُتْبة - زوجة أبي سفيان -) من سادات قريش أن يفاوض رسول الله ﷺ فأرسلته قريش إلى رسول الله ﷺ فقال له : " يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر جلل فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبثت بالهتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها " فقال رسول الله ﷺ : " قل يا أبا الوليد أسمع إليك " قال : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر ثراء وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان بك مس من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك فقال رسول الله ﷺ : وقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ^(١) قال : نعم . قال : فاسمع مني : ثم تلا عليه صدر سورة فصلت : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) [فصلت : ١-٤] .

وظل رسول الله يقرأ وعُتْبة ينصت حتى بلغ إلى قوله تعالى : (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ

أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) [فصلت: ١٣] .

هنا تغير لون عُتْبة ووضع يده على فم رسول الله ﷺ وقال : حسبك حسبك ناشدتك الله والرحم أن تكف وهروا إلى القوم فقالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ، قال إني سمعت قولاً ما سمعت قبله قط ، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

ب . وفد قريش إلى أبي طالب

لما أعلن أبو طالب حمايته لرسول الله ﷺ وإصراره على رد أي عدوان قد يتعرض له ، مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد

(١) - البيهقي عن الحاتم الأصم .

سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أعلامنا وضلل أبناءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، فقال لهم أبو طالب : قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعوا إليه .

ج. قريش يُهددون أبا طالب :

لم تصبر قريش طويلاً حتى رآته ﷺ ماضياً في دعوته فقررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى ، فجاء سادات قريش إلى أبي طالب وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً فينا ، وإننا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنتهه عننا ، وإننا والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أعلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

أدرك أبو طالب حرج الموقف فأرسل إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك جاءوني وقالوا لي كذا وكذا ، فأبّق عليّ وعلى نفسك ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق .

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري :

وهنا أظهر رسول الله ﷺ ، بعدما أحسّ من مقالة عمه ضعا وخذلانا لنصرته ، أظهر قوة وصلابة وإرادة ، ولم يثنه تهديد قريش أو حتى خذلان عمه لنصرته فقال قولته الشهيرة : " يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه " (١) .

وهنا ذرف رسول الله ﷺ دموعاً وقام متجهاً إلى بيته ، فناداه عمه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك أبداً وأحس بالفخار من ثبات وشجاعة ابن أخيه ، وأنشد يقول :

حتى أوسد في التراب دفيناً
وأبشر وقر بذاك منك عيوناً

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة

(١) - حديث ضعيف .

د. محاولة أخرى مع أبي طالب :

لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماضٍ في طريقه ، وأن أبا طالب قد أبي خذلان ابن أخيه ، ذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان يُوصف بأنه أعظم فتیان قريش وأكثرهم جمالاً وقوة ، فقالوا لأبي طالب : خذ عمارة ولدًا فلك عقله ونصره وأسلم إلينا ابن أخيك نقتله ، فإنما هو رجل برجل فنهض أبو طالب مستهجنًا وصاح فيهم : بئس ما تسامونني ... تعطوني ابنكم أغذيه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلوه ، هذا والله ما لا يكون أبدا " فانصرفوا غير راضين .

وعندما أحسَّ أبو طالب بتجمُّع القوم ضده وضد ابن أخيه ، دعا بني هاشم يحثهم على حماية رسول الله ﷺ فوعده أن يكونوا معه ضد من عادى رسول الله وإن كانوا على غير دينه ، ولم يشذ عن بني هاشم إلا أبا لهب .

٦ - الإيذاء البدني لرسول الله ﷺ والاعتداء عليه :

لما يئست قريش من رد رسول الله ﷺ بكل ما سبق ذكره من وسائل بدأوا في الإيذاء البدني له ، فقد رأى رسول الله ﷺ من المشركين كثيراً من الأذى خاصة إذا ذهب للصلاة عند البيت ، وكان أعظمهم أذىً لرسول الله ﷺ جماعة سُموا بالمستهزئين لكثرة أذاهم لرسول الله ﷺ، وها هي بعض صور الإيذاء التي تعرض لها رسول الله ﷺ .

أ. أبو لهب وزوجته أم جميل :

- كان أبو لهب قد زوج ولديه عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة فأمرهما بتطليقهما بعنت وشدة فطلقاهما ، وذلك حتى يؤذي رسول الله ﷺ .
- كان أبو لهب يجول خلف رسول الله ﷺ في موسم الحج في الأسواق لتكذيبه ، بل كان يضربه أحياناً بالحجر حتى يدمي قدمه .
- زوجته أم جميل : فلم تكن أقلَّ عداوة من زوجها لرسول الله ﷺ فكانت تضع الشوك في طريقه ، والقاذورات على بابه ليلاً فقد كانت جاراً له، وبئس الجار .

ولما علمت ما نزل فيها من القرآن ووصفها بأنها "حمالة الحطب" أتت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في الحرم ومعه أبو بكر ، وفي يدها حجر كبير لتقذف به رسول الله ﷺ ، فلما وصلت إليهما قالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ، ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : "ما رأيتي لقد أخذ الله ببصرها عني " (١).

ب . عُقبة بن أبي مُعيط :

وهو الجار الثاني لرسول الله ﷺ ، كان يصنع صنع أبي لهب وكان من أشد ما صنعه ذلك الشقي : أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي عند المسجد الحرام، فانتظر حتى سجد النبي فوضع علي ظهره أحشاء الإبل ، فجعل المشركون يضحكون ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة ابنته ، فطرحت هذه القاذورات عن ظهره .

ج . أبو جهل (عمر بن هشام) :

كان من أشد هؤلاء المستهزئين عداوة لرسول الله ﷺ ، فكان يرمي القاذورات فوق رأس رسول الله ﷺ وهو يصلي وكثيراً ما كان يمنعه من الصلاة في المسجد الحرام ، فلما لم ينجح قال لأصحابه : والله لأجلسن غداً بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته ضربت به رأسه وليفعل بي بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فإن لي نادياً (أهل وعشيرة) تحميني ، لما أصبح أخذ الحجر كما وصف ، فلما همّ بإلقائه على رسول الله ﷺ وهو ساجد فإذا به يعود مسرعاً مُمتع اللون مرعوباً ووقع الحجر من يديه المرتعشة ، فسأله : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت لأفعل ما قلت ، فلما دنوت منه عرض لي فحل (ذكر قوى) من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بي أن يأكلني ، وإن بيني وبينه لخذقاً من نار وهولاً وأجنحة .

فلما سئل رسول الله ﷺ عن ذلك قال : " ذاك جبريل والملائكة ولو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " (٢) .

(١) - رواه البزار وقال حسن الإسناد ، و حسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

(٢) - صحيح مسلم رقم ٢٧٩٧ .

وأنزل الله تعالى القرآن مُهدداً أبا جهل :

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا
بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا
تُطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ [العلق : ٩-١٩] .

د. محاولة خنق رسول الله :

ومن أسوأ ما تعرّض له رسول الله ﷺ أنه إذ كان يصلي في حجر الكعبة ، فاجتمع
عليه مجموعة من المشركين ، قالوا : أنت الذي تعيب آلهتنا وتسخر منها ، ثم وثبوا عليه
وأخذ كل واحد منهم رداءه حتى كادوا أن يخنقوه ، فأقبل أبو بكر ودفعهم عنه ، وقال :
(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) [غافر ٢٨]

فهذه بعض الصور المصغرة مما كان يلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والأذى
على أيدي المشركين .

ثانياً : خطة رسول الله ﷺ المضادة لقريش :

رغم كل هذه المحاولات من مقاومة ثم مساومة ثم أذي كبيراً لرسول الله ﷺ وصحبه ،
فكان رسول الله ﷺ طريقه واضح وهدفه محدد وهو إعلاء كلمة الله في الأرض . وقد
ارتكزت خطة رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - إلى محورين رئيسيين :

١- نشر الدعوة .
٢- حماية أصحابه .

١ - نشر الدعوة :

كانت شخصية رسول الله ﷺ هي المحرك الأول للإسلام ، فشخصيته تملك قُوى
ال جذب والتأثير على الآخرين ، يُضاف إلى عظمته تلك أنه متلقي الوحي من الله ليبلغه
للناس .

دار الأرقم :

ولنشر الدعوة والحفاظ عليها ، اختار رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم وهي دار في جبل الصفا لتكون المقر الذي يجتمع فيها بالمسلمين سراً ، يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وكانت فطنة وحكمة من رسول الله ﷺ اختيار هذا المكان لعدة أسباب منها :

• أن الأرقم بن أبي الأرقم لم يكن معروفاً إسلامه ، فما كان يخطر ببال أحد أن يلتقي رسول الله ﷺ وأصحابه بداره .

• أن الأرقم بن أبي الأرقم من بني مخزوم وهم أشد الناس عداوة لبني هاشم ولرسول الله ﷺ ، فما كان يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره ، يعني هذا أن هذه اللقاءات كانت تتم في قلب صفوف العدو .

• أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى حدثاً ، في حدود السادسة عشرة من عمره ، وهذا ما لم يخطر على بال قريش في بحثها عن مركز التجمع الإسلامي ، إذ كان يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار الصحابة ، وقد تم لرسول الله ﷺ ما يريد ، فكانت دار الأرقم هي أول مركز أو قُلْ جامعة أو سمها ما شئت للتعليم ونشر الدعوة الإسلامية ، وتربية الرعيل الأول من المسلمين .

وقد تم هذا في سرية تامة بعيداً عن أعين المشركين وعن المصادمة معهم .

٢ - حماية أصحابه :

كانت بداية الاعتداءات في أواسط السنة الرابعة من النبوة وزادت في نهايتها ، ثم تفاقمت وعظمت في السنة الخامسة . فأمر رسول الله ﷺ حماية أصحابه بالتالي :

أ. بالصلاة سراً :

وأن يُخفوا إسلامهم ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون سراً في الشعب بعيداً عن المشركين .

ب. الهجرة إلى الحبشة :

فلما زاد ما ينزل بالمؤمنين من الأذى والعذاب ، هنالك نصح رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة .

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يُظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن .

هجرة الحبشة الأولى :

وفي رجب من السنة الخامسة للنبوّة هاجر أول فوج من صحابة رسول الله ﷺ إلى الحبشة ، وكان وفداً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، وكان على رأسهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ، تزوجها عثمان بعد أن طلقها ابن أبي لهب ، وكان رحيل هؤلاء تسلاً في ظلمة الليل حتى لا تفتن قريش لهم ، وخرجوا إلى البحر عند الشعبية ، وهي ميناء مكة فوجدوا سفينتين مجهزتين للسفر أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وكان الهمس قد بلغ مسامع قريش فخرجوا على إثرهم ليعيدهم ولكنهم وصلوا بعد أن أقلعت السفينتان ونجح المسلمون في الإفلات ووصلوا إلى الحبشة حيث أقاموا في أحسن جوار .

فكان هذا الأمر من رسول الله ﷺ فيه حماية لأصحابه ، وإن كان هناك من يرى أن رسول الله ﷺ كان له بُعد سياسي من وراء هذه الهجرة ، وهو نشر دين الله في أرض جديدة .

محاولة أبي بكر للهجرة إلى الحبشة :

مرت الأيام والشهور ، وكان أبو بكر يلاقي من عنت المشركين ما يناله باقي المسلمين حتى ضاقت عليه مكة فاستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة فأذن له ، فخرج قاصداً ميناء الشعبية حتى إذا كان في منتصف الطريق لقيه ابن الدُّغنة بن عبد مناة وسأله : إلى أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومك وآذوني وضيّقوا علي . قال : ولم ؟ فوالله إنك لثزين العشيرة وتُعين على النوائب ، فما كان لمثلك أن يهاجر أبداً أرجع فأنت

في جوارى فرجع معه حتى إذا دخل مكة قال ابن الدُّغنة : يا معشر قريش إني أجرتُ ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد (١).

أرضي بجوار الله :

وكان لأبي بكر مكان يصلي فيه عند باب داره ، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن بكى ، فيقف عليه المارون يستمعون إليه ويتأثرون به ، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدُّغنة وقالوا له : إن أبا بكر رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويكي ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتتهم ، فمُرّه أن يدخل بيته فليصنع ما يشاء ، فلما أخبر ابن الدُّغنة أبا بكر بمقالة قريش قال له : أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله فرد عليه جواره ، وهو ما شجع السفهاء على إيذائه ، لكنه ظل على ما هو عليه ينعم بجوار الله وحمايته .

عودة مهاجري الحبشة :

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر ، بعدها رجعوا إلى مكة لما نما إلى علمهم أن قريشاً أسلمت ، ولم تُعد تؤذي المسلمين .. وهناك عدة روايات أخرى في سبب رجوعهم منها قصة الغرانيق ، وإن كان قد أنكرها كثير من أهل السير ومنهم ابن إسحاق .. وأياً كان سبب رجوعهم بعد ثلاثة أشهر ... فالحقيقة أنهم وجدوا الحال أسوأ مما كان عليه ، وقريش مستمرة في بغيتها فغادروا إلى الحبشة مرة أخرى .

هجرة الحبشة الثانية :

كانت هجرة الحبشة الثانية على نطاق أوسع ، ولكنها كانت أشقّ من سابقتها فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أنّ المسلمين كانوا أسرع ويسر الله لهم السفر ، فكانت هذه الهجرة في ربيع الأول من السنة السادسة للبعثة النبوية ، وبلغ عدد أفرادها ٨٣ رجلاً و١٨ امرأة ، وكان بينهم جعفر ابن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس .

(١) - البداية و النهاية عن ابن إسحاق .

مكيدة قريش لمهاجري الحبشة ، سفيرا قريش للنجاشي :

عزَّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جليدين لبيبين وهما : عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وأرسلوا معهما الهدايا للنجاشي ولبطارقتة ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة وزوداهم بالحجج التي بها يطرد أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يسيروا على النجاشي بإقصائهم حضر النجاشي وقدما له الهدايا ثم قال له : أيها الملك قد ضوى (أي لجئ) إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردّهم إليهم ، فهم أعلم بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، وأمن البطارقة على كلامهما وأشاروا إلى الملك بتسليمهم إليهما .

النجاشي يستمع للمسلمين :

فغضب النجاشي وكان ملكاً عادلاً وقال : لا أسلمهم حتى أسمع منهم ، ثم أرسل إليهم فحضروا وقد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان ، فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من الملل ؟ وهنا تقدم جعفر بن أبي طالب ، مفوضاً من المسلمين . وقال : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم ، فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قوماً فعدبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا

علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك أيها الملك ، فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيئاً ؟

فقال له جعفر : نعم وقرأ عليه صدر سورة مريم : **(كَهَيْعِص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) [مريم: ١-٣]** واستمر حتى **(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) [مريم: ١٥]** وكان ذلك فطنة من جعفر في الاختيار ، فقد اختار قصة زكريا ويحي وهما النبيان اللذان عاصرا المسيح عليه السلام . ولا اختلاف بين ما قصته التوراة وما جاء في القرآن عنهما . فلما سمع النجاشي ما جاء في القرآن بكى حتى اخضلت لحيته ، وقال : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وهنا وجه كلامه إلى المبعوثين وقال لهما : انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ^(١).

محاولة أخيرة من مبعوثي قريش لردّ المهاجرين :

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما يستأصل جماعتهم ، ثم غداً على الملك في الغد وقال : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه . فأرسل النجاشي إليهم ، فلما جاءوا قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها على مريم العذراء البتول ، فلما سمع النجاشي هذا أخذ عوداً من الأرض ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، فتناحرت بطارقه حوله .. فقال لهم : وإن نُحَرِّمَ الله .. ثم وجه كلامه إلى المسلمين قائلاً : اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي ، من سبكم غم ، وما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم ، ثم وجه كلامه إلى حاشيته وقال : رُدُّوا عليهما (مبعوثي قريش) هدايها فلا حاجة لي بها فخرجا من عنده عائدين إلى مكة مقبوضين ، مردوداً عليهما ما جاء به .. وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار .

(١) - مسند أحمد و قال الشيخ أحمد شاكر مصحح المسند إسناده صحيح (٣/١٨٠) .

إسلام عمر وحمزة

لما أخفق المشركون في مكيدتهم وفشلوا في استرداد المهاجرين ، استشاطوا غضباً فاشتدت ضراوتهم على بقية المسلمين وقد أثرت هجرة هؤلاء النفر من المسلمين (أكثر من مائة فرد) بشكل كبير على قوة ما تبقى من مسلمين مكة ، لكن الله عوض هذا النقص العددي بإسلام اثنين من أهم الصحابة الذين زادا المسلمين قوةً ودعماً . وهما : حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب .

إسلام حمزة بن عبد المطلب :

كان إسلامه في أواخر السنة السادسة من النبوة وسبب إسلامه : أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا ، فأذاه ونال منه ، والنبي ﷺ جالس تحف به المهابة ولم يشأ أن يرد عليه وانصرف ، وكانت جارية لعبد الله بن جدعان ترى وتسمع سفاهة أبي جهل ، فلما مر بها حمزة بن عبد المطلب عائداً من رحلة صيد وقد تقلد قوسه وحمل سهامه ، فقالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام (أبو جهل) وقصّت عليه ما حدث ، فاستولى الغضب على حمزة وأسرع نحو الحرم ليطوف بالكعبة كعادته إذا عاد من الصيد ، وبعد الطواف وجد أبا جهل جالساً في قومه ، فسار نحوه ولما قام على رأسه قال : أتشتم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم ضربه بالقوس فشجه ، فثار بنو مخزوم لأبي جهل وثار بنو هاشم لحمزة ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنني سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، ولما خلا حمزة إلى نفسه ، جعل يفكر في أمره وكيف غلبه الحماس لابن أخيه ، فجعله يعلن إسلامه وترك دين آبائه ، فلما تضرع إلى الله ، شرح الله صدره للإسلام ، فذهب إلى رسول الله ﷺ وأسلم ، كان حمزة أعز فتى في قريش وأشدّهم شكيمة وأنفة وانتصاراً للحق ، فأدركت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع (١).

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٢ .

إسلام عمر بن الخطاب :

كان عمر بن الخطاب معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة وصلابة الرأي ، وطالما لقي المسلمون منه أذى شديداً ولكنه بداخله إنسان عطوف ، حنون فكان يشبه ثمرة الفاكهة التي تتميز بحلو الطعم وجمال الرائحة ، إلا أن لها قشرة جامدة من الخارج تخفي ما بداخلها من حلو الطعم وجمال الرائحة ، وكان عمر بن الخطاب متأثراً بخروج المهاجرين وترك أهليهم وديارهم وحزن على فرقة كثير منهم ، فذهب يوماً ليرى صديقاً له قرر الهجرة - عامر ابن ربيعة وزوجته - فلما ذهب لم يجد الزوج ووجد الزوجة ، رآها تتهبأ للرحيل والهجرة ، فسألها وينبوع الرحمة في نفسه يتحرك ، أنتطلقون يا أم عبد الله ؟ قالت المرأة ثائرة : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، فقد آذيتونا وقهرتمونا ، نطلق حتى يجعل الله لنا فرجاً ، قال عمر وقد تأثر بكلامها: صحبكم الله ، وقد رأيت أم عبد الله بإحساس المرأة في وجهه رقة وحزنا ، فلما عاد زوجها وحدثته بما حدث ، وما أحست به من رقة عمر وحزنه ، فقال زوجها : أراك تطمعين في إسلام عمر ، قالت : ولم لا؟ فرد عليها قائلاً : والله لا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب ^(١) - كناية عن استحالة إسلامه - قالها الرجل من شدة ما كان يحدث من عمر من اضطهاد وأذى للمسلمين ، غير أن إحساس المرأة الداخلي كان أقوى وأصدق من حكم الرجل .

عمر يقرر قتل رسول الله ﷺ :

أما عمر فجلس يفكر فيما سمع من هذه المرأة ثم قرر أن يقتل رسول الله ﷺ ، إذ لولاه ما رحل هؤلاء من ديارهم ، فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله ﷺ ، وبينما هو في الطريق لقيه صديق له .. نُعيم بن عبد الله ، فلما عرف قبلة عمر وما ينوي عليه قال له : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً ؟ ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال عمر : وأي أهل بيتي ؟ قال : أختك فاطمة وابن عمك زوجها سعيد بن زيد ، فقد أسلما وتابعا محمداً على دينه .

(١) - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي .

فرجع عمر واتجه إلى بيت أخته وزوجها ، وكان عندهما خَبَاب بن الأُرْت ، ومعه صحيفة يُقرئهما ما فيها من القرآن ، فلما دنا عمر من البيت ، سمع قراءة خباب ، فدقَّ الباب فلما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب في ركن من أركان البيت ، ودخل عمر وقال : ما هذه الهيئمة التي سمعتها ؟ فقالت فاطمة : ما سمعت شيئاً ، فقال : بلى لقد أُخبرْتُ أنكما بايعتما محمداً على دينه ، ولطم سعيد بن زيد - زوج أخته - فلما قامت فاطمة لتدافع عن زوجها ، ضربها عمر فشجها فلما رأت الدم قالت : يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمنا ، فكان هذا الدم من وجه أخته بمثابة السكين الحاد التي كسرت تلك القشرة الجافة الجامدة ، لتُظهر حقيقة وحلاوة ما بداخل الثمرة .. عمر بن الخطاب ، فلما رأى الدم رقَّ قلبه لها ودخل وجلس ، فإذا بالصحيفة في ناحية من البيت ، فقال : ما هذه الصحيفة ؟ أعطينيها ، فقالت أخته : إنك نجسٌ ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ثم أخذ الكتاب فقرأ :

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى [طه: ١-٣] وظل يقرأ حتى انتهى إلى قوله : (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤]

عمر ينشر صدره للإسلام :

ولما انتهى من قراءة الصحيفة اغرورقت عيناه بالدموع وقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فخرج خباب من مخبئه وقال : يا ابن الخطاب أبشر إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبو جهل) أو بأحبهما إليك))^(١) فقال عمر : فدُلّني يا خباب على محمد .

فأخذ عمر سيفه وتوشحه ثم سار حيث رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فقام رجل ينظر من ثقب الباب فرآه متوشحاً سيفه ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن

(١) - مسند الإمام أحمد رقم ٥٦٩٦ / عند الترمذي : اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب .

الخطاب متوشحاً سيفه ، فقال حمزة : افتح له الباب فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فلما دخل عمر على رسول الله ﷺ فلقى رسول الله ﷺ وجذبه جذبة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ؟ فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم ، وكان هذا في أواخر السنة السادسة (ذي الحجة) من النبوة (١) ، وبعد أيام ثلاث من إسلام حمزة .

انتشار خبر إسلام عمر :

ولما أسلم عمر سأل : أي قريش أنقل للحديث ؟ كما نسمي في أيامنا هذه " وكالة الأنباء واسعة الانتشار " ف قيل له : جميل بن مُعمر الجمحي ، فراح إليه عمر وقال له : يا جميل إنني قد أسلمتُ ، فلم يرد عليه كلمته حتى قام عامداً إلى المسجد لنشر هذا الخبر " خبر عاجل " ونادى بأعلى صوته : يا قريش إن ابن الخطاب قد صبأ ، وعمر خلفه يقول : كذب ولكني أسلمت وأمنت بالله وصدقت رسوله ، فتكاثر عليه شبان قريش ورجالها وضربوه ضرباً مبرحاً حتى تصدى له العاص بن وائل السهمي وقال : خلوا عن الرجل ، فخلوا عنه ، ثم راح عمر يفكر في أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ فتذكر أبا جهل ، فانطلق إليه ودق عليه الباب ، فخرج أبو جهل وقال : مرحبا يا ابن أختي ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك إنني قد آمنت بالله ورسوله محمد ، فضرب أبو جهل الباب في وجهه وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به .

عمر - الفاروق - المسلمون يخرجون للصلاة جهراً :

وكان المسلمون قبل إسلام عمر ﷺ لا يستطيعون أن يصلوا عند الكعبة آمنين ، فلما أسلم عمر قال لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ فقال رسول الله ﷺ :

(١) - فضائل الصحابة للإمام أحمد .

" بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم " (١) فقال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، وخرج المسلمون لأول مرة في صفين : حمزة في أحدهما وعمر في الآخر ، حتى وصلوا المسجد وطاف رسول الله ﷺ والمسلمون معه وصلوا مطمئنين ، ثم رجعوا إلى دار الأرقم وقد علت قريشا كآبة لم يُصبهم مثلها ، ونظر النبي ﷺ إلى عمر الذي فرق الله به بين الحق والباطل وقال في رضا واستبشار : " الفاروق " فأصبح يُلقب بالفاروق عمر ، وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما زلنا أعرّة منذ أسلم عمر .

قريش تغير من تعاملها مع رسول الله ﷺ :

وقد فت إسلام عمر في عضد قريش ، فأتمرت مرة أخرى ما تصنع بعد أن زادت قوة المسلمين ، فكان موقف قريش غير ما كانت عليه قبل إسلام عمر وبدأت تعيد النظر في طريق تعاملها مع رسول الله ﷺ .

مفاوضات ومساومات قريش

اختارت قريش أسلوب المفاوضات وتقديم الرغائب والمغريات ثم المساومات والتنازلات .

أولا : مفاوضات زعماء قريش مع رسول الله ﷺ :

فقد بدأت المفاوضات بين زعماء قريش ورسول الله ﷺ ترغيبا ثم انتهت تعجيزاً

محاولات الترغيب :

اجتمع زعماء قريش عند الكعبة وقرروا إعادة طرح ما عرضه عتبة بن ربيعة على رسول الله . ذكرناه سالفا . وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرضه عتبة وحده لأنه لم يرد على عتبة رداً صريحاً ، بل تلا عليه آيات لم يفهمها عتبة ورجع من حيث جاء . فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بدعوته ، فجاءهم يرجو خيراً ، فلما جلس إليهم قالوا

(١) - صفة الصفوة (ج١/٢٦٨) .

مثل ما قال عُتْبَةُ وعرضوا عليه نفس المطالب ، فلما فرغوا قال لهم رسول الله ﷺ : " ما بي ما تقولون ، ما جئتم بما جئتم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكني بعثني الله إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " (١) أو كما قال .

عبس وتولى :

وفي هذه الأثناء والرسول يحاور زعماء قريش طامعاً في إسلامهم ، إذ أقبل عليه عبد الله بن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى من المسلمين رقيق الحال ، جاء يسأل رسول الله ﷺ في مسألة ، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه كلامه ، وأعرض عنه ، فكان عتاب شديد من الله لنبيه .

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) [عبس: ١-١٢]

والعتاب يكون دائماً بين الأخلاء ، فعاتب الله نبيه لإعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم ، وتفضيله صناديد قريش عليه ، وكان رسول الله ﷺ كلما رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي . ويقول له : هل من حاجة ؟ (٢)

عوداً إلى مفاوضات قريش، فلما فشلت تلك المحاولة مع رسول الله ﷺ .. " الترغيب " بدأوا في أسلوب آخر .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام .

(٢) - أخرجه بن جرير في التفسير و إسناده ضعيف .

٢- طلب المعجزات - محاولات التعجيز :-

فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتي لهم بأشياء مستحيلة على سبيل التعنت والتعجيز ، وليس التأكد من صدق رسالته ، فكان من بين ما طلبوا :

- أ. إن أرض مكة ضيقة عليهم ، فيدعو لهم الله ليسيّر الجبال فنتسع الأرض.
 - ب . إن أرض مكة جدياء ، فطلبوا منه أن يفجر لهم ينبوعا فتجرى الماء عيوننا
 - ج. أن يُحي الموتى ولا سيما قصي بن كلاب ليكلموهم ويسألوهم عن صدق رسالته .
 - د. يرسل لهم ملكاً يراجعونه فيه .
 - هـ . وانتهوا إلى طلب العذاب : أن يُسقط عليهم كسفاً من السماء .
- ولما لم يجد رسول الله ﷺ منهم خيراً ، قام عنهم وانصرف إلى أهله حزينا أسفاً لما فاته مما طمع فيه من قومه .
- فكان رد الله سبحانه وتعالى على هذه التعنتات بقوله :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا عَيْنٌ يُنْفِثُ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَيِّبًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا سَحَابٌ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً عَذْبًا وَّطَيِّبًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرْحٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) [الإسراء : ٩٠-٩٦]

وقال تعالى أيضاً رداً عليهم : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) [الرعد : ٣١]

ثانياً : المساومات والتنازلات :

لما فشلت قريش في مفاوضتها المبنية على الإغراء والترغيب ثم التهديد والترهيب والتعجيز . فرأوا أن يُساوموا رسول الله ﷺ في أمور الدين فكان من بين هذه المساومات :

١- نعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد :

قالوا لرسول الله ﷺ : هلم نعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فتعبد آلتهنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) [الكافرون : ١-٦] وحسم الله تعالى هذه المساومة المضحكة .

٢ . طلب إجراء بعض التعديلات في القرآن :

ولم تياس قريش بل أبدوا مزيداً من التنازلات بشرط أن يجري رسول الله ﷺ بعض التعديلات فيما جاء به من التعليمات ، فكان رد الله سبحانه عليهم حاسماً في قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۖ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ۗ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ۗ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۗ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [يونس : ١٥] .

٣ . مساومات النضر بن الحارث :

كان النضر بن الحارث أحد شياطين قريش ، وكان قد قدم من الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها فأخذ كلما جلس رسول الله ﷺ مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ويحذرهم عاقبة من قبلهم من الأمم التي أعرضت عن عبادة الله ، يأتي هذا الشيطان يخلف رسول الله ﷺ في مجلسه ويقص عليهم أحاديث فارس ودينها ، ثم يقول : بماذا يكون محمداً أحسن مني ؟ أليس يتلو من أساطير الأولين ما أتلو ؟

لسان عربي مبين :

وكانت قريش تذيع أحاديث النضر ولم تكتف بهذا فحسب بل ادعوا أن النبي ﷺ يستمع إلى جبرا الرومي - غلام عامر بن الحضرمي - وكان غلاماً نصرانياً يقرأ التوراة والإنجيل ، وأنه هو الذي يُعلم رسول الله ﷺ أكثر ما يأتي به ، وروجت قريش لزعمها هذا ، فنزل قوله تعالى دحضاً لزعمهم : **(وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)** [النحل : ١٠٣] إذا كان هذا - جبرا الرومي - الذي يدعون أنه يعلم رسول الله ﷺ أعجمياً لا يعرف العربية والقرآن جاء بلسان عربي مبين .

٤ . قريش تسأل اليهود عن رسول الله :

لما أظلمت كل السبل أمام المشركين ، استقر رأيهم أن يبعثوا رسلاً إلى أحبار اليهود يثرب يسألونهم عن رسول الله ﷺ فبعثوا النضر بن الحارث وعُقبه بن أبي معيط ، وهما - كما أسلفنا - من أكثر رجال قريش عداوة لرسول الله ﷺ قالوا لهما : اسألاه عن محمد وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله فإنهم أهل كتاب وعندهم ما ليس عندنا من علم ، فلما وصلا الرجلان إلى يثرب وقابلا الأحبار ، فلما فرغا من وصفهما لرسول الله ﷺ وما جاء به ، قالوا لهما : كل ما تقولانه يدل على أنه الرسول المنتظر ، ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم ثم قالوا لهما : سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فهو مُتَقَوْل .

• سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه كان لهم حديث عجب .

• سلوه عن رجل طواف ، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟

• سلوه عن الروح ، ما هي ؟

فلما رجع النضر وعُقبه إلى قريش قالوا لهم : لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً :

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه عن الثلاثة الأشياء .. فقال لهم رسول الله ﷺ : " أخبركم ما سألتكم غداً " (١) ولم يقل إن شاء الله ، وانصرفوا وراح النبي ﷺ يتربقب الوحي ، والوحي لا ينزل عليه ، فراح الكفار يسخرون منه ويستتهزون ، وفيما هو في قمة أحزانه نزل الوحي ، قيل بعد أسبوعين ، وقيل بعد ٤٠ يوماً .

وقبل الإجابة على الأسئلة نبه الله نبيه ﷺ وفيها تعليم لنا أيضا ، بأن يعلق عزائمه دائماً بمشيئة الله فكان قوله (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا) (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) (٢٣) [الكهف: ٢٢-٢٣]

الإجابة عن الأسئلة الثلاث

ثم كانت الآيات لتجيب على الأسئلة .

• إجابة السؤال الأول : (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) [الكهف: ٩-١٠] .

واستمرت الآيات ترصد قصة أهل الكهف كاملة حتى قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرُ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) [الكهف : ٢٦]

• أما إجابة السؤال الثاني : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) [الكهف: ٨٣-٨٥] واستمرت الآيات تحكي قصة ذي القرنين كاملة .

(١) - موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر لابن حجر .

. أما إجابة السؤال الثالث فكانت: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَقُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا

أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء : ٨٥] هذه كانت نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ وقد مارسوا ذلك متقلبين من طور إلى طور ، فمن شدة إلى لين ، ومن جدال إلى مساومة ، ومن تهديد إلى ترغيب ، وهكذا ، لكنهم لم يؤمنوا رغم وضوح الحجة وبيان الرؤية .

لماذا لم يؤمنوا ؟

هناك سؤالان لا بد من الإجابة عليهما :

١ . هل كانت قريش تشك في نبوة رسول الله ﷺ ؟

٢ . إن كانت لا تشك فلماذا لم يؤمنوا به ويتبعوه ؟

أولاً : السؤال الأول :

هل كانت قريش تشك في نبوة رسول الله ﷺ ؟

والإجابة : لا ، لم تكن قريش ولا ساداتها يشكون في نبوة رسول الله ﷺ وعلى ذلك أدلة كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ . عُتْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ :

لما طلق بنت رسول الله ﷺ أتى يوماً إليه وقال : إني أكفر ب (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)

[النجم : ١] وبالذي (دَنَا فَتَدَلَّى) [النجم : ٨]

ثم تسلط عليه ﷺ بالأذى وشق قميصه وتقل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال : " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك " (١) ، فكان الخوف والفرع يملآن قلب عُتْبَةَ ، فهو يعلم أن دعاء النبي ﷺ مستجاب ، فكان دائماً يخرج في نفر من قريش ، وفي أحد الأسفار سلط الله عليه كلباً من كلابه ، فكان أسد أتى عليه رغم

(١) - رواه ابو نعيم في الدلائل و الحديث حسنه الحافظ بن حجر في فتح الباري (٤/٣٤) .

ما جعل عليه من حراس ينامون حوله ، وقام الأسد يتخطى الحراس وكسر رأسه فقال وهو يموت : " والله أكلني كما دعا على محمد ، قتاني وهو بمكة "

٢ - أبو جهل :

حدث أن وفد على مكة تاجرٌ إراشي ومعه قطيع من الإبل فاشتراه منه أبو جهل ، ثم أخذ يماطله في دفع ثمنها فذهب الرجل إلى المسجد الحرام وأخذ يستجير بالمجتمعين في أندية قريش ، فما كان منهم إلا أن دلوه على رسول الله ﷺ سخرية منهم ، وقالوا له : إن هذا الرجل هو الذي يستطيع أن يأخذ لك حقه منه ، فلما سرد الرجل قصته على رسول الله ﷺ وانطلق به قاصداً بيت أبي جهل ، استولت الدهشة على المشركين فقالوا لرجل منهم : اتبعهما فانظر ماذا يصنع ، فضرب رسول الله ﷺ باب أبي جهل ، فلما خرج قال له رسول الله ﷺ بصوت الأمر : " أعط هذا الرجل حقه " قال أبو جهل وقد امتنع لونه : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، ودخل المنزل ثم خرج بحقه فدفعه إليه .

وعندئذ انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشي : " الحق بشأنك " ، فلما عرفت قريش بما حدث انتظروا لما جاء أبو جهل وقالوا له : ويلك ما رأينا مثل ما صنعت قط ، قال : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب علي الباب وسمعت صوته فمئنت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلٍ ما رأيت قبل هامته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلني .. (١)

٣ - أبو سفيان وأبو جهل والأخنس :

خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل (عمرو بن هشام) والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه ، وكان رسول الله ﷺ يقوم الليل يرتل القرآن في هدوء وسكينة ، فما أعذب من سماع القرآن وما أحلى من تلاوته من رسول الله ﷺ ، فلما كان الفجر تفرق المستمعون وهم عائدون إلى منازلهم ، فرأى بعضهم البعض ، وعلم كل منهم

(١) - رواة ابن إسحاق في سيرة ابن هشام (١/٣٨٩) .

أمر صاحبه فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم الناس لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمد عليكم .

فلما كانت الليلة الثانية ، شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأنّ رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه بالأمس وليستمع إلى رسول الله ﷺ يتلو كتاب ربه ، وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر ، وتلاوموا من جديد ، فلم يحل تلاومهم من الذهاب في الليلة الثالثة ، فلما أدركوا ما بهم من ضعف لدعوة رسول الله ، تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، وقد ترك رسول الله في نفوسهم أثراً كبيراً ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال السردها جميعاً .

ثانياً : السؤال الثاني :

ما منعهم من الإيمان برسول الله وأتباعه رغم كل ما رأوا من آيات ؟

والإجابة : أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية :

١- المنافسة والحقد والحسد :

ومن أمثلة ذلك :

أ. الوليد بن المغيرة :

لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ كان يقول : " أينزل على يتيم ابن عبد المطلب وأترك أنا عظيم قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين؟ ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) [الزخرف: ٣١- ٣٢]**

ب . أبو سفيان بن حرب :

لما سُئل أبو سفيان لماذا لا تتبع محمداً ؟ رغم ما سمعت من حلو القرآن ، وأصر على سماعه ثلاث ليالٍ متتالية - كما أسلفنا - فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،

أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : فينا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه ، ومعلوم أن أبا سفيان من بني أمية ، وقد ذكرنا ما كان بينهم وبين بني عبد مناف من صراع .. أنفا .

٢- الخوف على مكانة أشراف قريش :

كان خوف سادات قريش على مالهم وجاههم وسلطانهم ، وهم لا يعرفون غير هذه الحياة ، حقائق ملموسة ، فلما رأوا وسمعوا بهذا الدين وهو يؤاخذهم في كثير مما يرتكبون ، وهو لا يفرق بين الأعمى ومن استغنى بماله ، فكان خوفهم من تزايد أنصار رسول الله ﷺ وما يمكن أن يكون لديه من سلطان عليهم ، وقد يمتد ذلك إلى العرب في مختلف أنحاء الجزيرة .

٣- الفرع من البعث والحساب :

سبب ثالث منع قريشا من متابعة رسول الله ﷺ وهو فزعهم من البعث ومن عذاب جهنم يوم الحساب ، فقد كانوا قوماً مكّبين على اللهو مسرفين فيه ويتخذون من التجارة والربا إليه الوسيلة ، ولا يرى الغني منهم في شيء من هذه الأشياء رذيلة يتجافى عنها ، ثم كان لهم من التقرب إلى أصنامهم ما يزعمون أن يكفر عنهم سيئاتهم وذنوبهم ، فبحسب الرجل أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه ، فلا يعفّ أن يرتكب الفحشاء ما دام قديراً على رشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور ، وهذا هو رسول الله ﷺ يعلن إليهم آيات مرهبة تتخلع من هولها القلوب ، وإن ربهم لهم بالمرصاد وإنهم مبعوثون في الآخرة خلقاً جديداً ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ ﴿٤٢﴾ [عبس: ٣٣ - ٤٢]

المقاطعة العامة

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل ، ووجدوا بني هاشم وبني عبد المطلب كلهم إلا أبا لهب مصممين على حفظ رسول الله ﷺ ، فكان على قريش التفكير في أسلوب جديد لمحاربة رسول الله ﷺ .

بداية المقاطعة :

فاجتمع كفار قريش وتحالفوا على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ، وهذا ما يسمى في عصرنا الحصار الاقتصادي " أو " العقوبات الاقتصادية " التي تفرضها الدول الكبرى على من لا ترضى عنهم من الدول الصغيرة وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة فيها عهود ومواثيق : ألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

رد فعل أبي طالب :

ورأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على عشيرته ، فجمع بني هاشم وبني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا في شُعب أبي طالب وانحاز كل بني هاشم وبني عبد المطلب مسلمهم وكافرهم إلا أبا لهب، انحاز لقريش كما دخل الشُعب أيضاً عديد من المسلمين طواعية للاشتراك في حماية رسول الله ﷺ مع أنهم لم يكونوا من بني هاشم أو بني عبد المطلب والشُعب هو ما يمكن تشبيهه بشارع ضيق وليس له إلا مدخل واحد ، إذا تم تأمينه أصبح سكانه في منعة ، حيث كان عليه مساكن العشيرة ، فكان دخول بني هاشم في شُعب أبي طالب في محرم من السنة السابعة للنبوّة .

المعاناة داخل شُعب أبي طالب :

- ضرب كفار قريش حول الشُعب نظاماً من الحراس يمنعون الحركة من وإلى الشُعب .
- إن استطاع بعض المسلمين والمحاصرين مغافلة الحراس وورود الأسواق ليشتروا

طعاماً ، فكان أبو لهب لهم بالمرصاد فيُحرض عليهم التجار على أن يُغالوا في الثمن حتى لا يقدرُوا على شراء شيء منهم ، ويقول لهم : أنا ضامن أن لا خسارة عليكم ، فسوف أشتري منكم ما يعجزون عن شرائه وكذلك كان يفعل كثير من المشركين .

• راح الجوع يطارد سكان الشَّعب من أتباع رسول الله ﷺ فعمدوا إلى الحجارة يشدونها على بطونهم تخفيفاً لألم الجوع . وكانوا كلما اشتد بهم الجوع لجئوا لأوراق الشجر ليأكلوها .

والأمثلة كثيرة على صبر وكل أتباع رسول الله ﷺ نسوق منها .

سعد بن أبي وقاص :

بلغ به الأمر أنه خرج يوماً لبعض حاجته ، فسمع قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذها وغسلها ثم أحرقها وفتتها ليسفها بالماء . وكان ذلك طعامه لثلاثة أيام ، وما كان سعد بن أبي وقاص إلا مثالاً من أمثلة كثيرة للصبر والجلد لأتباع رسول الله ﷺ ، فلم يقل ذلك منهم بل ازدادوا إصراراً على نصرته .

دوريات لحراسة رسول الله ﷺ :

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فإذا كان الليل ونام الناس أمر أحد بنية أو إخوته بحراسة رسول الله ﷺ في فراشه ، وكانوا يتناوبون ذلك طوال الليل ، وكان هناك حزن عام من بني هاشم على ما أصابهم رغم ما لهم من فضل على العرب .

استمرار الدعوة رغم الحصار :

أما رسول الله ﷺ والمسلمون فكانوا يخرجون في أيام الحج والمواسم خاصة الأشهر الحرم ، ويقابلون الناس ويدعونهم إلى الإسلام ، وظلت الدعوة مستمرة والوحي ينزل رغم الحصار الذي استمر هكذا ثلاث سنوات ورسول الله ﷺ وأتباعه في صبر وجلد ، فلم يشتك أحدٌ منهم من جوع أو برد أو شقاء ، ولم يُسجل أن أحداً منهم ترك الإسلام وهذه المعيشة الصعبة إلى الراحة والرخاء ، فنالوا رضاً من الله ورحمة .

بوادر كسر الحصار :

كان ما أصاب رسول الله ﷺ من الأذى في سبيل دعوته شفيعه عند كثيرين ، حتى لقد زادهم ما سمعوا من ذلك عليه عطفاً ، وعلى دعوته إقبالا، فنالت دعوته تعاطفاً من كثيرين ، فكان هشام بن عمرو بن ربيعة من هؤلاء فقد كان ذا شرف في قومه ذا مروءة فأتي ببيعر وحمله طعاماً وساقه حتى أول الشعب ، ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب يعدو ، فأمسك به المسلمون وساقوه إلى رسول الله ﷺ مستبشرين ، فأعطى رسول الله ﷺ منه أصحابه حتى شبعوا ، وكرر هشام بن ربيعة فعله هذا عدة مرات ، وكان حكيم بن حزام يحمل قمحاً إلى عمته خديجة " رضي الله عنها " وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البخترى ولكنه منعه من حمل القمح إلى عمته .

حزب معارض للحصار :

كان هشام بن عمرو يصل بني هاشم .-كما أسلفنا - وكان هواه معهم فلما ضاق صدرأ بما يحتمل رسول الله ﷺ وأصحابه من الأذى فمشى إلى زهير بن أبي أمية ، كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث علمت لا يباعون ، ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا يُنكح منهم ؟ أما إنني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال الحكيم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ، ما أجابك إليه أبداً ، قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقت في نقض الصحيفة حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلا ، قال : من هو ؟ قال : أنا . فقال له زهير ابغنا ثالثاً .

فاتفق الرجلان على نقض الصحيفة ونجحا في ضم آخرين لهم سراً ، فكانوا حزباً قوياً معارضاً للصحيفة والحصار ، وكان هذا الحزب بالإضافة إلى هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية ، انضم إليهما : المطعم بن عدي بن نوفل وأبي البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود ، وهكذا التقت إرادة هؤلاء الخمسة على نقض الصحيفة وإنهاء الحصار .

نقض الصحيفة وإنهاء الحصار :

وفي الغد وقف زهير بن أبي أمية وعليه حلية بعد أن طاف بالبيت سبعا، ونادي في الناس حول الكعبة : يا أهل مكة ، أأناكل الطعام وبنو هاشم والمطلب هلكي ، لا يباع ولا يُبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال أبو جهل وكان في ناحية من المسجد : كذبت والله لا تُشَق ، فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، ثم قال أبو البختری : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِبَ بها ولا نُقر به ، وقال المطعم بن عدي : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها ومما كُتِبَ فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك فُبُهت أبو جهل وقال : هذا أمر فُضِيَ لبليل ، وانثَق عليه بغير هذا المكان وأثر السلامة وانسحب بينما ظل القوم يتجادبون الرأي ، وكان رسول الله ﷺ قد قال الأبي طالب : " يا عم إن الله سلط الأرضة على صحيفة قريش فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عز وجل " باسمك اللهم " (١) فقال أبو طالب : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، فخرج أبو طالب إلى قريش وشاهد ما حدث بين أبي جهل ومعتري الصحيفة ، فلما فرغوا وقف أبو طالب وقال : يا معشر قريش ، إن ابن أخي أخبرني كذا وكذا ، فهلّم إلى صحيفتكم ، فإن كان كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وإن كان كاذبا دفعته إليكم لتقتلوه ، قالوا : قد أنصفتنا ، فقاموا إلى الصحيفة ليفتحوها فإذا بالأرضة قد أكلت ما كان فيها ولم يبق إلا اسم الله ، كما أخبر رسول الله ﷺ فمزقت الصحيفة ورفع الحصار وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب وهم يهتفون .. الله أكبر .. الله أكبر وكان زهير والذين معه قد وقفوا شاهرين سيوفهم مستعدين لملاقاة من يتعدى عليهم .

مرض أبي طالب - آخر محاولات قريش معه :

خرج رسول الله ﷺ من الشعب بعد ثلاث سنوات عجاف ، والرسول ما زال يعمل على شاكلته ، وقريش لم يزلوا عاملين على شاكلتهم ، أما أبو طالب فلم يزل يحوط بابن

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٥٣ .

أخيه ، وكان قد جاوز الثمانين من عمره ، وكانت الآلام والحوادث الجسم لا سيما حصار الشعب قد أوهنت عضده ، فبدأ المرض يلاحقه ، فلما بلغ قريشاً ثقل مرضه وأنه مرض الموت خشيت من سوء سمعتها إن أتوا بعد وفاته بمنكر لابن أخيه ، وخاصة بعدما فشا أمر رسول الله ﷺ وزاد أتباعه ، وفيهم حمزة وعمر ، فمشوا إلى أبي طالب ليكلموه في أمر ابن أخيه ، وفيهم من أشرف قريش عنتبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب وآخرون ، فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ ، فلما جاءه قال له : يا ابن أخي هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله : " نعم ، هي كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب وتدين لهم العجم " ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك بل عشر كلمات . فقال رسول الله ﷺ : " تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه " (١) فصقوا بأيديهم استياءً ، ثم قالوا : أتريد أن نجعل الآلهة إلهاً واحداً إن أمرك لعجب ، وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ... ثم تفرقوا .

(١)- رواية الحاكم وصححه وأقره الذهبي .

عام الحزن

وفاة أبي طالب :

مضى هذا اللقاء ، وألح المرض بأبي طالب ، وها نحن في السنة العاشرة من النبوة ، فلما اشتد المرض بأبي طالب وحضرته المنية دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل فقال : أي عم " قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله " (١) فلما هم أبو طالب بالنطق بها قال أبو جهل ومن حضر معه : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ومات أبو طالب ولم يقلها ، فقال رسول الله : ((لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنه)) (٢) فنزلت الآيات (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) [التوبة : ١١٣] ونزلت : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص : ٥٦] ، ومات الحصن الذي احتفى به رسول الله ﷺ والدعوة من هجمات السفهاء ، وفقد رسول الله ﷺ الرجل الذي كان يحوطه برعايته وكان يغدو ويروح يدعو لدين الله مستظلاً بحمايته .

وفاة خديجة :

ولم يمر شهران من وفاة أبي طالب حتى بدأت خديجة تمرض وقد بلغت الخامسة والستين من عمرها وأوهنتها المعاناة وخاصة ما لاقته في الشَّعب ، وهي التي عاشت حياة مرقهة ميسرة ، فقد كانت خديجة (رضي الله عنها) من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ تعبت معه ربع قرن ، تحنو عليه ساعة قلقه ، وتوازره في أحواله ، فلما اشتد عليها المرض وأوشكت على الرحيل إذ جاءتها البُشري : إذ أتى جبريل للنبي ﷺ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشّرها ببیت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

(١)- صحيح ابن حبان عن أبي هريرة رقم ٦٢٧ .

(٢)- صحيح البخاري رواة المُسَيَّب بن حزن ٣٨٨٤ .

فماتت خديجة وفقد رسول الله ﷺ معها ما بقي له من حماية ، وقد نعاها رسول الله ﷺ وقال " آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقني حين كذبنني الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها " (١) .

معاناة رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة :

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ وإن كانت قد أحدثت مشاعر فرحة وارتياح لدى كفار قريش ، فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب ، فكان رسول الله ﷺ يقول : " ما نالت مني قريشُ شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب " (٢) ، ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام من وفاة أبي طالب ثم تلاه خديجة وما تلاه من اشتداد الأذى على رسول الله ﷺ سُمِّي هذا العام حقاً عام الحزن .

(١)- روته أم المؤمنين عائشة و الحديث أخرجه البخاري ٣٨٢١ ، ومسلم ٢٤٣٧ بنحوه مختصراً .

(٢)- الراوي عبد الله بن جعفر أورده الذهبي في تاريخ الإسلام وهو غريب مُرسل .

الخروج إلى الطائف

رغم كل الآلام والأحزان استمرّ رسول الله ﷺ في دعوته وقريش على عنادهم له ، فلما ضاق بهم ذرعاً ، قرر الخروج إلى الطائف وهي تبعد عن مكة كم ، وفيها بنو ثقيف ، وبها يُعبد اللات الذي بنوا له بيتاً ليضاهي الكعبة ، وكانوا يطوفون حوله ، وبينهم وبين قريش صراعٌ على زعامة العرب ، ولكن كان بينهم تجارة ومصالح مشتركة ، وكان أهل قريش يأتون إليها صيفاً للتجارة .

خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف في شوال سنة عشرة من النبوة ، سار إليها ماشياً على قدمه ومعه موله زيد بن حارثة ، وفي الطريق كلما مرّ على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها ، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى ثلاثة من رؤساء ثقيف أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، وهم : عبد يا ليل ومسعود وحبيب ، فجلس ودعاهم إلى الله ، فقالوا له : إن كنت رسولاً حقاً لأنت أعظم خطراً علينا ، لأنه كان سيزيد قريش شرفاً وزعامة عليهم ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي أن نكلمك ، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم : " إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني " (١) لأنه كان يخشى أن يشمت به قومه إذا ما عرفوا بذلك .

وأقام رسول الله ﷺ و بين أهل الطائف عشرة أيام ، يدعو الناس فيها بلا مجيب

الخروج من الطائف وأدى الرسول ﷺ :

فلما أراد الخروج سلطوا عليه سفهاءهم وأطفالهم وعبيدهم ، فوقفوا في صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة ، وزيد بن حارثة يتلقى عنه ، وكان زيد قد أصابه جرح في رأسه ، وظلوا هكذا يرمونه بالحجارة وبكلمات السّفه حتى بلغ بستاناً لُعْتبة وشيبة ابني ربيعة ، فلما التجأ إلى حائط البستان رجع عنه المطاردون ، فجلس رسول الله ﷺ في ظلّ حائط البستان وقد دميت قدماه ، وقلبه مثل بالآلام والحزن والأسف لما أصابه .

(١) - رواها ابن اسحاق في السيرة .

يُطبق عليهم الأخشبين :

وهنا رفع رسول الله ﷺ يده إلى السماء وراح يناجي ربه : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك، لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " (١) .

وهنا ، إذا برسول الله ﷺ يري جبريل في وسط سحابة كانت تُظَلِّ رسول الله ﷺ ، وقال له : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال ، إن شئت يُطبق عليهم الأخشبين (جبلان بمكة) ، وهنا كان رد نبي الرحمة المهداة : " لا ، بل أرجو أن يُخرج الله عز وجل من أصلابهم مَنْ يعبد الله عز وجل وحده ولا يشرك به شيئاً " (٢) فقال له جبريل : صدق مَنْ سَمَّكَ رحمة للعالمين

عداس النصراني :

ولما طال تحديق ابني ربيعة - عُتْبَة وشيبة - في رسول الله ﷺ تحركت نفساهما رحمةً له ، وإشفاقاً من سوء ما لقي ، وبعثا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس ، فقالا له : " خذ قطعاً من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل " ، ففعل عداس ولما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مَدَّ يده قائلاً : " بسم الله " ثم بدأ يأكل ، فنظر عداس دهشاً في وجه النبي ﷺ وقال : إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فقال النبي ﷺ : من أيّ البلاد أنت ؟ ، وما دينك ؟ قال : أنا نصرانيّ من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس في دهش : وما يدريك ما يونس بن متى ، والله لقد خرجت منها وما فيها عشرة يعرفونه ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي .. كان نبياً وأنا نبي (٣) .

(١)- رواية الطبراني في الدعاء ص ٣١٥ .

(٢)- قال ابن خزيمة : انه صحيح الإسناد .

(٣)- السيرة النبوية لابن هشام .

فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبَل رأسه ويديه وقدميه ، وزيد بن حارثة ينظر وقد اغرورقت عيناه بالدمع تأثراً ، ورأي أبناء ربيعة ذلك المشهد فقال أحدهما للأخر : أما غلامك فقد أفسد عليك ، فلما عاد عداس قال له : ويحك ما هذا الذي فعلت ؟ قال عداس : يا سيدي ، ما في الأرض خير من هذا الرجل ، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبيّ فقال له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فإنّ دينك خيرٌ من دينه ، وانصرف رسول الله ﷺ عائداً إلى مكة .

الجن يعقل ما لم يعقله الإنس :

وهكذا انصرف رسول الله ﷺ بعد أن يؤس من أن يسلم أحد من ثقيف ، نحو مكة حتى بلغ وادي نخلة ، وأقام فيه أياماً ، وخلال إقامته هناك بعث الله نَفراً من الجن يستمعون ويعقلون القرآن ، وقد ذكرهم الله في موضعين من القرآن : (**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** (٢٩) **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ**) [الأحقاف: ٢٩-٣٠]

وفي سورة الجن (**قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** (١) **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**) [الجن: ١-٢] فكانت هذه الآيات بُشرى من الله سبحانه وتعالى لنبيه أن هناك من يستمع إليه ، ويعقل ما يُبلغ به ، وإن نصر الله ونجاح الدعوة آتٍ لا محالة أمام هذه البشارات وهذه النصرة ، انقشعت سحابة الكآبة والحزن التي كانت مطبقة على رسول الله ﷺ منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً .

العودة إلى مكة :

صمم رسول الله ﷺ على العودة إلى مكة ، وعلى الاستمرار في الدعوة إلى الله وابلغ رسالته مضى رسول الله ﷺ ومعه زيد حتى وصلا إلى حراء ، فمكثا فيه قبل دخول مكة طلباً في أحد يُجيريه ليدخل مكة في حمايته ، فبعث رسول الله ﷺ إلى الأحنس بن شريق

لُجْبِرَهُ ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجبر ، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال : إن بني عامر لا يجبر على بني كعب ، ثم بعث إلى المطعم بن عدي ، فقال : نعم ، ثم تسلم ودعا بنيه وقومه وأمرهم بحماية رسول الله ﷺ لأنه قد أجاره ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدي على راحلته ونادى : يا معشر قريش ، إني قد أجرتُ محمداً فلا يُهْجِه أحدٌ منكم ، فقال له أبو جهل مستهجنًا : مجيّر أنت أم مُتابع (أي اتبعت محمداً) ؟ فقال : بل مُجبر . وهو ما هداً من روع أبي جهل .

ودخل رسول الله ﷺ مكة آمناً وطاف بالبيت ، ثم صلى ركعتين وانصرف إلى بيته ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة العاشرة للنبوة .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

لم يقنط رسول الله ﷺ من رحمة الله ، وظل مستمراً في دعوته رغم كل ما أصابه من أذى ، فلما كان موسم الحج بدأ رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب ، قبيلة قبيلة . ويدعوهم إلى الإسلام ، وهو ما كان يفعله من السنة الرابعة من النبوة ولكنه زاد أن بدأ يطلب منهم أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يُبلغ ما بعثه الله به ، فكان لا يعلم بمنزل قبيلة إلا وذهب إليهم وعرض عليهم أمره .

ردود أفعال القبائل :

كانت ردود الأفعال من القبائل على عرض الرسول ﷺ أربعة أنواع من الردود :

١- رفض ولكنه برد جميل :

كما فعل بنو كلب وغيرهم من قبائل العرب .

٢- رفض ولكنه بقبح :

كما فعل بنو حنيفة الذين قال فيهم ابن إسحاق : " لم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم " وهم من سيأتي منهم مسيلمة الكذاب . (رهط مسيلمة الكذاب) .

٣- قبول ولكنه مشروط :

كما فعل بنو عامر بن صعصعة لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال رسول الله ﷺ : " الأمر لله يضعه حيث يشاء " (١) فقال الرجل : أفأُتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، وأبوا عليه ، ولما عاد بنو عامر إلى ديارهم تحدثوا إلى شيخ لهم سألهما عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش - أحد أبناء عبد المطلب - يزعم أنه نبي يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا وأنهم لم يوافقوه فقال لهم الشيخ : يا بني عامر هل من مستدرك ؟ لقد فاتكم شيء عظيم . فأين رأيكم كان عنكم ؟

٤ - قبول تام بلا قيد أو شرط :

وهو ما كان من أفراد أمثال : سويد بن الصامت ، إياس بن معاذ ، طفيل بن عمرو الدوسي وغيرهم .. وكانوا بداية لنشر الدعوة خارج مكة وخاصة في يثرب .. وسيأتي لاحقا الحديث عنهم تفصيلا .

(١)- أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية والطبري في التاريخ والحديث مُرسلا .

الإسراء والمعراج

وبينما رسول الله ﷺ يمر بهذه المرحلة وهذه الأحداث الجسام ، وقع حدث زلزل أركان مكة كلها ، بل نقول والتاريخ الإنساني كله وهو الإسراء والمعراج ، وقد اختلف العلماء في تحديد يوم الإسراء ، وفيه أقوال كثيرة ، وإن كان الشائع منها أنه كان ليلة السابع والعشرين من رجب .. ولكن ما يهمنا هو الحدث نفسه ، فكان رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة كثيراً ما يقصد بيت ابنة عمه هند بنت أبي طالب وكنيتها أم هانئ ، وفي إحدى الليالي بينما رسول الله ﷺ نائم في بيتها إذ أتاه جبريل بأمر من الله ليبدأ معه رحلة خاصة ، لم يشرف بمثلها أحد من العالمين .

البُراق :

إذ جاءه جبريل ليؤظفه وسط هدوء وسكون كل شيء حوله ، فلما خرج به من المنزل إذا بدابة فوق الحمار ودون البغل يُقال لها البُراق ، وهو من البُراق أي الضوء ربما لسرعته التي تفوق سرعة الضوء ، ركب رسول الله ﷺ ومعه جبريل وانطلق بهما البُراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركه الله ، وهناك وجد الأنبياء جميعهم في شرف استقبله فنزل من على البُراق وربطه بحلقة المسجد .

رسول الله ﷺ يصلي بالأنبياء :

ثم كان وقت الصلاة ، تساءل الأنبياء : أيهم يكون إماماً في الصلاة ، والرسول ينتظر لمن ستكون إمامة الأنبياء ، وهنا قال جبريل لرسول الله ﷺ إن الله يأمرك أن تصلي بالأنبياء ، فصلى رسول الله ﷺ بالأنبياء إماماً .

إلى سدرة المنتهى :

ثم عرج جبريل برسول الله ﷺ من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، وفي كل سماء من السماوات السبع يرى من آيات ربه الكبرى ، وظل هكذا حتى وصل إلى سدرة المنتهى وعندها جنة المأوى .

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفْتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) [النجم: ١١-١٨] .

وهنا رأى رسول الله ﷺ جبريل على هيئته التي خلقه الله عليها . قيل وله ستمائة جناح ، وكان رسول الله قد رآه أول مرة على هيئته عند غار حراء ، ثم عرج رسول الله ﷺ إلى الجبار ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فكان لرسول الله هذا المقام الرفيع ، والذي لم ينله أحد حتى جبريل لم يقترب أكثر من هذا ، وقال : تقدم يا محمد ، فلما سأله النبي أن يصحبه كعادته ، قال : لو تقدمت لاحترقت .

في حضرة المولى عز وجل :

وهنا دخل الحبيب المصطفى ﷺ في حضرة المولى عز وجل ثم قال مُحيياً الله عز وجل : " التحيات لله والصلوات الطيبات " فرد الحق عز وجل : " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته " فكان هذا السلام وهذه الرحمة والبركة قد اختص الله بها نبيه عليه السلام ، ولكن المبعوث رحمة للعالمين ، لم يستأثر بها لنفسه فرد قائلاً : " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " (١) فكان سلام الله ورحمته على كل عباد الله الصالحين . وهذه العبارات هي بداية التحيات التي يريدها المسلمون في صلاتهم كل يوم .

فرض الصلاة :

وهنا فرض الله سبحانه الصلوات الخمس ، وقال : " يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة منهم عشر أمثالها . أي عشر أمثالها في الثواب والأجر . فتلك خمسون صلاة " وقد قال رسول الله : " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعلمها كتبت له عشرًا ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه شيئًا ، ومن هم بسيئة فعلمها كتبت عليه واحدة " (٢) .

(١)- ليس له أصل في كتب الحديث ولكنه ورد في السير .

(٢)- ورد بنفس المعنى في صحيح البخاري رقم ١٣٥ ، وبلفظ آخر عند مسلم في صحيحه رقم ١٣٠

فكانت الصلاة هي الفرض الوحيد الذي أتى مباشرة من الله سبحانه إلى رسول الله من دون وحي ، وهو ما يعظم شأن الصلاة التي هي صلة بين العبد وربّه ، بعد هذا التشريف والتعظيم عاد رسول الله ﷺ إلى البراق فركبه وانطلق به جبريل عائداً إلى الأرض عند بيت المقدس ومن ثم إلى مكة .

مشاهد مما رأى رسول الله في هذه الرحلة :

وقد رأى رسول الله ﷺ في هذه الرحلة مشاهد كثيرة نعرض لبعض منها وقد تناول هذه المشاهد ببعض من التفصيل كثير من الكتب يمكن الرجوع إليها . وهاك بعض من هذه المشاهد :

١ - عرض عليه ﷺ اللبن والخمر ، فاختر اللبن ، فقال له جبريل : أحببت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

٢ - رأى ﷺ أكلة أموال اليتامى ظلماً : لهم مشافر كمشافر الإبل يقذفون في أفواههم قطعاً من نار فتخرج من أدبارهم .

٣ - رأى ﷺ الزناة : بين أيديهم لحم طيب ، نضج حسن الطعم والرائحة . إلى جنبه لحم غث ، عفن فيأكلون الغث العفن ويتركون الطيب .

٤ - رأى ﷺ النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم : رأهن معلقات بثديهن .

٥ - رأى ﷺ أيضاً : عيراً من أهل مكة في الذهاب والإياب ، فلما أراد أن يشرب ، فشرّب من إناء مغطى ، وهم بعيدون عنها ، كانوا قد خرجوا في طلب بغير لهم ضلت ، وبعد ما شرب ترك الإناء مغطى فلما عادوا كانوا في حيرة من أمرهم ، كيف بالإناء يفرغ وهو ما زال مغطى ولم يشرب منه أحد منهم ؟

كل هذه المشاهد وغيرها كثير ولا يتسع المقام لذكرها كلها .

عودة إلى مكة :

كانت أم هانئ قد قامت في الليل تطمئن على رسول الله ﷺ فلم تجده في فراشه ، فخافت أن يكون عرض له عارض . وعادت إلى فراشها وبعد فترة عادت تتفقده فوجدته نائماً في فراشه ، فاطمأنت وعادت إلى فراشها ونامت وفي الصباح سألته عن تغييره عن فراشه بعض الوقت فقال لها إنه أسري به إلى بيت المقدس ، فقالت في دهشة : من ليلتك ؟ قال : نعم ، فقالت : أنشدك الله ألا تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك ، وخافت أن يجر عليه الأذى والمتاعب ، لكن رسول الله ﷺ لم يأبه بتخوفها وخرج .

قريش تستنكر :

ولما وصل إلى البيت الحرام ، جلس بجوار الكعبة ، فمر به أبو جهل وسأله مستهزئاً : هل كان من شيء جديد ؟

قال رسول الله : " نعم أسري بي الليلة إلى بيت المقدس " .

فردَّ أبو جهل : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . فقال أبو جهل : أرايت دعوت قومك ، أتحدثهم بما حدثتني أم تنكر ما تقول ؟ قال : نعم ، أحدثهم بما حدثتني ، فنادى أبو جهل القوم ولما التفوا حوله قال للنبي ﷺ : حدثهم بما حدثتني به ، فلما قصَّ عليهم النبي ﷺ ما حدث وما رأى من آيات ربه ، جنح الناس وصاحوا مكذبين : أتزعم أنك أتيت بيت المقدس الليلة ، وعدت في ليلتك ؟ قال : نعم . فقالوا : كيف ونحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس شهراً في الذهاب و شهراً في الإياب ، وتزعم أنك أتيت في ليلة واحدة ؟ والله لا نصدقك (١) .

أبو بكر صديقاً :

فسعى الناس إلى أبي بكر ، وكان معروفاً حتى وقتها بأبي بكر بن أبي قحافة ، فلما وصلوا إلى داره وحدثوه بما سمعوا من رسول الله ﷺ ، فقال لهم : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم .

(١)- مصنف ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس .

فقال : لئن قال ذلك فقد صدق ، فوالله إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك .. أصدقه في خبر السماء ، ومنذ ذلك الوقت سُمي أبا بكر الصديق التصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس .

قريش تتحدى مسرى رسول الله

انطلق أبو بكر إلى البيت الحرام ، فإذا برسول الله ﷺ وقد التف حوله كثير من المشركين وهم يكذبونه ، وأبو بكر يُعلن إنه لصادق وكان المشركون يعلمون أن رسول الله ﷺ لم يُزر بيت المقدس من قبل وبالتالي فهو لم يره قط ، بينما كان في القوم كثيرون يعرفون بيت المقدس . فقالوا له في تحدٍّ : صِفْ لنا .

وصف بيت المقدس :

وهنا جلى الله لرسول الله ﷺ بيت المقدس في بثِّ إلهي مباشر من بيت المقدس ، وعرضه أمامه على شاشة عرض عملاقة لم يراها إلا هو ﷺ ، فبدأ ينظر إليها ويصفه وصفاً دقيقاً عجزوا عن تكذيبه .

خبر العير :

فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، هل لقيت منها شيئاً ؟ قال : " نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء ، وقد ضلوا بعيراً لهم ، وهموا في طلبه ، وفي رحالهم قده ماء مغطي ، فعضت فأخذته وشربته ووضعت الغطاء كما كان . فاسألوهم هل وجدوا الماء في القده المغطي حين رجعوا ؟ (١)

وأخذ يرصد لهم تفاصيل دقيقة عن أحوال العير وأخبرهم أنها ستقدم يوم كذا ، وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورك (في لونه بياض إلى سواد أي رمادي) عليه غرارتان مخيظتان ، فخرجوا في ذلك اليوم الذي حدده رسول الله ﷺ ، فرأوا العير قد أقبلت ، يقدمها بعيرٌ أورك وعليه الغرارتان كما قال ﷺ ورغم ذلك كله لم يؤمنوا ، وقالوا : هذا سحر مبين ، ولقد

(١)- أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٠٩ ، والنسائي في تفسيره .

بنى المشركون تكذيبهم لرسول الله ﷺ على المفهوم السائد في عصرهم عن سرعة الانتقال عبر الصحراء باستخدام الإبل وهي تأخذ شهرين أو ثلاثة ذهاباً وإياباً من مكة إلى بيت المقدس ، وعليه فيستحيل على أي شخص أن يذهب ويعود في ليلته وهم لا يعلمون أن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق علمهم ولا حدود لها ، وها نحن في عصرنا الحديث نرى من وسائل الانتقال ذات السرعات الفائقة فالطائرات النفاثة تطير بسرعة ٩٠٠ كم/ساعة والمسافة من مكة وبيت المقدس ١٢٥٠ كم ، فتقطعها الطائرة النفاثة في ساعة ونصف تقريباً .

وهناك ما هو أسرع ، فمثلاً الصواريخ المعدة لإطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية ، فسرعتها حوالي ٨ كم / ثانية ، فيمكن أن تقطع المسافة من مكة إلى بيت المقدس في حوالي ثلاث دقائق .. هذا ما نعلم حتى الآن .. ويخلق ما لا تعلمون .. سبحانه وتعالى .

ملاحظات على قصة الإسراء والمعراج :

هناك عدة ملاحظات ودروس من حادث الإسراء والمعراج نلخصها فيما يلي :

أولاً : القيادة الروحية للمؤمنين :

ألم يكن الله سبحانه وتعالى بقادر على أن يعرج برسوله من مكة ، دون الإسراء به إلى بيت المقدس ؟ بلى فهو قادر على كل شيء ، أما إسرائه إلى بيت المقدس ليعرج به من هناك ، وإمامته ﷺ للأنبياء في الصلاة فيه إعلان بأن القيادة الروحية للمؤمنين والأمة الإنسانية ستؤول إلى رسول الله ﷺ وسيجمع له الله مركزي الدعوة الإبراهيمية ، بيت المقدس والبيت الحرام . وبذلك يكون رسول الله ﷺ بحق إمام القبلتين .

ثانياً : تشريف خاص لرسول الله ﷺ :

فهذه هي المرة الوحيدة التي يكرم الله فيها أحداً من خلقه ، يدعوه ليصعد إليه بجسده وروحه وهو في هذه الحياة الدنيا ، فكان هذا درجة عالية من درجات التكريم والتشريف لرسول الله ﷺ ، وقد كان ﷺ أهلاً لهذا التكريم وذلك التشريف من الله سبحانه وتعالى :

• فقد رأينا إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحي الموتى ليطمئن قلبه : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أُولَٰئِمُّ تُؤْمِنُ ۖ قَال بَلَىٰ ۖ وَكَذَٰلِكَ نَبْيُ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمُّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة : ٢٦٠]

• وكذلك رأينا موسى عليه السلام يسأل ربه أن ينظر إليه ويرد الله عليه باستحالة الرؤية على البشر ، ويفهم الله موسى أن أي كيان مخلوق لا يحتمل تجلي الخالق عليه . (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَن نَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۗ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۗ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [الأعراف : ١٤٣]

• أما عيسى بن مريم عليه السلام فسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم .

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَآرَاقِنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [المائدة: ١١٤]

• أما رسولنا الكريم ﷺ فلم يكن يسأل ربه معجزة خارقة ، ولم يسأل الله الرؤية ، ولم يكن يبحث عن طمأنينة قلبه ، فقد كان حبه الله تعالى من نوع خاص ، يصعب على كبار المحبين وصغارهم فهمه وإدراكه ، فقد تجاوز درجة الإسلام والرضا بل والطمأنينة .

كان كل ما يقلق رسول الله ﷺ هو رضا الله عنه ، لذلك قال لما خرج من الطائف مطروداً جريحاً : " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي " (١) فكان فضل الله عليه عظيماً ، فأوتي سؤاله بغير أن يسأل وأن يجاب إلى ما سأله الأنبياء قبله فلم يجابوا إليه ، فكانت معجزة الإسراء والمعراج خص الله بها نبيه وحبيبه محمد . وكان الله يريد أن يقول لحبيبه المصطفى ﷺ : تعال يا حبيبي لترى أن كوني أكبر من قريش ومن الطائف ومن جزيرة

(١)- رواية الطبراني في الدعاء ص ٣١٥ .

العرب كلها ، فهؤلاء نفر من الجن قد استمعوا لك وآمنوا بك ، وهاك بيت المقدس لتؤم الأنبياء فيه ، اصعد إلى السماوات العلى فمُلكي أكبر وأكبر حتى كان في سدرة المنتهى عندها جنة المأوى .

ثالثاً : الإسراء بالجسد والروح :

يقول البعض بأن الإسراء كان بالروح فقط وليس بالجسد والواقع إنه كان بالروح والجسد معا لأنه لو كان بالروح فقط - أي في المنام - لما اعترض كفار قريش فالإنسان في منامه قد يرى نفسه وقد طار في السماء ، ذهب شرقاً وغرباً ولا غرابة في ذلك ، فاعتراض المشركين وما أتى به رسول الله ﷺ من وصف للمسجد الأقصى وللغير دليلاً على أنه كان بالجسد والروح معاً .

الإسلام يجد النور خارج مكة

انتهت حادثة الإسراء والمعراج آمن من آمن وكفر من كفر ورسول الله ﷺ على عهده باستمرار نشر دعوته ولكنها أصبحت معلقة وكأنه يدور في دائرة مفرغة ، فبدأ في عرض دعوته خارج مكة فكان - كما أسلفنا - يعرض نفسه على القبائل والأفراد وذكرنا كيف كان رد هؤلاء بين من يرد رداً قبيحاً ، ومن يقبل بشروط ومن آمن إيماناً صادقاً ، فقد آمن به عدة من رجال كان قد عرض عليهم الإسلام ، وكانوا نواة لنشر الإسلام في قبائلهم ، وهاك نبذة عنهم :

١ - سويد بن الصامت :

كان سويد بن الصامت شاعراً لبيباً من كبار أشراف يثرب حتى كان قومه يسمونه " الكامل " لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، فلما قدم مكة حاتناً أو معتمراً ، عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، فقال سويد لرسول الله ﷺ : لعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : حكمة لقمان . قال : اعرضها علي ، فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : إن هذا كلام حسن والذي معي أفضل من هذا ، هو قرآن أنزله الله

على هدى ونوراً" (١) فتلا عليه القرآن ، ودعاه للإسلام فطابت نفس سويد لما سمع ، وقال : إن هذا قول حسن وأسلم ، ثم عاد إلى يثرب وكان أول من أسلم من يثرب ، ولكنه ما لبث أن قتل في وقعة بين الأوس والخزرج .

٢ - إياس بن معاذ :

كان إياس غلاماً حدثاً من سكان يثرب ، قم في وفد من الأوس جاءوا إلى مكة يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج ، وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج ، فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم : هل لكم من خير مما جئتم له ؟ فقالوا : وما ذلك ؟ قال : " أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ، أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب " (٢) ثم دعاهم للإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم هذا والله خير مما جئتم له ، فقام كبيرهم أبو الحيسر أنس بن رافع . وأخذ حفنة من تراب ورمى بها في وجه إياس ، وقال : دعنا فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وبعد رجوعهم إلى يثرب ، قُتل إياس في حرب بين الأوس والخزرج ، وقد مات مسلماً .

٣ - أبو ذر الغفاري :

كان رجلاً من قبيلة غفار . فلما بلغه أمر النبي ﷺ ، وما جاء به أرسل أخاه ليكلم النبي ﷺ ، ففعل فلما عاد إليه كلمه فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر . فقال أبو ذر لأخيه : لم تشفني من الخير فما كان منه إلا أن ذهب إلى مكة ، ولما أقبل جلس في المسجد الحرام ، لا يريد أن يسأل أحداً فمرَّ به علي بن أبي طالب فقال : كأنَّ الرجل غريب ؟ قال : نعم . فقال علي : فانطلق إلى المنزل ، وأخذه علي إلى المنزل ، وهو لا يسأله عن شيء . وكان من عادة العرب إذا استضاف غريباً في منزله لا يسأله عن شيء لمدة ثلاثة أيام على الأقل كنوع من كرم الضيافة وإلا سبب إحراجاً للضيف ،

(١)- رواية البيهقي عن الحاكم عن الأصم بأحصر من هذا .

(٢)- ابن كثير في البداية و النهاية عن ابن إسحاق .

فلما أصبح ذهب إلى المسجد ليسأل عن رسول الله ﷺ ، ولا يخبره عنه أحد فمر علي به ، فقال له : أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟ وأخذه إلى المنزل ، وبعد الثلاثة أيام وهو على هذا الحال ، سأله علي : ما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : إن كُتِمتْ علي أخبرتك . قال : فإني أفعل ، فأخبره بما جاء إليه وبرغبته في رؤية رسول الله ﷺ ، فقال علي : أما إنك قد شددت . وأرشده علي إلى حيث رسول الله ﷺ ، فلما دخل عليه قال : اعرض علي الإسلام . فعرضه رسول الله ﷺ ، فأسلم أبو ذر مكانه . فقال رسول الله : " يا أبا ذر ، اكنم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإن بلغك ظهورنا فأقبل " (١) فقال : والذي بعثك بالحق لأخرج بها بين أظهرهم ، ففعل .

ولما خرج إلى المسجد قال : يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقاموا إليه وضربوه ولم يخلصه إلا العباس ، أكبَّ عليه وقال لهم : ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار ، فأقلعوا عنه وهكذا كان أبو ذر سبباً في نشر الدعوة في قبيلته غفار وما حولها .

٤ - طفيل بن عمرو الدوسي :

كان طفيل رجلاً شريفاً ، شاعراً لبيباً ، رئيس قبيلة دوس ، قدم إلى مكة فاستقبله أهلها وبذلوا له أجل التحية والتقدير ، وقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل ، يقصدون رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا إنما قوله كالسحر ، وظلوا على هذا الحال يخيفونه من لقاء النبي ﷺ لكنه أبي الاستماع إليهم ، فلما ذهب إلى المسجد رأى رسول الله ﷺ قائماً يصلي عند الكعبة واستمع للقرآن الكريم يتلوه رسول الله ﷺ في صلاته ، فلما سمعه قال لنفسه: والله إنني رجل شاعر لبيب ، ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته ، وتبع رسول الله ﷺ إلى منزله ، فلما دخل عليه ، وقصَّ عليه قصته وتخويف الناس إياه وقال : اعرض علي أمرك ، فعرض رسول الله لا عليه الإسلام وتلا القرآن

(١)- صحيح البخاري ٣٣٢٨ .

فأسلم وشهد شهادة الحق ، ثم قال لرسول الله ﷺ : إني مطاع في قومي ، وراجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام ، فادعُ الله أن يجعل لي آية ، فدعا له رسول الله ﷺ فكان أن جعل الله له نوراً في وجهه ودعا أباه وزوجته ، وأبلى في الإسلام بلاء حسناً (١) .

٥ - ضِمام الأزدِي :

كان من أزد شئوة باليمن وكان يرقى من هذا الريح ، يُرقى من الجن وخلافه فلما قدم مكة وسمع سفهاءها يقولون : إن رسول الله ﷺ مجنون . فقال : لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلما لقي رسول الله ﷺ قال له: يا محمد إني أرقى من هذا الريح ، فهل لك من الأمر شيئاً ؟ فقال له رسول الله ﷺ : " إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد " (٢) .

فلم (٣) يدع رسول الله ﷺ يكمل حديثه وقال له : أعد على كلماتك هؤلاء فأعده رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة والسحرة والشعراء ، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء ، هات يدك أبيعك على الإسلام ، فبايعه وأسلم وكان ذلك بذرة لنشر الدعوة في أهله .

٦ - نسِماء طيبة من يثرب :

في موسم الحج من سنة ١١ من النبوة وجدت الدعوة الإسلامية بذواً صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، وذلك أن نفرًا من الخزرج ، كانوا ستة بينهم اثنان من بني النجار ، خرجوا إلى مكة في موسم الحج فلقبهم رسول الله ﷺ وكلمهم في الإسلام ، وكان هذا يتم ليلاً وفي خفية عن عيون قريش ، فلما عرف رسول الله ﷺ أنهم من موالي اليهود ، وقد كان اليهود ييثر بيقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أطل

(١)- حلية الأولياء لابن نعيم .

(٢)- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٣/٤١١) .

(٣)- دلائل النبوة للبيهقي .

زمانه ، فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه أحد ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا . وقالوا لرسول الله ﷺ : إلا قد تركنا قومنا - أي الأوس والخزرج - بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فتقدم عليهم . فتدعوهم إلى أمرك . فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، ولما رجع هؤلاء الستة إلى يثرب ، حملوا إليها رسالة الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا فيها ذكر رسول الله ﷺ ورسالته .

بيعة العقبة الأولى

فلما استدار العام ، وعادت الأشهر الحرم - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة ، أتى إلى مكة اثنا عشر رجلاً ، منهم خمسة من الستة الذين كانوا التقوا برسول الله ﷺ في العام السابق والسادس لم يحضر ، التقى رسول الله ﷺ بهؤلاء عند العقبة بمنى . فبايعوه وكانت بيعة العقبة الأولى . قال لهم رسول الله " تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وقى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه " (١) . فقالوا : بايعناك على ذلك .

أول سفير للإسلام :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث رسول الله ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير للإسلام إلى يثرب ليعلم المسلمين شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، اختار رسول الله ﷺ لهذه السفارة شاباً من السابقين الأولين : هو مصعب بن عمير .

(١)- صحيح البخاري (١٨) .

الإسلام في يثرب - المدينة

كان مصعب بن عمير يُعرف بالمقرئ لجمال صوته عند قراءة القرآن ، وكانت طريقته في الدعوة أجمل ، وهو مما جعل رسول الله يختاره لهذه المهمة الصعبة .

أسعد بن زُرارة : مركز الدعوة في المدينة :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرارة ، وأخذاً ييثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس .. وتوالت نجاحاتهما في نشر الدعوة ، وبدأت الدعوة إلى الله تجد صداها في قلوب ونفوس أهل يثرب .

إسلام سعد بن معاذ وبني عبد الأشهل :

خرج أسعد بن زُرارة بمصعب بن عمير يوماً وجلسا على بئر يُقال لها مرق ، واجتمع إليهما رجال من المسلمين ، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ، فلما سمعا بذلك جلوس أسعد ومصعب على البئر ودعوة الناس للإسلام قال سعد لأسيد: أذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فاجرهما فإن أسعد بن زُرارة هو ابن خالتي ولولا ذلك لكفيتك هذا ، فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما ، فلما أتى إليهما متشتماً . قال له مصعب بأسلوبه الهادئ : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال : أنصفت . وجلس فكلمه مصعب عن الإسلام وتلا عليه القرآن وأسيد يسمع حتى عُرف في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم . ثم قال : ما أحسن

هذا وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ فقال له مصعب : تغتسل وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام ففعل ثم أخذ حربته وانصرف فلما أتى إلى سعد بن معاذ في قومه وهم جلوس في ناديهم ، فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟

فقال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، فقام سعد مغضباً وأخذ حرثته وخرج إليهما ، أسعد بن زُرارة ومصعب بن عمير ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه إن يتبعك لم يتخلف عنك أحد منهم ، فلما وقف سعد متثمتاً قال له مصعب : أو تقعد فتسمع ؟ وكرر عليه ما فعل مع أسيد ، وكان رد فعله مثل ما فعله أسيد وأسلم سيد بني عبد الأشهل : سعد بن معاذ ، فلما أقبل على قومه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ، فقال : إن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسي رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة ، وبذلك أسلم بنو عبد الأشهل كلهم .

عمرو بن الجَمُوح :

وظلَّ مصعب بن عُمير يدعو الناس للإسلام حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رجال ونساء مسلمون وازداد المسلمون عدداً كما زادهم إيمانهم قوة ، وبلغ من بأس المسلمين فيها أنهم كانوا يعبثون بأصنام المشركين من أهلهم ، فكان لعمر بن الجَمُوح وهو سيد بني سلمة صنم من خشب يدعوه مَناة ، وقد اتخذها في داره ، كما كان الأشراف يفعلون ، فلما أسلم فتیان من قومه ، قيل إنهما ابنه معاذ بن عمرو وصديقه معاذ بن جبل ، فكانوا يريحون بالليل على صنمه فيحملونه ثم يكبونه على رأسه في إحدى الحفر التي يخرج الناس لقضاء حاجتهم بها

فإذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم في مكانه بحث عنه حتى يعثر عليه فيغسله ويطهره ويرده في مكانه ، وكرر الفتیان عبثهما بالصنم وهو كل يوم يغسله ويطهره ، فلما ضاق بهما ذرعاً علق على الصنم سيفه ، وقال له : إن كان فيك خير فاحم نفسك ، فهذا السيف معك ، وعلق السيف في رقبته ، فلما أصبح التمسه فوجده في بئر مقرونا إلى كلب ميت وليس معه السيف ، فلما كلمه قومه وكانوا قد أسلموا فأسلم بعد أن رأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال وبهتان .

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى

ومضى عام والمسلمون في يثرب يزدادون كل يوم عدداً وسلطاناً ، فبدأوا يفكرون في إخوانهم في مكة ، فكيف يُنعمون هم بالحرية والبأس ويمارسون شعائرهم بلا مضايقة وفي حرية كاملة وإخوانهم في مكة مهجورون ، منكسرون ، ضُعاء ، فقالوا فيما بينهم : حتى متى نترك رسول الله ﷺ وإخوانه المسلمين يطوفون في جبال مكة خوفاً من الظلم والقهر والاضطهاد ؟

فلما كان موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة حضر مصعب بن عمير ومعه خمس وسبعون مسلماً ، منهم ٧٣ رجلاً وامرأتان - من أهل يثرب - جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم فكر في بيعة ثانية ، لا تقف عند الدعوة إلى الإسلام ، على نحو ما ظل يدعو إليه ثلاث عشرة سنة ، في رفق وهوادة مع تحمل صنوف التضحية والألم ، بل تمتد إلى ما وراء ذلك ويكون حلفاً يدفع به هؤلاء المسلمين عن أنفسهم الأذى والعدوان ، وقد حفزه إلى ذلك ما سمعه من مصعب بن عمير عن حال المسلمين في يثرب وما بهم من زيادة وسلطان .

الاستعداد للقاء :

اتصل رسول الله ﷺ سراً بزعمائهم ، وعرف منهم حُسن استعدادهم فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة في جوف الليل ، في أواسط أيام التشريق ، وأن يتم اللقاء في سرية تامة ، فكتم المسلمون أمرهم عن من معهم من المشركين وانتظروا حتى مضى ثلث الليل من يوم مواعدهم مع رسول الله ﷺ وراحوا يتسللون فرادى إلى حيث الميعاد ، فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعاً وتسلقت المرأتان معهم ، وأقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة .

بداية اللقاء وتخوف العباس:

أقبل رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس ، وكان يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، وذلك لأنه قد تعاهد مع من تعاهد من بني هاشم ، أن

يمنعوا رسول الله ﷺ فليستوثق لابن أخيه ولقومه ، حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم بناها ، فكان العباس أول من تكلم ، فقال : يا معشر الخزرج . وكان العرب يسمون اليثريبين خزرجاً ، خزرجها وأوسها كليهما ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه أبى إلا الانحياز إليكم وللحوق بكم .

فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم في ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

كانت كلمة العباس تنبعث من منابع العصبية القبلية وروابط الدم ، أما اليثرييون فقد تجاوزوا كلمة العباس ، فهو ليس على دينهم ولا يستطيع أن يدرك قوة الرابطة التي تربطهم برسول الله ﷺ ، والتي هي أقوى من كل رابطة دم أو عصبية أو قبلية ، فهي رابطة العقيدة والأخوة في الله ، فقام أحدهم وقال : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، وهو ما يدل على ما كانوا عليه من عزم وشجاعة مؤمنة وإخلاص كامل في تحمل هذه المسؤولية العظيمة وعواقبها الخطيرة (١) .

بنود البيعة :

فتكلم رسول الله ﷺ بعد أن تلا القرآن ورغب في الإسلام ، ثم قال : ثبايعوني على :

- . السمع والطاعة في النشاط والكسل .
- . النفقة في العسر واليسر .
- . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- . أن تقوموا في الله لا تأخذكم لومة لائم .
- . أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأولادكم (٢) .

(١)- رواة أحمد .

(٢)- صحيح ابن حبان رقم ٦٣٨٠ .

فأخذ البراء بن مَعْرور بيد رسول الله ﷺ ، ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق ، لنمنعك ما نمنع أزرنا (نساءنا) منه ، فبايعنا يا رسول الله نحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورتناها كابراً عن كابر .

قبل أن يُتم البراء كلامه ، اعترضه أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالاً - أي عقود - وأنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : " بل الدم الدم ، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم " (١) .

التأكيد على خطورة البيعة :

ولما هم القوم بالبيعة اعترضهم العباس بن عُبادة قائلاً : هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على مُصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فأجاب القوم : إنا نأخذُه على مُصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا يا رسول الله إن نحن وقينا بذلك ؟ فرد عليهم رسول الله ﷺ مطمئن النفس : الجنة (٢) .

عقد البيعة :

بعد إقرار بنود البيعة وبعد هذا التأكيد والتأكيد ، مدوا إلى رسول الله ﷺ أيديهم ، وكان أول من بايع أسعد بن زُرارة وبعد ذلك بدأت البيعة ، وبايعوه جميعاً .

(١)- الرحيق المختوم ص ١٤٨ صححه الألباني .

(٢)- ابن كثير في البداية و النهاية .

اثنا عشر نقيباً :

وبعد أن تمت البيعة لم يُضع رسول الله ﷺ كثيراً من الوقت ، فبدأ بالعمل والتنظيم ، فطلب منهم أن يختاروا اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود البيعة ، فقال لهم رسول الله ﷺ : " أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء " فاخترَ القومُ تسعةً من الخزرج وثلاثة من الأوس ، ولما تم اختيار هؤلاء النقباء ، أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسئولين فقال لهم : " أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي (أي المسلمين كلهم) " (١) .

شيطان من شياطين قريش يكشف المعاهدة :

تم ذلك كله في جوف الليل في شعب العقبة وفي عزلة من الناس ، ولما كان القوم على وشك الانصراف إذا بأحد شياطين قريش كان قد خرج لبعض شأنه ، فسمع قليلاً ما دار فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم ، ويدخل في روعهم أن ما بتوا لبيل افتضح . فقام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بصوت عالي : يا معشر قريش ، إن محمداً والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم . وعند سماع الصوت قال العباس بن عباد لرسول الله ﷺ : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيفنا . فقال له رسول الله ﷺ : " لم نُؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رجالكم " فرجعوا إلى مضاجعهم ، وناموا حتى أصبحوا (٢) .

قريش تحتج :

ولما كان الصباح وقرع هذا الخبر أذان قريش ، وقعت فيهم ضجة وساورتهم القلاقل والأحزان لأنهم يعرفون عواقب هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إليهم وإلى أموالهم ، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء قريش إلى أهل يثرب ليقدموا احتجاجاً شديداً

(١)- في المستدرک عن ابن عباس .

(٢)- البداية و النهاية عن ابن عباس ص ٤١٠

إليهم . فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جنتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنا والله لا نريد حربكم .

لما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة انبعثوا يحلفون بالله : ما كان من هذا شيء ولم نعلم عنه ، أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، حتى رأوا قريشاً مالت إلى تصديق المشركين ، وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه .

مطاردة قريش للمُبايعين :

لكن قريش لم يزلوا يتتبعون الخبر ويبحثون عنه ، حتى تأكد لهم أن الخبر صحيح ، وذلك بعد أن نفر الحبيجُ إلى أوطانهم ، فسارع فرسان قريش بمطاردة اليثريين ، ولكن بعد فوات الأوان ، ولكنهم استطاعوا اللحاق بسعد بن عباد ، فأخذوه وردوه إلى مكة وعذبوه حتى أجاره جبير بن مطعم بن عدي والحارث بن أمية لأنه كان يجير لهما من يخرجون في تجارتها إلى الشام حين مرورهم بيثرب ، وكان اليثريون قد شرعوا في العودة إلى مكة ليخلصوه فإذا هو قد طلع عليهم ، فأخذوه ورحل القوم جميعاً إلى يثرب.

الهجرة إلى يثرب

طلائع الهجرة :

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونجح الإسلام في تأسيس وطنٍ له ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب ، على أن يتركوا مكة متفرقين ، حتى لا يُثيروا ثائرة قريش عليهم .. فبدأ المسلمون في الهجرة فرادى وجماعات صغيرة .

مساءات قريش وتضحيات المهاجرين :

لكن قريشاً لما فطنت للأمر حاولت أن ترد كل مَنْ استطاعت رده إلى مكة التفتته عن دينه وتعذبه ، وهاك بعض من هذه المساءات :

١ - أبو سلمة وزوجه أم سلمة :

كان أبو سلمة أول المهاجرين ، فلما أجمع على الخروج هو وزوجته قال له أصهاره (أهل زوجته) : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك بها في البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، فقالوا : لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من زوجها . وتجادبوا الغلام (ابنيهما) بينهم ، فخلعوا يده وذهبوا به ، وانطلق أبو سلمة وحده إلى يثرب ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل يوم بالأبطح تبكي حتى رق لها ذووها وأعطوها ابنها وسمحوا لها باللحاق بزوجها ، وخرجت بولدها وحيدة ، وقطعت تلك المسافة الطويلة بين شواحق الجبال ومهالك الأودية حتى وصلت إلى يثرب .

٢ - ضُهب بن سنان الرومي :

لما أراد ضُهب الهجرة قال له كفار قريش : أتينا صلوكا صغيرا ، فكثير مالك عندنا ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، فقال لهم ضُهب : أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي كله أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم. قال : فإني جعل لكم كل مالي ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : " ربح ضُهب ، ربح ضُهب " .

٣ - عمر بن الخطاب وزُمرَة من المستضعفين :

كل المهاجرين هاجروا حُفِيَّةً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ومضى إلى الكعبة ، والمأ من قريش بفنائها ، فصلى ركعتين بعد أن طاف بالبيت سبعا ، ثم وقف وقال : من أراد أن تتكلمه أمه أو يئتم ولده وتُرْمَل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي إني مهاجر ، فلم يتبعه أحدٌ من قريش ولكن تبعه زُمرَة من المستضعفين كان من بينهم أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل وغيرهم .

٤ - عياش بن أبي ربيعة :

لما قدم يثرب مع عمر بن الخطاب ونزل بقاء ، قيم إليه أبو جهل والحارث وهما إخوة له من الأم ، فقالا له : إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط ولا تستظل بشمس حتى تراك فرق لها ، فقال له عمر : يا عياش إنه والله لا يريدك القوم إلا ليفتوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذي أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها الحر لاستظلت ، فأبي عياش إلا الخروج معها ليبر قسم أمه ، فقال له عمر : أما وقد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها فإن رأيت من القوم ريب فأنج عليها وعُد إلينا فخرج معها ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا بن أمي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تُعقبني على ناقتك هذه ؟ فقال : بلى ، فأناخ وأناخا ليتحول عليهما ، فلما استوتوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ودخلا به مكة وقالوا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيهننا هذا .

هذه بعض النماذج لما لاقاه المسلمون في سبيل الهجرة بدينهم ، ولكن رغم ذلك تتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ، أما رسول الله ﷺ فظل مقيماً بمكة ، حيث لا يعرف أحد منهم هل اعتزم الإقامة أم قرر الهجرة ، وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة من قبل وظل هو بمكة ، يدعو سائر أهلها إلى الإسلام ، وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة ، لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ، أقاما بأمر رسول الله ﷺ إذ استأذنه أبو بكر في الهجرة ، فقال له : " لا تُعجل لعل الله يجعل لك صاحباً " ^(١) فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ، أما علي فقد أمره رسول الله ﷺ بالبقاء لسبب سيُعرف فيما بعد .

(١)- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ٩٩٢٠ ، المعجم الكبير للطبراني ٤٠٢ .

الهجرة النبوية

إن في حديث الهجرة النبوية كثيراً من الدروس والعبر ، التي يجب علينا النظر فيها واعتبارها ، ففيها تتجلى عبقرية رسول الله ﷺ ، وهو المؤيد بوحى من الله ، في التفكير والتدبير ، والتخطيط المحكم والأخذ بكل الأسباب الممكنة لنجاح هذه العملية الجوهرية والفاصلة في تاريخ الإسلام والدعوة إلى الله ، فلعلنا نتأملها لنأخذ ما فيها من دروس وعبر .

مخاوف قريش من هجرة النبي ﷺ :

بدأ القلق يساور المشركين ، لما كثر المسلمون بيثرب حتى كادوا يكونون أصحاب اليد العليا ، وها هم أولاء المهاجرون من مكة ينضمون إليهم فيزيدونهم قوة ، فإذا لحق بهم رسول الله ﷺ ، وهو على ما يعرفونه من ثبات ، وخستن رأي وبعد نظر ، خشوا على أنفسهم أن يذهب اليثريون مكة ، أو يقطعوا عليها طريق تجارتهم إلى الشام ، أو يجيعوهم كما حاولوا هم أن يجيعوا رسول الله ﷺ وصحبه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم ، وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيها ثلاثة أعوام .

قريش تخطط :

فلما شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذي مبعثه الوحيد هو لواء الدعوة رسول الله ﷺ ، فكان القرار باجتماع عاجل عُقد في دار الندوة (برلمان مكة) وحضره كل سادات وأشراف قريش ، فلما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد ، إذ دخل عليهم شيخ غريب عن مكة ، وعليه كساء غليظ ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من نجد سمع بالذي اعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسي ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً ، قالوا : أجل ورحبوا به وجلس معهم تُرى من هذا الشيخ النجدي ؟ كان إبليس وقد تجسد في صورة هذا الشيخ ، أتى

بنفسه ليحضر هذا الاجتماع الشيطاني ، ولم لا؟ وهو أكثر المتضررين بهذه الدعوة ، وبهذا النبي الذي سيهدي الناس إلى صراط مستقيم (١).

وبدأ الاجتماع وكانت المقترحات المطروحة ثلاثة :

١- أن يُحبس رسول الله ﷺ في الحديد ويغلق عليه باباً ثم يتربصوا به ، ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومَن كانوا قبلهم حتى يصيبه ما أصابهم . الموت وقوبل هذا المقترح بالرفض من الشيخ النجدي (إبليس) وقال : لا والله ما هذا بالرأي ، فلئن حبستموه لتخرجن أمره أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من بين أيديكم ثم يتكاثروا عليكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم فرفض هذا المقترح .

٢ - أن يُقتل رسول الله ﷺ ليستريحوا من كل هذا الهم ، فكان اعتراض الشيخ النجدي (إبليس) : إن قتلوه سيطالب بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب بدمه ، وتوشك حرب أهلية أن تقوم ورفض هذا المقترح أيضاً .

٣ - أن يطردوا رسول الله ﷺ خارج مكة وينفى بعيداً ، فلا يُبالوا أين يذهب ، ولا حيث وقع ، ثم يُصلحوا أمرهم وألفتهم كما كانت ورفضت تلك أيضاً من إبليس وقال : ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على القلوب ، فإن فعلتم ذلك أمنتُم أن يحل على حي من العرب - يقصد يثرب - فيبایعوه ثم يسير بهم إليكم ، فيأخذوا أمركم من أيديكم .

وهنا جاءت الفكرة الشيطانية ، ولكنها هذه المرة على لسان أبي جهل فقال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا ثم نعطي كل واحد منهم سيفاً ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ويتفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيقبلون الدية ، فنجمعها لهم هنا انفرجت أسارير الشيخ النجدي وقال :

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ٢/٩٥ .

القول ما قاله الرجل هذا هو الرأي ولا رأي غيره ، وتفرق القوم وهم عازمون على تنفيذ هذا القرار فوراً

يمكرون ويمكر الله :

بعد أن أحكمت الخطة واخذ القرار ، فإذا بالعناية الإلهية تتنزل على رسول الله ﷺ ويخبره ربه بما يمكرون به ويأذن له بالهجرة ، إذ أتى جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وأخبره بأمر ربه : ألا يبيت في فراشه الليلة ، ونزل القرآن كاشفاً ما مكروا به: **(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۖ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)** [الأنفال : ٣٠]

خطة النبي ﷺ في الهجرة :

وهنا سنرى ما لنبينا عليه السلام من عبقرية وحكمة في التعامل مع الأحداث الجسام ، والسؤال الذي قد يسأله البعض : ألم يكن الله سبحانه بقادر على أن يسري بعبده من مكة إلى المدينة ، كما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؟ والإجابة : نعم ، بالفعل الله قادر سبحانه وتعالى ، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يكون الحبيب المصطفى أسوة حسنة لنتبعها ونتعلم منها ، وهو ما نرّمى إليه من سرد سيرته ﷺ أن نتعلم من أعماله ما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا .

في بيت أبي بكر :

لما علم رسول الله ﷺ من جبريل ما حدث ذهب إلى بيت أبي بكر ، وكان ذلك في الهجرة ، (وقت الظهر) حين يستريح الناس في بيوتهم ، وهي ساعة كان لا يزوره فيها ، فلما رأى أبو بكر رسول الله ﷺ ؟ قال : فذاك أبي وأمي ، والله ما جاء برسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا أمر جليل فلما دخل رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : " أخرج من عندك " (١) . وهذا إمعان في السرية ، فقال أبو بكر : إنما هما ابنتاي بأبي أنت يا رسول

(١)- صحيح ابن حبان ٦٢٧٩ ، صحيح البخاري ٢١٣٨ .

الله . فقال رسول الله ﷺ : " إن الله قد أذن لي بالخروج " ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ فقال : الصحبة (١) .

ثم اتفق معه على خطة الهجرة ، ثم عاد إلى داره ينتظر مجيء الليل وقد استمر في أعماله اليومية ، حتى لا يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة .

علي بن أبي طالب في فراش النبي ﷺ :

أسر النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب ما حدث ، وأنه سيهاجرُ اللَّيْلَةَ . ثم قال له : " نَمَّ في فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، وإنه لن يصيبك شيء تكرهه " (٢) . كما أمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي الودائع التي كانت عنده الناس ، ومن المفارقات أن كفار قريش كانوا لا يأتونون أحداً على ودائعهم إلا رسول الله ﷺ برغم أنهم لا يؤمنون به !!

الكفار حول منزل النبي ﷺ :

كان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام أوائل الليل بعد العشاء ويخرج بعد منتصف الليل إلى المسجد الحرام ليصلي فيه قيام الليل ، فلما كانت عتمة الليل وساد الهدوء اجتمع شبانُ قريش الموكلون بقتل رسول الله ﷺ على باب داره ، يرصدونه حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه ونفذوا ما قرروا .

الرسول يغادر بيته :

فلما انتصف الليل خرج رسول الله ﷺ من البيت ، واخترق صفوفهم وهم في نوم عميق وأخذ حفنةً من تراب في يده وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو : (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) [يس : ٩] وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه ، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر ، ومضى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وكلما نظروا من فُرْجَةٍ إلى مكان نوم

(١) - في رواية البخاري (أشعرت أنه قد أذن لي بالخروج) .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٣٣) .

الرسول ﷺ ، فيرون في الفراش رجلا ، فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر ، حيث كان علي ، رضي الله عنه . نائمة مكانه وقبل بزوغ الفجر ، أتى رجل ممن لم يكن معهم ، ورأهم ما زالوا بالباب . فقال ماذا تنتظرون ؟ قالوا : محمد . قال : خبثم والله قد مر بكم وذر التراب على رؤوسكم . فقاموا يفضون التراب عن رؤوسهم وقالوا : إن محمداً ما زال نائماً بالداخل ، فلما دخلوا فإذا بعلي في الفراش ، فسقط في أيديهم ، وسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا أعلم .

بداية رحلة المهاجر إلى الله :

وصل رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر ، وتحسباً من أن تكون هناك عيون ترقب بيت أبي بكر ، فإنهما تسللا من فتحة كانت في ظهر البيت ، وخرجا لتبدأ رحلة المهاجر إلى الله . ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجد في طلبه ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار هو طريق يثرب شمالاً فسلك الطريق المضاد تماما واتجه إلى الجنوب ، سلك هذا الطريق حتى بلغ جبل ثور ، وهو جبل شامخ وعر الطريق ، فارتقى الصاحبان الجبل ، حتى وصلا إلى غار في قمة الجبل ، وهو " غار ثور " .

إلى الغار :

ولما انتهيا إلى الغار ، قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخل قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك . فدخل فكسحه ووجد من جانبه ثقباً ، فشق إزاره وسده به ، ثم دخلا الغار

خبيبة أمل قريش :

أما قريش فقد جن جنونها ، حينما تأكد لديها أن رسول الله ﷺ قد أفلت صباح ليلة تنفيذ المؤامرة ، فبدأوا بعلي بن أبي طالب ، فضربوه وحبسوه عليهم يظفرون منه بخبره ، ولكنهم لم يفلحوا ، ولما فشلوا في الحصول على أي معلومات من علي جاءوا إلى بيت أبي بكر ، وقرعوا الباب ، فخرجت لهم أسماء بنت أبي بكر فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدري ، فرفع أبو جهل يده ، فلطم خدها لطمه طرح منها قرطها .

وبدأت قريش تجد في طلب رسول الله ﷺ وصاحبه ، فراقبوا الطرق النافذة من مكة ، ورسدوا مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة لمن يدل عليهما أو يعيد هما حينين أو ميتين .
وأقبل فتیان قريش من كل بطن يهرولون باحثين في كل مكان ، ولا تتبعوا آثارهما وصل المطاردون إلى باب الغار .

لا تحزن إن الله معنا :

فلما وقفوا على باب الغار ، تصبب أبو بكر عرقاً وقال : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا ، فرد النبي ﷺ بثقة المؤمن من نصر الله: " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا " (١)

ونزل قوله تعالى : (**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) [التوبة : ٤٠]

معجزة الغار :

وأمام هذا اليقين المطلق والإيمان بنصر الله ، إذ بالمعجزة الإلهية تقع ، فبعد دخول الرسول وصاحبة الغار نسج العنكبوت بيتاً على باب الغار ، وجاءت حمامتان فباضتا عند الباب ونمت شجرة لم تكن نامية ووقع فرعها على باب الغار ، فكان التحدي الإلهي لكفار قريش بأن حافظ الله وحمى رسوله بأوهن مخلوقاته ، بأوهن البيوت "بيت العنكبوت" .

فلما رأى المطاردون باب الغار ، وقد حُصِّن هذا التحصين الإلهي عادوا أدراجهم ، فلما سأل أحدهم : مالك لم تنتظر في الغار ؟ فرد قائلاً : إن عليه عنكبوتاً من قبل ميلاد محمد ، فقد رأيت حمامتين وحشيتين بغم الغار ، فعرفت أن ليس أحداً فيه .

(١)- البخاري ٣٦٥٣ ، مسلم ٢٣٨١ ، و الترمذي ٣٠٩٦ .

ثلاثة أيام في الغار :

أقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاراً معهم ، يسمع ما يأترون به ، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكانت أخته أسماء تأتيهما بالطعام كما كان عامر بن فهيرة . مولى أبي بكر . يرمى غنم أبي بكر نهاراً ، ثم يأتي بها ليلاً ليحتلبا ، وإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم ليُتقى على أثر أقدام عبد الله وأخته ، وظل الحال هكذا في كل ليلة من الليالي الثلاث .

خشيت أن أوقظك يا رسول الله :

وفي إحدى هذه الليالي ، غلب النومُ رسول الله ﷺ فوضع رأسه في حجر أبي بكر ونام ، فمد أبو بكر ساقه ، فرأى ثقباً لم يلحظه من قبل ونسي أن يسده فسده بإصبع قدمه ، فلدغ أبا بكر في إصبعه من هذا الثقب ، فلما لدغ لم يحرك ساقه ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ : فاستيقظ من نومه وقال : مالك يا أبا بكر ؟

قال : لدغْتُ فداك أبي وأمي . فقال له رسول الله ﷺ : ولم لم تحرك ساقك ؟ (١) فقال : خشيت أن أوقظك يا رسول الله . . فتفل رسول الله ﷺ في قدمه فذهب عنه السم ودعا له .

الخروج من مكة :

وفي اليوم الثالث حين خمدت نازُ الطلب ، وهدأت تائرة قريش بعد استمرار المطاردة ثلاثة أيام بدون جدوى تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى يثرب ، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط ، وكان هادياً ماهراً بالطريق وكان على دين الكفار ، وسلمما إليه راحلتيهما اللتين أعدهما أبو بكر ، وهكذا استعان النبي ﷺ بأهل الكفاية دون النظر إلى عقائدهم أو اهتماماتهم ، جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين ، وأنتهما أسماء بنت أبي بكر

(١)- المناوي في فيض القدير دون سند يذكر ، و كذا السيوطي في الدر المنثور وأوردها علاء الدين في كنز العمال

بطعامهما، فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما ، فشقت نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر . فسميت لذلك " ذات النطاقين " ، وامتنى كل رجل بعيه ومعهما طعامهما ، ومع أبي بكر خمسة آلاف درهم هي كل ماله ، فانطلقا ومعهما عامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط (الدليل) .

ولما كانا على قمة الجبل وبدأت بيوت مكة تتوارى عن الأنظار ألقى رسول الله ﷺ على مكة نظرة الوداع ، وقال : " والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجوني من ما خرجت " وبكى (١) .

في الطريق إلى يثرب :

سلك بهما عبد الله بن أريقط طريقاً غير الطريق الذي ألف الناس إلى يثرب ، فبدلاً من الاتجاه شمالاً ، أمعن في الاتجاه جنوباً بأسفل مكة متجهاً إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس اتجه بهما شمالاً محاذياً الشاطئ مع الابتعاد عنه ، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقه أحد ، ومضى الصحابان ودليلهما إلى يثرب .

وهاك بعض مما وقع في الطريق :

١ - شرب رسول الله ﷺ حتى ارتويت :

مضى رسول الله ﷺ وصاحبه طيلة الليل وصدر النهار على رواحهم ، وقد خلا الطريق لا يمر فيه أحد ، حتى وجدا صخرة طويلة لها ظل ولم تأت عليها الشمس .

فنزلا عندها وسوي أبو بكر للنبي ﷺ مكاناً ينام فيه ، ثم قال له : نَمْ يا رسول الله ، وأنا أنقض لك ما حولك ، فنام رسول الله ﷺ فإذا براعٍ مُقبلٍ بغنمه إلى الصخرة ، يريد أيضاً أن يستظل بظلها . فقال له أبو بكر : أفي غنمك لبن ؟ قال : نعم . فقال له أبو بكر : أفتحلب ؟ قال : نعم ، فحلب في إناء كان معه فلما أتى رسول الله ﷺ كره أن يوقظه

(١)- صحيح الترمذي ٣٩٢٥ .

وانتظره حتى استيقظ ، فقال له : اشرب يا رسول الله ، يقول أبو بكر رايأ هذه الحادثة : فشرب رسول الله ﷺ حتى ارتويت (١) ، فهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ يحبونه أكثر من أنفسهم .

٢ - رجل يهديني الطريق :

وفي الطريق إذا لقي الرجل أبا بكر فيسأله عن النبي ﷺ : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ يقول : هذا رجل يهديني الطريق ، فيحسبه أنه يعني به الطريق ، إنما هو يعني السبيل إلى الله .

٣ - أبو بكر في حراسة دائمة لرسول الله ﷺ :

وكان أبو بكر كثيرا ما يمشي عن يمين رسول الله ﷺ ثم فجأة يتحول إلى يساره ، ثم يمشي أمامه وفجأة يتحول إلى خلفه ، فلما سأله رسول الله : لم تفعل هكذا ؟ قال : إن كنت على يمينك يخيل إلى أن أذا سيأتي عن يسارك فأركد يساراً ، وإن كنت أمامك فأخاف مكروهاً يصيبك من خلفك فأهرول إلى الخلف منك .

٤ - سراقه بن مالك :

كانت قریش قد رصدت دية مائة ناقة - كما أسلفنا - لمن يدل على رسول الله ﷺ وصاحبه أو يأتي بهما حينين أو ميتين ، وهو ما جعل القوم يجدون في البحث عنهما . فقد أقبل رجل على سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي بينما هو جالس في قومه من بني مدلج . فقال : يا سراقه إنني رأيت ثلاثة مروا على أحسبهم محمداً وأصحابه ، فعرف سراقه أنهم هم ، ولكنه أراد أن يثني عزمه ، فقال : إنما هم بنو فلان ، ليضل الرجل وليفوز هو بمغنم النوق المائة ، ومكث مع القوم ساعة ثم قام وركب فرسه ثم سار حتى دنا منهما ، فعثرت به فرسه ، فخر عنها ثم ركبها ثانية فساخت (أي غاصت) قدما فرسه الأماميتان في الأرض حتى الركبتين ، فلما قام الثالثة ، كبا جواده كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من

(١)- فشرب حتى رضيت - عند البخاري - .

فوق ظهره يتدحرج في سلاحه وسطع لأثرها غبار في السماء مثل الدخان ، فعلم سراقاة أن عمله ضائع سدى ، ودخل في نفسه رعب عظيم ، وعلم أنه إذا هم مرة رابعة سيعرض نفسه لخطر داهم ، هنا وقف ونادي : أنا سراقاة بن جُعشم ، أنظروني أكلمكم فلما وقفوا ، وقد وقع في نفسه أن الله سيظهر أمر رسول الله ﷺ قال لرسول الله : إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهما بما يريد فيهما الناس ، فوالله لا أريكم ولا يأتكم مني شيء تكرهونه ، ثم عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذ الرسول منه شيئاً ثم قال له : **اخف عنا** . فسأله سراقاة أن ^(١) يكتب له كتاب أمن وأمان ، فأمر رسول الله ﷺ عامر بن فهيرة فكتب له ، إن له أيوان كسري وله الأمن والأمان . ثم مضى رسول الله ﷺ وعاد سراقاة يلقى أحداً من المطاردين إلا ضله وردّه .

٥ - في خيمة أم معبد الخزاعية :

وعلى بُعد نحو ١٣٠ كيلو متراً من مكة مروا بخيمة السيدة يقال لها عاتكة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة تجتبي بقاء خيمتها وطعم وسقي كل من مر بها ، فسألاها : هل عندك شيء ؟ فقالت : والله لو كان عندي شيء ما أعوزكم القرى . وكانت سنة شهباء ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال : **ما هذه الشاة يا أم معبد ؟** قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : **أتأذنين لي أن أحلبها ؟** ^(٢)

قالت : نعم بأبي وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فمسح الرحمة المهداة للعالمين ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا ، فدرت لبناً غزيراً ، فدعا بإناء فحلب فيه حتى علت الرغوة ، فسقا أم معبد فشربت حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رويوا ثم شرب هو ، وحلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء فتركه عندها ثم ارتحلوا . فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد ، فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين لك هذا ؟ والشاه عازب ولا حلوبة في البيت ، فقالت : لا والله ألا إنه مر بنا رجل مبارك وقصّت عليه ما حدث.

(١)- صحيح البخاري ٣٩٠٦ .

(٢)- الطبراني في المعجم الكبير / الحاكم في المستدرك .

قال : إني والله لأراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صفيه لي يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الكريمة وصفاً بديعاً ، وهو الوصف الذي يعتمد عليه معظم أصحاب السير في وصفهم لرسول الله ﷺ فقال : والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحابه ولأفعلن إن وجدت له سبيلاً .

٦- الرسول يمر على قبائل يعرض نفسه عليها :

مر رسول الله ﷺ بقبائل كثيرة منها : بني سهم ، بني تميم بن حجر ، وفي بطن رثم ، وبطنون تهامة وغيرها ، وعرض عليهم الإسلام وأسلم كثير منهم .

٧- النزول بقباء :

مكث المهاجر العظيم ﷺ أسبوعين مسافراً ، خرج من مكة يوم الاثنين ومضى ثلاثة أيام في الغار ثم ١٢ يوماً في الطريق فكان يوم الاثنين يوم وصوله إلى قباء ، فكان يسلك طرقاً جانبية حتى إذا اقترب من يثرب سلك الطريق المعتاد المار بذي الحليفة حتى وصل إلى قباء على بعد فرسخين من يثرب ، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى قباء نزل في دار كلثوم بن الهدم من بني عمرو بن عوف ، وأقام بقباء أربعة أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأثناء إقامته أسس مسجد قباء وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، وبينما هم بقباء وصل إليها علي بن أبي طالب ، بعد أن تأخر ثلاثة أيام ، رد فيها الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لأصحابها من أهل مكة . ثم غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه ، يسير الليل ويستخفي بالنهار ، ويحتمل هذا الجهد المضني أسبوعين كاملين ، ليلحق بإخوانه في الدين .

الخروج من قباء :

أرسل رسول الله ﷺ إلى بني النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم وكانوا مائة رجل ، ثم خرج من قباء يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة فصلاها في بطن الوادي المسمى " وادي رانوءا " . فكانت أول جمعة تصلي وخطب رسول الله ﷺ خطبة الجمعة ، وفي ذلك المكان بنى المسلمون مسجد "ذي رانوءا" .

دخول يثرب - المدينة المنورة :

ما أن علم المسلمون في يثرب بخروج رسول الله ﷺ من مكة ، حتى كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة . وذات يوم وبعد أن طال انتظارهم ، أووا إلى بيوتهم . فأطل رجل من اليهود من أعلى حصن من حصونهم فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه قادمين عن بُعد ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرونه فخرج المسلمون ، وإن كانوا لم يروه من قبل ولكن امتلأت قلوبهم بحبه والإيمان به .

ودخل رسول الله لا المدينة من ثنية الوداع ، فالتف حوله الرجال والنساء والصبيان وجعلوا يرددون ويتغنون :

مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ	طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا
مَا دَعَا لَكَ دَاعٍ (١)	وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ	أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا
مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعٍ	جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدِينَةَ

وبهذا الحب وهذه الحفاوة استقبلت يثرب رسول الله ﷺ النور، الذي سيهدي أهلها و الناس أجمعين.

و منذ ذلك اليوم سميت يثرب بمدينة الرسول ، فكانت بحق المدينة المنورة

(١)- البيهقي في دلائل النبوة / الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/٢٦١ .

رسول الله ﷺ في المدينة

ودخل رسول الله ﷺ المدينة لينورها ، وكم كانت فرحة وسعادة أهلها برؤية رسول الله ﷺ ، وإن كان أكثرهم لم يره من قبل ، حتى ظن بعضهم أن أبا بكر هو رسول الله ﷺ ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر يظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، وظل رسول الله ﷺ في طريقه في حماية أخواله بني النجار ، وكلما مر على دار من دور الأنصار إلا وأخذوا خطام راحلته وتوسلوا إليه بأن ينزل عندهم . فكان يقول لهم : " خلوا سبيلها فإنها مأمورة " (١) فانطلقت راحلته حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار عند مرید للتمر "شونة أو جرن " لغلامين يتيمين من بني النجار ، فبركت فلم يزل عليها حتى نهضت وسارت قليلاً ثم التقت فبركت في موضعها الأول ، فنزل عنها ، وكان ذلك من توفيق الله فإنه أحب أن ينزل على أخواله ، فلما نزل عن الناقة قال رسول الله ﷺ : "ها هنا المنزل إن شاء الله " (٢) ثم دعا الغلامين ليشتري منهما المكان فقالا : بل نهديه لك يا رسول الله . فأبى وأصر حتى ابتاعه منهما . وكان هذا هو موضع مسجده الشريف . وكان هذا المرید أمام دار خالد بن زيد (أبو أيوب الأنصاري) ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم حتى يتم بناء مسجده وداره . وهنا بادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحل رسول الله ﷺ فأدخله بيته . ودخل معه رسول الله ﷺ ، وكلما طلب أحد أن ينزل رسول الله ﷺ عنده كان يقول : " المرء مع رحله " (٣)

في دار أبي أيوب الأنصاري :

نزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري ، واختار النزول في الدور الأسفل من الدار ، ولكن أبا أيوب لم يرضَ لرسول الله ﷺ ذلك وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني أكره أن أكون فوقك وتسكن تحتي ، فكن أنت في العلم ، وننزل نحن فنكون في السفلى ،

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ص ٤٥٩ وعند الحاكم (دعوا الناقة فإنها مأمورة) .

(٢)- البخاري ٣٩٠٦ عن عائشة رضي الله عنها .

(٣)- ابن سعد في الطبقات (١٨٣/١) .

فقال النبي ﷺ : " يا أبا أيوب ، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا (يزورنا) أن أكون في أسفل البيت " (١) .

وأقام رسول الله ﷺ في الدور الأسفل من الدار .

وفي ليلة حيث أن كسرت من زوجته جرة ماء ، فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لهما غيرها ، يمسحان الماء خوفاً على رسول الله ﷺ ، لذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العلو وكان أبو أيوب يصنع الأكل ثم يبعث به إلى النبي ﷺ يأكل منه أولاً ثم يأكلون من بعده ، وفي يوم بعثوا إليه عشاء فيه بصل وثوم ، فزده رسول الله ﷺ دون أن يأكل منه ، فجاءه أبو أيوب جزعاً وقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي . رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، فقال رسول الله ﷺ : " إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة (الثوم والبصل) وأنا رجل أناجي الناس (أي يخاطب الناس وكره أن يكون لغمه رائحة) ، أما أنتم فكلوه " (٢) فأكله أبو أيوب وزوجته ولم يصنعا له بعد ذلك طعاماً فيه ثوم أو بصل .

وكذلك كانت تأتي رسول الله ﷺ الجفان كل ليلة من أشرف الأنصار كسعد بن عباد وأسد بن زرارة وغيرهما ، فما من ليلة إلا وعلى بابها الثلاث أو الأربع من جفان الثريد .

هجرة أهل البيت :

بعث رسول الله ﷺ وهو في دار أبي أيوب ، زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما عبد الله بن أريقط ليدلها على الطريق إلى مكة ، وليأتيا بمن خلف من أهله فقدا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي النبي ﷺ وسودة بنت زمعة زوجته ، وأم أيمن زوجة زيد وابنتهما أسامة ، أما زينب الابنة الكبرى لرسول الله فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع وكان على كفره ، أما رقية كانت هي وزوجها عثمان بن عفان في مكة منذ أن عادا من الحبشة ولحقا بالنبي في المدينة بعد عدة أشهر ، وخرج معهم أيضاً عبد الله بن أبي بكر ومعه أم رومان زوجة أبيه وأختاه أسماء وعائشة ، ولم يكن رسول الله ﷺ قد دخل بعائشة بعد .

(١)- عند مسلم ٢٠٥٣ .

(٢)- المعجم الكبير ٣٨٥٥ ، السيرة النبوية لابن هشام ص ٤٩٩ .

حمى المدينة :

كانت المدينة معروفة في الجاهلية بكثرة أوبنتها لكثرة برك المياه التي كانت محلاً لتكاثر البعوض ، فلما قدم رسول الله إلى المدينة أصاب كثيراً من أصحابه الحمى منهم أبو بكر ، وبلال وعامر بن فهيرة . ولا شكوا إليه الأمر وكان هواء المدينة لم يكن موافقاً للمهاجرين ، فقال النبي ﷺ : " اللهم حبّب إلينا المدينة ، كحبنا لمكة أو أشد ، وصححها وبارك في صاعها ومها وانقل حُمّها " (١) وقد استجاب الله لدعائه ، وخرج منها الوباء ، وأحبها الصحابة . وأصبحت القلوب تهوي إليها - كما تهوى القلوب إلى مكة وأشد - بعد أن زادها نور المصطفى ﷺ نوراً

بناء المسجد النبوي

كانت أول خطوة خطاها رسول الله ﷺ هي بناء مسجده في المكان الذي بركت فيه ناقته ، وبدأ العمل الجاد في البناء ، وضرب رسول الله أول مِعْوَلٍ في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاثة أذرعٍ ودأب المسلمون في المشاركة في بنائه ، وكان رسول الله ينقل اللبن والتراب معهم ويحفزهم ويقول :

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة فارحم الأنصارَ والمُهَاجِرَةَ (٢)

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل حتى أتموه .

وصف المسجد النبوي :

رغم أن المدينة كانت تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها عليه القوم ، تباهاً في السلم واتقاءً بها في الحرب إلا أن مسجد رسول الله ﷺ وما حوله من حُجر بُنيت لتكون مساكن له ولأهله ، كانت في بساطة وتواضع ، بساطة من ترفع عن الدنيا وزخارفها وابتغى الدار الآخرة فكان مسجده ﷺ مبنياً من اللبن والطين وبعض الحجارة ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده جذوع النحل ، وفُرشت أرضه بالرمال والحصباء وجعلت له

(١)- صحيح البخاري ٥٦٧٧ ، مسلم ١٣٧٦ .

(٢)- اخرجه البخاري ٣٧٩٥ و مسلم ١٨٠٤ بلفظ (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار و المهاجرة) .

ثلاثة أبواب ، وكان طول المسجد مما يلي القبلة (كانت القبلة إلى بيت المقدس) إلى مؤخرته مائة ذراع والجانبان مثل ذلك ، أما الارتفاع فكان لا يزيد عن القامة إلا قليلاً ، فكان مسجداً صغير الفناء ، قصير

البناء .

أهل الصُّفَّة :

ولما تم بناء المسجد انتقل رسول الله ﷺ وأهله إلى مساكنهم الملحقة بالمسجد ، ولم ينس رسول الله ﷺ فقراء المهاجرين الذين لا مأوى لهم فقد أفرد لهم صُفَّة المسجد (وهو المكان المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها، لذلك سُموا أهل الصُّفَّة ، وجعل رسول الله ﷺ لهم رزقاً من مال المسلمين فأتاهم الله رزقاً حسناً .

المنبر :

لم يكن في المسجد منبرٌ ، بل كان رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة عند مُصلاه ، وتطور الأمر بعد ذلك وبني له منبرٌ كان بسيطاً ومكوّناً من ثلاث درجات فقط ، كان رسول الله ﷺ يقف على أعلاها ليخطب في الناس .

جذع النخلة يبكي :

ولما كانت أول خطبة لرسول الله ﷺ على منبره فإذا به ينزل مسرعاً ليربّت بكل عطف وحنان على جذع النخلة التي كان يستند عليها أثناء خطابه من قبل ، فلما سأله الصحابة عن ذلك قال ﷺ : لقد بكى جذع النخلة وأجهش في البكاء لأنّي لن أستند إليه مرة أخرى ، فنزلت لأرّبب عليه وأهدئ من روعه - أو كما قال - (1) .

الأذان :

كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات لوقتها ، وكان الناس يعرفون مواقيت الصلاة فيخرجون إليها مع رسول الله ﷺ ولكن أناساً من المسلمين كانت تفوتهم صلاة الجماعة لانشغالهم

(1)- روى ابن ماجه ١٤١٥ (لو لم احتضنه لحنّ إلى يوم القيامة) .

في أعمالهم ، فراح النبي ﷺ وأصحابه يتشاورون كيف يُجمع الناس للصلاة فاقترح بعضهم أن تُرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس فلم يُقبل هذا الاقتراح لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل .

وقال آخرون : تُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب ، فلم يُقبل أيضاً وأشار آخرون ببوق كما يفعل اليهود فكرهه رسول الله ﷺ لأنه لم يُكن يُحب أن يُقلد اليهود في عمل ما ، فأشار بعضهم بالناقوس كما يفعل النصارى ، فكرهه رسول الله ﷺ أيضاً ، وانتهى الأمر على أن يقوم رجال ينادون الناس إذا حانت الصلاة .

رؤيا عبد الله بن زيد الأنصاري :

وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري فبينما هو بين النائم واليقظان ، إذ عُرض عليه شخص وقال : ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال : بلى . فقال له : قل : الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، فلما استيقظ عبد الله بن زيد توجه إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر رؤياه فقال : " إنها لرؤيا حق " ثم قال له : " لقن ذلك بلالاً ليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك " (١) .

بلال مؤذناً :

فلما حان وقت صلاة الفجر ، جعل عبد الله بن زيد يُلقن بلال الكلمات وهو يؤذن بها وكان عمر بن الخطاب في بيته ، فلما سمع الأذان أسرع يجزّ رداءه حتى إذا ما جاء رسول الله ﷺ وعلم بما رأى عبد الله بن زيد قال : والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيتُ مثل ما رأى عبد الله بن زيد ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله (٢) ، وانشرحت صدور المسلمين لما سمعوا الأذان وخرجوا إلى المسجد مستبشرين .

(١)- ابن كثير في الأحكام الكبير ١/١٧ .

(٢)- نفس المصدر السابق .

وكان لامرأة من بني النجار منزلٌ إلى جانب المسجد أعلى منه ، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه ، وأصبح هذا النداء يسمعه كلُّ أهل المدينة وتسمعه الدنيا بأسرها إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين . .

تأسيس دولة الإسلام

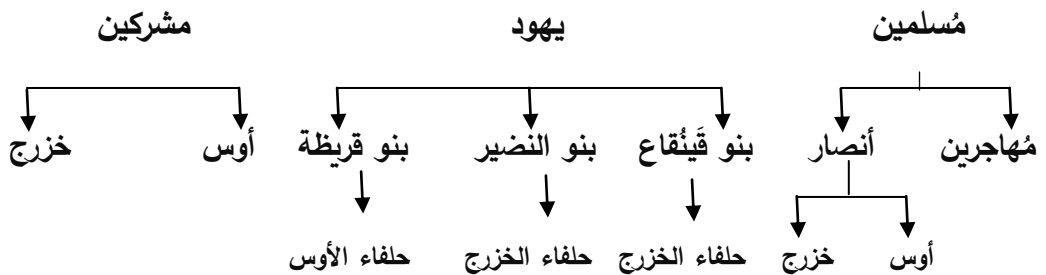
لما استقر الأمرُ لرسول الله ﷺ والذين هاجروا معه ، بدأ في تأسيس دولة الإسلام وكانت هناك تحديات خارجية وداخلية لبلوغ هذا الهدف :

أما التحديات الخارجية : فكانت فيما يُحَاك له ولأتباعه من قريش وممَّن حولها من القبائل وسنأتي للحديث عنها بالتفصيل . .

أما التحديات الداخلية : فكانت في تأسيس دعائم الدولة الجديدة بما فيها من خلفيات دينية وعرقية مختلفة ، فقد كانت هناك ثلاثة أنواع من المواطنين في المدينة عند هجرة رسول الله ﷺ إليها يختلف أحوال كلِّ واحد منها اختلافاً واضحاً فكانت هناك تحديات تواجه رسول الله ﷺ من كل صنف منها ، غير التحديات التي كان يواجهها من الصنف الآخر .
والأنواع الثلاثة هم :

- ١- المسلمين . ٢- اليهود . ٣- المشركين الذين لم يؤمنوا بعد .

أحوال أهل المدينة عند دخول رسول الله ﷺ



أولاً : أحوال المسلمين :

كان المسلمون قسامين :

أ. المهاجرين :

وقد فاتهم كل شيء ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، فلم يكن لهم ملجأ يؤوون إليه ، ولا عمل يكسبون به ما يسد حاجتهم ولا مال يبلغون به قواماً من العيش وكان عندهم في تزايد دائماً .

ب. الأنصار :

وهم يعيشون في أرضهم وديارهم ، ولا يهمهم من الأمر إلا ما يهم الرجل وهو أمنٌ في سربه ، وينقسم هؤلاء إلى قبيلتين متناحرتين هما الأوس والخزرج بينهما تنافرٌ مستحکم وعداء شديد منذ أمد بعيد .

ثانياً : اليهود :

كان اليهود يعيشون في المدينة واصطبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، بعد أن نزحوا إليها زمن اضطهاد الآشوريين والرومان إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم وجنسهم ولم يندمجوا مع العرب بل كانوا يحتقرونهم ، ويحقرون دينهم وهو عبادة الأصنام ، وكانوا يفخرون بأنهم أهل كتاب ، وكانوا مهرة في فنون الكسب والتجارة فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، فكانوا يستوردون الثياب والحبوب والخمر ويصدرون التمر وكانوا لا يألون جهداً في إشعال نار الفتنة بين القبائل المتناحرة بأيدي خفية ، وبذلك كانوا يحافظون على كياناتهم اليهودي وهو ما يُعرف الآن بسياسة " فرّق تُسد "

وكان اليهود في المدينة ثلاث قبائل مشهورة :

أ. بنو قَيْنُقَاع : وكانوا حلفاء الخزرج وديارهم داخل المدينة .

ب . بنو النضير : وكانوا حلفاء الخزرج وديارهم بضواحي المدينة بمقربة من فدك .

ج. بنو قُرَيْظَةَ وكانوا حلفاء الأوس وديارهم بضواحي المدينة يَدَك .

هذا بالإضافة إلى يهود خيبر شمال المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تُثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وكانوا ينظرون إلى الإسلام بعين البُغض والحقد ، فرسول الله ﷺ لم يَكُنْ من أبناء جنسهم وتعاليم الإسلام لم تكن على هواهم أو في صالحهم ، لذلك كانوا يُبطنون أشد العداوة ضد الإسلام وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل المدينة وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهار ذلك إلا بعد حين .

إسلام عبد الله بن سلام :

ويشهد بذلك ما رواه البخاري في إسلام عبد الله بن سلام ، فقد كان حبراً من فطاحل علماء اليهود ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، جاءه وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ، ولما سمع رده عليها أمن به ساعته ومكانه ثم قال لرسول الله ﷺ : إن اليهود قوم بُهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بتهوني عندك ، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام فقال رسول الله ﷺ : " أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ " قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاده الله من ذلك (ثلاثاً) ، فخرج إليهم عبد الله ، فقال (١) : أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، فقال عبد الله : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق . فقالوا : كذبت .

فكان هذا مُجمل أحوال اليهود في المدينة حين دخلها رسول الله ﷺ .

ثالثاً : المشركين :

أما المشركون فكانوا من صميم قبائل المدينة ، ولم يكن لهم سيطرة على المسلمين وكان منهم مَنْ تراوده الشكوك ويتردد في ترك دين الآباء ، وقد كان معظمهم لم يكن يُبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا

(١)- صحيح البخاري ٣٣٢٩ ، عن أنس بن مالك .

دينهم لله ، إلا أن بعضاً منهم كان يبطن أشد الحقد والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم فكان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء ، وهو غير ما كان يُبطن فكان هؤلاء هم المنافقون .

عبد الله بن أبي بن سلول - رأس النفاق :

وكان على رأس هؤلاء ، عبد الله بن أبي بن سلول كان من قبيلة الخزرج وكان أهل المدينة (أوس وخزرج) قد اجتمعوا على تنصيبه ملكاً عليهم بعد حرب بُعاث ، وإذ هو على وشك أن يُتَّوَجَّ ملكاً على أهل المدينة إذ بُغِت بمجيء رسول الله ﷺ وانصراف قومه عنه إليه ، فكان يرى أن رسول الله ﷺ قد استلبه الملك ، فكان يُبطن أشد العداوة ضده إلا أنه لما رأى أن الظروف لا تُساعده على شركه وأنه سوف يُحرم بقايا العز والشرف ، أظهر الإسلام بعد بدر ولكنه بقي مستبطناً الكفر ، فلُقِب بحق رأس النفاق والمنافقين ، كانت هذه هي الظروف والقضايا الداخلية التي واجهها رسول الله ﷺ من أول يوم دخل فيه المدينة .

منهاج رسول الله ﷺ في مواجهة تلك التحديات

سنرى هنا الرسول السياسي العظيم ، وكيف قام بمعالجة كل هذه القضايا خير علاج ومواجهة تلك التحديات بتوفيق من الله ، فعامل كل قوم بما كانوا يستحقونه ، وبما فيه تزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة ، فقد أراد الله أن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح كل ذلك في سبيل الله ، وفي سبيل كلمة الحق التي بُعث بها ، وهو قد كان في ذلك كله عظيماً وكان مَثَل الكمال الإنساني على ما يجب أن يكون .

فكان منهجه ﷺ يدور في ثلاثة محاور :

- ١- تزكية نفوس الأنصار وتوحيد كلمتهم .
- ٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

٣- وضع ميثاق عام يحكم العلاقة بين جميع المواطنين من أهل المدينة مسلمين وغير مسلمين

أولاً : وحدة الأنصار :

كانت مخاوف رسول الله ﷺ أن تتشور البغضاء القديمة بين أبناء الدين الواحد فعمل بكل وسيلة على القضاء على كل شبهة من هذا النوع ، وكان ذلك بتزكية النفوس والتعليم والتربية والحث على مكارم الأخلاق .

فكان من أول ما قال رسول الله ﷺ لما قدم المدينة :

- " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام " (١) .
- "لا يدخل الجنة مَنْ لا يَأْمَنُ جَارَهُ بوائقه" (٢) .

(١)- صحيح ابن ماجه ٢٦٤٨ .

(٢)- صحيح مسلم ٤٦ .

- " المسلم مَنْ سَلِمَ الْمَسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ " (١)
- " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّهُ لِنَفْسِهِ " (٢)
- الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمُ بَعْضًا " (٣) .

فكان لهذا النهج النبوي أثره البالغ في توحيد المسلمين على كلمة سواء ، ونزع ما في نفوسهم من تناحر ونزعات قبلية .

ثانياً : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كانت العلاقات المعروفة عند العرب غير علاقة الدم علاقتان : التبني والموالاة .

أ. التبني : وكان للابن بالتبني أن يرث من تبناه ، كما كان الحال لما تبني رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وأصبح يدعى زيد بن محمد لكنه عاد فيما بعد إلى اسمه الأصلي زيد بن حارثة بعد أن أبطل الإسلام التبني .

ب. الموالاة : وهي نوع من التحالف ، فكان الرجل يعاقد الرجل فيقول له : " دمي دمك ، هدمي هدمك ، وثأري ثأرك ، وحربي حرك ، وسلمي سلمك ، وترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ، وتعقل عني وأعقل عنك " .

أما المؤاخاة : فقد استحدثها رسول الله ﷺ ولم تكن معروفة عند العرب من قبل ، فلم يشأ رسول الله ﷺ بحكمته أن يترك المهاجرين ليكونوا حزباً مترابطاً ، ويظل الأنصار كحزب ثان ، بل أراد دمج الاثنين في كيان واحد ، فأخي بينهم فقال : " تآخوا في الله أخوين أخوين " (٤) فتآخرا على المساواة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى أن نزل قوله تعالى : (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ [الأحزاب : ٧٥] فردَّ التوارث إلى الرحم ، وبقي عقد الأخوة ، ونظراً لحرص الموقف لو اتخذ رسول الله ﷺ أخاً من الأنصار

(١)- صحيح النسائي ٥٠١٠ ، أخرجه الترمذي باختلاف يسير ٢٦٢٧ .

(٢)- صحيح البخاري ١٣ .

(٣)- أخرجه البخاري ٦٠٢٦ ومسلم ٢٥٨٥ .

(٤)- ابن كثير في البداية و النهاية ٢٢٥/٣ ، أنكر هذا الحديث عدد من علماء الحديث .

إذ أنه شرف كبير قد يجعل من يختاره أخاً ، أن يتيه على الآخرين ، ولعشيرته أن تقهر على العشائر الأخرى ، لذلك أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال " هذا أخي " (١) .

ثم كانت المؤاخاة :

فكان حمزة أخاً لزيد بن حارثة .

أبو بكر الصديق أخاً لخارجة بن زيد الخزرجي .

عمر بن الخطاب أخاً لعتبان بن مالك الخزرجي .

عبد الرحمن بن عوف أخاً لسعد بن الربيع الخزرجي ، وهكذا

وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيداً ، وأبدى رسول الله ﷺ من المهارة والحنكة ، ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطئ الرأس إجلالاً و إكباراً .

مشاهد من الإيثار والمواساة بين الصحابة :

لقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة وملأت المجتمع بأروع الأمثال ، نسوق بعضاً منها :

المشتغلون بالتجارة :

لما أخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، قال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي ، أطلقها ، فإن انقضت عدّها فتزوجها ، قال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم؟ فدلّه على سوق بني قَيْنُقَاع ، فتاجر وربح واستطاع أن يصل إلى الثروة في زمن قصير ، وتزوج امرأة من الأنصار ، وأصبحت له قوافل في التجارة تذهب وتجيء .

(١)- نفس المصدر السابق .

المشتغلون بالزراعة :

فقد رُوي أن الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا ، فقالوا : أفيكفوننا المؤنة (أي يعملون كل ما يحتاجه الزرع من خدمة) ونشركهم في الثمر ؟ فوافق رسول الله ﷺ وقال المهاجرون : سمعنا وأطعنا (١)

هذا يدلنا على عظمة الصحابة مهاجرين وأنصاراً ، فالأنصار كانوا من الكرم والحفاوة والإيثار بإخوانهم المهاجرين ، والمهاجرون كانوا في عظيم تقديرهم لهذا الكرم حق قدره فلم يستغلوه ، ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

وهكذا كان لهذه الحكمة من رسول الله ﷺ أثرها البالغ في توحيد المسلمين ، مهاجرين وأنصاراً ، أوسهم وخزرجهم .

ثالثاً : ميثاق التحالف بين أبناء الوطن :

وضع الرسول ﷺ ميثاقاً ينظم العلاقة بين أبناء الوطن الواحد مسلمين وغير مسلمين ، فبعد أن أرسى قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة ، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية بين المسلمين ، بدأ ينظم علاقته بغير المسلمين ، فأبرم معاهدة تنظم العلاقة بين أهل المدينة : مهاجرين وأنصار ويهود و مشركين .

وفيما يلي ملخص لأهم بنود هذه المعاهدة :

١- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم (مالهم قبل الإسلام) يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف وبالقسط من المؤمنين .

٣- كل طائفة من أهل يثرب (وذكر بطونها) علي ربعتهم ، يتعاقلون معاملتهم الأولى ، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف .

(١)- صحيح البخاري ٢٧١٩ .

- ٤- المؤمنون المتقون على مَنْ بغى منهم .
- ٥- لا يقتل مؤمناً مؤمناً في كافر .
- ٦- إن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة لا مظلومين ولا متناصرين عليهم .
- ٧- أنه مهما اختلفتم منه في شيء فإن مردّه إلى الله وإلى الرسول .
- ٨- إن اليهود أمةٌ مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم .
- ٩- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
- ١٠- إن بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة (١) .
- ١١- إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ١٢- إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
- ١٣- إن بينهم النصر على مَنْ دهم يثرب (٢) .

وبإبرام هذه المعاهدة التي وافق عليها كل أهل المدينة مسلمين ويهود صارت المدينة دولة وفاقية ، وزعيمها رسول الله ﷺ وبذلك تأسست دولة الإسلام التي تقرّ حرية العقيدة والرأي ، وحرمة المدينة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، وقد كانت فتحاً جديداً في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ ، العالم الذي كانت تعبت به يد الاستبداد والظلم ، وبذلك أصبحت المدينة حرماً لأهلها أجمعين وعليهم أن يدافعوا عنها وأن يتكافلوا فيما بينهم .

(١)- السيرة النبوية لابن هشام .

(٢)- نفس المصدر السابق .

حرب الجدل بين رسول الله ﷺ واليهود

رغم عقد اليهود عهداً مع رسول الله ﷺ إلا أنهم كانوا يكيدون كيداً ، ذلك لأنهم لا يريدون لدعوته أن تنتشر وسلطانه الروحي أن يمتدّ مُكْتَفِين بِالْأَمْنِ فِي جِوَارِهِ .

فبدأوا حربهم على رسول الله ﷺ وكانت حربهم ترتكز على محورين :

١-الجدل والتشكيك فيما أتى به رسول الله ﷺ .

٢-محاولة الوقعة بين المسلمين .

أولاً : الجدل والتشكيك :

كانت مجادلة اليهود أشدّ لدداً وأكبر مكرراً من حرب الجدل التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش بمكة ، ففي هذه الحرب مع اليثريبين تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، ففسدوا من أبحارهم من أظهر إسلامه ، ثم ما لبث بعد حين أن يُبدي من الشكوك والريب ويلقي بالأسئلة على رسول الله ﷺ ، ما يحسبه قد يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به .

فكانوا كثيراً ما يسألون .. وكان الله تعالى يوحى إلى رسوله بما يجيبُ به عليهم ، فتجد أنه تكرر في القرآن : يسألونك ... قل ... عدة مرات .

فمثلاً ، يسألون رسول الله ﷺ : إذا كان الله قد خلق الخلق فمنَ خلق الله؟ وكان رسول الله ﷺ يجيب بما أوحى إليه : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) [الإخلاص]

وهكذا استمرت حملتهم وتشكيكهم والرسول يرد بما أوحى الله إليه به ، فذهب مكرهم هباءً منثوراً .

ثانياً : محاولة الوقعة بين المسلمين :

كان صعباً على اليهود أن يروا المسلمين مهاجرين وأنصاراً أوسهم وخزرجهم وحدة واحدة ، فلما صعب عليهم الوقعة بين المهاجرين والأنصار فكروا في إحياء روح القبالية بين الأنصار أوساً وخزرجاً .

فقد مرَّ أحد اليهود (شاس بن قيس) على نفر من الأوس^(١) والخزرج في مجلس جمعهم ، فغاظة صلاح بينهم ، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم ، أن ينتهز فرجته يذكر فيها يوم بُعث ، وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج وتكلم الغلام ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض : إن شئتم عدنا إلى مثلها .

وبلغ رسول الله ﷺ الأمر فخرج إليهم فيمنَّ معه من أصحابه ، فذكَّروهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين ، وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً ، واستغفروا الله جميعاً ، ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يحاولون فيها الوقعة بين المسلمين مرات ومرات .. وكان رسول الله ﷺ دائماً لهم بالمرصاد .

تحويل القبلة

كان رسول الله ﷺ في مكة قد أمر باستقبال بيت المقدس فكان يصلي بين الركنين ، وبذلك يستقبل بيت المقدس وفي نفس الوقت يستقبل الكعبة ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فكان يصلي إلى بيت المقدس (شمالاً) والكعبة من خلفه (جنوباً) ، إلا أنَّ قلبه كان مُعلقاً بالكعبة ، لذلك كان دائم النظر إلى السماء ويدعو الله أن يُوجَّهه إلى البيت العتيق - قبلة إبراهيم - .

أما اليهود فلما علموا بذلك فكَّروا أن يمكروا وأن يقنوه بالجلاء عن المدينة ، كما أجلاه أذى قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم ، فإن كان رسولاً حقاً فجدير له أن يصنع صنيعهم ، وتكون المدينة وسطاً في هجرته بين مكة والمسجد الأقصى .

فلم يحتج الأمر إلى كثير من التفكير ليعلم أنهم يمكرون به ، وأوحي إليه يومئذ على رأس سبعة عشرة شهراً من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام ، بيت إبراهيم

(١)- رواية الطبري بسندة عن زيد بن أسلم .

وإسماعيل ونزلت الآية (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۗ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۗ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) [البقرة : ١٤٤]

فلماً أمر بالتوجه إلى الكعبة خطب في الناس وأعلمهم بذلك ، وكان ذلك في مسجد بني سلمة ، فسُمِّي " مسجد القبلتين " ، أما اليهود فأنكروا عليه ما فعل ، وراحوا يشككون ، ويتساءلون عن سبب تحويل القبلة ، وحاولوا فتنته مرة بقولهم أنهم سيتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته الأولى ، فنزل قوله تعالى : (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۗ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۗ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة : ١٤٢]

التحديات الخارجية

كان هذا ملخص ما واجه رسول الله ﷺ في الداخل وكيف تعامل بحكمة بالغة مع كل هذه التحديات .

وهنا نلاحظ أن رسول الله ﷺ هو النبي الوحيد الذي عُني بأمر الدنيا والدين ، غير باقي الرسل .

أما التحديات الخارجية فكان ملخصها :

١- أن رسول الله ﷺ كان قلبه معلقاً بمكة وبها البيت الحرام ، وكذلك صحبه الذين سلبت أموالهم وديارهم .

٢- أما قريش فلم تهدأ بل ازدادت غيظاً ، أن فاتهم المسلمون وأصبحوا في مأمن منهم ، ولقلقهم وغيظهم أسباب وهي :

أ. أن المسلمين أصبحوا في قوة ومَنعة في المدينة وهي طريق تجارتهم إلى الشام ، مما قد يؤثر على تجارتهم .

ب . أنه من الممكن أن يقوى المسلمون ويستطيعوا أن يهاجموا قريشاً في ديارهم يوماً ما .

محاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

لذلك فكّر كفار قريش في قتل رسول الله ﷺ فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ، وقد كان - كما أسلفنا - قد اجتمع عليه قومه وكادوا ينصبوه ملكاً عليهم ، لولا أن هاجر رسول الله ﷺ إليهم وآمنوا به ، فكتبوا إليه وإلى أصحابه من المشركين : " إنكم أويتم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لتقاتلنه ولتُخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ، ونستبيح نساءكم ."

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ . ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ لقيهم وقال لهم : " لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت بأكثر ما تريدون أن تكيّدوا أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم " (١) . فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، وامتنع عبد الله بن أبي عن القتال لما رأى خوراً في أصحابه ، إلا أنه ظل متواطئاً مع قريش ، وكان يضم معه اليهود ليعينوه على ذلك .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام :

انطلق سعد بن معاذ إلى مكة معتمراً ، فنزل على أمية بن خلف ، لصداقة حميمة بينهما ، وخرجا يطوفان بالبيت ، فلقيهما أبو جهل . فقال لسعد : أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصبأة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم . أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت لأهلك سالمًا ، فقال له سعد بصوت عال : أما والله لئن منعتني هذا ، لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك إلى الشام والله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنهم (أي المسلمون) قاتلوك (٢) .

(١)- صحيح أبي داود ٣٠٠٤ .
(٢)- صحيح البخاري ص ٣٩٥٠ .

مشروعية القتال :

لما زاد طغيان أهل مكة وفي هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين ، وتنبيء عن قريش أنهم لا يفيقون من غيهم ، لا يمتنعون عن غرورهم ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين يقول تعالى :

(**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ سَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) [الحج : ٣٩-٤٠]**)

هل انتشر الإسلام بحد السيف ؟

والسؤال الذي يجب الإجابة عليه : هل انتشر الإسلام بحد السيف كما يروى لذلك أعداء الإسلام ؟

والإجابة هي : لا لم ينتشر الإسلام بحد السيف ، بل انتشر بالإقناع والمعرفة والقدوة الحسنة ، والدليل على ذلك :

١- أن الله سبحانه وتعالى أمر بالقتال فقال : (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) [البقرة : ١٩٠] أي أن وجوب القتال على الذين يقاتلونكم ، ولا يجب أن تكون من المعتدين لأن الله لا يحب المعتدين .

٢- قوله تعالى : (**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**) [النحل : ١٢٦]

وفي تفسير هذه الآية يقول الشيخ الشعراوي^(١) - رحمة الله عليه - أنه إن صفعك أحد ، فإن أردت عقابه على ما فعل ، فعليك أن تصفعه صفعة بنفس قوة الصفعة التي صفعك إياها . ويستطرد ويقول : لكن ما يُدريك أنك تستطيع أن تملك نفسك

(١)- خواطر الشعراوي ص ٦٩٧ .

وتتحكم في قوة صفتك له ، لأنك إن صفتته بصفة أقوى سوف تكون من المعتدين ، والله لا يحب المعتدين .

٣- والقول ما زال للشيخ الشعراوي ، يُفضل أن تصبر فهو الخيار الأحسن الذي اختاره الله لك : (هُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) [النحل : ١٢٦]

٤- قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : ٢٥٦]

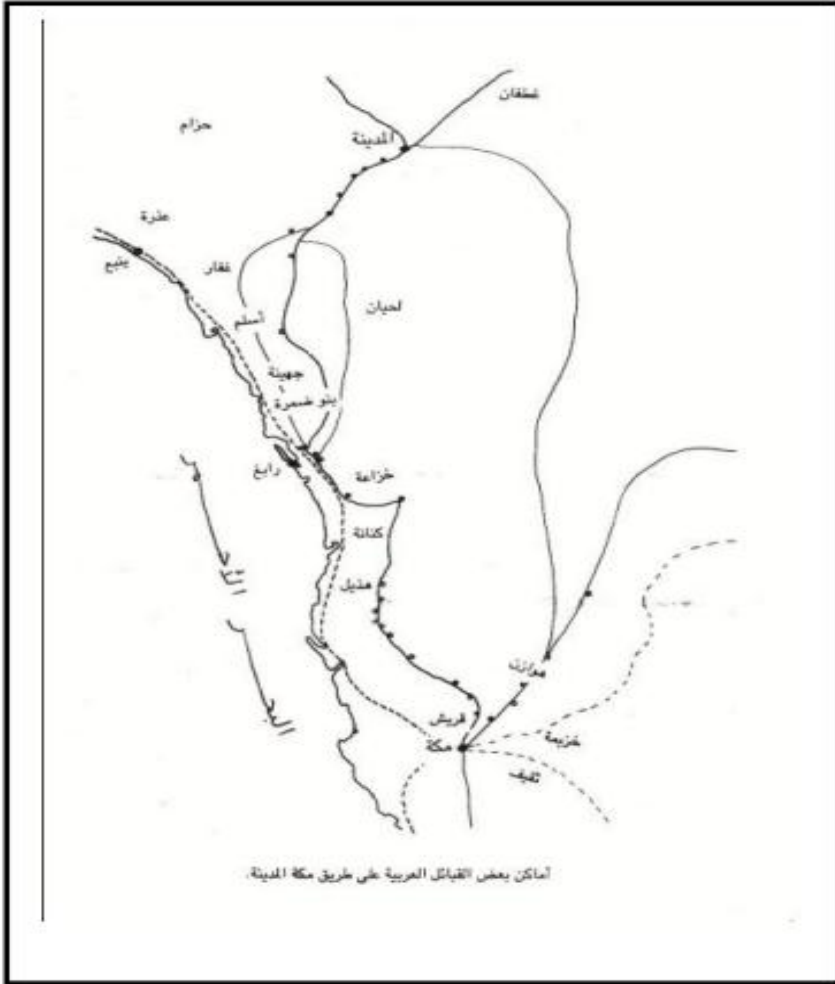
في هذه الآية أمر واضح أنه لا إكراه في الدين ، وهو ما يؤكد ما فعله رسول الله ﷺ مع اليهود وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، إذ ترك لهم حرية العبادة فيما يعتقدون فيه ، وهذا ما نصت عليه وثيقة المدينة .

ولكن مهمة الرسول الكبرى ﷺ وصاحبه من بعده ، هي تبليغ رسالة الله إلى الناس ، وفي سبيل ذلك كان عليه أن يصل إلى الناس ليتواصل معهم ، وهو ما حاول الكفار منعه منه ، لذلك كان يقول ﷺ : " خلوا بيني وبين الناس " ، أي دعوني أوصل رسالة ربي إلى الناس بعدها يؤمن بها مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر بدون إكراه على أي من الأمرين .

رسول الله ﷺ يخطط لمواجهة قريش

وإزاء تهديدات قريش المتكررة لرسول الله ﷺ وللمسلمين فكّر رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجارتهم ، وكانت خطته ترتكز على محورين :

أولاً : عقد معاهدات مع القبائل المجاورة لهذا الطريق ، إما بالحلف أو عدم الاعتداء ، وبذلك أمن هذه القبائل .



شكل: ١

ثانياً : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر :

وتنفيذاً لهذين المحورين بدأت التحركات العسكرية بعد نزول الإذن بالقتال .
وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية وكان هدفها :

١- الاستكشاف والتعرّف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة

٢- عقد المعاهدات مع القبائل الموجودة على هذه الطرق (شكل ١)

٣- إشعار مُشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء .

٤- إرسال رسالة إلى قريش فيها إنذار عُقبى طيشها وأنّ تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها ، فتجنح للسلم وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين ، والصد عن سبيل الله .

أحوال بعض هذه السرايا والغزوات :

كانت أولاً من المهاجرين فقط ، ثم بعد ذلك من المهاجرين والأنصار .

والغزوة : هي ما خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه .

أما السرية : فهي ما خرج فيها أحد من قادته .

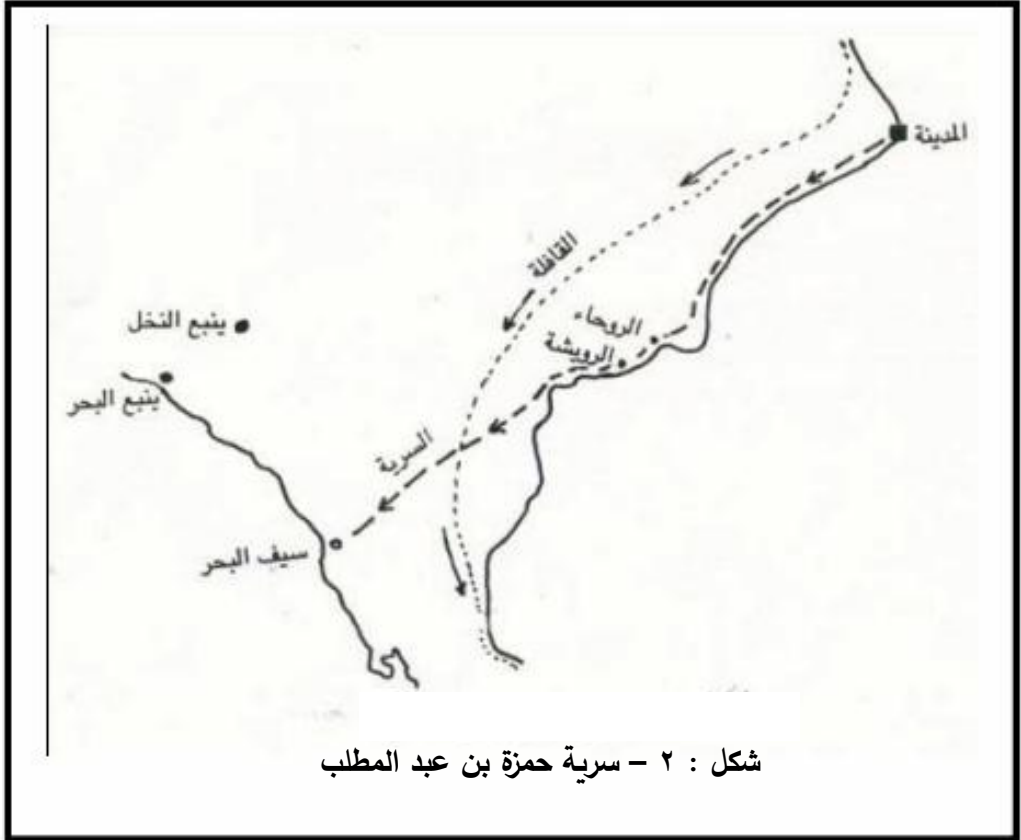
١- سرية سيف البحر :

في رمضان سنة واحد هجرياً ، أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، بعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص ، مكان ناحية البحر الأحمر .

فلما اصطفوا للقتال ، مشى مجدي بن عمرو الجهني ، وكان حليفاً للفريقين (١).

ونجح أن يحجز بينهما فلم يقتلوا (شكل : ٢)

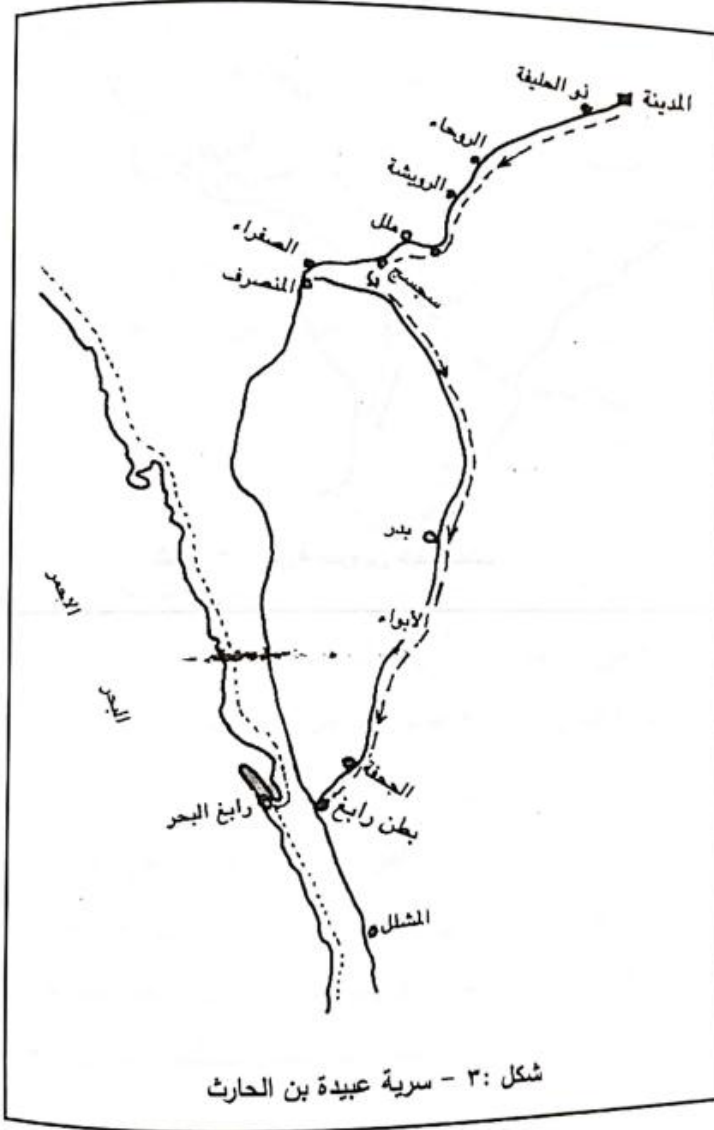
(١)- السيرة النبوية لابن هشام .



شكل : ٢ - سرية حمزة بن عبد المطلب

٢- سرية رابغ : (١)

في شوال سنة واحد هجريا ، بعث رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث في ستين رجلاً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابغ ، وقد ترامي الفريقين بالنبل ولم يقع قتال . (شكل : ٣)



(١)- السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢٨ .

٣- سرية الخرار :

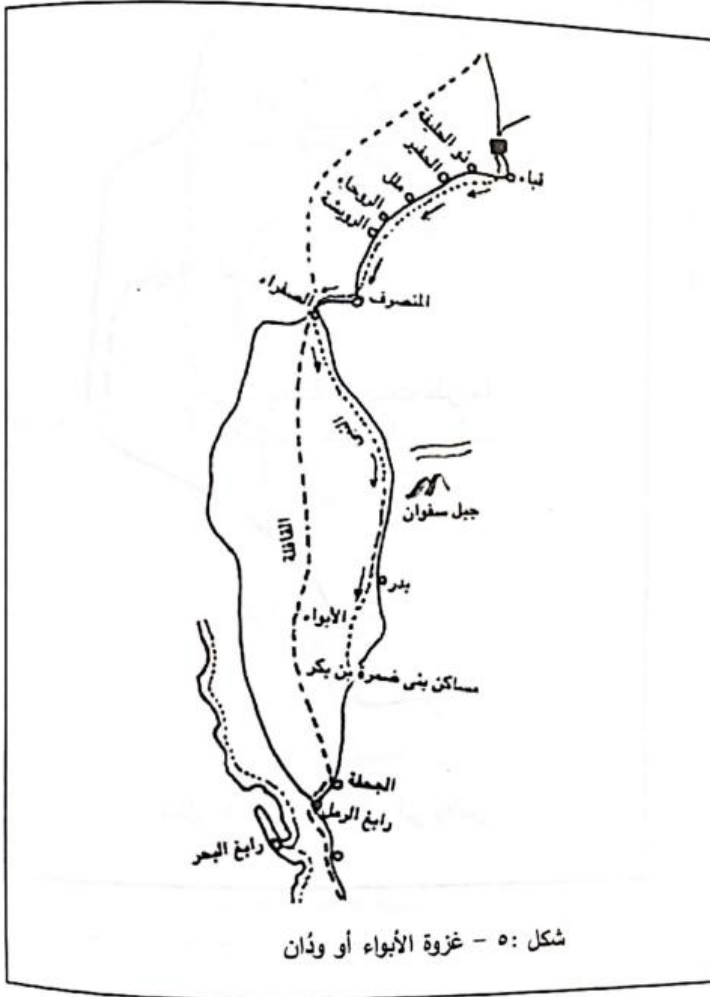
في ذي القعدة سنة واحد هجرياً بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً ، يعترضون عيراً القريش ، فخرجوا مشاة ، يكمنون بالنهار ، ويسيرون بالليل ، حتى بلغوا الخرار ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس ولم يقع قتال ^(١) (شكل ٤) .



(١)- طبقات ابن سعد ج ٢ م ٧ .

٤- غزوة الأبواء أو ودان :

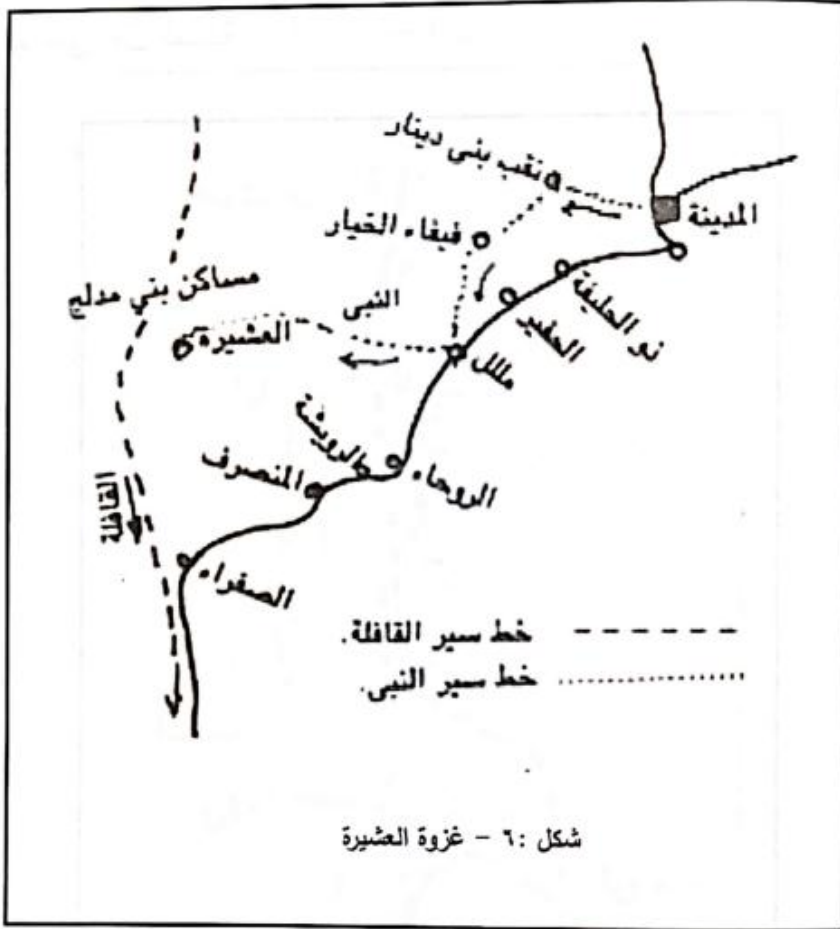
في صفر سنة ٢ هجرياً ، خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين ، يعترض عيراً لقريش واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، سار حتى وصل إلى ودان ، موضع بين مكة والمدينة (شكل : ٥) ، ولم يلق هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته ، وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ (١) معاهدة مع عمرو بن مخشي الضمري ، وكان سيد بني ضمرة في زمانه .



(١)- كتاب المغازي للبخاري .

٥- غزوة ذي العُشيرة (١) :

في جمادى الأولى سنة ٢ هجرياً خرج رسول الله ﷺ في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام . فبلغ ذا العُشيرة ، فوجد العير قد مضت (شكل : ٦) وهذه هي العبر التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فكانت سبباً في غزوة بدر الكبرى .



وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة مع بني مدلج ، وهم حلفاء بني ضمرة الذين حالفهم في غزوة الأبواء .

(١) - ابن إسحاق في السيرة .

٦- غزوة بواط : (١)

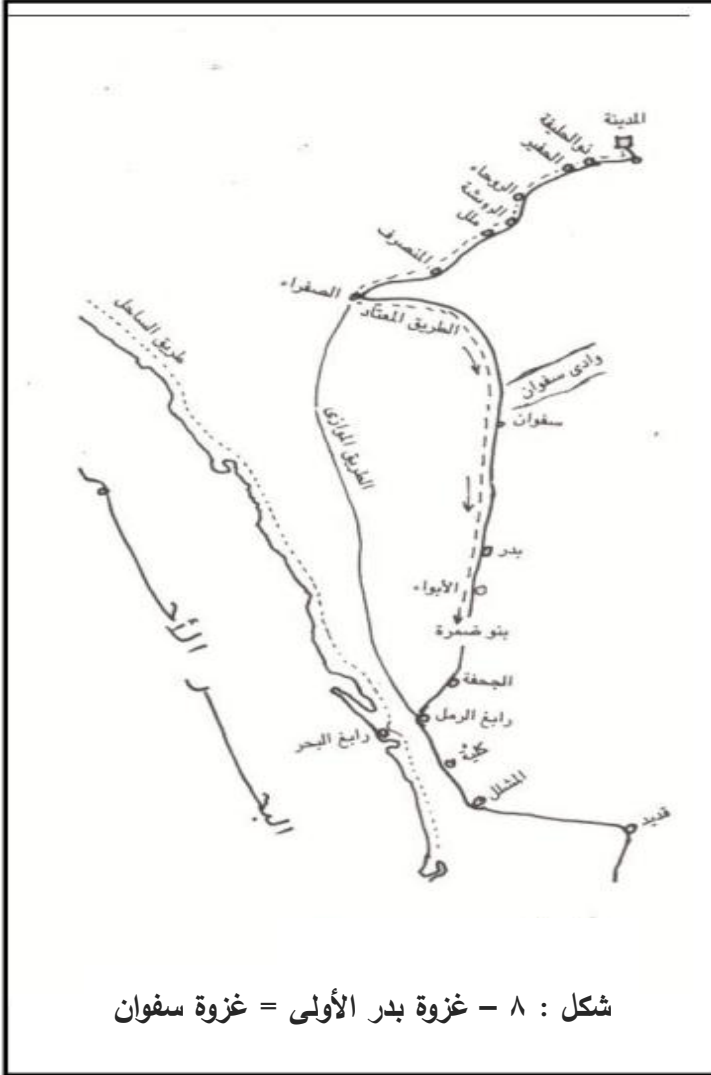
في ربيع الأول سنة واحد هجريا ، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف ، فسار حتى بلغ بواط فوجد العير قد فاتته ، فرجع ولم يلق كبداً (شكل : ٧) ، وذلك لما كان يأخذ المشركين من الحذر على أنفسهم ، والاجتهاد على تعمية أخبارهم على أهل المدينة .



(١)- الفصول في اختصار سيرة الرسول لابن كثير .

٧ - غزوة سَفَوَانَ (بدر الأولى) :

بعد رجوعه ﷺ من بواط بقليل (ربيع الأول سنة ٢ هجرياً) أغار كُرَاز بن جابر الفهريّ في عددٍ قليلٍ من المشركين على مراعي المدينة ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً لمطاردته ، حتى بلغَ وادياً يُقال له سفوان من ناحية بدر ولكنه لم يدرك كرازاً وأصحابه ، ورجع دون حرب ^(١) وتُسمّى هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى (شكل : ٨).



شكل : ٨ - غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان

(١)- الفصول لاختصار سيرة الرسول لابن كثير .

٨- سرية نخلة (عبدالله بن جحش) :

في رجب سنة ٢ هجرياً (أواخر رجب) ، اتخذ رسول الله ﷺ في هذه السرية أسلوباً جديداً - يضمن سريتها - ذلك بأن تمضي السرية ولا يعلم أحد بوجهتها ، ولا حتى قائدها حتى يصل إلى مكان مُعين ، فيفضّ كتاباً كتبه له رسول الله ﷺ ليجد فيه خط السير ، فقد أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على ثمانية رجال وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين . فسار عبد الله وبعد يومين قرأ الكتاب وفيه : " إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخله - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارها " (١) ، فكانت مهمة استطلاعية فقط . فلما قرأ كتاب النبي ﷺ أخبر أصحابه وقال لهم : مَنْ كره المهمة لخطورتها فليرجع ، فنهضوا كلهم ، غير أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ضلّ لهما بعير فراحا يبحثان عنه فافترقا عن الجماعة وأصبحت السرية ستّ أفرادٍ فقط إضافةً إلى قائدها .

يوم الشك :

وصار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرّت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة يحرسها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

وقرر أفراد السرية قتالهم ، وكان اعتقادهم أنهم في أول شعبان وليس آخر يوم في رجب - رجب من الأشهر الحرم - وهو اليوم الذي نقول عليه في أيامنا : " يوم الشك " فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأفلت نوفل ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالأسيرين والعير إلى المدينة وأعطوا الغنائم لرسول الله ﷺ .

(١)- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني .

الرسول يستنكر ما فعلوه :

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم : " ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام " (١) وأبى أن يأخذ العير والأسيرين وأسقط في يد رجال السرية ، وعنفهم إخوانهم المسلمون .

قريش تشنع بالحادث :

ووجد المشركون فيما حدث فرصةً لاتهام المسلمين بأنهم أحلوا ما حرم الله ، وعلى ما يبدو - كما أسلفنا - كان ذلك اليوم من الأيام التي تختلف عليها الناس ، هل هي تكملة للشهر السابق أم بداية شهر جديد (يوم الشك) ، إلا أن المشركين إمعانا في التشنيع على المسلمين ، ادعوا وأكدوا أنه كان شهر رجب وهو من الأشهر الحرم ، فلما كثُر القيل والقال ، نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۗ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۗ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ) [البقرة: ٢١٧]

أي أن مشركي مكة قد استعظمو قتالاً حدث - خطأ - في الشهر الحرام ، وهو أمرٌ عظيم ولكن أعظم منه ما حدث من المشركين من صدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام وإيذاء المسلمين حتى اضطروهم للخروج من مكة .

فلما نزلت هذه الآيات ، فرّج الله بها عن أعضاء السرية ما كانوا فيه من غمٍّ ، وبعثت قريش فداء الأسيرين ، فقال رسول الله ﷺ : " لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا " (٢) ، - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - " وبعد يومين قدم سعد وعتبة ، فقبل رسول الله الندية عن الأسيرين وأطلقهما كما أدى دينَ المقتول إلى أوليائه .

(١)- ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣٠٥-٣٠٤/٣) ، وانظر الطبقات (٢/٧) ص ٩٥ ، والقصة ذكرها البيهقي في الدلائل (١٩-٣/١٧) ، وابن جرير (٤١٠-٣/٤١٣) من طريق يزيد بن رومان عن عروة مرسلًا .

(٢)- نفس المصدر السابق .

وهكذا قد حققت هذه الغزوات والسرايا الهدف منها ، وهو توطيد العلاقات مع القبائل المجاورة والتحالف معها ، ألاّ تعتدي على المسلمين إن لم تقبل الدخول في الإسلام ، وكذلك توصيل الرسالة القوية إلى قريش بأن تجارتها في خطر وخاصةً ما وقع في سرية عبد الله بن جحش ، قد حقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، وعلموا أن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى قرب مكة ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم إلا أنهم بدلاً من أن يلجئوا إلى المهادنة والموادعة ، كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ازدادوا حقداً وغيظاً ، وصمموا على إبادة المسلمين في عُقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر .

موقعة بدر الكبرى

مقدمة لأسباب الغزوة :

نحن الآن في أواخر شعبان سنة ٢ هـ ، وكما هو معلوم فإن المسلمين تُهبث أموالهم ، وأُخرجوا من ديارهم ، فكانوا يريدون الإيقاع بقافلة كبيرة لقريش ، تعوّضهم على دُورهم وأموالهم التي تركوها حين اضطرتهم قريش للهجرة .

وها هي قريش تخرج في تجارة يقودها أبو سفيان إلى الشام وفيها ألف عير ، محمّلة بأموال لا تقلّ عن خمسين ألف دينار ذهبي ولم يكن معها من الحرس إلا نحو ٤٠ رجلاً ، وكانت العير لكل رجالات قريش (إلا حويطب بن عبد العُزي) ، فخرج رسول الله ﷺ (غزوة ذي العُشيرة) - كما أسلفنا - لملاقاة هذه القافلة في ذهابها إلى الشام ، إلا أنها أفلتت ، فلماً قُرب موعد رجوعها من الشام إلى مكة ، بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ليقوما باستكشاف خبرها فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا بها حتى مرّ بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر .

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليُصيبوا هذه القافلة المحمّلة بأموال أهل مكة، عائدةً بالمال الوفير بعد أن ربحت تجارتهم وعادوا من الشام ، هنا أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً : " هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها " (١) فبدأ الناس يتجهزون ، وخفّ بعضهم وثقل آخرون، لاعتقادهم أن مُضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوه من السرايا والغزوات الماضية

خروج رسول الله ﷺ :

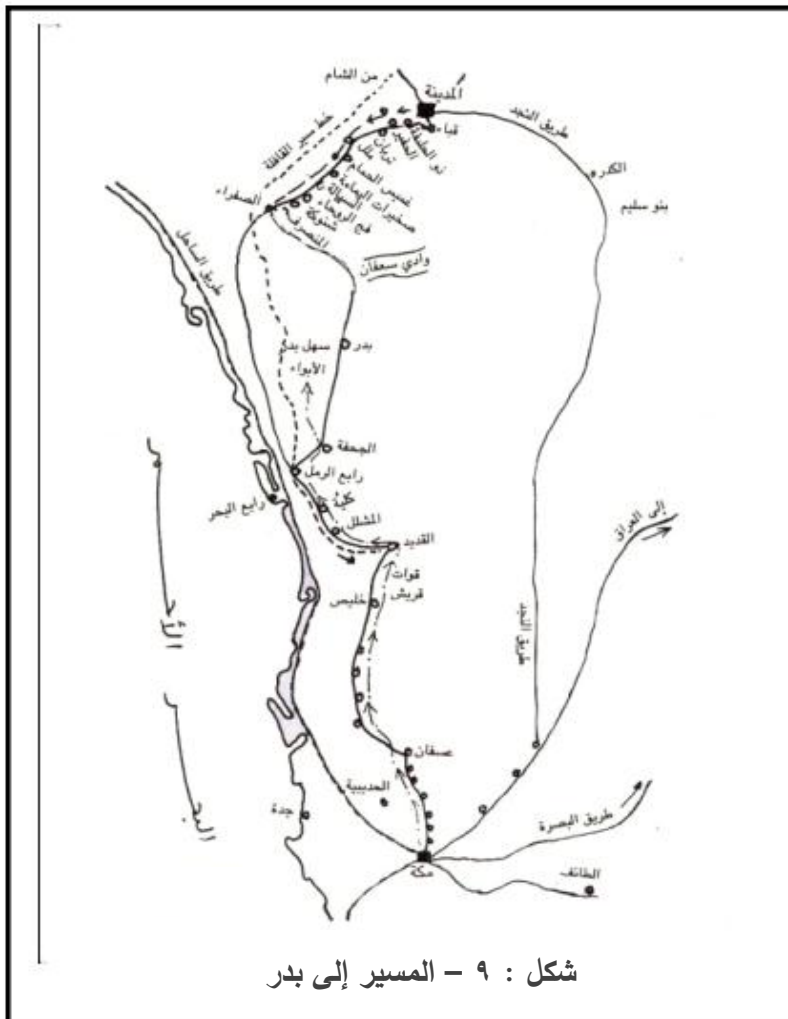
خرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر (٣١٣-٣١٧) رجلاً ومعهم فرسان (فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود الكندي) . وسبعون بعيراً . ويعتقب الرجلان أو الثلاثة أو الأربعة بعيراً واحداً ، وكان حظّ رسول الله ﷺ كحظ سائر أصحابه ، فكان هو وعلي بن أبي طالب ومزّند بن أبي مزّند الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً ، واستخلف على

(١)- ابن هشام ص ١٣٨ وانظر الطبري تاريخ ٤٢١/٢/٤٢٧ ، ابن سعد ٦/١/٢ الواقدي ٢٠/١ .

المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا أُبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة ودفع لواء القيادة إلى مصعب بن عُمير .

مسيرة جيش المسلمين :

خرج رسول الله ﷺ من المدينة ، وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ٢ هـ ، وسار نحو العقيق ثم ذي الحليفة ، وواصل على الطريق المعروف بين المدينة ومكة ، حتى إذا وصل إلى المنصرف ، ترك طريق مكة وسلك ذات اليمين إلى النَّازية يريد بداراً (شكل : ٩)



ثم قطع وادي رُحقان بالعرض ، وهو وادٍ بين النَّازية ومضيق الصفراء ، ومن هناك أرسل بَسْبَسَ بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزَّغْبَاءِ الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير . وسار النبي ﷺ حتى نزل بوادي ذفران ليستريح .

حَيْطَةُ أَبِي سَفْيَانَ :

أما خبر العير فإن أبا سفيان كان في غاية الحيلة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوفٌ بالأخطار ، وكان يتجسس الأخبار ، ويسأل كلَّ مَنْ لقي من الركبان فعلم من بعض الركبان أن رسول الله ﷺ قد استنفر أصحابه لِيُوقِعَ بالعين ، وهنا أخذ أبو سفيان حذره واستأجر ضَمَمَ بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكة وأمره أن يُسرع إلى قريش ليُخبرهم أن محمداً قد عرض له في أصحابه ويستنفرهم الحماية أموالهم .

رُؤْيَا عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ :

ننقل الآن إلى مكة ، وقبل قدوم ضَمَمَ إلى مكة بثلاث ليال ، رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعته ، فقد رأت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، مكان شمال مكة . ثم صرخ بأعلى صوته : أَلَا انفروا يا آلِ غُدْرٍ لمصارعكم في ثلاث ، فاجتمع الناسُ إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله اعتلى به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها : أَلَا انفروا يا آلِ غدر المصارعكم في ثلاث ، ثم اعتلى بعيره على رأس أبي قُبَيْسِ (جبل يقع شمال شرق مكة) فصرخ بمثلها ، ثم أخذ بصخرة وقذفها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت ، فما بقي من بيوت بمكة ولا دار إلا دخلها منها قطعة .

فلما كان الصباح بعثت عاتكة لأخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : لقد رأيتُ الليلة رؤيا أفزعنتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومُصِيبَةٌ ، فإتكم على ما أحدثك به ، فلما أخبرته بما رأت قال العباس : إن هذه الرؤيا فإتكميها ولا تذكرها لأحد .

انتشار خبر الرؤيا وردّ أبي جهل :

وخرج العباس فلقي الوليد بن عُتْبة وكان صديقاً له ، فلم يتمالك نفسه حتى ذكرها له ، وطلب منه أن يكتمها ، لكن الوليد ذكرها لأبيه عُتْبة ، وفشأ الحديث حتى تحدثت به قريش، وغداً العباس ليطوفَ بالبيت ، وأبو جهلٍ في رهطٍ من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآه أبو جهل قال له : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم النبئة ؟ فسأله العباس : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكة ، واستطرد أبو جهل : يا بني عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتبأ رجالكم ، حتى يتبأ نساؤكم ؟ قد زعمتُ عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً : أنكم أكذب أهل بيت في العرب .

وصول ضَمَضَم إلى مكة :

وفي اليوم الثالث (كما تنبأت عاتكة) وصل ضَمَضَم بن عمرو وقُبيل دخوله مكة - كما تقول في عصرنا - قام بتحويل الأمر إلى دراما : فقطع أذني بعيره ، وجدع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شقَّ قميصه من قُبيل ودُبر ، وأخذ يصرخ اللطيمة اللطيمة (الإبل وما تحمل من الطيب) أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمدٌ في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث .

استنفار وتحفز أهل مكة :

وما لبث أبو جهل حين سمعه ، أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفروهم ، وتحفز الناس سراعاً وقالوا : أئظن محمدٌ وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ (يقصدون سرية عبد الله بن جحش التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي) كلا والله ليعلمن غير ذلك ، ولكن خافوا مما تعنيه بقية رؤيا عاتكة إلا أن أبا جهل وعامر بن الحضرمي استمرا في استنفار القوم ، فكان الناس بين رجلين : إما خارج بنفسه للقتال وإما مرسل مكانه رجلاً ، ولم يتخلف من أشرفهم أحد سوى أبي لهب الذي بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة مقابل ٤٠٠٠ درهم كانت له عليه ، أما أمية بن خلف فقد أجمع على القعود فأتاه أبو

جهل وقال له : إنك متي يراك الناس وقد تخلفت وأنت سيد الوادي ، تخلفوا معك ولكن أمية بقي على موقفه ، فأتاه عُقبه بن معيط وهو جالسٌ بين قومه بمجمرة فيها نار وبخور وكان معه أبو جهل يحمل مَكْحَلَة ومِروداً ، فوضع عُقبه المِجْمرة بين يدي أمية وقال : " يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء ."

وقال أبو جهل : اکتحل أبا علي فإنما أنت امرأة ، فتحمس أمية بن خلف وقام وتجهَّز للخروج مع الناس .

تسليح جيش قريش :

تجهَّز جيش قريش وكان قوامه نحو ١٣٠٠ مقاتل ، ومعهم ١٠٠ فرساً و ٦٠٠ درعاً ومن الإبل أعداد كثيرة لا يُعرف عندها لكثرتها .

مخاوف من بني بكر :

ولما فرغوا من جهازهم ، وأجمعوا السَّير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر من عداوة وخافوا أن ينتهز بنو بكر الفرصة ويأتوهم من خلفهم ، ولكن أحد أشرف بني كنانة جاء وطمأنهم من ناحية بني بكر ، فتنشجعوا وعزموا على المسير .

تحرك جيش المشركين :

حينئذ خرجوا من ديارهم وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ : " بحدهم وحديدهم يُحادون الله ورسوله " (١) وعلى حمية وغضب وضيق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لجرأة هؤلاء على قوافلهم ، تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر وسلكوا في طريقهم ، وادي عُسفان ، ثم قديداً ثم الجُحفة ، ثم الأبواء (شكل : ٩) ، وكان اللواء لأبي جهل ، وكان كلُّ زعيم من زعماء قريش يذبح من إبله ليطعم الجميع يوماً .

رسول الله ﷺ يعلم بخروج قريش :

انطلق المسلمون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، حتى أتوا وادي ذافران ، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا غيرهم ، إذ ذاك تغيَّر وجهُ الأمر ، لم يبق

(١)- زاد المعاد ص ١٥٤ .

هؤلاء المسلمون أمام أبي سفيان وعيره ، والأربعون رجلاً معه لا يملكون مقاومة رسول الله ﷺ وأصحابه ، بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرفها للدفاع عن تجارتها .

المسلمون في وضع حرج :

وأصبح المسلمون في وضع صعب للغاية ، فلو أنهم أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله ، واقتادوا إبله وما عليها فلن تلبث قريش أن تدركهم وأن تُوقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم ، لكثرة عددهم وعدتهم ، ولكن إذا عاد رسول الله ﷺ من حيث أتى طمعت قريش وطمع يهود المدينة فيه واضطر إلى موقف المصانعة ، وما قد يتبعه من أذى من اليهود للمسلمين ، كما آذنتهم قريش من قبل في مكة ، وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلوا كلمة الحق وأن ينصر الله دينه .

مجلس شورى المسلمين :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجئ ، عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً ، أشار فيه على الصحابة الوضع الراهن وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش .

مقالة المهاجرين :

فقام أبو بكر الصديق وقال مؤيداً وأحسن القول ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امضِ لما أراك الله ، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي: **(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)** [المائدة : ٢٤] ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان في أقصى اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، وكان ثلاثتهم من المهاجرين (أبو بكر وعمر والمقداد) وهم أقلية في الجيش .

مقالة الأنصار :

أحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة أن يمنعه مما يمنعون أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم .

فقال رسول الله ﷺ بعد سماع أبو بكر وعمر والمقداد " أشيروا عليَّ أيها الناس " (١) ، وكان يريد بكلمته الأنصار ففطن إلى ذلك قائدهم سعد بن معاذ ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل .

قال سعد : "قد آمنّا بك ، فصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردتَ ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أنّ تلقى بنا عدواً غداً ، إنّنا لصُبْرٌ في الحرب صدقٌ في اللقاء ، ولعل الله يُريك منا ما تقرّ به عينك ، فسرّ على بركة الله

ولم يكد سعد يُتمّ كلامه حتى أشرق وجه رسول الله ﷺ وسرّ بقول سعد وبدا عليه النشاط : وقال : " سيروا وأبشروا ، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنّي الآن انظر إلى مصارع القوم " (٢) .

أبو سفيان ينجو بغير قریش :

كانت قافلة أبي سفيان قادمة من الشام ، ولتجنّب المرور على المدينة فإنه سلك طريقاً جانبياً يقرب من الساحل ، ولم يكنْ به آبار ، فكان لابد أن يستقوا من ماء بدر ، وعند المنصرف أخذ أبو سفيان طريقاً غير مألوف وقاد القافلة وأناخها خلف كُثيب من الرمل جنوب ماء بدر ، وكان رسول الله ﷺ أرسل بَسْبَسَ بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء - كما أسلفنا - ليستطلعوا أخبار القافلة ، فأناخا قريباً من ماء بدر ، وأخذوا دلوّاً يستقيان فيه ، وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبتهما بدين عليها والثانية تجيبها : إنما تأتي العيرُ غداً أو بعد غد ، فاعمل لهم ثم أقضيه لك ، وفهما من حديث الجاريتين أن العير قد تصل بعد يوم أو يومين ، فعاد الرجلان وأخيرا الرسول ﷺ بما سمعا ، أما أبو سفيان ، فسبق العير وتقدّم نحو البئر ليعرف الأخبار حذر أن يكون رسولُ الله ﷺ قد سبقه إلى الطريق ، فلما ورد الماء وجد عليها مَجْدِيّ بن عمرو الجهني فسأله أبو سفيان : هل

(١)- قال البيهقي في المجمع رواة الطبري و إسناده حسن .

(٢)- الهيثمي في الزوائد (رواه الطبراني وإسناده حسن) .

أحسستَ أحداً ؟ قال : ما رأيتُ أحداً أنكره ، إلا أنني قد رأيتُ راكبين قد أناخا إلى هذا التل واستقيًا ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان إلى حيث أناخا ، فوجد في روث بعيرهما نوى ، عرفه من علائقٍ يثرِب فرجع إلى أصحابه وحثَّهم على الإسراع بتزك البئر والمضيِّ فما قُدِّما حتى بَعُد ما بينه وبين رسول الله ﷺ ونجا بالقافلة وأرسل رسالته إلى جيش مكة - تلقاها في الجحفة - يخبرهم بذلك ، ويُشير عليهم بالرجوع ، فأصبح الغد والمسلمون في انتظار مروره بهم ، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم ، وأن مُقاتلة قريش هم الذين أصبحوا على مقربة منهم .

حرب أو لا حرب - انشقاق في جيش المشركين :

لما تلقى جيشُ مكة هذه الرسالة من أبي سفيان همَّ بالرجوع ، ولكنَّ أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح قائلاً : والله لا نرجع حتى نردَّ بدرًا - وكان بدر موسماً من مواسم العرب ، يجتمعُ لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر ، وتُعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

وذلك أن انصراف قريش سوف يُفسر أنه خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه ، مما يزيد شوْكته ويزيد دعوته انتشاراً وقوة ، خاصة بعد الذي كان من سرية عبد الله بن جحش ، وقتل ابن الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش ، كان هذا رأي أبي جهل ، أما الأخنس بن شريق - وهو من أشراف بني زهرة - فكان له رأيٌ آخر وهو الرجوع إذ إن غيرهم نجت ، فهم بالرجوع ولم يتبعه إلا قومه من بني زهرة واغتبطوا بهذا الرأي ، وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم رجال قريش وقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم أن هواكم مع محمد، وقال أبو جهل: لا تفارقنا هذه العصابة - يقصد بني هاشم - حتى نرجع.

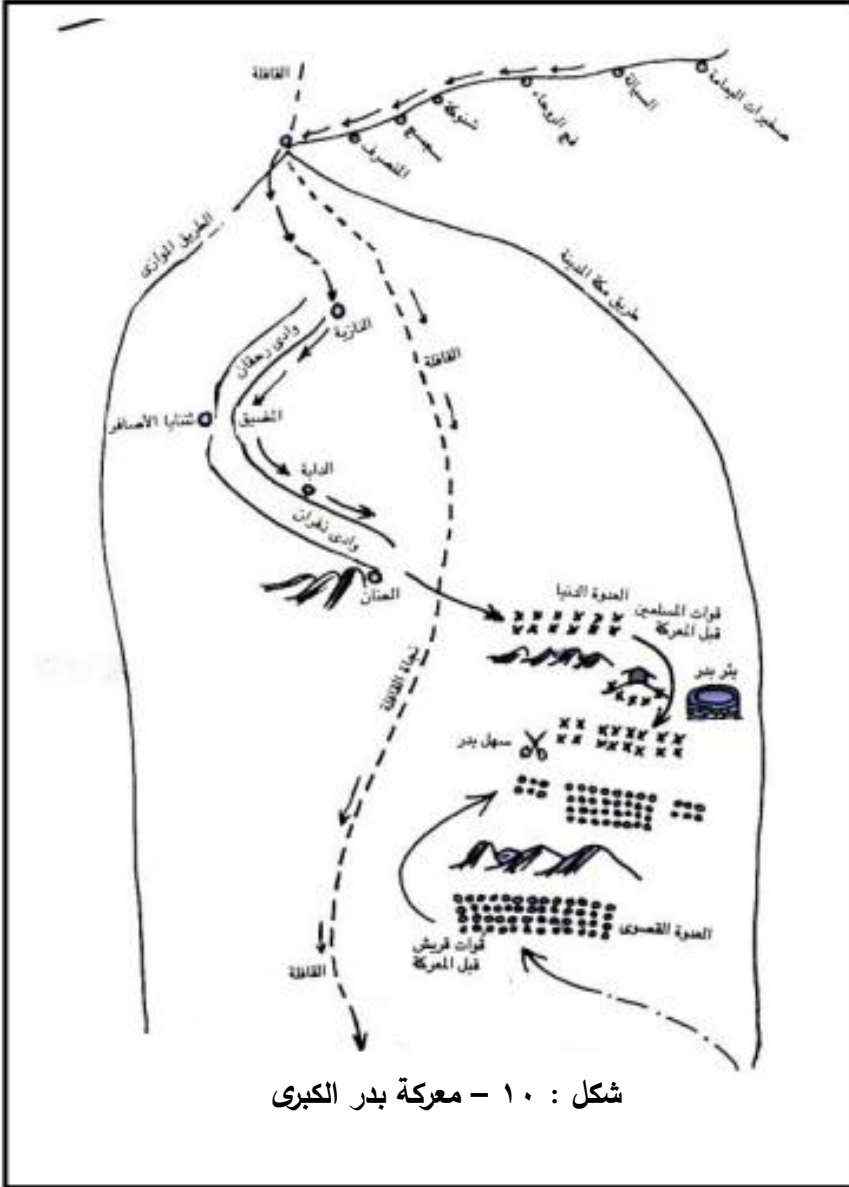
استمرار سير جيش قريش :

وسار جيشُ مكة بعد أن أصبح قوامه ١٠٠٠ مقاتل وبعد رجوع بني زهره ، وهو يقصد بدرًا من الجحفة حتى نزلوا بالعدوة القصوى جنوب بدر خلف كثيب يحجبه عن سهل بدر

(شكل : ١٠)

استمرار زحف جيش المسلمين :

أما المسلمون فارتحلوا من ذفران حتى وصلوا الحَتَّان ، ثم نزلوا قريباً من بدر (العدو الدنيا شمال بدر) (شكل : ١٠) .



شكل : ١٠ - معركة بدر الكبرى

حرب الاستخبارات :

وبدأت حرب استخبارية بين رسول الله ﷺ وأصحابه من جهة ، وبين جيش المشركين من جهة أخرى .

أولاً : استخبارات المسلمين :

١- قام رسول الله ﷺ بنفسه ومعه رفيقه في الغار أبي بكر الصديق بعملية استكشاف ، وبينما هما يتجولان حول معسكر المشركين إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأله عن الجيشين زيادةً في الحذر والتكتم - قال الشيخ : لا أخبركم حتى تخبراني مَنْ أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك^(١) ، قال الرجل : إذ ذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - المكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، - المكان الذي نزل به جيش المشركين - ولما فرغ من خبره وعرف رسول الله ﷺ مكان جيش المشركين قال الشيخ : مَنْ أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء^(٢) ، ثم انصرف عنه وبقي الشيخ يتفوه : ما من ماء ؟ أمِن ماء العراق ؟

- استخبارات علي والزبير وسعد :

وفي المساء من نفس اليوم بعث رسول الله ﷺ استخباراته من جديد ، فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتصقون له الخبر ، فأمسكوا بغلامين يسقيان لجيش قريش ، فجاؤا بهما إلى رسول الله ﷺ وهو في

(١)- ابن هشام ص ٦١٦ .

(٢)- قال ابن هشام ذلك الشيخ سفيان الضمري وابن اسحاق قد صرح بالحديث ونسخه ابن حبان لكن العلة هي الانقطاع .

الصلاة ، سألهما القوم عن قافلة أبي سفيان فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فضربوهما وأعادوا سؤالهما - طمعاً أن يكونا لأبي سفيان وأن يكون ما زال هناك أملاً في الاستيلاء على القافلة - فاضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأبي سفيان - فتركوهما - ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة ، قال لهم كالعاتب : " إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقا والله إنهما لقريش " (١) .

مكة تلقي أفلاذ كبدها :

ثم خاطب رسول الله ﷺ الغلامين قائلاً : " أخبراني عن قريش " (٢) قالوا : هم وراء الكتيب الذي تري بالعدوة القصوى فقال لهما : " كم القوم ؟ " قالوا : كثير ، قال : ما عدتكم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، ولما كان البعير يطعم حوالي مائة من الرجال فقال رسول الله ﷺ : " القوم بين التسعمائة والألف " ثم قال لهما : من فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزم ، وأبو جهل بن هشام ، وأميرة بن خلف ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود وسميا آخرين ، فقال رسول الله ﷺ : " هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها " (٣) .

ثانياً : استخبارات قريش :

أما قريش على الجانب الآخر فبعثت عمير بن وهب الجُمحي للتعرف على مدى قوة جيش المسلمين ، فدار عمير بفرسه حول المعسكر ، ثم رجع إليهم وقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ثم ضرب في الوادي حتى أبعدهم فلم ير شيئاً من كمان أو مدد . فرجع إليهم فقال : ما وجدت مدداً ولا كمان ، ولكن رأيت البلايا تحمل المنايا ، رأيت قوماً ليس معهم منفعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟

(١)- صحيح مسلم رقم ١٧٧٩ .

(٢)- المسند (١٩٢/٢) ، وصححه الشيخ أحمد شاكر .

(٣)- قال الألباني هذا إسناد صحيح لكنه مرسل .

تزايد حدة المعارضة في صفوف المشركين :

حينئذ وبعد مقالة عُمير ، قامت معارضة أخرى ضدّ أبي جهل تدعو إلى العُودة بالجيش إلى مكة بدون قتال ، وتبنيّ عددٌ من زعماء قريش هذا الرأي ، وحدث شدٌ وجذب ، إلا أن أبا جهل ومَنْ معه استطاعوا التغلّب على هذا الرأي وذهبت هذه المعارضة دون جدوى ، إلا أنها أحدثت شرخاً في صفوف المشركين .

تمركز جيش المسلمين ورأي الحُباب :

تحرك رسول الله ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر حتى وصل إلى أدنى ماء من مياه بدر فنزل به ، وهنا قام الحُباب بن المنذر بن الجموح وكان خبيراً بطبيعة الأرض والمكان وقال : يا رسول الله ، أرايتَ هذا المنزل أمزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله ﷺ : بل هو الرأي والحرب والمكيدة (١) .

قال : يا رسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتي نأتي أدنى ماء من القوم - يقصد قريش - فننزله ونغور - أي نخرب - ما وراءه ، ثم نبني عليه حوضاً ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : " لقد أشرتَ بالرأي " ، فانهض رسول الله ﷺ بالجيش ، وفعل كما أشار الحُباب ، وهكذا أصبح ماء بدر هو سلاح استراتيجي مهم ، تحت سيطرة المسلمين دون غيرهم من المشركين .

مقر القيادة العامة للمسلمين :

وبعد أن تمّ نزول المسلمين على الماء ، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يُبنى له مقرّ القيادة ، فقال : يا نبيّ الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعدّ عنك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوامٌ ما نحن بأشدّ لك

(١)- الحاكم في المستدرک (٥٨٠١) ، الطبقات لابن سعد (٥٦٧) .

حباً منهم ، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأنتى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، وبني المسلمون عريشاً على تلّ مُرتفع في الشمال الشرقي الميدان القتال ويشرف على ساحته، كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

ليلة المعركة :

في اليوم السابق للمعركة عبأ رسول الله ﷺ جيشه وشد من أزرهم ، ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده : " هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله " (١) أما في الليل فقد حدثت المعجزة :

نزول المطر ونعاس المسلمين :

فقد أنزل الله عزّ وجل في تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وابلأ شديداً منعهم من التقدم ، لطبيعة الأرض الترابية التي عليها المشركون ، وكان نفس المطر برداً وسلاماً على المسلمين ، طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض وجعلها صلبة - لطبيعتها الرملية - وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين فغشاهم النعاس ، وأخذوا من الراحة قسطهم ، وهو أكبر نعمة على الإنسان ، أن ينام وتسنقر جوارحه ، ثم يقوم بعدها كله قوة ونشاط .

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) [الأنفال: ١١]

(١)- أخرجه مسلم ٢٨٧٣ .

يوم المعركة

وكان ذلك يوم ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، فلما أصبح الصبح بدأ رسول الله ﷺ في شحذ الهمم ووضع الخطة وتنظيم الصفوف .

خطة رسول الله ﷺ للمعركة :

كما هو معلوم فإن العدد والعدة كلها لصالح المشركين ، فكان لجيش المشركين ثلاثة جنود مقابل جندي مسلم ، وتسليح المشركين أفضل من تسليح المسلمين ، وعدد المطايا التي يركبها المشركون هي نفسها عددهم ، أما المسلمون فأكثر من ثلثي الجيش يحارب على أقدامه .

في ظل كل هذه الظروف وضع رسول الله ﷺ خطته كالاتي :

١- عدم البدء بالهجوم ، إنما الثبات والتحصن في أماكنهم ، وهذا قرار حكيم لتحميل المشركين عبء الهجوم بخسائره المتوقعة ، فكما هو معلوم من العلوم العسكرية الحديثة أن المهاجم يحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف العدد الثابت المحصن الذي يهاجمه ليكون هجوماً فعالاً .

٢- عدم رمي السهام إلا بعد أن تدنو قوات العدو وتصبح على مسافة قريبة ، فنتهال السهام عليهم بكثافة عالية ، فنصيب أكبر عدد ممكن قبل الالتحام . فقال رسول الله ﷺ : " لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكنتمم القوم ، فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم " (١) .

٣- التغلب على ميزة الفرسان عند المشركين بالتحصن في أماكنهم التي اختارها ﷺ وكانت لا تسمح بتطويقهم من الأجناب ، وأن تُرمي النبال بشدة قبل الالتحام ، وهو ما يُربك الخيل وبذلك تتقدم ميزة فرسان المشركين.

(١)- رواية ابن اسحاق .

تشكيل الفريقين :

أ- قوات المشركين :

قسّم المشركون قواتهم إلى قلب من المشاة وجناحين : ميمنة وميسرة ، قوام كل منهما حوالي ١٠٠ فارس .

ب- قوات المسلمين :

كانت قوات المسلمين في صفوف مترابطة ، أشبه بالصفوف وقت الصلاة ، وقسّم رسول الله ﷺ الرجال إلى ثلاث كتائب ، ولم يكن لدى المسلمين أي احتياطات سوى الفصيلة التي تحرس عريش رسول الله ﷺ .

آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك :

وعدّل رسول الله ﷺ الصفوف ، وبدأ الجمع في وضع الاستعداد لهذه المعركة الفاصلة ، وبينما هو يعدل الصفوف ، وكان بيده قضيبٌ يعدل به ، وكان سواد بن غزيرة متقدماً من الصف ، فضرب رسول الله ﷺ على بطنه بالقضيب وقال : " استويا سواد " فقال سواد : " أوجعتي يا رسول الله ، فاقدني (دعني أقتص منك) فكشف رسول الله ﷺ بطنه وقال : " استقد يا سواد " فاعتقه سواد وقبّل بطنه . فقال له رسول الله ﷺ : " ما حملك على هذا يا سواد ؟ " (١) قال : يا رسول الله ، قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ... فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

وبهذه الروح العالية والإيمان بالقضية التي يدافع عنها المسلمون ورجبتهم في إحدى الحُسنيين ، النصر أو الشهادة ، بدأت المعركة .

أول وقود للمعركة : حمزة يقتل ابن عبد الأسد :

قبل أن تقوم المعركة على ساقها خرج من صفوف المشركين ، الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق ، خرج قائلاً : أعاهد الله الأشربين من حوضهم

(١)- أخرجه ابن إسحاق في السيرة ٢٦٦/٢ ، ابن الأثير في أسد الغابة (٣٣٢/٢) .

أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، وضربه ضربةً أطاحت بساقه ، فسقط على ظهره ثم زحف على الحوض يريد أن يقتحمه - ليبرّ بيمينه - فأتبعه حمزة بضربة أخرى فقتله ، وكان هذا أول قتيل أشعل نار المعركة .

المبارزة :

كانت العادة تلك الأيام ، قبل أن تبدأ المعركة الفاصلة بين أي جيشين ، أن يتبارز قائد أو أكثر من كل جانب مع مُناظر له من الجانب الآخر ، وكانت نتيجة هذه المبارزة تؤثر تأثيراً كبيراً إما سلباً على المنهزم في المبارزة أو إيجاباً على المنتصر فيها ، فترفع من روح الفريق المعنوية وهو ما يؤثر على أدائه في المعركة ذاتها .

وكان المتبارزون يحرصون على أن يكون خصومهم من نفس طبقتهم الاجتماعية ، وعلى نفس كفاءتهم العسكرية ، فخرج من جانب المشركين ثلاثة كانوا من عائلة واحدة : عُتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وابنة الوليد ، طلبوا المبارزة فخرج لهم ثلاثة من الأنصار من عائلة واحدة أيضاً عَوْف ومُعَوِّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، فقالوا : مَنْ أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا في تكبيرٍ : ما لنا بكم من حاجة وإنما نريد بني عمنا ، ونادى مناديتهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال ﷺ : " قم يا حمزة ، وقم يا علي ، وقم يا عُبيدة بن الحارث " ^(١) وكلهم من بني عبد المطلب .

وبدأت المبارزة ولم يمهل حمزة شيبه ، ولا أمهل عليّ الوليد أن قتلاهما ، ثم أعانا عُبيدة وقد ثبت له عُتبة وانتهت المبارزة بقتل فرسان المشركين الثلاثة ، فكانت بداية سيئة ونذير شؤم على جيش المشركين .

أما المسلمون فقد رفعت من معنوياتهم ، رغم ما أصاب عُبيدة بن الحارث من جروح وقد مات بعد عدة أيام متأثراً بجراحه .

(١)- المستدرك على الصحيحين ٤٩٣٤ .

التقاء الجمعين :

لما رأى المشركون مصرع ثلاثة من خيرة فرسانهم مرة واحدة ، استشاطوا غضباً ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد مهاجمين إياهم .

وبدأت المعركة والمسلمون مرابضون في أماكنهم - كما أمرهم رسول الله ﷺ - حتى بدأ القوم يقتربون من مرمى نبالهم هنا بدأ رمي النبال ، ووقع بين المشركين خسائر فادحة ، فكانوا يرتدون للخلف ، ثم يُعيدون الهجوم دون أن يتزحزح المسلمون عن أماكنهم .

رسول الله ﷺ يتضرع إلى الله :

ولما حمى الوطيس ورأى رسول الله ﷺ كثرة قريش وقلة رجاله وضعف عُدته إلى جانب عُدّة المشركين ، عاد إلى العريش ومعه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم ، وعلى ما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم النصر للمسلمين فاستقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ينشده : " اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم إني أشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد " ^(١) وما زال يناجي ربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، وأبو بكر وراءه يرده على منكبيه ويقول : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك ، فإن الله مُنجز لك ما وعدك .

بشائر النصر :

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً واحدة رأى خلالها نصر الله ، فلما رفع رأسه قال : " أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع (أي الغبار) " ^(٢) ثم خرج رسول الله ﷺ من العريش وهو يثبّت في الدرع ويقول : **(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [القمر : ٤٥]** ثم أخذ حفنة من حصى فاستقبل بها قريشاً وقال : "شاهت الوجوه" ^(٣) ورمى بها في وجوههم .

فما كان من المشركين أحدٌ إلا أُصيب من تلك القبضة .

(١)- أخرجه مسلك ١٧٦٣ وأحمد ٢٠٨ باختلاف يسير .

(٢)- فقه السيرة ٢٤٣ إسناده حسن .

(٣)- البيهقي عن يزيد بن عامر ، السيرة النبوية لابن هشام ص ٦٢٨

ارتباك في صفوف المشركين وبداية الهجوم المضاد :

واستكمالاً لخطة رسول الله ﷺ ، ولما رأى المشركين في ارتباك بعد نجاح الجزء الأول من خطته ، وهو التحصن ورمي النبال عندما يكون العدو في مرمى النبال ، أصدر أوامره بالهجمة المضادة فقال : " شدوا " وحرّضهم على القتال قائلاً : " والذي نفسُ محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبر ، إلا أدخله الله الجنة " (١) .

إنها حياة طويلة !!

فلما سمع عُمير بن الحُمام مقالة رسول الله ﷺ قال : بَخَ بَخَ فقال له رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بَخَ بَخَ ؟ فقال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، فقال رسول الله ﷺ : " إنك من أهلها " (٢) وكان يأكل تمراتٍ بيده ، فقال : لئن أنا حييْتُ حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، فرمى التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل وقتل .

نزول الملائكة لنصر المؤمنين :

بعد أن وضع رسول الله ﷺ الخطة المحكمة ، وأدى كل ما يمكن أن يقوم به البشر ، ثم دعا ربه وتضرع إليه . هنا أتى نصر الله وأرسل ملائكته لدعم المسلمين ونصرتهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [الأنفال : ١٢]

وقوله : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال : ١٧]

وكان المسلمون قد اشتدوا في هجومهم الكاسح وأحس كثير منهم بالملائكة ، فبينما رجل من المسلمين يشدد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسوط فوقه فينظر

(١)- صحيح مسلم (٣/١٥٠٩) .

(٢)- رواية مسلم .

إليه يجده قد خرَّ مُستلقياً ، وقد يَهُمُّ أحدهم يتبع أحداً من المشركين ليضرب رأسه فتقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفه .

وقد قال رسول الله ﷺ لعلي ولأبي بكر يوم بدر : " مع أحكما جبريل ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال " (١) وهكذا كان النصر الكاسح للمسلمين بفضل من الله ونعمة .

إبليس ينسحب من الميدان :

كان إبليس قد جاء إلى الميدان في صورة سُراقَة بن مالك بن جُعشم لنصرة المشركين ، وكان معهم طيلة الوقت يعدهم بالنصر المبين ، فلما رأى ما تفعل الملائكة بالمشركين فرّ ونكص على عقبيه ، وتشبّث به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقَة - فوكز الحارثُ في صدره فألقاه ثم خرج هارباً وقال له المشركون : إلى أين يا سراقَة ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال (**إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**) [الأَنْفَالُ : ٤٨]

النصر المبين :

واقتربت المعركة من نهايتها وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين ، وبدأت تتهدم أمام هجمات المسلمين ، وعمد بعض القرشيين إلى الفرار والانسحاب المبدد وتفترق الباقون وولوا الأدبار ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون وما أن جاء المساء حتى كانت المعركة قد انتهت بنصر مبين للمسلمين .

صور من قلب الميدان :

ولنعرج هنا إلى بعض ما حدث في قلب الميدان ، وفيه اختلطت روائح الإيمان بالبطولة ، وهذه بعض الأمثلة :

(١)- مسند الإمام أحمد ٣٨/٢ ، صححه الشيخ أحمد شاكر .

١. أسلفنا نموذجين رائعين ، سواد بن غزية وعمير بن الحُمَام ، وما كان من كلٍّ منهما من حب الرسول الله ﷺ و حب للشهادة .

٢. بلال يقتل أمية بن خلف :

في وسط القتال رأي بلالٌ أميةَ بن خلف ، وكان أمية - كما أسلفنا - هو الذي عذب بلالاً إذ كان يُخرجه إلى الرمضاء في مكة فيُضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتنه عن الإسلام فيقول بلال : أحد أحد ، فلما رأى بلالٌ أميةً ، وكأنما استرجع شريط الذكريات وما بها من عذاب وآلام ، صاح به : رأس الكفر ، لا نجوتُ إنْ نجا .

وكان عبد الرحمن بن عوف ، وكان صديقاً لأمية ، قد اتفق مع أمية على أن يأخذه أسيراً ويفتدي به ويترك عبد الرحمن ما كان يحمله من أدرع كان قد استلبها ، فلما همَّ بلال بقتل أمية ، حاول عبد الرحمن أن يحول دون قتله ، وأن يأخذه أسيراً ، فصرخ بلالٌ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوتُ إنْ نجا . واجتمع الناس ، ولم ينصرف بلالٌ حتى قتل أمية ، فكان عبد الرحمن بن عوف يقول : يرحم الله بلالاً ، ذهبْتُ أدرعي وفجعتني بأسيري (١) .

٣. مصرع أبي جهل :

وكان أبو جهل هو حامل اللواء والقائد العام لما رأى أمارات الاضطراب في صفوفه ، حاول أن يصمد في وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ولكن سرعان ما تبدت له الحقيقة ، منْ تصدع في صفوفه أمام تيارات هجوم المسلمين ..

فبقى حوله عصابة من المشركين ، ضربت حوله سياجاً من السيوف والرماح ، ولكن سرعان ما تهاوت هذه السياج ، وكان قَتَيَان حديثا السن من الأنصار . مُعَاذِ بْنِ عمرو بن الجموح ومُعَوِّذِ بْنِ عفراء سألَا عبد الرحمن بن عوف كُلاً في سرٍّ من

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ص ٦٣٢ .

صاحبه .: يا عمّ أرني أبا جهل ، فقال عبد الرحمن : فما تصنع به ؟ قال : أُخبرت أنه كان يسبُّ رسول الله ﷺ ، ولئن رأيته لا يفارق سواده حتى يموت الأعجل فينا وقال الآخر مثلها (١) .

وما أن رأي عبد الرحمن أبا جهل ، حتى أخبرهما به وكان أبو جهل محاطاً بالمشركين وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه (أي لا سبيل لقتله) وانتظرا الفتيان حتى خلاصا إليه ، فضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ضربة قوية ، فردّ عليه عكرمة بن أبي جهل فضربه على عاتقه فطرح يده ، ثم مرّ أبو جهل - وهو عقير - على مُعوذ بن عفراء فضربه حتى قتله .

المسلمون يحسنون إلى من أحسن إليهم :

كان رسول الله ﷺ قد قال لأصحابه : " إني قد عرفتُ أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كُرْهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمنّ لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومنّ لقي أبا البَخْتري بن هشام فلا يقتله ، ومنّ لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنما أخرج مستكرهاً " (٢) فكان هذا أمراً من رسول الله ﷺ بالإحسان لمن أحسن إليهم وألاً يقتلوهم ، مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين وكانوا سيقتلون منهم مَنْ يستطيعون قتله .

ولم يكن ذلك لمحابة أهله ﷺ فنفسه أسمى من هذا بكثير إنما ذكر النبي هاشم منعهم إياه ثلاثة عشر عاماً ، وما فعله آخرون في مطالبتهم بنقد الصحيفة التي اضطرت به قريش أن يلزم هو وأصحابه الشَّعب ، فقد اعتبر رسول الله ﷺ هذا المعروف حسنةً يُجزى بمثلها ، بل بعشر أمثالها فكان شفيحاً لهؤلاء عند المسلمين ساعة القتال ، وإنّ أبي بعضهم أن يستظلوا بهذا العفو كما فعل أبو البخترى وهو أحد الذين قاموا على نقض الصحيفة ، فقد أبي وقُتل .

(١) - البداية و النهاية كتاب المغازي .

(٢) - البداية و النهاية ص ٣٤٨ ، ج ٣ .

لا قرابة إلا قرابة الدين :

- قتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، ولم يلتفت إلى قرابته منه .
- ولما مرَّ مصعب بن عُمير بأخيه أبي عزيز بن عُمير الذي قاتل ضد المسلمين ، وقد وقع أسيراً في يد أحد من الأنصار فقال مصعب للأنصاري : شُدَّ يدك به ، فإنَّ أمه ذاتُ متاعٍ لعلها تقديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصيتك بي ؟ فقال مصعب : إنه ، أي الأنصاري أخي دونك .

المحصلة النهائية للمعركة :

كانت محصلة المعركة : استشهاد أربعة عشر من المسلمين ، مقابل سبعين قتيلاً من الكفار وسبعين أسيراً ، ونلاحظ أن مقابل كلِّ شهيد من المسلمين قُتل ٥ من الكفار (١٤ - ٧٠) ، وهو أكثر بكثير مما توقع عُمير بن وهب لما تجسس على المسلمين قبل المعركة ، وقال : ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منا (أي ١-١) أما وإن كان النصر والعون من عند الله فقد قُتل ٥ منهم حتى يُقتل رجلاً واحد من المسلمين ، فكان النصر المبين من الله ، وقُتل قادة وزعماء وصناديد قريش .

مكة تتلقى أنباء الهزيمة :

دعنا نظير سريعاً إلى مكة ، حيث تطايرت الأخبار إليها ، فقد فرَّ المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة ، تبعثروا في الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً ، وتلقت مكة مقتل صناديد قريش : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبي الحكم بن هشام (أبو جهل) وأمّية بن خلف وغيرهم ، كلهم في يوم واحد .

فكان لهذا أسوأ الأثر ، ولم يكادوا يُصدقون ما حدث ، حتى أن أبا لهب لم يشترك في الحرب واستأجر بدلاً منه ، لما علم الخبر من أبي رافع ، وكان غلاماً للعباس ، أخذ يضربه حتى ألقى به في الأرض ثم برك عليه يضربه حتى أنقذته منه أم الفضل ، وما

عاش بعدها إلا سبع ليالٍ حتى أصيب بالعدسة (وهي قرحة تتشاءم منها العرب) فقتلته ، فتركه بئوه وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاولوا دفنه ، فلما خافوا السُّبَّةَ في تركه ، حفروا له ثم دفعوه بعود في حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه .

ومن الطرائف : أن أهل مكة منعوا النياحة على القتلى لئلا يشمت بهم المسلمون ، وكان الأسود بن المطلب فقد ثلاثة من أبنائه في يوم بدر ، وكان يحب أن يبكي عليهم ، فسمع ليلاً صوت نائحة فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحل النَّحْبُ (البكاء بصوت) ؟ هل بكت قريشٌ على قتلاها ؟ لعلي أبكي على أبنائي ، فإن جوفي احترق فرجع الغلام وقال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته ، فلم يتمالك الأسودُ نفسه وقال : أياكون لامرأة تبكي على بعيرها وليس لنا أن نبكي على أبنائنا ؟؟

عودة إلى بدر :

أما رسول الله ﷺ والمسلمون معه -كعادة المنتصر - فقد بقي ببدر بعد المعركة ثلاثة أيام ، تفقد خلالها أرض المعركة وتعرف على مَنْ قُتِلوا من المشركين وَمَنْ أُسروا .

اليوم الثاني للمعركة :

لما تعرّف رسول الله ﷺ على مَنْ قُتِلوا من المشركين أمر بطرحهم في قليب من قُلب بدر (بئر جافة مهجورة) وأهيل التراب عليهم ، فلمَّا جنَّ الليل ، جعل رسول الله ﷺ يفكر في نصر الله للمسلمين على قلة عددهم ، وخذلانه للمشركين .

اليوم الثالث للمعركة - أهل القليب :

فلما كان صباح اليوم الثالث على المعركة ، أمر براحلته ثم مشي واتبعه أصحابه ، حتى وقف على ناقته على حافة القليب ، وقال : " يا أهل القليب ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أبا جهل بن هشام واستمر يذكرهم واحداً بعد الآخر ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً " (1) وقال المسلمون :

(١)- مسلم ٢٨٧٤ ، النسائي ٢٠٧٥ ، أحمد ١٢٠٢٠ ، واللفظ له .

يا رسول الله أتكلم أجساداً لا روح فيها ؟ فقال : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني " .

بُشرى النصر إلى المدينة :

أرسل رسول الله ﷺ بَشِيرَيْن إلى أهل المدينة ، لِيُعَجَلَ لَهُم البُشْرَى قبل وصوله إليها ، وكان البشيرين هما : عبد الله بن رواحة إلى أعلى المدينة وزيد بن حارثة إلى أسفلها ، وكان زيد راكباً على ناقه رسول الله ﷺ - القصواء - فلما بلغ الرسولان المدينة أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح الله علي المسلمين ، فعمت البهجة والسرور واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً .

أما اليهود والمنافقين ، فقد كُتِبَتْوا لهذا النبأ ، وحاولوا أن يُقْنَعُوا أنفسهم وأن يُقْنَعُوا الذين أقاموا في المدينة من المسلمين بعدم صحة خبر النصر العظيم ، فأشاعوا أن رسول الله ﷺ قُتِلَ وهذه ناقته يركبها زيد بن حارثة ، إذ لو كان حياً لَبْقِيَتْ ناقته معه ، لكن المسلمين ما لبثوا حتى تَنَبَّتُوا واطمأنوا إلى صحة الخبر أن زاد بهم السرور .

وفاة رقية :

لولا حادثٌ طرأ عليهم خَفَّفَ من سرورهم ، وهو وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضةً وترك معها زوجها عثمان بن عفان يُمَرِّضُها .

الغنائم والأسرى

الاختلاف على الغنائم :

كان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ، بعد أن لاحت بشائر النصر ثلاث فرق :

١- فرقة سارت وراء المشركين يطاردونهم ، يقتلون ويأسرون .

٢- فرقة راحتْ تجمع الغنائم من ساحة القتال .

٣- فرقة أحاطت بالعريش ، وفيه رسول الله ﷺ ، مخافة أن يرجع أحد من المشركين إليه ويصيبه بأذى .

وهنا وقع الخلاف على الغنائم ادعى الذين جمعوها أنها من نصيبهم قائلين : نحن حويناها ، وجمعناها ، فليس لأحد نصيب فيها ، وكان هذا هو عهد الناس فيما سبق من حروب الجاهلية أن للمحارب ما غنم .

وقال الذين خرجوا في طلب العدو ومطاردته : لستم بأحقّ بها منا ، نحن أحطنا نفينا عنها العدو فأمكنكم أن تجمعوها ، أما الذين أحاطوا برسول الله ﷺ فقالوا : لستم بأحقّ بها ، نحن أحطنا برسول الله وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة واشتغلنا به .

واختلف المسلمون اختلافاً كبيراً كاد يُحدث صدعاً في صفوفهم وكادت تحدث فتنة ، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ أمر الناس أن يردوا كل ما في أيديهم من غنائم ، وأمر أن تُحمل وجعل عليها عبد الله بن كعب حتى يرى فيها رأيه أو يقضي الله بقضائه .

تحرك الجيش المنتصر إلى المدينة :

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تحرك بجيشه المنتصر نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين واحتمل معه النفل .

قسمة النفل بينهم على السواء :

ولما خرج الركب من مضيق الصفراء ، نزل رسول الله ﷺ على كثيب بين المضيق وبين النّازية ، وقسم هنالك الغنائم بين المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس ، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى : (**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانَ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [الأنفال: ٤١]

وقد وضعت هذه الآية القاعدة لتقسيم الغنائم وحلاً لما اختلف الناس عليه، فكان التوزيع على النحو التالي :

١- الخمس (٥/١) يُقسّم خمسة أسهم : سهم لرسول الله ﷺ ، وسهم لذوي القربى (بنو هاشم وبنو عبد المطلب) ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وبهذا يكون نصيب رسول الله ﷺ خمس الخمس ٢٥/١ = (٤%) وهو ما كان ينفق منه على نفسه وعياله .

فقد روى عنه ﷺ أنه قال : " لا يحل لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " (١) .

٢- الأربيع أخماس (٥/٤) : توزيع بالتساوي بين المقاتلين وأن يكون للفرس مثل ما للفارس (أي أن للفارس سهمين وللراجل سهم واحد) وكما هو معلوم أن المقاتلين في ذلك الوقت كانوا يشترون السلاح والفرس من مالهم الخاص وعليهم أن يتركوا لأهلهم نفقتهم أثناء غيابهم ، إذ لم يكن هناك سلاح " إمداد وتموين " كما في أيامنا هذه ، فكان عدلاً أن يُعوّض المقاتلون عن هذه النفقات ببعض الغنائم .

٣- أما من استشهد في المعركة فتكون حصته للورثة .

٤- أما من لم يشهد المعركة لعذر قبله الرسول ﷺ أو كان في مهمة كلفه بها الرسول ﷺ ، فله سهمٌ مثل ما للمقاتل .

(١) - أخرجه النسائي ٤١٣٨ واللفظ له والطحاوي في(شرح معاني الآثار) .

وهكذا اشترك في الفياء كل مَنْ كان له دورٌ في النصر ، أيًا كان هذا العمل ، سواء كان في ميدان القتال أو بعيداً عنه ، و طُبِّقَ هذا النظام في كل ما تلاه من معارك حصل المسلمين فيها على غنائم .

قتل أسيرين من مجرمي الحرب :

كان النضر بن الحارث وعُقبه بن أبي معيط من أكابر مجرمي قريش ، ومن أشد الناس كيدا للإسلام ، وإيذاء لرسول الله ﷺ فكانا شراً مستطيراً ، فكان من بعض ما فعلاه - كما أسلفنا من قبل - .

• أن كان أحدهما يضع رِجله على عنق رسول الله وهو يصلي ، ويغمزها (أي يضغط عليها بشدة) ، وكان لا يرفعها حتى أن رسول الله ﷺ ظن أن عينيه ستندران .

• وجاء أحدهما مرة بسلا شاه (أي أحشائها) فألقاها على رأسه ﷺ وهو ساجد وظل هكذا حتى جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فطرحتة عن رأسه .

• كان أحدهما قد خنق رسول الله ﷺ و بردائه وكاد أن يقتله لولا اعتراض أبي بكر له . فكان هذان الرجلان من شرِّ عباد الله وأكثرهم كفراً وعناداً وبغياً وهجاءً للإسلام وأهله .

نظراً لهذا التاريخ الأسود لهما ، وقد كانا من بين الأسرى فلم يُعاملوا معاملة الأسرى ، بل كانا كما نقول في عصرنا الحديث من مجرمي الحرب" فلما كان رسول الله ﷺ عند مضيق الصفراء ، أمر بضرب عنقهما ، فضرب عنقهما علي بن أبي طالب .

حُسن معاملة الأسرى :

دخل رسول الله ﷺ المدينة منتصراً ، وكان المسلمون قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح وبعد يوم من بلوغه المدينة ، قدم الأسرى ، فقسمهم بين أصحابه وقال لهم : " استوصوا بهم خيراً " (١) .

(١)- أخرجه الطبراني في الكبير ٩٧٧ وفي الصغير ٤٠٩ ، وقال الهيثمي في المجمع إسناده حسن .

فكانت هذه الوصية من رسول الله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً (قبل إعلان حقوق الأسرى ، واتفاقية جنيف وغيرها) ، فقد أقرّ الإسلام حُسن معاملة الأسرى ، فكانوا يلقون خيراً معاملة ، كما أقر بذلك الأسرى أنفسهم .

• فقد قال أبو عزيز بن عمير (أخو مصعب بن عمير) : كنتُ في الأسرى يوم بدر ، فقال رسول الله ﷺ : " استوصوا بالأسارى خيراً " ^(١) وكنت في نفر من الأنصار ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُرّ (الخبز) الوصية رسول الله ﷺ ..

• وقال أبو العاص بن الربيع (كان أسيراً) : كنت في رهط من الأنصار ، فكنا إن تعشينا أو تغدينا ، آثروني بالخبز وأكلوا التمر ، حتى أن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي .

• وكان الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد ، فكانت هذه بعضاً من شهادات الأسرى أنفسهم على حُسن معاملتهم من إطعام للجوعى ، وعلاج للجرحى ، وإيثار على النفس .

مقالتنا أبي بكر وعمر في الأسرى :

ولما استقر رسول الله ﷺ بعد دخوله المدينة ، استشار أصحابه فيما يفعل بالأسري ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً ، فسكت رسول الله ﷺ ولم يعقب ، ثم سأل رسول الله ﷺ عمر فقال : يا رسول الله ، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، فأرى أن تمكني من فلان - لقريب له - فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس ، وعلياً بن أخيه عُقيل ، وهكذا حتى يعلم الناس أن ليس في قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه ثم قال : " إن الله لئلين قلوب رجال فيه حتى تكون أليّن

(١)- المعجم الصغير الطبراني حديث رقم ٤١٠ .

من اللبن ، وإن الله أَيْشُد قلوب رجال فيه ، حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا
أبا بكر مثل إبراهيم قال (١) : (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
[إبراهيم : ٣٦] ، وإن مثلك يا عمر ، مثل نوح قال : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنْ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) [نوح : ٢٦] .

ورأى رسول الله ﷺ رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين وقبل الفداء في الأسرى ،
وقال لأصحابه : " أنتم اليوم عائلة (فقراء) فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء " (٢) .
جعل رسول الله ﷺ أربعة آلاف درهم للرجل ، وقد يكون ثلاثة آلاف أو ألفاً في بعض
الأحيان .

التعليم مقابل الفداء :

وكان معظم أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فجعل رسول الله ﷺ فداء من لم
يكن معه فداء ، وهو يحسن القراءة والكتابة ، أن يعلم عشرة من غلمان المدينة ، فإن
أحسن تعليمهم فدى نفسه .

وقبول رسول الله ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كان فيه بأشد
الحاجة إلى المال يُرِينَا بُعْدَ نَظَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ونظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية ،
وليس بعجب من دين كان أول ما نزل من كتابة الكريم :

(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) [العلق : ١-٥])

المن بالعفو بلا مقابل :

وقد مَنَّ رسول الله ﷺ على عدد من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن
حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعة ، وأبو عزة الجمحي : فقد كان أبو عزة محتاجاً ذا بنات
فقال : يا رسول الله ، لقد عرفت ما لي من مال ، وإنني لذو حاجة وذو عيال فامننْ عليَّ

(١)- الحاكم المستدرک حدیث ٤٢٧١ ، الترمذی فی جامعہ باب ما جاء فی المشورة حدیث ١٧١٣ .
(٢)- هذا الخبر رواه أحمد في مسنده رقم ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤ ، ورواه الحاكم في المستدرک ٢١-٣/٢٢ ، ورواه الهيثمي في
مجمع الزوائد ٨٦- ٨٧/٦ .

فمنَّ عليه رسول الله ﷺ ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً ، إلا أنه حنت بعهده بعد ذلك ، وسنأتي للحديث عنه في أحد .

أبو العاص بن الربيع :

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب الابنة الكبرى لرسول الله ﷺ من بين الأسرى ، فبعثت زوجته في فدائه بمال ، وكان فيما بعثت قلادة كانت أمها خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بني بها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّة شديدة وذكر أمها خديجة ، وقال : " أرايتم أن تطلقوا إليها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا " (١) .

فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها ، وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه عهداً أن يفارق زينب ويخلي سبيلها - فقد فرَّق الإسلام بينه وبينها - وخالها أبو العاص فهاجرت وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجل من الأنصار ف جاء بها إلى المدينة .

عتاب الله في الفداء :

وفي قبولهم الفدية ، نزل قول الله تعالى معاتباً :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(٦٨) [الأنفال: ٦٧-٦٨]

والكتاب الذي سبق من الله قيل هو قوله تعالى : (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ
حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْ بُعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)
[محمد: ٤]

ففيه الإذن بالفدية من الأسارى ، ولذلك لم يعذبوا وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار وقبلوا الفدية ، قبل أن يثخنوا في الأرض (أي تقوي شوكتهم) وقيل أيضاً : بل الآية

(١)- صحيح أبو داود ٢٦٩٢ "حديث حسن "

المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذي سبق من الله ، هو ما كان في علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر .

نتائج غزوة بدر

وعلى كل الأحوال كان يوم بدر بحق يوم الفرقان كما وصفه الله تعالى : (**يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَى الْجُمُعَانِ**) [الأأنفال: ٤١]

فكان فرقاناً بين الحق والباطل ، بين الشرك والإيمان ، فرقاناً بين عهدين في تاريخ الإسلام ، عهد المصابرة والصبر والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة ، فكان ليوم بدر آثارٌ كثيرة ، نلخصها في الآتي :

أولاً : أثره على المسلمين :

١- قُوِيَتْ شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما حولها فأصبح مَنْ يُريد غزو المدينة ، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكر قبل أن يُقدم على فعله (ألا إن هذا لم يُثنِ بعض القبائل عن محاولة غزو المدينة إلا إنها باءت بالفشل)

٢- ازدياد ثقة المسلمين بالله تعالى وبرسوله الكريم ﷺ ودخول عدد كبير من مُشركي قريش في الإسلام ، وهو ما ساعد على رفع معنويات المسلمين المستضعفين في مكة .

٣- كسب المسلمون مهارات عسكرية وأساليب جديدة في القتال ، إذ أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في بلاد العرب ..

٤- انتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي ، بما أفاء الله عليهم من غنائم ، بعد بؤس وفقر شديدين .

ثانياً : أثره على قريش :

١- خسارة حربية فادحة في فُقد كبار قاداتهم ، وأكثرهم شجاعة وقوة وبأساً : أبو جهل بن هشام ، عُتْبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم .

٢- خسارة معنوية : ذلك أن المدينة لم تُعُدْ تهدد تجارتها فحسب بل أصبحت تهدد سيادتها ونفوذها في الحجاز كله .

٣- تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكة كمداً وأحزاناً وآلاماً بسبب هزيمتهم ، ومنْ فُقدوا وأُسروا ، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أُصيب بعلّة ومات - كما أسلفنا - .

وهذا أبو سفيان فقد ابناً له ، وأسر آخر وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة ، فكان التصميم على الأخذ بالثأر ، حتى أن بعضهم حرّم على نفسه الاغتسال حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم ، وقتلوا أشرافهم .

ثالثاً : أثره على يهود المدينة :

١- هالهم انتصار المسلمين وقوة شوكتهم ، وأن يكون لرسول الله ﷺ دونهم الحظوة والمكانة .

٢- صمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة .

٣- أظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم ، وأخذوا يجاهرون بها قولاً وفعلاً ، وراحوا يكيّدون للإسلام ورسوله .

رابعاً : أثره على مشركي المدينة :

١- لم يُعُدْ المتشكّكون في الدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم ، وعداوتهم للإسلام .

٢- ظهر النفاق والمكر والخداع ، فأعلن فريقٌ منهم إسلامهم ظاهراً أمام النبي ﷺ ، وأبقوا على الكفر باطناً - وسنأتي إلى شرح هذا بالتفصيل - .

أحداث ما بين بدر وأحد

بدأت التحديات تواجه رسول الله ﷺ من جهات عدة :

فكانت هناك تحديات من القبائل المجاورة ومن قريش ومن يهود المدينة، فلنعرض لبعض من هذه التحديات :

أولاً : تحديات من القبائل المجاورة :

أدخلت بدر الرعب في قلوب هذه القبائل - كما أسلفنا - فكانت ما تلبث أن تفكر في غزو المدينة حتى تجد الرد السريع المباغت من المسلمين .
وها هي بعض من هذه المحاولات وردّ المسلمون عليها :

١ - غزوة بني سليم (١) :

في شوال سنة ٢ هم بعد أن أقام رسول الله ﷺ في المدينة سبعة أيام بعد بدر ، إذ نقلت إليه استخبارات المدينة ، أن بني سليم وبني غطفان تحشد قواتها لغزو المدينة ، فباغتهم رسول الله ﷺ في مائتي راكب حتى بلغ منازلهم في مكان يقال له : الكدر - ماء من مياه بني سليم - على بُعد ٦٠ كم جنوب شرقي المدينة . ففرّ بنو سليم وتركوا خلفهم خمسمائة بعير ، استولى عليها المسلمون وقسمها رسول الله ﷺ بعد أن أخرج الخمس ، وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

٢ - غزوة ذي أمر . بني ثعلبة ومُحارب (٢) :

بلغ رسول الله ﷺ أن بني ثعلبة ومُحارب بذى أمر قد تجمعوا يريدون أن يُصيبوا المدينة ، فخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين ، فلقي رجالاً من ثعلبة ، فسأله عن القوم ، فدله الرجل على مكانهم ، وقال له : إنهم إن سمعوا بمسيرك هربوا إلى رعوس الجبال ، وأنا

(١)- الفصول في اختصار سيرة الرسول لابن كثير .

(٢)- نفس المصدر السابق .

سائرُ معك ، فما لبث المغيرون حين سمعوا باقتراب رسول الله ﷺ منهم أن فرّوا فوق الجبال .

أما رسول الله ﷺ فوصل إلى مكان تجمّعهم وهو الماء المسمّى بذي أمر فأقام هناك عدة أيام ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً .

وتكرر هذا من قبائل عدة ، ولكن كان هؤلاء الأعراب في فزع من رسول الله ﷺ ، ما يكادون يفكرون في الكيد له ، أو السير لملاقاته حتى تتخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره لملاقاتهم .

ثانياً : تحديات من قريش :

نزلت هزيمة مشركي قريش ببدر عليهم كالصاعقة ، فجعلت مكة تفكر في الكيد من رسول الله ﷺ وقد ظهر ذلك جلياً فيما يلي :

١ - محاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

جلس عُمر بن وهب الجُمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير ، وكان عُمر من شياطين قريش ممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة ، وكان ابنه وهب بن عُمر من أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : " والله ما في العيش بعدهم خير " فقال له عُمر : صدقتَ والله ، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي فيهم علة - أي سبب في فعلي هذا - ابني أسير في أيديهم - .

فاغتمها صفوان وقال : عليّ دينُك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقُوا - أي أقوم على أمرهم - لا يسعني شيء ويعجز عنهم ، فقال عُمر : فاكنتم على شأني وشأنك . قال : سأفعل .

ثم أمر عُمر بسيفه فشجّدَ و سَمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما هو على باب المسجد يُنيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب .

فقال عمر : هذا الكلب ، عدو الله عُمير ما جاء إلا لشرٍّ ، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال : يا نبيَّ الله ، هذا عدو الله عُمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه .

قال رسول الله ﷺ : " فأدخله عليّ " ، فأقبل عمر إلى عُمير ، حتى أخذ بحمالة سيفه وقبَّده بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل عمر به ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال : " أرسله يا عمر ، ائذُ يا عُمير " . فدنا وقال : أنعم صباحاً - كانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ " قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة " ثم قال : " ما جاء بك يا عُمير ؟ قال : جنُّ لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه فقال رسول الله ﷺ : ما بال سيف في عنقك ؟ قال : قبَّحها الله من سيوف وهل أغنَّت عنا شيئاً ؟ قال : أصدِّقني ما الذي جنُّت له ؟ . قال : ما جنُّت إلا لذلك .

قال : " بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دَيْنُ عليّ وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائل بينك وبين ذلك " (١) .

قال عُمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنَّا يا رسول الله نُكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وبما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إنني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذه المساق ثم شهد شهادة الحق - أي أعلن إسلامه بالشهادة - فقال رسول الله ﷺ : " فقَّهوا أخاكم في دينه ، وأقربوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره " (٢) .

(١)- مجمع الزوائد رقم ١٤٠٦٣ .

(٢)- نفس المصدر السابق / ورواه الطبرني مرسلأ .

أما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتكم الآن في أيام ، تُتسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل الركبان عن عُمر ، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه ، فحلف صفوان ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً .

ورجع عُمر إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام ، فأسلم على يده ناس كثير

٢- غزوة السويق : بينما كان صفوان بن أمية والمشركون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المقاومة ظاهر الأثر ، وكان قد نذر ألا يمسه رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً .

فخرج في ذي الحجة سنة ٢ هجرياً في مائتي راكب من قريش ليبرّ بيمينه ، فسلك طريق نجد حتى وصل إلى جبل ثئيب ، ثم خرج في جناح الليل فأتى حُيي بن أخطب يسأله النصر ، لكنه أبى ، فانصرف إلى سلام بن مشكم .

فاستأذن عليه فأذن له ، ثم عاد إلى أصحابه ، فساروا إلى ناحية من المدينة يُقال لها : العُريض فقطعوا وحرقوا ما بها من نخيل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له ، فقتلوهما ثم رأى أبو سفيان أنه برّ بيمينه فانكفأ هارباً ، وهو عملٌ أشبه بأعمال القرصنة وليس قتالاً حقيقياً .

فلما علم رسول الله ﷺ بالخبر خرج في طلبهم إلا أن أبا سفيان ومن معه فرّوا ببالغ السرعة وتركوا الزاد الذي حملوه معهم ، ليتخفوا طلباً للنجاة وكان زادهم من السويق ، عبارة عن حنطة وشعير محمص مطحون ممزوج بعسل وسمن ، وتمكنوا من الإفلات وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكُدر ، ثم انصرف عائداً وحمل المسلمون السويق الذي تركه المشركون فسُميت " غزوة السويق "

ثالثاً : تحديات من داخل المدينة يهوداً ومشركين :

١ - إظهار إسلام عبد الله بن أبي وظهر طبقة المنافقين :

كان عبدُ الله بن أبي بن سلول - كما أسلفنا - يبطن أشدَّ العداوة لرسول الله ﷺ والمسلمين ، إذ كاد أن يُتَّوَّج ملكاً على أهل المدينة إلا أنَّ قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة أفسد عليه ذلك ، وانصرف الناس عنه .

فلمَّا كانت بدر وما تلاها من ازدياد قوة المسلمين ، أظهر عبد الله بن أبي إسلامه ، لكنه بقي مستبطن الكفر ، ولا يفوته فرصة للكيد من المسلمين إلا واغتمها ، وتبعه ثلَّة من المشركين ، فكان زعيماً للمنافقين في المدينة الذين يُظهرون غير ما يبطنون .

٢ - مخاوف اليهود وعداوتهم :

تركتُ بدرٌ أثراً كبيراً على اليهود والمشركين بالمدينة ، وزادتُ حدَّة خوفهم من تزايد قوة المسلمين ، فما كاد المسلمون يعودون من بدر معترزين بالنصر ، حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتتآمر وأخذوا في طريق المؤامرة والتحريض وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين ، وقد ذكرنا سالفاً ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من جدل وحرب .

ومن بعض ما قاموا به :

أ . نشر الدعايات الكاذبة لزرع بذور الشك في قلوب الضعفاء .

ب . محاولة الوقيعة بين المسلمين .

ج . تضيق سبل المعيشة على مَنْ أسلم ، إنَّ كان لهم بهم ارتباط مالي، فإنَّ كان لهم

عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإنَّ كان له عليهم يأكلونه بالباطل .

د . بنو قَيْنَقَاع ينقضون العهد :

كان اليهود في المدينة - كما أسلفنا - ثلاث طوائف :

بنو النضير وبنو قُرَيْظَةَ وبنو قَيْنُقَاع ، فكان بنو قَيْنُقَاع أشَرَّ الطوائف الثلاثة وأكثرهم حقداً وعداءً للمسلمين ، وخاصة لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزرًا في بدر ، فاشتد طغيانهم وتوسعوا في استفزازهم ويواجهون بالأذى كلَّ مَنْ ورد سوقهم من المسلمين ، فقد كانوا يقطنون في المدينة في حيِّ سُمِّيَ باسمهم ، وكانوا صاغة وحدادين وصناع ظروف وأوانٍ .

الرسول يحرض على رشدهم :

فلما تفاقم أمرهم واشتدَّ بغْيُهُم ، جمعهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الرشد والهدى وقال لهم : " يا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، احذَرُوا مِنْ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ النَّقْمَةِ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ " (١) ، فقالوا : يا محمد لا يغرّتك من نفسك أنك قتلتَ نفرًا من قريش لا علم لهم بالحرب ، فأصببتَ منهم فرصة ، إنك لو قاتلتنا لعرفتَ أننا نحن الناس .

رسول الله يحافظ على العهد ويكظم الغيظ :

كان معنى ما أجاب به بنو قَيْنُقَاع إعلان سافر عن الحرب ونقض للمعاهدة التي أبرمها معهم رسول الله ﷺ ، لكن رسول الله ﷺ كظم غيظه ، وحافظ على ما عاهدهم عليه ، وكان العهد الذي أعطى رسول الله ﷺ لهم الأمان به يشترط ألا يُعينوا عدوًّا ولا يُؤذوا أحدًا من المسلمين ، فصبر المسلمون ، وأخذوا ينظرون ما تتمخض عنه الليالي والأيام .

(١)- البداية و النهاية لابن كثير ج ٤ ص ٤ ، الكامل في التاريخ ٢/١٤٢ .

غزوة بني قينقاع

ازداد بنو قَيْنُقَاع جراءة وأثاروا القلق والاضطراب ، فحدث أنّ امرأة من المسلمين قدمت ببضاعة فباعتها بسوقهم وجلست إلى صائغ يهودي تشتري منه فجعل بعض شباب اليهود يريدونها كشف وجهها فأبّت ، فعمدوا على مرأى من الصائغ إلى طرف ثوبها فعمدوه إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت عورتها فضحكوا عليها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قَيْنُقَاع .

حصار بني قَيْنُقَاع :

لما علم رسول الله ﷺ بما حدث ، وعيل صبره ، ولم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم ، وألاً يتعرض المسلمون وسلطانهم بالمدينة إلى التداعي فخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة من جنوده وسار بهم إلى بني قينقاع ، ولما رآه تحصنوا في حصونهم ، فحاصرهم المسلمون في دُورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم بطعام أحد فغذف الله في قلوبهم الرعب ولم يبق لهم إلا النزول على حكم رسول الله ﷺ والتسليم بقضائه وسلموا .

وساطة عبد الله بن أبي :

قرر رسول الله ﷺ بعد مشورة كبار الصحابة ، قتلهم جميعاً فأمر بهم فكثفوا ، حينئذ قام عبد الله بن أبي بدور نفاقه ، فألحَّ على رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم ، وقال : " يا مُحمد أحسن في موالي " ، وكان بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر الطلب ، فأعرض رسول الله ﷺ عنه ، فأدخل يده في درع رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : " أرسلني . وغضب ثم قال : " وَيْحَكَ أُرْسِلَنِي " (١) ولكن المنافق مضى في إصراره وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في أموالي ، أربعمائة حاسر (لا درع له)

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩ .

وثلاثمائة دارعٍ قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ إنّي والله امرؤٌ أخشى الدوائر .

إخلاؤهم عن المدينة :

عامل رسول الله ﷺ هذا المنافق ، الذي لم يكُن مضي على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد عامله بالحسنى ، وخاصة بعد إذ جاءه عبادة بن الصامت يُحدثه بحديث بن أبيّ ، إزاء ذلك رأى رسول الله ﷺ أن يُسدي هذه اليد إلى عبد الله بن أبيّ وإلى المشركين موالي اليهود حتى يصبحوا مدينين إلى إحسانه ورحمته ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها فخرجوا إلى أذُرعات الشام .

وهكذا رحل بنو قَيْنُقَاع ، ورحل شرُّهم معهم عن مدينة رسول الله ﷺ .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح سرية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد ، وقد وقعت في جمادى الآخر سنة ٣ هـ .

قريش تسلك طريق العراق إلى الشام

ظلت قريشٌ بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف موعد موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها همٌّ أكبر ، قال صفوان بن أمية (وقد نخبته قريش لقيادة تجارتها هذا العام إلى الشام) إن محمداً وصحبه عوروا علينا تجارتنا ، فأصحابه لا يبرحون الساحل وقد وادعهم أهلها ، ودارت المناقشة وقرروا أن يرسلوا غيرهم إلى الشام عن طريق العراق ، فخرجت العير يقودها صفوان بن أمية بعد أن تجهّز من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم .

الأخبار تصل إلى المدينة :

كان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارتها يثريُّ هو نعيم بن مسعود - لم يكن أسلم بعد - ، عاد إلى المدينة ، وجرى على لسانه ما جرى ، فسمع بذلك أحد المسلمين وهو سليط بن النعمان ، فأسرع سليط إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث .

بعثة زيد

ما لبث رسول الله ﷺ أن بعث زيد بن حارثة في مائة راكب ، اعترضوا التجارة عند القردة - ماء من مياه نجد - ففرَّ الرجال وأصاب المسلمون العير ، وأسروا فرات بن حيان - دليل القافلة .. فكانت أول غنيمَةٍ ذات قيمة غنمها المسلمون ، وعادَ زيدٌ ومَنْ معه بالغنائم والأسير ، فقسمها رسول الله ﷺ على أفراد السرية بعد أن أخذ الخمس أما الأسير - فرات بن حيان - فقد أسلم على يد رسول الله ﷺ .

نكبة كبيرة على قريش :

كانت تلك السرية نكبة أخرى على قريش بعد بدر .. ولم يبقَ أمامها إلا طريقتان :

١- إما أن تمتنع عن غطرتها وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين وتتركهم وشأنهم .

٢- أو تقوم بحرب شاملة تُعيد لها مجدها وعزَّها ، وتقضي على المسلمين بحيث لا تقوم لهم قائمة ولا يكون لهم سيطرة على هذا ولا ذاك .

لكنَّ قريشاً اختارت الطريق الثانية فازداد إصرارها على الثأر والتصميم على غزو المسلمين في ديارهم للقضاء عليهم .

فكان ذلك وما سبق من أحداث تمهيداً لمعركة أُحد.

معركة أحد

استعدادات قريش للمعركة :

لم يهدأ لقريش بالّ منذ بدر ، ولم تُغنها غزوة السويق شيئاً ، بل زادتْها سرية زيد بن حارثة التي أخذت تجارتهم حين سلخوا طريق العراق إلى الشام حرصاً على الثأر .
وعلى إثر ذلك اتفقت قريشٌ على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين لتُشفي غيظها ، فأخذت في الاستعداد لخوض هذه المعركة وكان الاستعداد قائماً على محورين : استعداداً مادياً وآخر معنوياً .

أولاً : الاستعداد المادي :

١ - الاستعداد بالمال :

منذ قدوم أبي سفيان بن حرب بالعيير التي كانت سبب غزوة بدر من الشام بعد أن نجا بها ، وعاد الذين شهدوا بدرًا وسلموا من القتل فيها فقد احتجزوا العير بدار الندوة ، وانفق كبراًؤها على أن تُباع العير ، وأن تُعزل أرباحها ليُجهز بها جيشاً جراراً لقتال رسول الله ﷺ فباعوها ، وكانت ألفَ عير وأرباحها خمسون ألفَ دينار ، وهكذا توفر المال اللازم للمعركة .

٢ - الاستعداد بالأفراد :

ولجمع الأفراد ، فتحوا باب التطوع لكل مَنْ أحبَّ المساهمة وغزو المسلمين ونجحوا في استنفار بعض القبائل للاشتراك في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تُهامة وثقيف وغيرها .

ثانياً : الاستعداد المعنوي :

١ - تحريض الشعراء :

قاموا بتحريض الشعراء لما لهم من دور في إثارة المقاتلين وتزكية حفاظهم حتى أنّ صفوان بن أمية أغرى أبا عزة ، الشاعر الذي كان قد أُسر في بدر ، فمنّ عليه رسولٌ

الله ﷻ وأطلق سراحه بغير فدية وأخذ منه العهد ألا يقوم ضده ، لكنه رفض إغراء صفوان أولاً وقال : إني عاهدتُ محمداً أولاً أعين عليه أحداً ، فلم يزل صفوانُ به حتى أطاعه ، وعاهدهُ أنه إن رجع من الغزوة حياً يُغنيه ويكفلُ بناته ، فقام وحرّض القبائل بشعره ، وكذلك فعلوا مع شاعرٍ آخر ، مُسافع بن عبد مناف الجمحي ليقوم بنفس المهمة .

٢- تحريض وحشيٍ لقتل حمزة :

كان وحشيٍّ غلاماً لجُبَيْر بن مُطعم بن عدي ، وكان عمُّه طُعَيْمة بن عدي قد أُصيبَ يوم بدر ، وكان وحشيٍّ راماً قلماً يخطئُ ، فقال له جبير : اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طُعَيْمة فأنت حُرٌّ عتيق فاعتبط لما سمع ، وكانت هند بنت عتبة . قُتِل أبوها وعمُّها وأخوها في بدر ، لما سمعتُ بهذا قالت له : اشفي واستشفى ، ووعده إن هو قتل حمزة فستعطيه كل الحلي التي كانت تتحلى بها ، وكان ذلك كفيلاً بمضاعفة حماس وحشيٍ لقتل حمزة .

٣- خروج النساء :

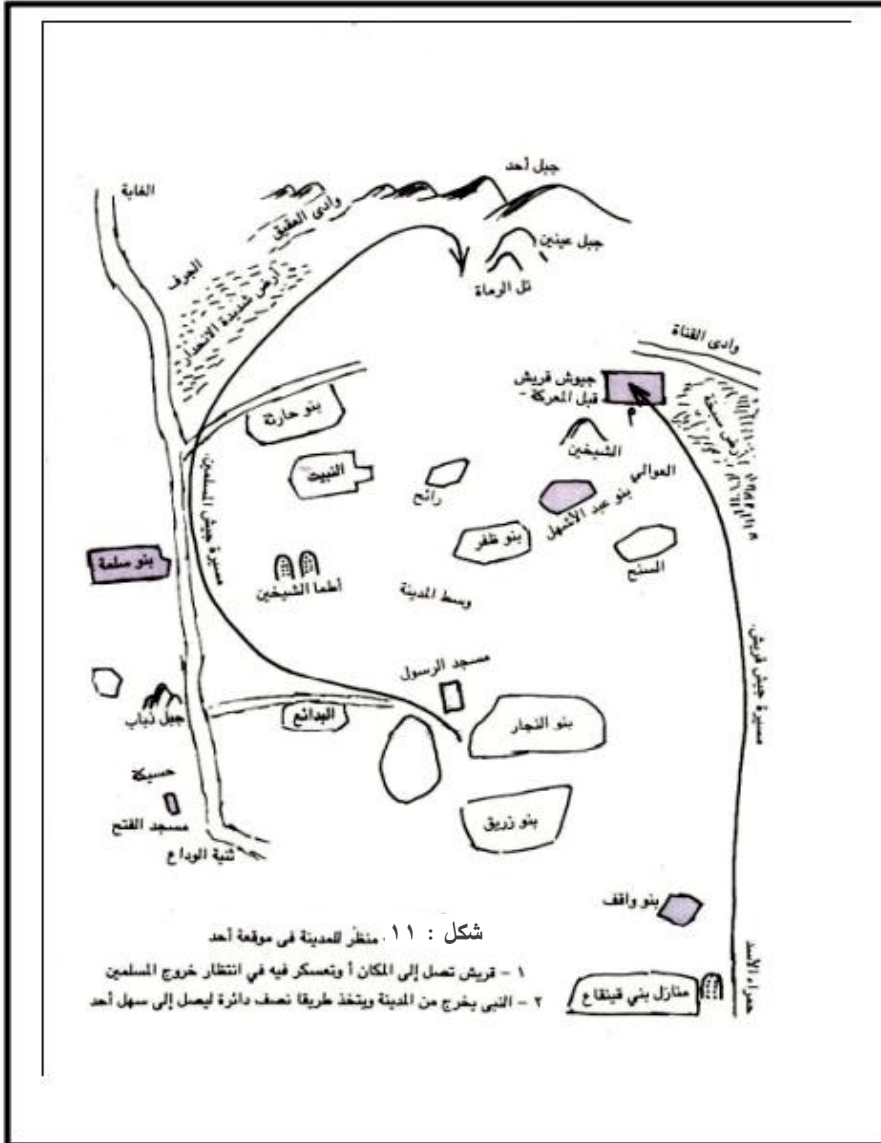
أصرتُ النسوة من قريش أن يسرنَ مع الغزاة ، وبعد مشاوراتٍ بين موافق ومعارض ، تمت الموافقة على خروجهنّ وكان على رأسهن هند بنت عتبة فتقرر خروجهن ومعهن الدفوف والمعازف ليحرضن الناس على القتال . وهكذا تهيأ جيش المشركين مادياً ومعنوياً .

قوام جيش قريش :

لما استدارت السنة ، كانت قريش قد استكملت عُدتها فاجتمع لها جيشٌ قوامه : ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ومعهم خمسة عشر امرأة من سيدات قريش ، تترجمهنّ هند بنت عتبة ، ومعهم ثلاثة آلاف بعير ، ومائتا فرس ، وسبعمائة درع ، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان بن حرب وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبي جهل أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار بدأت بطلحة بن أبي طلحة .

مسيرة جيش قريش :

تحرك جيش قريش بعد هذا الإعداد نحو المدينة وساروا حتى بلغوا الأبواء ، ومروا بقبر أمينة بنت وهب - أم رسول الله ﷺ - فدفعت الحمية بعض الطائشين منهم إلى التفكير في نبشه ، ولكن زعماءهم أبوا عليهم هذه الفعلة حتى لا تكون سُنَّة عند العرب ، وهو ما يشجع على نبش قبور موتاهم ،



وتابع جيشُ قريش حتى بلغ العقيق ، ثم نزل عند السفوح من جبل أُحُد على بُعد خمسة أميال من المدينة (شكل : ١١) ، ولم يشأ جيشُ قريش أن يقتحم المدينة لعلمه بصعوبة القتال في شوارع ضيقة ، كما أن الحجارة قد تُلقى على الجند من أسطح المنازل ، وخططتُ قريش ألا تحارب المسلمين وظهورهم للمدينة ، إذ أن ذلك يُعطيهم فرصة الفرار والاحتفاء بالمدينة إذا ما لاحثُ بواذر هزيمتهم .

استخبارات المدينة تكشف تحرك العدو :

كان العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله ﷺ يرقب تحركات قريش واستعداداتها ، إذ كان بينهم مُطلع على كل دقيق وجليل من شأنهم وكان على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحس لرسول الله ﷺ شعور العصبية والإعجاب .

فحين أجمعت قريش المسيرَ أسرع العباس بكتاب يصف فيه صنيعتهم وجمعهم وعُدَّتهم وعديدهم ودفع إلى رجل غفاري وأسرع رسول العباس وجدَّ في السير حتى أنه قطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، وسلَّم الرسالة إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد قباء ، فقرأ الرسالة على النبي ﷺ أبيُّ بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، فقصد إلى سعد بن الربيع في داره فقصَّ عليه الخبر واستكتمه أيضاً إياه ، على أن زوج سعد كانت بالمنزل وسمعت ما دار ، فلم يعد سراً !!!

وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة يتتسلطان خبر قريش ، فألفياها قاربت المدينة ، وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

وبعث رسول الله ﷺ من بعدهما الحُباب بن المنذر ، فتيقن من خبرهم ، وأبلغ رسول الله ﷺ الذي تأكد من خبرهم الذي أخبره العباس .

المدينة في حالة طوارئ :

فلما تيقن الخبر ظلت المدينة في حالة استنفار لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة استعداداً للطوارئ ، وقامت جماعة من الأنصار فيهم سعد بن عبادة وأسيد بن

حُضير وسعد بن مُعاذ بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح ، وقامت جماعاتٌ أخرى بحماية المدينة خوفاً من هجوم مفاجئ ، وقامت دورياتٌ من المسلمين لاستكشاف تحركات العدو ، تتجول حول الطرق التي قد يسلكها المشركون للإغارة على المدينة .

رسول الله ﷺ يستشير أصحابه لوضع خطة الدفاع :

لما أصبح الخبر يقيناً وأن العدو قد عسكر على أبواب المدينة جمع رسول الله ﷺ أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام ، المنافقين كما نُعتوا في القرآن ، وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم .

كان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا ، قصّها على أصحابه المقربين فقال : " قد رأيت والله خيراً ، رأيثُ بقرأ يُذبح ، ورأيثُ دُباب سيفي ثلماً ، ورأيثُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة " (١) وتأول البقر بنفر من أصحابه يُقتلون ، وتأول الثلثة في سيفه برجل يُصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

رأي رسول الله ﷺ بالتحصن بالمدينة :

رأى رسول الله ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة ، وأن يدعوا قريشاً خارجها فإذا حاولوا اقتحامها قاتلهم المسلمون على أفواه الأرزقة ، والنساء فوق البيوت ودفعوهم ، وتغلبوا عليهم ، ولقي هذا الرأي استحساناً من عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - وإن كان ما يعقد عليه نيته ليس اقتناعاً لوجهة النظر هذه ، ولكن ليتمكن من التبعاد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وسنرى أن الله سيفضح أمره وأصحابه مع احتدام الموقف ، بجانب ابن أبي كان رأي بعض الأكابر من الصحابة أمثال أسيد بن حُضير وسعد بن مُعاذ مع رأي رسول الله ﷺ .

(١)- السيرة النبوية لان هشام .

رأي بعض الصحابة بالخروج :

بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج وألحوا عليه في ذلك ، قال قائل منهم : يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا حتى لا يرون أننا جبنًا عنهم .

ومنهم من شهد بدر وذاق حلاوة النصر أمثال حمزة بن عبد المطلب ، الذي كان قد أبلى في يوم بدر ، فقال لرسول الله ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة .

الرسول ينزل على رأي الأغلبية :

فلم يكن لرسول الله ﷺ إلا أن ينزل على رأي هؤلاء المتحمسين ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة ولقاء العدو خارجها في ميدان القتال، فقد كانت الشورى أساس نظامه ﷺ للحياة ، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله .

الاستعداد للقتال :

كان يوم جمعة فصلّى رسول الله ﷺ بالناس وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ثم صلى بالناس العصر ، ثم دخل بيته ومعه صاحباة أبو بكر وعمر ، فعَمَّمَاهُ وألبسَاهُ ، فَتَدَجَّجَ بسلاحه وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع) وتقلّد سيفه ، ثم خرج للناس

المسلمون في جدل يتحاورون :

وكان الناس ينتظرون خارج منزله في جدل يتحاورون ، قد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير -كانا ممن أشاروا بالتحصن بالمدينة - للذين رأوا الخروج : " لقد رأيتم رسول الله ﷺ يرى التحصن بالمدينة فاستكرهتموه على الخروج وهو له كارهٌ فرودًا الأمر إليه " فندموا على ما صنعوا ، فلما خرج رسول الله ﷺ قالوا له : ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك ، فقال

رسول الله ﷺ : " ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - أي الدرع - أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه " (١) .

تحرك جيش المسلمين . انكشاف أمر المنافقين :

وخرج رسول الله ﷺ متجهاً إلى جبل أحد وكانت عدته ١٠٠٠ مقاتل ، فيهم مائة دارع ولم يكن بينهم من الفرسان أحد ، وسار حتى وصل إلى مقام يقال له " الشيخان " ، فلما كانوا بمقرية من العدو ، هنالك تمرد عبد الله بن أبي فانسحب بنحو ثلث العسكر . ثلاثمائة مقاتل . قائلاً : ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ وتعلل بأن رسول الله ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

ولا شك أن هذا لم يكن السبب الحقيقي للانسحاب ، وإلا لم يكن ليسير مع جيش المسلمين إلى هذا المكان وكان انعزل عنهم من بداية السير ، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد في ذلك الوقت الدقيق ، أن يحدث فتنة واضطراباً في صفوف المسلمين على مرأى ومسمع من علوهم ، فتنهار معنوياتهم ويتشجع العدو فيكون أسرع للقضاء على رسول الله ﷺ وأصحابه المخلصين .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يرنو إليه ، فقد هَمَّت طائفتان - بنو حارثة وبنو سلمة - أن تفشلاً وتنسحبا أسوة بعبد الله بن أبي إلا أن الله تثبتهما ونزلت الآيات تشجع المسلمين ، وتذكّرهم بنصر الله لهم في معركة بدر وكانوا قلة : (**إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)** [آل عمران ١٢٢-١٢٣])

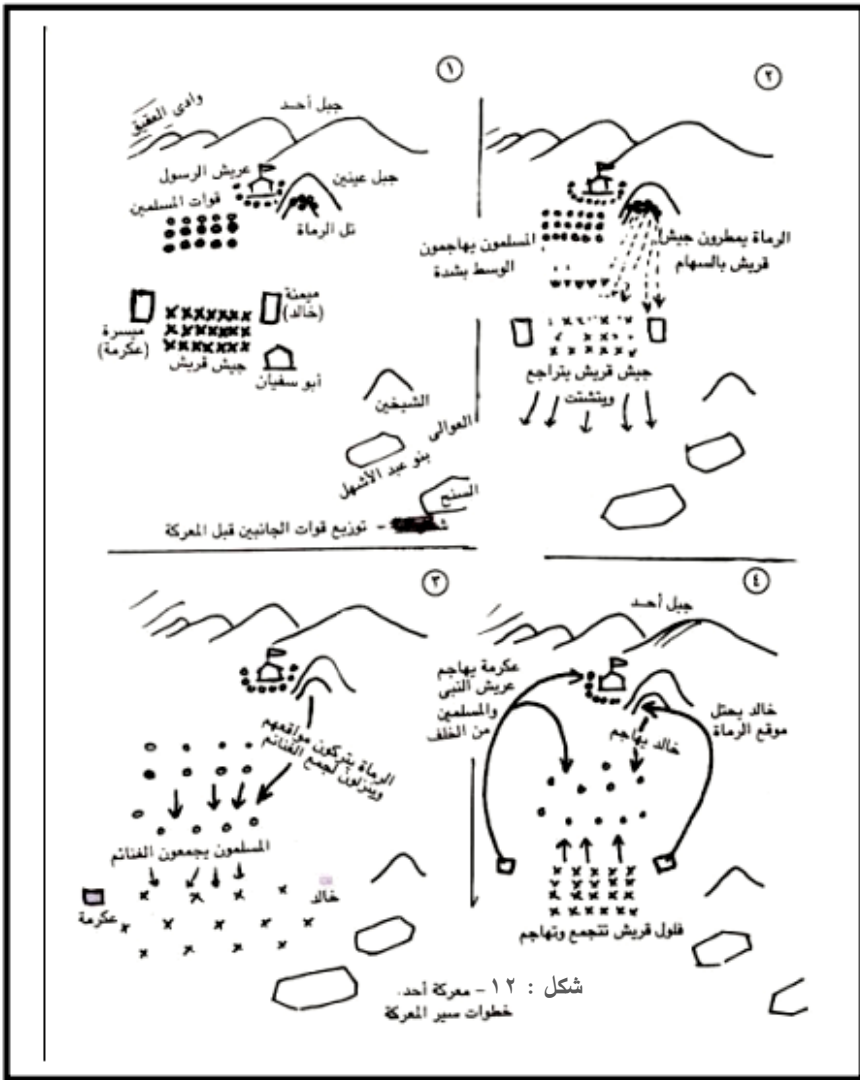
سَير بقية جيش المسلمين إلى أحد :

بقى رسول الله ﷺ و معه المؤمنون حقاً وعدّتهم سبعمائة بعد انسحاب ابن أبي ، وواصلوا السير ليقاوتوا ثلاثة آلاف مشرك ، فسار النبي ﷺ وسلك درباً غير مطروق في نصف دائرة - ليكون الطريق أقصر - فيصل إلى جبل أحد قبل وصول العدو إليه .

(١)- أخرجه البخاري ٧٣٦٩ و النسائي في السنن الكبرى ٧٦٤٧ وأحمد ١٤٨٢٩ .

خطة رسول الله ﷺ :

لما تمركز رسول الله ﷺ بجيشه في هذا المكان الاستراتيجي ، وجد أنه من الصعب على العدو أن يلتف حول جيش المسلمين إلا من ناحية واحدة وهي الشرق (ميسرة جيش المسلمين) ولتأمين هذه الجبهة اختار رسول الله ﷺ فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلاً وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع شمالي شرق أرض المعركة . عُرف فيما بعد بجبل الرماة . (شكل : ١٢) .



وقال رسول الله ﷺ لقائدهم : " انضح الخيل عنَّا بالنَّيْل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثْبُتْ مكانك " ، ثم توجه إلى الرماة وقال : "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمتنا القوم ووطأناهم

فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّيْل ، فإن الخيل لا تقدم على النَّيْل" (١) ثم نهى غير الرماة أن يقال أحدٌ منهم حتى يأمر هو بالقتال ، أما بقية الجيش فجعل رسول الله ﷺ على الميمنة المنذر بن عمرو ، وعلى الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وجعل في مقدمة الصفوف نُخبة من شجعان المسلمين ، أما اللواء فكان لمصعب بن عُمير .

عبقرية رسول الله ﷺ العسكرية :

كانت هذه هي الخطة المحكمة من رسول الله ﷺ تَتَمُّ عن عبقرية عسكرية فذة :

- فقد احتل أفضل موضع في الميدان ، رغم وصوله بعد العدو إليه .
- حمى ظهره وميمنته بارتفاعات الجبل .
- حمى ظهره وميسرته بسدِّ هذه الثغرة بوضع الرماة أعلى الجبل من هذه الناحية .
- ألجأ الأعداء على قبول وضع منخفض يصعب عليهم أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت لهم الغلبة ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين .
- بهذه الخطة تغلب على التفوق العددي للعدو .

تعبئة جيش المسلمين :

هكذا تمت تعبئة جيش المسلمين وأخذ رسول الله ﷺ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، وحصَّهم على الصبر والجَدِّ عند اللقاء ، ومد رسول الله ﷺ يده بسيف فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه (٢) ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه ، منهم علي بن أبي طالب

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ٦٨-٣/٧٠ .

(٢)- مجمع الزوائد ٦/١١٢ و الحاكم ٥٠١٩ باختلاف يسير .

والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب ، فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : " أن تضرب وجوه العدو حتى ينحني " .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء ، إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت ، فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : " إنها لمشيئة يَبْغُضُهَا اللهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ " (١) .

تعبئة جيش المشركين :

أما المشركون فعبئوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة - كما أسلفنا - لأبي سفيان بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش ، وكانت الميمنة لخالد بن الوليد في مواجهة الزبير بن العوام - ميسرة جيش المسلمين - وكانت الميسرة لعكرمة بن أبي جهل في مواجهة المنذر بن عمرو ميمنة جيش المسلمين ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، أما اللواء فكان لبني عبد الدار بدأت بطلحة بن أبي طلحة - كما أسلفنا - .

وبدأت التعبئة المعنوية بتذكيرهم ببدرٍ وقتلاها ، أما النسوة فكنَّ يتجولن في الصفوف ويضربن بالدفوف ، يَسْتَهْضُنَ الرَّجَالَ وَيُحْرِضُوهُنَّ عَلَى الْقِتَالِ .

محاولات قريش إيقاع الفرقة في صفوف المسلمين :

المحاولة الأولى :

أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : خلُّوا بينا وبين ابن عمِّنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا لقتالكم ، ولكن أين لهذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار رداً عنيفاً وأسمعوه ما يكره .

المحاولة الثانية :

بعد فشل المحاولة الأولى ، خرج أبو عامر بن عمرو بن صيفي ، وكان يُسَمَّى أبو عامر

(١) - الروض الأنف (٥/٤٢٧) المحدث ابن اسحاق .

الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ أبو عامر الفاسق وكان رأس الأوس في الجاهلية ، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يُحرض قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فخرج يوم أُحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس وفي عبيد أهل مكة ، وكان يزعمُ أنه إذا نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون استجابوا له وانحازوا إلى قريش .

فلما نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، فقالوا : لا أنعم الله بكَ عيناً يا فاسق ، وقدفوه بالحجارة ، فترجع هو ومن معه إلى صفوف قريش وقال : لقد أصاب قومي بعدي شرٌ . ولكن نظرات قريشاً المستهزئة كانت تحيطه من كل جانب .

بداية القتال :

المبارزة :

وتقارب الجمعان ، وأتت مرحلة القتال ولما كانت العادة أن تبدأ الحرب بالمبارزة ، فقد خرج طلحة بن أبي طلحة - حامل لواء المشركين - وكان من أشجع فرسان قريش وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته ، ولكن علي بن أبي طالب تقدم إليه ولم يمهله فقتله، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون وسقط لواء المشركين فحملة أخوه شيبة ، فتقدم إليه حمزة فقتله ، ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فقتل . وهكذا حتى قُتل ستة من بيت واحد - بيت أبي طلحة بن عثمان بن عبد الدار - وسقط لواء المشركين ، ولم يجد منء يحمله إلا غلام لهم حبشي فحملة حتى قُتل هو الآخر وظلَّ اللواء ساقطاً .

احتدام القتال :

كان سقوط اللواء المشركين قد ألهب حماس المسلمين فانطلقوا خلال جنود الشرك وأبدى المسلمون ألواناً من البسالة والبطولة نذكر منها :

• أبو دُجانة وعصابة الموت :

انطلق أبو دُجانة آخذاً بسيف رسول الله ﷺ وعلى رأسه عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله ، حتى شقَّ صفوفهم ، وكان قد رأى أناساً يشجعون ويحضون

المشركين على القتال فقصد إلى زعيمهم وحمل عليه السيف فولول ، فإذا هند بنت عتبة فارتد عنها ، مُكرماً سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة .

• حمزة وبلاؤه :

قاتل حمزة بن عبد المطلب قتالَ الليوث ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين في شجاعة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في مصرع حاملي لواء المشركين فقد فعل الأفاعيل في أبطالهم الآخرين .

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب :

كان وحشي بن حرب - كما أسلفنا - غلاماً لجُبير بن مطعم ووعده أن يعتقه إن هو قتل حمزة ، وكذلك وعده هند بنت عتبة بكل ما ترتدي من حُلِي إن هو قتل حمزة ، فلم يكن له أي هدف في هذه المعركة سوى مقتل حمزة ليُعتق .

ولندع وحشياً يروي لنا ما حدث : " خرجتُ مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف الحربة قذفت الحبشة ، فلم أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، فلما رأيته في عُرْض الناس مثل الجمل الأورق يهدُّ الناس بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء ، فهزرتُ حربتي حتى إذا رضيتُ عنها دفعتها إليه فوقع في ثنيتيه ، ما بين السرة والعانة من أسفل البطن ، حتى خرجتُ من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوي فغلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيتُه فأخذت حربتي ، ثم رجعت إلى المعسكر وقعدتُ فيه ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق فلما قدمتُ مكة أعتقت " .

وهكذا صُرع حمزة وهو في مقدمة المبارزين ، لكنه لم يُصرع كما يصرع الأبطال وجهاً لوجه ، وإنما أُغتيل كما يُغتال الكرام في حلك الليل .

ظفر المسلمين صبيحة أحد :

رغم الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين بمقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف وذلك بفضل مهارة رسول الله ﷺ في وضع الرماة في شُعب الجبل يصدون الفرسان بالنبل فلا يتقدمون ولا يأتون

المسلمين من خلفهم ، وكذلك بفضل قوة إيمان ورسالة المؤمنين السبعمائة الذين كانوا يواجهون نحو خمسة أضعافٍ عددهم من المشركين .

فبعد سقوط لواء المشركين ، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه ، أخذت صفوفهم تتبدد وولوا الأدبار ، لذلك تمزق جيش المشركين ولجئوا للفرار ، وأوشكت نسوتهم أن يؤخذن أسرى ذليلاتٍ وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا ، حتى بعد عن معسكره فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة وظنوا أنهم كسبوا المعركة ، ولكن جناحي قريش ظلا صامدين ، الميمنة بقيادة خالد بن الوليد ، والميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل .

الرِّمَاءُ يُخَالِفُونَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

ولما رأى الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا الشَّعب ويلزموا مواقعهم في كلِّ حال من النصر أو الهزيمة ، لما رأوا أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو غلبت عليهم إثارة حب الدنيا ، فخشوا أن تفوتهم الفرصة في الحصول على نصيبهم من الغنائم ، فطلبوا من قائدهم عبد الله بن جُبَيْر السماح لهم بالنزول لأخذ نصيب من الغنائم ، ولكنه رفض طلبهم وذكرهم بما قاله النبي ﷺ لهم قبل المعركة ، ولكنهم قالوا : لم يُرِدْ رسول الله ﷺ هذا ، وقد أذلَّ الله المشركين وهزمهم واندفع معظمهم تاركين مواقعهم إلى معسكر قريش ، ولم يبق مع عبد الله بن جُبَيْر إلا عشرة رجال .

الدائرة تدور على المسلمين :

كان أبو سفيان لما رأى جيشه يتهاوى قد قال : أنهزم مرة أخرى ؟ فلما رأى خالد بن الوليد ترك الرماة لمواقعهم قال له : لا لم تُحسم المعركة بعد ، واهتبل خالد هذه الفرصة الذهبية فكَرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة جيش المسلمين فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جُبَيْر وأصحابه العشرة .

وصاح فرسانُ خالد صيحةً عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد ، فانقلبوا على المسلمين وأسرعت امرأة منهم وهي - عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على الأرض فالتفت حوله المشركون وتنادى بعضهم بعضاً .

فلما رأى عكرمة ما فعل خالد والتغافه من ناحية الشرق ، فجمع رجاله والتف من ناحية الغرب ، وهكذا أُحيط المسلمون من الأمام والخلف ، وهناك دارت الدوائر فألقى كلُّ مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به ، ولكن هيهات هيهات .. لقد تفرقت الصفوف وتمزقت الوحدة وانقلب الأمر من وضع الهجوم إلى الدفاع الغير منظم بلا خطة ولا قيادة .

موقف رسول الله ﷺ الشجاع :

كان رسول الله ﷺ يرقب سير المعركة من مركز قيادته في مؤخرة الصفوف مع تسعة نفر من الصحابة كانوا في حراسته ، ولما رأى مُباغته خالد بن الوليد وانقلاب الوضع لصالح المشركين ، كان أمامه طريقان إما أن ينجو بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ويترك جيشه المطوّق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه ، فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشقّ بها الطريق لجيشه المطوق ، ويتحمل مخاطر هذا الطريق .

وهنا تجلت عبقرية وشجاعة رسول الله ﷺ ، فقد رفع صوته ينادي أصحابه : " إِيَّ عِبَادِ اللَّهِ " (١) وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون وفعلاً فقد علم المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

إشاعة مقتل رسول الله ﷺ وارتيابك في صفوف المسلمين :

كان من المشركين رجلاً يقال له ابن قمئة ، قتل مصعب بن عمير ، وكان مصعبٌ شديد الشَّبه برسول الله ، فأشاع أن محمداً قد قُتلَ فازداد الارتباك والفوضى في صفوف المسلمين وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في نفوس المقاتلين ، فكان المسلمون حينئذ ثلاث طوائف :

(١)- الطبري ، السيرة النبوية في ضوء الكتاب و السنة (٢٠/١٩٨) .

١. الطائفة الأولى : لما وقعوا في التطويق طار صوابهم فأخذوا طريق الفرار وترك ساحة القتال ، ففرّوا إلى المدينة ولكنهم استحووا أن يدخلوها ، فاخْتَبئوا في الجبال ودخلوها بعد ثلاث ، وكان هؤلاء قلة قليلة من المسلمين .

٢ . الطائفة الثانية : اختلطت بالمشركين ، وعمت الفوضى فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه - وهو لا يكاد يعرفه - فلما أُشيع أنّ رسول الله ﷺ قد قُتل طارت بقية صوابهم ، فتوقف بعضهم عن القتال وألقي بأسلحته ، ومَرَّ بهؤلاء أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - وقد ألقوا ما بأيديهم فقال : ما تنظرون ؟ فقالوا : قُتل رسول الله ، فعلام نقاتل ؟ قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم استقبل القوم ، فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير ، حتى أنه لم يُقتل إلا بعد أن قتل من المشركين عدداً كبيراً ، أما هو فُضرب بضع وثمانون ضربةً ، حتى أنه لم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع من أنس بن النضر وغيره عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام وأخذوا سلاحهم يهاجمون تيارات المشركين ، فنجحوا في الإفلات من التطويق ، والتجمع حول مركز منيع ، بعد أن باشروا القتال المرير ، وكانت هذه الطائفة هي السواد الأعظم من المسلمين .

٣ . الطائفة الثالثة : وهؤلاء لم يكنْ يهمهم إلا رسول الله ﷺ ، فكانت هذه الطائفة قوامها ثلاثون رجلاً ، يحيطون بمكان رسول الله ﷺ وكان من هؤلاء : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو دُجانة وغيرهم .. كانوا في مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على رسول الله ﷺ صاروا في مقدمة المدافعين وانضموا إلى التسعة نفر من الصحابة الموجودين في حراسة رسول الله ﷺ .

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ وإصابته :

بينما كان المسلمون مطحونين بين شقّي رحى المشركين كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ ، فقد أسلفنا أنّ المشركين لما بدعوا عمل التطويق لم يكن حول رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى " إِيَّ عِبَادِ اللَّهِ " (١) سمع صوته المشركون وعرفوه فكَرَّوْا إليه وهاجموه ، قبل أن يرجع إليه أحدٌ من جيش المسلمين ، فلما خلصوا إليه ومعه التسعة نفر - سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين - يريدون قتله أخذ هؤلاء التسعة يدافعون عن رسول الله ﷺ بكل فداء حتى قُتِلَ السبعة من الأنصار ولم يبق غير القرشيين ، طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، فكانت أخرج لحظات في حياة رسول الله ﷺ إذ اغتتم المشركون تلك الفرصة ، وركزوا حملتهم على رسول الله ﷺ وطعموا في القضاء عليه .

بلاء طلحة وسعد :

فقد قاما وهما اثنان فقط ببطولات نادرة ، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم .

أما طلحة بن عبيد الله : فقاتل قتالاً مريراً ، وكان يدفع النبل عن رسول الله ﷺ بجسده ويده حتى ضربت يده وتقطعت أصابعه ، وكان أبو بكر الصديق إذا ذكر يوم أحد يقول : والله اليوم كله لطلحة .

وأما سعد بن أبي وقاص : فقد وقف بجانب رسول الله ﷺ يرمي بالنبل وكان ماهراً في رمي النبل والسهام ، وكان رسول الله ﷺ يناوله النبل ويقول: " ارم سعد فذاك أبي وأمي " (٢) وهو ما يدل على مدى كفاءته ، وأن النبي لم يجمع أبويه لأحد غير سعد .

بعض مما أصاب رسول الله ﷺ :

رغم الاستبسال والشجاعة في الدؤد عن رسول الله ﷺ إلا أنها لم تحول دون إصابة رسول الله ﷺ ، وذلك لكثرة عدد المشركين وحميتهم على رسول الله ﷺ ، فكانت تلك بعض مما أصاب رسول الله ﷺ :

(١)- الطبري ، السيرة النبوية في ضوء الكتاب و السنة (٢٠/١٩٨) .

(٢)- الهيثمي مجمع الزوائد (٩/١٥٨) في البخاري " ارم فذاك أبي و أمي) رقم ٤٠٥٥ .

• رماه عُتْبَةُ بن أبي وقاص - أخو سعد بن أبي وقاص - بالحجارة فوقع لشِقِّه فأصيبت رباعيته ﷺ .

• تقدم عبد الله بن شهاب الزهري فشجّه في جبهته ﷺ .

• جاء عبد الله بن قمئة فضربه على عاتقه بالسيف إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ثم ضربه على وجنتيه ﷺ ، ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه ﷺ .

• وقع في حفرة - مع هذا الهجوم الشرس - كان قد حفرها أبو عامر الفاسق وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فلما وقع رسولُ الله ﷺ فيها ، أغمي عليه وُحِدَتْ ركبته .

بداية تجمع الصحابة حول رسول الله ﷺ :

وقع كلُّ هذا بسرعة هائلة ، وبينما كان كبار الصحابة في مقدمة الصفوف عند القتال ، لم يكادوا يرون تغيير الموقف ، أو يسمعون صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات وسبعة من الأنصار قد قُتِلوا وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح .

فلما وصلوا أقاموا سياجاً من أجسادهم وسلاحهم حول رسول الله ﷺ وكان أول مَنْ رجع إليه هو ثانيه في الغار - أبو بكر الصديق - ثم تلاه أبو عُبيدة بن الجراح ، وإذا طلحة وُجد مغشياً عليه ، فقال رسول الله ﷺ : " دُونَكُمْ أَخَاكُمْ فَقَدْ أُوجِبَ " (١) .

ولما رأوا حلقتي المغفر في وجنتيه ﷺ حاول أبو عُبيدة أن ينزعهما بأسنانه حتى لا يؤدي رسول الله ﷺ ، واستطاع أن ينزعهما ولكن سقطت سِنَّتَانِ من أسنانه ، ثم أقبل على طلحة لعلاجها ، فإذا به بضع وستون طعنة ، وقد قُطعت أصبعه .

(١)- ضعفه الألباني / وذكرها ابن عساکر في تاريخ (دمشق) ج ٢٥ ص ٧٦ .

وخلال هذه اللحظات اجتمع حول النبي ﷺ عصابةٌ من أبطال المسلمين منهم علي بن أبي طالب وأبو دُجانة ومصعب بن عُمر ومالك بن سنان وأم عمارة نُسَيبة بنت كعب وعمر بن الخطاب وحاطب بن أبي بلتعة وغيرهم .

هنالك أسرع علي بن أبي طالب فأخذ بيده ﷺ وهو في الحفرة ليُخرجه منها ورفعته ، حتى استوى قائماً .

اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون :

ولما خرج رسول الله ﷺ من الحفرة ، وقد سال الدمُ من وجهه فمسحه ﷺ وقال : " كيف يُفْلح قوم خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وهو يدْعُوهم إلى ربهم " (١) ثم سَكَتَ ساعةً ثم قال : " اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون " (٢) .

استماتة المؤمنين في الدفاع عن رسول الله ﷺ والبطولات النادرة :

قام المسلمون ببطولات نادرة لم يعرف لها التاريخ نظيراً ، وتلك بعض الأمثلة :

١- **طلحة وسعد وعلي وأبو عبيدة** : أسلفنا كيف كان بلاء طلحة بن عُبيد الله وسعد بن أبي وقاص بعد مقتل سبعة من الأنصار ، وكذلك ما قام به علي بن أبي طالب وأبو عبيدة بن الجراح .

٢- **حاطب بن أبي بلتعة** : تبع عُتْبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية رسول الله ﷺ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه .

٣- **أبو دُجانة سماك بن خرشة** : تترس على رسول الله ﷺ فصار النَّبْلُ يقع على ظهره وهو مُنْحَن حتى كَثُرَ فيه الطعن وهو لا يتحرك .

٤- **أم عمارة الأنصارية** : قد خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين ، تسقي منهم من استسقي فلما دارت الدائرته علي المسلمين ، ألقَتْ سقاءها

(١)- عند مسلم ١٧٩١ ، (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله) .

(٢)- السلسلة الصحيحة ٥٣٣/٧ .

واستلّت سيفاً وقامت تباشر القتال تذبُّبً عن رسول الله ﷺ ، فاعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين ، فضربها على عاتقها ضربةً تركت جرحاً أجوف ، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها لكن كان عليه درعان فنجا ، وظلت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

٥- مصعب بن عمير : قاتل بضرارة يدافع عن رسول الله ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قُطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجه الكفار حتى قُطعت يُسراه ، ثم برك ابن قمئة عليه بصدرة وقتله ، وكان مصعب شديد الشبه برسول الله ﷺ فظنَّ ابنُ قمئة أنه رسول الله ﷺ فصاح : قُتل محمدٌ ، وكان لهذه الإشاعة أثرها الكبير على سير القتال . كما أسلفنا ..

توقف القتال :

لما سمعتُ قريشُ صياح ابن قمئة بمقتل رسول الله ﷺ ، توقفوا عن القتال ، لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، وإن كانت هذه الإشاعة قد أثرت سلباً -كما أسلفنا - على معنويات المسلمين الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ .

الرسول يواصل المعركة :

لما قُتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء لعلي بن أبي طالب ، فقاتل قتالاً شديداً هو ومن معه من الصحابة المحيطين برسول الله ﷺ ، وأمرهم رسول الله ﷺ بالكتمان ، وألاً يُكذب أحدٌ منهم خبر مقتله ، حتى لا تتكاثر عليهم قريشُ ، حينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ويواصل المعركة .

أبشروا هذا رسول الله ﷺ لم يُقتل :

لما أقبل رسول الله ﷺ على جيشه ، كان أول مَنْ عرفه ، بعد هذه الدهشة من إشاعة مقتله ، كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله ﷺ حيٌّ لم يُقتل ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن أصمّت ، ذلك لئلا يعرف المشركون مكانه

إلا أن الصوت بلغ آذان المسلمين ، فلأدوا إليه وتجمعوا حوله ، ونهضوا به ونهض معهم ، وأخذوا في الانسحاب المنظم إلى شُعب الجبل .

محاولة لعرقلة الانسحاب :

كان لصيحة كعب بن مالك أثرها كذلك عند قريش ، صحيح أنّ أكثرهم لم يصدقها ، وحسبها صيحة أُريد بها شدّ عزائم المسلمين إلا أنّ بعضهم اندفع وراء رسول الله ﷺ والذين معه للتأكد من الخبر لمحاولة عرقلة عملية الانسحاب .

مقتل أبي بن خلف :

ومع عملية المطاردة من المشركين ، أدرك أبي بن خلف - أحد شياطين قريش - أدرك رسول الله ﷺ ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إنْ نجا ، فلما دنا منه أخذ رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة وطعنه طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ، ليموت في الطريق

الانسحاب والوصول الآمن إلى الشَّعب :

وواصل رسول الله ﷺ ومن معه الانسحاب ، وأثناء الانسحاب أراد النبي ﷺ أن يعلو صخرةً عرضت له من الجبل ، فلم يستطع لكثرة ما نزل به من جروح وآلام ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله رغم ما بطلحة من جروح هو الآخر حتى استوى عليها ، ولما انتهى المسلمون إلى قمم الشَّعب ، خرج علي بن أبي طالب ، فملاً دَرَقته ماءً ، فغسل به الدم عن وجه رسول الله ﷺ وصب منه على رأسه ، ثم أخذت فاطمة ، كانت قد جاءت إلى الشَّعب ، أخذت حصيراً فأحرقتها ووضعتها على الجُرْح فاستمسك الدم .

محاولة هجوم أخيرة من المشركين وحُلوا ساحة القتال :

لما تمكن رسول الله ﷺ من مقرّ قيادته في الشَّعب ، حاول خالد بن الوليد ومن معه محاولةً أخيرة للوصول إلى مكان النبي ﷺ ، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من الصحابة فردوهم ، فرأى خالد أن هجومه لن يُجدي فتراجع وتراجع جنود قريش كلهم ، أما المسلمون

فالتقوا كلهم حول رسول الله ﷺ ، وقد نهكهم التعب ، حتى أن رسول الله ﷺ صلى الظهر قاعداً من الجروح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً ، وهكذا خلت ساحة القتال من الجنود من الجانبين .

التمثيل بشهداء المسلمين :

لما توقف القتال ، اندفعت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - إلى حيث سقط شهداء المسلمين ، وراحت تبحث بينهم عن جثة حمزة ، فلمّا وجدتْها عملتْ فيها سكينها ، وأخذتْ كِبْدُهُ تمضغها ، ولا لم تستسغها لفظتها ثم جدعتْ أنفه وأذنه ، ولم تكتفِ بذلك بل طلبتْ من النسوة الأخريات أن يفعلنَ مثل فعلتها ، ويُمثّلنَ بباقي الشهداء .

وجاء وحشيٌّ إلى هند فأعطته كلَّ ما كان عليها من خُلِيٍّ - كما وعدته - ولما نزعَتْ خُلِيها وضعتْ مكانها آذان وأنوف الشهداء ، بعد أن صنعتْ منها قلائدَ وأقراطاً .

تحدي أبو سفيان وردَ عمر :

بعد أن انتهت هذه المأساة البشعة من التمثيل بجثث القتلى المسلمين، وكان أبو سفيان قد خرج ينفق رسول الله ﷺ في القتلى ، ولما لم يجده أراد أن يستوثق مما قاله ابنُ قمئة عن مقتل رسول الله ﷺ ، فلمّا تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ، وقف أبو سفيان على صخرة عالية ، وصاح بأعلى صوته مخاطباً المسلمين : أفيكم محمد ؟ وأشار النبي إلى أصحابه أن يصمتوا ، وأعاد أبو سفيان سؤاله مرتين ، دون أن يتلقى جواباً .

فاعود السؤال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يُجيبوه ، والتفت إلى قومه وأخبرهم أن الثلاثة الذين ذكرهم قد قتلوا ، ونلاحظ أنه لم يسأل إلا على هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم .

واستراحت قريشٌ لهذه المقولة ، وكان التعب قد أخذ منهم كلَّ مأخذ ، ولم تُعدْ لهم رغبة ولا قوة لمواصلة القتال .. وهنا تقدم عمر وصاح في أبي سفيان : إنك لتكذب يا عدو الله ، إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك فرداً أبو سفيان قائلاً : إن الحرب

سجال ، يوم بيوم ، يقصد يوم بدر بيوم أُحُد ، ثم قال : أُعْلِ هُبْل ، فأمر النبي عمر أنْ يرد عليه القول ، فقال : الله أعلى وأجَلّ ، لا سواء أي أن يوم بدر ويوم أُحُد ليسوا سواء .. قتلتنا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

أبو سفيان يريد التيقن من مقتل رسول الله ﷺ :

إلى هنا وأبو سفيان لا يزال يخامرهم أملٌ في أن يكون ابن قمئة مُصيباً وأنَّ عمر يخادعه ، فقال : هلم إليَّ يا عُمر ، فقال رسول الله : ائته ، انظر ما شأنه ؟ (١) فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا مجدأً ؟ قال عمر : اللهم لا وإنه ليستمع إلى كلامك الآن .

قال أبو سفيان : أنت أصدقٌ عندي من ابن قمئة وأبرّ .

أبو سفيان يتبرأ من التمثيل بالقتلى :

وبعدها نادي أبو سفيان : أنه كان في قتلاكم مُثَلَّةً ، والله ما رضيتُ وما سخِطْتُ ، وما نهيتُ وما أمرتُ .

مواعدة للتلاقي في بدر :

ولما همَّ أبو سفيان أنْ ينصرف هو ومَنْ معه نادي : إنَّ موعدكم ببدر العام القادم ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه أنْ يرد عليه وقال له : " قُل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد " (٢) .

قريش تغادر والرسول يتحقق :

غادرت قريشٌ ميدانَ المعركة وتجمعتُ في المعسكر القديم الذي عسكرت فيه في اليوم السابق للمعركة ، ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب للتحقق من مغادرتهم فقال : ((اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنبوا الخيل

(١)- السيرة النبوية لابن هشام ص ٩٤ جزء ٢ .

(٢)- السيرة النبوية لابن هشام ص ٦٠٩ جزء ٣ .

وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده ، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأنجزنهم)) (١)

فخرج عليٌّ فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

تفقد القتلى والجرحى :

بعد مُنصرف قريش فرغ الناسُ لتفقد القتلى والجرحى ، فبعث رسولُ الله ﷺ زيد بن ثابت ينظر ما فعل سعد بن الربيع ، في الأحياء هو أم في الأموات ؟ فسار زيداً إلى ميدان المعركة ، فوجد سعداً جريحاً وبه سبعون ضربة وعلى وشك الموت ، قال له سعد : أبلغ عني رسولُ الله السلام ، وقلْ له : يا رسول الله إنِّي أجد ريح الجنة ، وقلْ لقومي من الأنصار : لا عُذر لكم عند الله إنْ خُلصَ إلى رسول الله ، وفيكم عينٌ تطرف ، وفاضتُ روحه من وقته ، وظلَّ الناس هكذا يتفقون قتلاهم وجرحاهم ، ثم خرج النبي بنفسه يلتمس عمه حمزة بين القتلى ، فلما رآه وقد بُقر بطنه ومثَّل به ، فجدع أنفه وأذناه ، حزن من أجله حزناً شديداً ، وبكى عليه حتى نَشَع من البكاء ، النشع هو الشهيق وتردد البكاء في الصدر .

وجاءت أخته صفية بنت عبد المطلب ، لترى أباها وما أصابه فنظرت إليه وبكت ثم صلَّت عليه واستغفرت له .

جَمَعَ الشهداء ودفنهم :

كان أناسٌ من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة لدفنهم ، فأمر رسول الله ﷺ أن يردوهم ويدفنوهم حيث صُرعوا ، وألاً يُغسلوا وأن يُدفنوا كما هم في ثيابهم بعد نزع الحديد والجلود .

وكان يُدفن الاثنان أو الثلاثة في قبر واحد ، ويُجمع بين الرجلين في ثوب واحد ، أما حمزة فلم يوجد له كفن إلا بُردة مَلحَاء ، إذا غطت رأسه بدت قدماه ، وإذا غطت قدميه ظهرت رأسه ، فأمر رسول الله ﷺ أن تُمد على رأسه وجعل على قدميه الإذخر .

(١)- نفس المصدر السابق .

وكذلك كان الحال مع مصعب بن عمير ، لم يوجد له كفن وكانت بُرده إذا غطت رأسه بدت قدماه ، وإذا غطت قدميه ظهرت رأسه ، فأمر رسول الله ﷺ به كما فعل بحمزة وأشرف رسول الله على الشهداء ، حتى دُفِنوا وقال : " أنا شهيد على هؤلاء .. أنه ما من جريح يُجرح في الله ، إلاً والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جُرحه ، اللون لونُ الدم ، والريحُ ريحُ المسك " (١) .

العودة إلى المدينة :

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء ، والثناء على الله والتضرُّع إليه انصرف عائداً إلى المدينة ، وأثناء عودته لقيته حمنة بنت جحش فنعى لها أخاها عبد الله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب ، وزوجها مصعب بن عمير ، فبكت بكاءً شديداً .

ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأُحد ، فلما نُعوا لها قالت : ما فعل رسولُ الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيهِ حتى أنظر إليه ، فأشير إليها حتى إذا رأته ، قالت : كلُّ مصيبة بعدك صغيرة .

قتلى الفريقين :

خَلَفَتْ معركة أُحد سبعين قتيلاً من المسلمين ، الغالبية العظمى منهم من الأنصار ، أما قتلى المشركين فكانوا اثنين وعشرين على قول ابن إسحاق ، أو سبعة وثلاثين على قول آخرين .

الرسول يفكر في استرداد هبة المسلمين :

بات رسول الله ﷺ ليلته وهو يفكر في الموقف من جوانبه المختلفة :

• فأهل يثرب من اليهود والمشركين والمنافقين ، يُظهرون السرور أشدَّ السرور ، وهذا سلطانُ المسلمين يوشك أن يتزعزع بعد أن استقر ولم يبقَ لأحد أن ينازعه فيه .

(١)- صحيح ابن ماجة ٢٧٩٥ بلفظ آخر و أحمد ١٠٧٤٠ .

• أهل قريش : لو أنّ ما حدث بأحد بقي هو الكلمة الأخيرة بين المسلمين والمشركين لهأن أمر المسلمين ، ولكانوا غرضة لاستخفافات قريش واجتراء المشركين عبّاد الأوثان على دين الله

• إن المشركين من قريش إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من المعركة فلا بد أن يندموا على ذلك وقد يرجعون من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية .

فكان لابد إذاً من ضربة جريئة تُخفف ما حدث في أحد ، وتردّ إلى المسلمين قوتهم المعنوية وتُدخل الرّوع إلى قلوب اليهود والمنافقين في المدينة ، وتُعيد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه سلطانهم بالمدينة قوياً كما كان .

غزوة حمراء الأسد

في صباح اليوم التالي لمعركة أُحُد ، وبرغم ما برسول الله ﷺ من آثار المعركة إذ تورمَتْ وجنتاه وشفتهاه وفقد سنَّتين وجُرح في كتفه ، رغم كل هذا فقد أمر بلاً أن يدعو المؤمنين إلى القتال ، ولا يخرج معه أحدٌ إلا الذي عاد معه بالأسد ، فخرجوا جميعاً برغم ما بهم من جراح وكان بعضها بالغا ، فكانوا نحو ٥٠٠ رجلاً فأمرهم رسولُ الله ﷺ بطلب العدو واستنفرهم في مطاردته ، وكان رسول الله ﷺ يخشى أن تعاود قريش هجومها ، وكانت قريش قد مضت ليلتها في حمراء الأسد وهي تبعد عن المدينة نحو ٨ أميال .

فلما أصبح الصباح واصلوا سيرهم ، فلما كانوا بالروحاء ، وهي على بُعد ٣٦ ميلاً من المدينة ، تحقق ما فكر فيه رسولُ الله ﷺ وتنبأ به ، فقد بدأوا يتلاومون فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتهم وحدهم ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ولاقى هذا الرأي استحساناً من غالبية القوم ، إلا أن بعض العقلاء ، أمثال صفوان بن أمية اعترض قائلاً : يا قوم لا تفعلوا ، فإنِّي أخاف أن يجمع عليكم مَنْ تخلف من الخروج ، فارجعوا والدائرة لكم فإنِّي لا آمن إن رجعتم إليهم أن تكون عليكم ، إلا أن هذا الرأي رُفض أمام رأي الأغلبية الساحقة .

لقاء رسول الله ﷺ بمعبد بن أبي معبد :

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد واصلوا السير حتى وصلوا إلى حمراء الأسد فلم يجدوا بها أحداً ، فعسكروا هناك وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وكان هوى خزاعة مع النبي ﷺ فقال : يا محمد ، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فطلب منه رسول الله ﷺ أن يلحق بأبي سفيان فيُخذه فسار معبد حتى لحق بجيش مكة وقد أجمع على السير إلى المدينة .

فلما رآه أبو سفيان قال : ما وراعيك يا معبد ؟ فأجابه معبد : " إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه مَنْ كان قد تخلف عنه ،

وندموا على تخلفهم ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً وطلباً للثأر منكم" ، فقال أبو سفيان :
والله لقد أجمعنا الكزة عليهم لنستأصلهم فقال معبد : لا تفعل إنني ناصح .

انهيار عزائم المشركين :

وحينئذ انهارت عزائم جيش قريش ، وأخذهم الفزع والرعب ، وتأكدت مخاوف صفوان بن أمية من أن المسلمين يريدون استئناف القتال ، وفي الحال أصدر أبو سفيان أوامره بالاتجاه إلى مكة - بيد أنه - وحفظاً لماء الوجه ، أو طمعاً في أن ينجح في كف جيش المسلمين عن مواصلة المطاردة لجأ إلى حيلة ، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة ، أن يبلغوا رسول الله ﷺ أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم ، فلما بلغ الركب الرسالة إلى رسول الله ﷺ بجمراء الأسد ، لم يتضعع عزمه ولم تهن قوته .

وظل رسول الله ﷺ في مكانه يُوقد النار طيلة الليل أربعة أيام متتالية ، ليثبت القريش أنه على عزمه ، وأنه منتظر رجعتهم ، أما جيش المشركين فقد انهاروا وآثروا أن يُبقوا على ما اعتبروه نصراً وواصلوا السير إلى مكة ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد استرد كثيراً من مكانة كادت تتزعزع على إثر أخذ .

فبما رحمة من الله لنت لهم :

لما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة عوداً حميداً ، وقد أجبر مشركي مكة على الفرار ، وعدم العودة إلى المدينة ، إلا أنه كانت هناك في النفس مرارة وألم ، وشعور كبير بالذنب والتلاوم ، خاصة من الرماة الذين خالفوا أوامر رسول الله ﷺ وكان ما كان ، وكذلك من الذين فرؤا .

فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ وكلهم شعورٌ كبير بالذنب ، وجدوه يقابلهم بابتسامته المعهودة وصدر رحب وقد عفا عنهم ولأن لهم وشملهم بحلمه وتقديره للضعف البشري لدى البعض ، فعامل الجميع باللين والرأفة ، وقد خفف ذلك كثيراً من شعورهم بالذنب .

والى ذلك يشير قوله تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[آل عمران : ١٥٩]

هل كانت معركة أُحُد نصراً للمشركين وهزيمة للمسلمين ؟

للإجابة على هذا السؤال ، لابد أن نضع معايير للانتصار والهزيمة ، فالمنتصر الحق هو
مَنْ يحقق الآتي :

- ١- يحقق الهدف الذي قاتل من أجله (القضاء على رسول الله ﷺ واستئصال شأفة المسلمين ، في حالة قريش) .
 - ٢- احتلال أرض جديدة .
 - ٣- إجبار العدو على الفرار .
 - ٤- أخذ غنائم وأسرى .
 - ٥- البقاء في أرض المعركة عدة أيام بعد انتهاء المعركة (كعادة المنتصر في ذلك الزمان ، كما فعل رسول الله ﷺ ببدر إذ بقي بعدها ثلاثة أيام) .
- فإذا أردنا التحليل الموضوعي لهذه الحرب وطبقنا معايير الانتصار السالفة الذكر سنجد أن قريشاً لم تحقق فيها أيّاً من هذه المعايير على أرض الواقع :
- فلا هم حققوا هدفهم من قتل النبي ﷺ واستئصال شأفة المسلمين .
 - ولا هم احتلوا معسكر المسلمين ولا حتى وصلوا إلى مقر القيادة .
 - ولا هم أجبروا المسلمين على الفرار من أرض المعركة ، رغم الارتباك والفوضى التي عمّت المسلمين بعد تطويق جيشهم .
 - ولا هم حصلوا على أيّ غنائم أو أسرى .

• ولا هم أقاموا بساحة القتال يوماً واحداً بعد المعركة ، بل سارعوا في الانسحاب وتترك ساحة القتال قبل أن يتركها المسلمون ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب ما بها ، مع أنها كانت على بُعد عدة خطوات فحسب وكانت مفتوحة وخالية تماماً ..

كلُّ ذلك يُثبت ويؤكد أنّ ما حصل لقريش لم يكن نصراً ولا فتحاً ، إنما وجدوا فرصةً لإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه .

ومما يؤكد ذلك ، تعجُّل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف من أرض المعركة ، إذ إنه كان يخاف من المعرّة والهزيمة لو استمرّ القتال ، ويزداد ذلك تأكيداً حين ننظر إلى موقف أبي سفيان في غزوة حمراء الأسد .

إذاً فهذه كانت حرباً متكافئة ، أخذ كلُّ فريق بقسطه من النجاح والخسارة، وإلى هذا يشير قوله تعالى : (**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**) [النساء : ١٠٤] .

فقد شبّه الله أحد المعسكرين بالآخر في التألم وإيقاع الألم بالمعسكر الآخر ، بما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكلٌّ لا غالب ولا مهزوم .

دروس من معركة أُحد :

لقد كان في هذه المعركة ، وما أصاب المسلمين فيها ، من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة نسوق بعضاً منها :

١- تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوه .

٢- عادة الرسل أن يُبتلوا والحكمة من ذلك أنهم لو انتصروا دائماً ، دخل في المؤمنين مَنْ ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة .

٣- أظهرت نفاق المنافقين الذي كان مخفياً عن المسلمين وعرف المسلمون أن الهم عدوًّا في دُورهم ويعيش معهم .

٤- تأخر النصر في بعض المواطن هضماً للنفس ، وكسراً لشموخها .

٥- إن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

٦- إن الله أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم في أذى أوليائه ، فمحص ذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين .

٧- ربط المسلمين بعقيدة الإسلام ، لا شخص الرسول ، قال تعالى مُعَقَّبًا عَلَى أَحَدٍ :
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ
أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)
[آل عمران: ١٤٤]

* * * * *

ما بين أحد والأحزاب عام ٤ هـ :

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكة ، ممتلئ النفس غبطةً وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر ، وكان ذلك شعور مشرقي قريش بشكل عام ، أما المسلمون فألفوا المدينة وقد تتكّر لهم الكثير ، على الرغم من مطاردتهم علوهم وثباتهم أربعة أيام سوياً من غير أن يجترئ العدو على الرجعة إليهم.

وشعر رسول الله ﷺ بدقة الموقف وحرجه لا في المدينة وحدها بل كذلك عند قبائل العرب التي كان الرعب يملأ نفوسها إلا أن أحداً ردت إليهم بعض السكينة مما سمح لها أن تفكر في معارضة رسول الله ﷺ ومناواته .

لذلك حرص رسول الله ﷺ على أن يقف على أخبار أهل المدينة وما حولها ، فكانت له عيونٌ في كل مكان ليتمكن من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم في النفوس ، فكانت بعض البعوث والسرايا :

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد :

فكان أول ما بلغ رسول الله ﷺ بعد شهرين من أحد (هلال محرم ٤ هـ) أن طليحة وسلمة ابني خويلد ، وكانا على رأس بني أسد ، يُحرضان قومهما يريدان مهاجمة المدينة وحرب رسول الله ﷺ وشجعهما على ذلك اعتقادهما أن رسول الله ﷺ وأصحابه مضععون من أثر أحد.

فما لبث رسول الله ﷺ حين علم بالخبر أن دعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وعقد له لواءً سريةً قوامها ١٥٠ رجلاً ، وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً ، وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يطلع أحد على خبرهم ، ونفذ أبو سلمة ما أمره به رسول الله ﷺ ، حتى جاء القوم في ديارهم قبل أن يستعدوا للإغارة فأحاط بهم في عمية الصبح ، فتشتتوا وأصاب المسلمون إربلاً وشاة فاستأقوها وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً ، وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيعت أحد ، إلا أن أبا سلمة لم يعش طويلاً بعد هذه السرية ، فقد مات متأثراً بجرح له أصيب به في أحد.

بعث عبد الله بن أنيس :

وبعد هذه الواقعة بعدة أيام ، بلغ رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان الهزلي يجمع الناس ليغزوه ، فدعا إليه عبد الله بن أنيس وأرسله وحده ليقضي عليه ، وسار عبد الله حتى لقي خالدًا ، فلما انتهى إليه سأله خالد : من الرجل ؟ قال : من خُزاعة سمعتُ بجمعك لمحمد فجنّت لأكون معك فلم يُخفِ خالد أنه يجمع الجمع لغزو المدينة وسار معه عبد الله ، وقد اطمأن له ، فلما رآه عبد الله في عُزلة من الرجال استدرجهُ للمسير معه بعيداً ، حتى إذا أمكنته الفرصة حمل عليه بسيفه وقتله ، وعاد إلى المدينة فأخبر رسول الله ﷺ الخبر ، وهدأت بنو لحيان من هُذيل بعد موت زعيمها زمنًا .

قريش ترصد المكافآت :

كانت قريش قد رصدت مكافآت لمن يأتي لهم بمن قتلوا أشرفهم في بدر وأُحد ليقبضوا منهم ، فكانت القبائل تتسمع أخبار مَنْ يخرجون من المسلمين من المدينة في تجارة أو أي غرض آخر ، فإن كان منهم ممن رصدت له قريش مكافأة تبعوه بُغية الإيقاع به لبيعه في مكة ويقبضوا المكافأة ، وكذلك لجأت قريش إلى تحريض مَنْ استطاعت استمالتهم من القبائل على خداع بعض المسلمين ليقبضوا بهم ثم يأتوا بهم إلى مكة للثأر منهم .

وفيما يلي سنعرض لبعض من هذه المؤامرات :

أولاً : بعث الرّجيع :

في هذا الحين - صفر سنة ٤هـ - قدم إلى رسول الله ﷺ قومٌ من عَصَل وقارة وذكروا أن فيهم إسلامًا ، وسألوه أن يبعث معهم مَنْ يُعلمهم الدين ويُقرئهم القرآن .

فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة من كبار أصحابه ، خرجوا مع الرهط وساروا معهم ، فلمّا كانوا بالرّجيع - وهو ماءٌ لهذيل بناحية الحجاز - غدروا بهم ودلّوا عليهم هُذيلًا ؟ قومٌ خالد بن سفيان الهزلي الذي قتله عبْدُ الله بن أنيس ، فنفروا إليهم فيما يقرب من مائة رامٍ واقتنوا آثارهم حتى قربوا منهم .

فلما أحسَّ المسلمون الستة بالخطر، أخذوا أسيافهم ليقاتلوا وكانوا قد لجؤوا إلى جبلٍ هناك ، لكن هُذِيلاً قالت لهم : إنَّا والله ما نريد قتالكم ، ولكن نريد أن نُصيب لكم مكة - أي نأخذكم إلى مكة - ولكم عهدُ الله وميثاقه ألا نقتلكم ، وكان ذلك تلبيةً لنداء مكة برصد المكافآت لمن يأتي لهم بمن قتل أشرفهم ببدرٍ وأُخذ - كما أسلفنا - .

ونظر المسلمون بعضهم البعض ، وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فرادى إنما هو المذلة والهوان ، وما هو شرٌّ من القتل ؟ فأبوا ما وعدت هُذيل ، وأثبروا للقتال وهم يعلمون أنهم في قلةٍ عددهم لا يُطيقونه وقتلت هُذيلٌ ثلاثة منهم ، وبقي الثلاثة الآخرون ، فأعطوهم العهد والميثاق مرّةً أخرى .

مقتل عبد الله وبيع زيد وخُبيب :

وكان هؤلاء الثلاثة الباقيون هم : خُبيب بن عدي ، زيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، فلما نزلوا إليهم غدروا بهم وربطوهم ، وخرجوا بهم إلى مكة لبيعهم فيها ، ولما كانوا في بعض الطريق نجح عبد الله بن طارق في أن ينتزع يده من غل الأسر وأخذ سيفه ليقاتل ، فحاولوا جرّه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه .

وانطلقوا بخُبيب وزيد إلى مكة وباعوهما - كانا قتلا من رءوسهم يوم بدر - أما زيد فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه ، وأما خُبيب فابتاعه حُجير بن أبي إهاب التميمي ليقبله بأبيه الذي قتله خُبيب في أُحد.

ما يسرني أن شوكةً تؤذي رسول الله ﷺ :

ومكث خُبيب عندهم مسجوناً ، فلما أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التتعيم ، فلما أجمعوا على صلّبه قال : دعوني حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما . فلما سلم قال : والله لولا أن تظنوا أنما طولت جزعاً من الموت لاستكثرتُ من الصلاة فلما أوثقوه ورفعوه إلى خشبة ، لم يقتلوه مباشرة ، بل احتشد حوله رهطٌ كبيرٌ من العبيد والنسوة والأطفال ، وأمروا أن يرموه بالحجارة ، فرمؤه حتى تخضّب جسده بالدماء .

فنظر إليهم وصاح : " اللهم احصهم عدداً واقتلهم بديداً ، ولا تُبقي منهم أحداً " فأخذت القومَ الرجفةَ من صيحته ، واستلقوا على جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ، فلما قدم أبو سفيان وخُبيب في هذه الحالة . قال له : يا خُبيب أيسرُك أن محمداً الآن عندنا في مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال خبيب : لا والله ما يسرني أن محمداً الآن في مكاني الذي أنا فيه ، تُصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي " فعجب أبو سفيان وقال : ما رأيثُ من الناس أحداً يُحبه أصحابه كما يحب أصحابُ محمدٍ محمداً ، ثم أمر بخُبيب فقتلوه .

ثانياً : بعث بئر معونة :

وفي الشهر نفسه الذي وقعت فيه مأساة الرجيع (صفر سنة ٤هـ) وبعد أيام من وقوعها ، واستكمالاً لمؤامرات المشركين ، وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، فلم تكن أخبار بعثة الرجيع قد وصلت بعد إلى رسول الله ﷺ أن قدم إليه ﷺ أبو البراء عامر بن مالك ، الملقب بملاعب الأسيئة ، وهو من رءوس بني عامر فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم ولم يرفض ، بل قال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، يدعونهم إلى دينك لرجوتُ أن يستجيبوا لك ، فخاف النبي ﷺ على أصحابه من أهل نجد وغدرهم ، ولم يقتنع ولم يُجب أبي البراء حتى قال له : إني جار لهم فابعثهم ليدعوا إلى أمرك .

وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة في قومه لا يخاف من أجاره أن يعدو أحدٌ عليه ، فبعث رسول الله ﷺ معه المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً وكانوا من خيار الصحابة وقرائهم فساروا يحتطبون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصُّقَّة ، ويتدارسون القرآن ، وبالليل يُصلون حتى نزلوا بئر معونة ، وهي أرضٌ بين بني عامر وحرّة بني سليم ، ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل - سيد بني عامر - فلم ينظر فيه ، وأمر بقتل حرام بن ملحان .

ثم استنفر لفره بني عامر لقتال الباقيين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر عليهم بني سليم فأجابته ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا حتى قُتلوا عن

آخريهم إلا رجلين هما : كعب بن زيد بن النجار ، وقع جريحاً بين القتلى حتى ظنوا أنه منهم ، فعاش ثم لحق بالمدينة وعمرو بن أمية الضمري ، وقع في الأسر ، فأعتقه عامر به الطفيل عن رقبة كانت على أمه .

ولقي عمرو رجلين في طريق عودته بعد إطلاق سراحه ، فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه ، فنزل في ظل شجرة ومعه الرجلان ، فلما ناما عدا عليهما فقتلها ، فإذا بالرجلان من بني عامر وإذ معهما عقد جوار من رسول الله ﷺ اقتضاه أن يؤدي ديتهما .

حُزن رسول الله ﷺ على أهل الرجيع وبئر معونة :

ولما وصل الرجلان - عمرو بن أمية وكعب بن زيد - وأخبرا رسول الله ﷺ بما حدث ، وكان قد علم في نفس اليوم ما أصاب أصحابه الستة في بعثة الرجيع، حزن حزناً شديداً ، وبلغ من حزنه أنه ظل شهراً كاملاً يدعو الله بعد صلاة الفجر لينتقم لهم من قتلهم .

دفع دية القتيلين من بني عامر :

لما أخبر عمرو بن أمية رسول الله ﷺ عن قتله لرجلين ووجد أنهما من بني عامر قال رسول الله ﷺ : " لقد قتلت قتيلين لأديئهما " وقرر رسول الله ﷺ أن يدفع ديتهما ، لِمَا كان من عهد بينه وبين بني عامر ، فبدأ بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود وهو الذي صار سبباً في غزوة بني النضير .

غزوة بني النضير

كان عهد النبي ﷺ مع اليهود ، والذي وقَّعه معهم فورَ وصوله إلى المدينة -كما أسلفنا - يتضمن أن بينهم (المسلمين واليهود) النصر والتضحية والبر دون الإثم ، وكان كذلك لليهود بني النضير عقدٌ وحلفٌ مع بني عامر ، فلما كان من قتل عمرو بن أمية الضمري لاثنتين من بني عامر خطأ ، فكان لزاماً على رسول الله ﷺ دفع ديَّتهما ، فخرج ﷺ إلى ديار بني النضير - على مقربةٍ من قباء - في نفرٍ من أصحابه من بينهم أبو بكر وعمر وعلي ، وكلَّمهم أن يُعينوه في دفع دية القتيلين من بني عامر ، وكان ذلك واجباً عليهم بحسبِ بنود المعاهدة .

مؤامرة بني النضير على قتل رسول الله ﷺ :

فلما ذكر لهم رسول الله ﷺ ما جاء فيه ، أظهروا الغبطة والبشر وقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك ، فجلس رسول الله ﷺ جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ومعه أصحابه ، فخلا اليهود بعضهم البعض ، وقالوا إنكم لن تجدوا الرجل - يقصدون رسول الله ﷺ - على مثل حاله هذه ، فمن رجلٍ يعلو على هذا البيت ، فيلقي عليه الصخرة هذه فيريحنا منه ؟ ، فقال أحدهم ، عمرو بن جحاش بن كعب .: أنا لذلك فقال لهم سلامٌ بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليُخبرن بما همتم به ، إنه لنقضُ للعهد الذي بيننا وبينه ، إلا أنهم عزموا على تنفيذ ما خططوا له (١) .

نجاة رسول الله ﷺ من المؤامرة :

وهنا نزل جبريل الأمين من عند رب العالمين على رسوله يخبره بما همُّوا به فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة ، وإن هي إلا لحظات حتى سقط حجر كبير في المكان الذي كان يجلس فيه رسول الله ﷺ ولحقه أصحابه إلى المدينة ، فقالوا : نهضت ولم نشعر بك فأخبرهم بما همَّتْ به يهود بني النضير .

(١) - الرحيق المختوم ٢١٦ .

عاقبة الغدر والخيانة :

ما أسوأ عاقبة الغدر والطيش والخيانة ، فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر حتى تقوم مجموعة من رؤسائها بعملٍ غدرٍ يظنون من ورائه النَّجَاح فيجلب عليهم الشرور ، ويُستتَهم من ديارهم ، وهذا هو ما حصل ليهود بني النَّضير

فما لبث رسول الله ﷺ بعد ما كان من غدرهم أن بعثَ محمد بن سلمة إلى بني النَّضير وأمره أن يقول لهم : " اخرجوا من المدينة ولا تَسَاكُونِي بِهَا ، لقد نقضتُم العَهْدَ الذي جعلتُ لكم بما هممتُم به من الغدر بي ، لقد أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا (عشرة أيام) ، فمن وُجِدَ بعد ذلك صُربتُ عنقه " (١) .

فلما وصلت رسالة رسول الله ﷺ لم يجد يهود بني النَّضير مفرًا من الخروج فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل .

عبد الله بن أبي يُحرض بنو النَّضير :

وبينما هم كذلك إذ جاءهم رسولان من عبد الله بن أبي رأس المناققين يُخبراهم أن يثبتوا ويمتنعوا ولا يخرجوا من ديارهم وقيموا في حصونهم وأن معه ألفين من قومه وغيرهم من العرب سيدخلون معهم حصنهم فيموتون دونهم ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى :

(أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَوْحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)
[الحشر: ١]

وهنا أعاد بنو النَّضير حساباتهم وبدأوا التَّشاور ، فمنهم من لم يكن له بابن أبي أية ثقة ، وقد خذل بني قَيْنُقَاع من قبل ، وهم يعلمون أن بني قُرَيْظَةَ لن ينصروهم ، أما بينهم وبين رسول الله ﷺ من عهد - وآخرون عادت لهم الثقة بمقولة ابن أبي - واستقر الرأي على المناوأة .

(١) - ابن سعد في الطبقات ج١ ص٤١ .

فأرسل رئيسهم حُيي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول له : " إنا لن نخرج من ديارنا ، واصنع ما بدا لك " (١) .

وتحصنوا في حصونهم ومعهم ما يكفيهم من طعام وشراب ، وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

حصار بني النضير :

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حُيي بن أخطب ، نهض لمناجزة القوم فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار ، أما بنو النضير فالتجؤوا إلى حصونهم ، فأقاموا عليها ، يرمون النبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم تُعينهم على ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع وحرق بعض منها إرغاماً وإرهاباً .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : (مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجِي الْفَاسِقِينَ) [الحشر : ٥]

خذلان ابن أبي واستسلام بني النضير :

وعبثاً انتظر بنو النضير نصر ابن أبي وحلفائهم من بني غطفان . وكذلك اعتزلهم بنو قريظة ، ولم يطل الحصار ، فقد دام ستة ليالٍ فقط ، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فتهيؤوا للاستسلام ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يؤمنهم علي أموالهم ودمائهم حتي يخرجوا من المدينة ، فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليها ما شأؤوا من مال أو طعام إلا السلاح .

(١) - ابن كثير " البداية " ص٧٧ جزء ٤ .

سياسة الأرض المحروقة - جلاء بني النضير :

فنزلوا على ذلك ، إلا أنهم اتبعوا ما نقول عليه في أيامنا هذه " سياسة الأرض المحروقة " فبدأوا يُخربون بيوتهم بأيديهم ليحملوا الأبواب والشبابيك كيلا يسكنها المسلمون ، وفي هذا قال الله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۗ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوهُمْ ۗ وَظَنُّوا أَنَّهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۗ وَقَدْ فِ قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ ۗ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)
[الحشر : ٢]

وخرجوا من المدينة صاغرين وترحل أكثرهم وأكابهم كحيي بن أخطب وسلام بن الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى أذرعات بالشام وأسلم منهم رجلان : يامين بن عمرو ، وأبو سعد بن ذهب .

مغانم بني النضير :

رغم ما حاولوا من تخريب في بيوتهم ، فقد ترك اليهود مغانم كثيرة من غلال وسلاح ، بلغ ٥٠ درعاً ، ٣٤٠ سيفاً و ٥٠ بيضة (غطاء الرأس في الحرب) ، وكانت هذه المغانم وما أخلت اليهود من أرض خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ولم يُخمسها ، لأن الله أفاءها عليه ، ولم يُوجِف عليها بخيل ولا ركاب .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الحشر : ٧]
فأعطى رسول الله ﷺ من هذا الفياء فقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم ، وتركوا أموالهم ، وردوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا أخذوه منهم أيام هجرتهم ، وكذلك أعطى رسول الله ﷺ فقراء من الأنصار مثل : أبي دُجانة وسهيل بن حنيف

وكان رسول الله ﷺ يُطعم كذلك أهله وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ هجريًا ، وفيها أنزل الله سبحانه سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود وفضح مسالك المنافقين وبيّن أحكام الفيء وأثنى على المهاجرين والأنصار .

وبيّن جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس فسادًا في الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للأخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه الحسنى وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة بني النضير .

كاتب سر رسول الله ﷺ :

كان كاتب سر النبي ﷺ إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة من اليهود ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والرومانية ما يريده، وهذا يوضح مدى ثقة رسول الله ﷺ فيهم ومعايشته سلمًا معهم، فلما جلا اليهود من بني النضير من بعد ما ظهر منهم من غدر وخيانة، خاف رسول الله ﷺ أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر زيد بن ثابت أن يتعلم هذه اللغات وأصبح كاتب سر رسول الله ﷺ وزيد بن ثابت هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر، وهو الذي عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف.

غزوة ذات الرقاع

ربيع الآخر سنة ٤ هجرًا

أقام رسول الله ﷺ في المدينة ، وقد توطد للمسلمين سلطانهم بعد غزوة بني النضير ، وإن كانت عيونه على القبائل من حوله يرصد تحركاتهم ومكائدهم، وأنه كذلك إذ نقلت إليه استخباراته أن جماعة من بني مُحارب وبني ثعلبة من غطفان يجمعون له يريدون قتله، وكانت خطته ﷺ دائمًا أن يأخذ عدوه على حين غرّة، قبل أن يعدوا العُدّة لدفعه .

لذلك خرج رسول الله ﷺ في أربعمائة من رجاله وساروا حتى وصلوا ديارهم، فلما رآه طلع عليهم في عُدّة حربه مهاجمًا، تفرقوا في الجبال تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم ، ثم اجتمع جمُعٌ منهم وجاءوا للحرب وتقارب الناس ولكن بلا قتال .

فلما حانت صلاة العصر وخاف رسول الله ﷺ أن يغدر بهم الأعداء أثناء الصلاة ، صلي صلاة الخوف ، فكان جماعة يظنون مستقبلين العدو في حين يصلي الآخرون مع رسول الله ﷺ ركعتين ، ثم يأتي من لم يصل فيكمل الصلاة مع رسول الله ﷺ .

فألقي الله الرعب في قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين فاحتمل المسلمون ما استطاعوا، وعادوا أدرجهم إلى المدينة بعد غيابهم ١٥ يومًا، وعاد للمسلمين هيبتهم ، وأرهبوا تلك القبائل المغيرة وغيرهم ، وقيل سُمّيت هذه الغزوة بذات الرّقاع لما كان المسلمون يلقّون به أقدامهم من الخِرَق والرّقاع لحمايتها من شدة الحر وسخونة الأرض (١) .

(١) - الباري كتاب المغازي باب غزوة ذات الرقاع ٣٨٩٩ .

غزوة بدر الآخرة (١)

كان أبو سفيان - كما أسلفنا - قبل انصرافه من معركة أحد نادي على المسلمين : " يوم بيوم بدر .. والموعد العام المقبل " وتواعدا على اللقاء العام المقبل ببدر ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع ، أقام بالمدينة جمادى الأولى وجمادى الآخر ورجب، ثم كان شعبان موعد اللقاء المرتقب ببدر ، وكان بدر محل سوق تُعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم فيه التجار ثمانياً .

فلما حلَّ الأجل لم يتمكن أبو سفيان من الوفاء بوعده ، فأراد أن يُخدِّل المسلمين عن الخروج حتى لا يُوسَمَ بخُلف الوعد، فاستأجر نُعيم بن مسعود ليأتي إلى المدينة ويُخبر المسلمين بما جمعه أبو سفيان من جيش لا قِبَل لهم بمواجهته وأنه سوف يقضي عليهم، إلا أن هذا لم يثنِ العزائم عند المسلمين وخرج رسول الله ﷺ في ١٥٠٠ من أصحابه ، منهم ٥٠ فارساً واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وساروا حتى أتوا بدرًا فلم يجدوا بها أثرًا للمشركين ، فنزلوا بها ينتظرون قريشًا لقتالهم.

وكان أبو سفيان لمَّا علم بخروج المسلمين خرج في ٢٠٠٠ رجل ومائة فارس ، وبعد مسيرة يومين حتى وصل إلى مرَّ الظهران فنزل بمَجَنَّة ، قبل عسفان بقليل وعلى ما يبدو أن أبا سفيان وصلته أخبار عن قوة المسلمين وهم أقل قليلاً من جيشه ، إلا أنه يعرف شجاعة المسلمين في القتال فخارت عزائمه وقرر الرجوع، لكنه احتال له فقال لأصحابه : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عامُ خصب ، ترعون في الشجر وتشربون فيه اللبن، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جذب ، إنِّي راجع فارجعوا .

فرجع القوم دون أن يُبدي أحدٌ منهم أيَّ معارضة ، فقد ملأ الخوف والهيبه مشاعرهم أما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا خلالها وابتاعوا ، فربحوا بالدرهم درهمين، ولمَّا علم رسول الله ﷺ برجوع جيش قريش ، عاد ومُنَّ معه إلى المدينة، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم في النفوس وسادوا الموقف.

وتُعرف هذه الغزوة : ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٠٩) ، زاد المعاد (٢/١١٢) .

غزوة دومة الجندل (١)

ربيع الأول سنة ٥ هجريًا

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام واطمأنت دولته ، فمكث بالمدينة ستة أشهر ، ثم بلغه أن القبائل حول دومة الجندل، وهي واحدة على الحدود ما بين الحجاز والشام، تقطع الطريق وتتهب ما يمر بها وأنها حشدت حشدًا كبيرًا لمهاجمة المدينة .

فخرج رسول الله ﷺ في ربيع الأول سنة ٥ هجريًا في ألف من المسلمين ، واستعمل على المدينة سبأع بن عرْفُطة الغفاري، خرج يسير الليل ويكن النهار ليفاجئ الأعداء - كما هي عادته ﷺ - فلما دنا منهم فهجم على ماشيتهم ورعائها فأصاب ما أصاب وهرب ما هرب، أما أهل دومة الجندل ففروا ولم يلق منهم أحدًا ، وعاد إلى المدينة غانمًا ، وصالح وهو عائد عُيينة بن حُصين .

ونرى من التحديد الجغرافي لدومة الجندل (على حدود الشام) مبلغ ما اتسع نفوذ المسلمين ، وما بلغ من سلطانهم ، وخوف شبه الجزيرة العربية إياهم .

وبهذه الإجراءات السريعة الحاسمة ، اطمأن المسلمون بالمدينة بعد هدوء العواصف من كل ناحية - من قريش ومن اليهود ومن قبائل العرب - ووجدوا فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالة رب العالمين .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢١٣) .

غزوة الخندق (الأحزاب)

حشد اليهود للغزوة :

لم يقر لعظماء بني النضير بالأب بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها ، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم .

فشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة لتصويب ضربة قاتلة للمسلمين ، ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبية ، فكانت فكرة تأليب العرب هي الفكرة التي اختمرت في نفوس أكابر بني النضير .

وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج حُيَّ بن أخطب الذي كان رئيس بني النضير ، على رأس وفد من عشرين يهودياً من أكابرهم ، خرج من خيبر متوجهاً إلى قريش بمكة ، وهناك التقوا برجال قريش ، وراحوا يُزيّنون لهم مهاجمة المدينة .

أما رجال قريش فكانوا مترددين في الأمر ، فراح اليهود يعرضون عليهم الأسباب ورسائل الطمأنة منها :

- أن المسلمين أصبحوا خطراً على تجارتهم مع الشام، واقتصادهم بشكل عام.
- أن بني النضير سيكونون بين خيبر والمدينة يترددون ، حتى يأتيهم القريشيون فيسيروا معهم إلى رسول الله ﷺ .
- أما بنو قريظة فإنهم مقيمون بالمدينة مكرماً برسول الله ﷺ ولما يأتوهم (القريشيين) فيميلون معهم .

اليهود يفضلون الوثنية على الإسلام :

إلا أن هذا لم يذهب الرُّوع والتردد عن قريش ، أتقدم أم تُحجم ؟ فليس بينها وبين رسول الله ﷺ خلاف إلا على الدعوة التي يدعو إليها، أليس من الممكن أن يكون على الحق ما دامت كلمته ودعوته تزداد كل يوم رفعة وسموًا ؟

فسأل أبو سفيان حُيَّ بن أخطب : إنكم أهل الكتاب الأول ، وتعلمون بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ وهو ما يدل على عدم ثقته فيما يعتقد ، وعدم إيمان كامل به فأجاب حُيَّ : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه - وهو ما يخالف عقيدته التوحيدية - إلا أنه الحقد والحسد الذي جعلهم يفضلون الوثنية على الإسلام .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : (أَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) [النساء : ٥١ - ٥٢]

اليهود يُؤَلِّبون الأحزاب :

أعجب قول حُي بن أخطب قريشًا واستجابوا لطلبه وراحوا يتأهبون للحرب لم يكف حُي واليهود الذين معه قريشًا فحسب ، بل ذهبوا وبنفس الأسلوب إلى قبائل غطفان ، وبني مُرَّة وبني سليم ، وبني أسد وغيرها ، ممن لهم عند المسلمين ثأر ، ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب رسول الله ﷺ ويحمدون لهم وثنيتهم ، ويعدونهم النصر لا محالة .

خروج الأحزاب :

وعلى إثر ذلك خرجت الأحزاب من كل حذب وصوب في حملة كبيرة بُغية قتال المسلمين واستئصال شأفتهم .

فخرجت قريش في ٤٠٠٠ رجل و ٣٠٠ فارس و ١٥٠٠ بعيرًا، وعقدت اللواء إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، الذي قُتِل أبوه وأعمامه وهم يحملون اللواء في أحد . وخرجت غطفان في ٢٠٠٠ رجل ومن بني فزارة وبني أسد وبني أشجع وبني سليم ، رجال كثير

واجتمع هؤلاء على ميعاد كانوا تعاقدوا عليه ، وساروا قاصدين المدينة تحت إمرة أبي سفيان ، في عشرة آلاف رجل ، وهو أكبر حشد في تاريخ حروب العرب .
فهذا العدد يزيد على مَنْ في المدينة من النساء والصبيان والشيوخ

الأنباء تصل المدينة :

لو أن هذه الأحزاب بعددها وعُدَّتْها وصلت إلى المدينة بغتة ، لكانت أعظم خطرًا على كيان المسلمين وربما استطاعت استئصال شأفتهم ، لكن المدينة بقيادة رسول الله ﷺ كانت متيقظة ، وتتجسس الظروف ، وتقدر ما قد يتمخض عن مجراها ، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها ، حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها نبأ هذا الزحف الخطير .

الاستعداد للمواجهة :

لمَّا وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ سارع إلى عقد اجتماع مع كبار الصحابة للتشاور في خطة الدفاع عن كيان المدينة ، فما عسى أن يصنع المسلمون لمجابهة هذه الألوف المؤلفة من رجال وخيل ، فلم يُكُنْ من سبيل غير التحصن بالمدينة أمام تلك الهجمة الشرسة ، إلا أن التحصن وحده قد لا يكفي أمام تلك القوة الساحقة .

سلمان الفارسي ومقترح حفر الخندق :

كان سلمان الفارسي وهو من بلاد فارس - سنعرض قصة إسلامه في الأجزاء القادمة إن شاء الله - يعرف من أساليب الحرب ما لم يُكُنْ معروفًا في بلاد العرب . فقال : " يا رسول الله ، إنَّا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا " (١) . وأشار بحفر خندق من حول المدينة والتحصن داخلها، وكان هذا الإجراء غير معروف لدى العرب ، ولم يسبق أن استخدموه في حروبهم من قبل ، فاستحسن رسول الله ﷺ هذا الاقتراح وأمر بحفر الخندق كما اقترح سلمان .

(١) - فتح الباري ٧/٤٥٣ .

بداية حفر الخندق :

أسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، وشرع في الحفر شمالي المدينة من الحرّة الشرقية إلى الحرّة الغربية ، وهذه هي الجهة التي كانت عورة ، تُؤتى المدينة من قبلها أما بقية الحدود فمحمية بالطبيعة من صخور بركانية شرقاً وغرباً ، وهي مشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب من جهتها .

وقسّم رسول الله ﷺ العمل بين المسلمين، لكل عشرة أربعون ذراعاً (حوالي ١٨ مترًا) ، وقام المسلمون بجدّ ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثّهم ويعمل معهم .

أحداث ومعجزات أثناء الحفر :

أثناء الحفر وقع كثير من الأحداث والمعجزات الإلهية على يد رسول الله ﷺ وفيما يلي عرضٌ لأهم هذه الأحداث والمعجزات :

١- رُوي أن رسول الله ﷺ لمّا رأى ما بالمسلمين من نصّبٍ وجوعٍ أنشد قائلاً :

اللهم إن العيش عيش الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة (١)

فكانوا يردون : اللهم لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزل سَكِينَةً عَلَيْنَا

وثبّت الأقدام إن لاقينا

فكانت هذه الروح تبيّت الحماس والقوة في نفوسهم .

٢- رُوي أنه أثناء الحفر عرضت للمسلمين صخرة عظيمة لا تأخذ منها المعاول فاشتكوا

إلى رسول الله ﷺ فأخذ المغول وقال : " بسم الله ، ثم ضرب ضربةً فكسر ثلثها ، ثم

قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنّي لأنظر قصورها الحمر " (١).

(١) - فتح الباري حديث ٣٨٧٢ .

ثم ضرب ثانية فقطع ثلثًا آخر ، وقال : الله أكبر أعطيت فارس ، والله إنِّي لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن . ثم ضرب الثالثة ففُطع بقية الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني " (٢) .

٣- رُوي أن الصحابة كانوا يشكون الجوع لرسول الله ﷺ ، ويرفعون عن بطونهم عن حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين .

٤- أثناء الحفر شعر أحد الصحابة ، وهو جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قد جاع جوعًا شديدًا ، فذهب إلى بيته فأمر امرأته بتجهيز طعام ، وكان عنده شاة صغيرة وصاع من شعير.. فلما جهزت الطعام ، جاء إلى النبي ﷺ سرًا ودعاها لتناول الطعام عنده وليأتي بنفر قليل من أصحابه - لعلمه بقلّة الطعام - فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن صاح فيمنّ حوله من الرجال : يا أهل الخندق إنَّ جابرًا قد صنع وليمة فهيّا إليها - والعددُ قد قارب الألف - وذهبوا إلى بيت جابر فلما راه رسول الله ﷺ في حيرة من أمره ، طلب منه أن يجلس هو ، ويتولى رسول الله ﷺ إطعام الناس بنفسه، فعمد رسول الله ﷺ إلى البرمة وقد بارك فيها ، فأكل وأكل أصحابه من ذلك الطعام حتى شبعوا ، وبقيت البرمة ملآنة كما هي لم تنقص (٣) .

٥- المنافقون يتبَطون العزائم : وراح المنافقون - كعادتهم - يتبَطون الهَمَمَ ويقللون من جدوى حفر الخندق ، ولكن هذا لم يُثنِ المسلمين عن عزمهم ، وبينما كان المسلمون يعملون بكلِّ جدٍّ ونشاط ، كان المنافقون يعملون بكسل ولا مبالاة ، يقومون بالضعيف والخفيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ

٦- انتهاء الحفر :

استمر العمل بهذا الدأب والجهد المتصل ، حتى تمَّ حفر الخندق في ستة أيام - حسب الخطة المنشودة - وقبل وصول قريش والأحزاب، امتد الخندق من الحرة الشرقية إلى الحرة

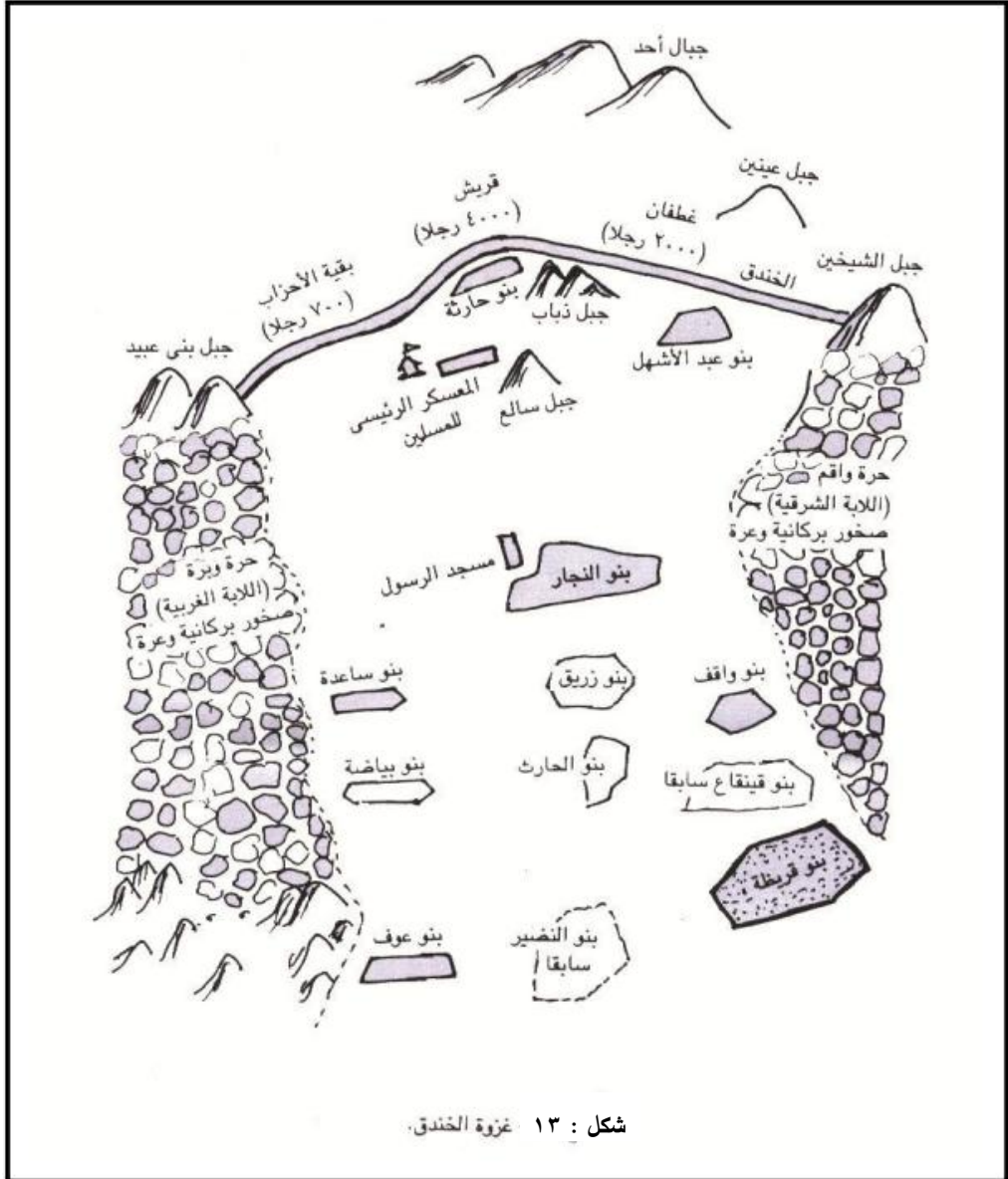
(١) - فتح الباري ٧/٤٥٨ ، أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨٨٥٨ ، و البهقي في دلائل النبوة ٣/٤٢١ .

(٢) - فتح الباري ٧/٤٥٨ ، أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨٨٥٨ ، و البهقي في دلائل النبوة ٣/٤٢١ .

(٣) - البخاري ٤١٠١ .

الغربية بطول ٢ كم ، وعرض ٦ أمتار وعمق ٥ أمتار .

(شكل : ١٣)



شكل : ١٣ غزوة الخندق.

خطة الدفاع :

لما انتهى المسلمون من حفر الخندق ، وقد تحصنت مدينتهم شرقاً وغرباً بالصخور البركانية الطبيعية ، وشمالاً بالخندق وجنوباً ببني قريظة ، لما لهم من عهد مع رسول الله ﷺ نصب المسلمون معسكرهم ، فجعلوا ظهورهم إلى تل سالع وكانت عدتهم ٣٠٠٠ مقاتل .

وكانت الخطة التي وضعها رسول الله ﷺ تقوم على المحاور الآتية :

- ١- أن يقوم أغلب الجيش بالضرب في أيّ موقع يمكن للعدو أن يطأه عبر الخندق .
- ٢- وضع ٢٠٠ رجل على طول الخندق لحمايته ، ولتحذير الجيش من أي هجوم مفاجئ، وكان عليهم مراقبة التلال التي تشرف على الخندق، وكان ذلك بنظام الورديات .
- ٣- تحصين المدينة من الداخل : فقد حُصّنت جدران المنازل التي تواجه العدو ، والتي بينها وبين الخندق نحو فرسخين ، وعند ذلك أُخليت المساكن التي ظلت فيما وراء الخندق ، وجيء بسكانها من النساء والأطفال إلى هذه المنازل التي حُصّنت ، ووُضِعَتْ الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة ، لتكون سلاحاً يُرمى به عند الحاجة إليه .
- ٤- تكليف قوة من ٥٠٠ رجلٍ بحراسة مختلف مناطق المدينة لمنع أيّ شخص يتسلل إليها خُفية .
- ٥- الاعتماد على أن يمنع يهود بني قُريظة . بمقتضى العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ أي اختراق من ناحية دورهم الموجودة في الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة .

وصول المشركين والفرع من الخندق :

كان الوقتُ شتاءً ، وكان الشتاء قارساً في هذا العام ، وأقبلت قريش وأحزابها وهي ترجو أن تلقى رسول الله ﷺ بأحد فلم تجده هناك ، فجاوزته إلى المدينة وهي تُثمّي النفس بإحراز

نصر سريع لكثرة عددهم وأسلحتهم، وواصلت السير حتى فاجأها الخندق ففزعت وعجبت ، إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول لها وللعرب.

وقال أبو سفيان : هذه مكيدة ما عرفتها العرب ، وأدرك أن الخندق سيعوق تقدم قواته وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غَضَابًا ، يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها ، بينما المسلمون ، كما أمرهم رسول الله ﷺ يتطلعون إلى جولانهم ، يرشقونهم بالنبل حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه أو يُهيلوا عليه التراب ليينوا طريقًا يُمكنهم من العبور .

ورأت الأحزاب أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق ، فاكتفت بتبادل الترامي بالنبال ، ومحاصرة الخندق .

المبارزة ومقتل ابن عبد ود :

كره بعض فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق بلا جدوى في ترقب نتائج الحصار ، فخرجت منهم جماعةٌ فيها عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكانًا ضعيفًا من الخندق فاقتحموه ، وصالت بهم خيلهم بين الخندق وجبل سلع - معسكر المسلمين - وهنا خرج عليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة ومنعوه من التقدم.

ودعا عمرو بن عبد ود وهو من شجعان قريش لم يَكُنْ حضر بدرًا ومعروف بقوته وشجاعته، ولم يقابله أحدٌ إلا قتله دعا ابن عبد ود للمبارزة، قائلاً : مَنْ يبارز ؟ فخرج له عليٌّ بعد أن أذن له رسول الله ﷺ، فلما رآه ابن عبد ود قال في صلف وغرور : لِمَ يا بن أخي ؟ فليأت أحد غيرك، فوالله ما أحب أن أقتلك (١) .

فقال عليٌّ في شجاعة وتحذُّ: بلى ولكني أحب والله أن أقتلك، وبهذه الروح بدأت المبارزة، فتجاولا وتصاولا حتى قتله علي وانهزم الباقون، حتى اقتحموا الخندق من حيث أتوا وهم

(١) - البيهقي في السنن الكبرى (٤٣١/١٨) . وفي (الخلافيات ٥/٢٣٣) .

هاربون مولون الأدبار وقد بلغ بهم الرعب أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .
واستمر الحال في مناوشات وتبادل بالنبال عدة أيام متتابعة .

ثبات المؤمنين - تسرب روح الهزيمة في نفوس الأحزاب :

ومضت عشرة أيام منذ بدء الحصار ، دون أن يقوم أيُّ جانب خلالها بعمل جديٍّ ، وبلغ الجهد من الجانبين مبلغه ، فلم يكن بالمدينة فائض من الغذاء ، وإن كانت بنو قريظة يمدونهم ببعض المؤن يُعينهم على مدِّ أمد الحصار .

وكانت فرصة اغتتمها المنافقون ليشددوا من تقديم لرسول الله ﷺ ولزعزعة صفوف المؤمنين وراحوا يقولون : كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وهو ما يشير إليه سبحانه في قوله : (**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**) [الأحزاب : ١٢] أما المؤمنون فقد ثبتوا وازدادوا إيمانًا وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**) [الأحزاب : ٢٢]

أما على الجانب الآخر ، فقد سادت حالة من التذمر بين صفوف الأحزاب فقد طال الحصار ، وقلَّ الزاد وساء الجو بريحه ومطره و برده القارس فقد جاءوا وأعدوا عُدتهم لنصر سريع في يوم واحد كيوم أحد ، وأنَّ يبقوا بعدها يومين أو ثلاثة ، فلما طال الحصار بدون طائل بدءوا يتخوفون من نقص الطعام وتسرب القلق وروح الهزيمة إلى نفوسهم ، وبدا أنهم في مأزق ما له من مخرج ، حتى أن بعضهم بدأ يفكر في الانسحاب .

خوف خبيٍّ من انسحاب الأحزاب :

قدَّر خبيٍّ هذه الروح وخاف من مغبة الانسحاب ، ورأى أن لا مفر من أن يُغامر بآخر سهم عنده ، فأوحى إلى الأحزاب أنه مُقنع بني قريظة بنقض عهدهم مع رسول الله ﷺ وأنهم إن فعلوا ذلك انقطع المدد عن المسلمين من ناحية ، وفتح طريق لدخول يثرب من ناحية أخرى ، وسُرَّت قريش والأحزاب بما سمعوا ووجدوا في ذلك مخرجاً لهذا المأزق .

محاولات كسب بني قريظة :

وسارع حُيَيُّ حُفِيَّةً إلى ديار بني قريظة فأتى زعيمهم كعب بن أسد ، وحدث كعب أن حُيَيُّ قد جاء إليه بوصفه يهوديًا يبغى تحريضه ضد المسلمين ، وقدر أن غدرهم بالمسلمين ونقضهم للعهد قد يُفيد اليهود إذا دارت الدائرة على المسلمين ، ولكنه جدير أن يحوها محوًا إذا هُزمت الأحزاب وانصرفت عن المدينة ، لذلك سارع كعب وأغلق بابه أول الأمر لمَّا عرف بمقدم حُيَيِّ ، غير أن حُيَيَّا ما زال به يُلح عليه حتى فتح الباب وسمح له بالدخول .

قريظة تنقض العهد (١) :

ولمَّا دخل حُيَيُّ على كعب قال له : ويحك يا كعب جئتُك بعز الدهر وببحر طامٍ - يقصد كثرة الرجال - جئتُك بقريش وغطفان ، وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه، فقال له كعب : جئتني والله بدلَّ الدهر .. ويحك يا حُيَيَّا ، فدعني وما أنا عليه فإنِّي لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء .

لكن حُيَيَّا ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من المسلمين ، وما يوشك أن يصيبه منهم إذا لم تنجح الأحزاب في القضاء عليه ، وظل هكذا حتى لان كعب له فسأله : وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ هناك أعطاه حُيَيُّ موثقًا إن رجعت الأحزاب ولم يصيبوا محمدًا أن يدخل معه في حصنه ، فيشركه فيما قد يُصيبه وتحركت في نفس كعب يهوديته فقيل ورضى أن يشترك بنو قريظة مع الأحزاب في شنَّ هجوم واحد على المسلمين ، ولكن كعبًا طلب منه مهلة عشرة أيام ، يعدون فيها أنفسهم .

بوادر الغدر - صفة تقتل يهوديًا :

وفعالاً بدأ بنو قريظة بعمليات استكشافية لصالح الغزاة كما بدأوا يمدونهم بالمؤن ، وهو مما اقتطع مما كانوا يمدون به المسلمين ، حتى أنقص نصيب الفرد المسلم من الطعام إلى الرُّبع .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢٢١ .

وتأكد هذا الغدر بحادث صفية بنت عبد المطلب مع اليهودي ، فقد حدث أن كانت صفية قد انتقلت مع غيرها من النساء والأطفال إلى حصن صغيرة في جنوب شرقي المدينة (كانت لبني قَيْنُقَاع من قبل) غير بعيدة عن دُور بني قُرَيْظَةَ ، وكان بالحصن رجل واحد ، هو حسان بن ثابت الشاعر .

وذات يوماً رأت صفية يهودياً وهو بكامل سلاحه يطوف بالحصن كما لو كان يبحث عن منفذ إليه ، فأخبرت صفية حسان بما رأته ، وخشيتها أن يقتحم عليهم الحصن ، وطلبت منه أن ينزل ليقته .

فقال حسان : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فتركته وأخذت عموداً من حديد وشدت وسطها ونزلت إلى اليهودي ، وضربتة بالعمود فقتلته ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسان : انزل وخذ سلبه فإنه لم يمنعني إلا أنه رجل ، فردَّ عليها حسان بقوله : مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب (١) .

الرسول ﷺ يعلم بخيانة بني قريظة ويرسل الرسل للتحقق :

واتصل نبأ انضمام بني قريظة إلى الأحزاب إلى رسول الله ﷺ فبادر إلى تحقيقه حتى يستجلي الموقف، فيواجهه بما يجب وبعث للتحقق من الخبر السعديين : سعد بن مُعَاذ (سيد الأوس) وسعد بن عُبَادَةَ (سيد الخزرج) ومعهما عبد الله بن رُوَاحَةَ وطلب منهم عند عودتهم أن يُلخِّصُوا أي يتحدثوا بلغة الإشارة وبكلمات يفهم هو معناها دون غيره ؛ إن كان هذا الخبر حقاً حتى لا يفتنوا في أعضاد الناس ، وإن كان هذا الخبر غير صحيح وهم على عهدهم فليجهروا به للناس .

فلما أتى هؤلاء الرسل بني قريظة وجدوهم على أخبث ما يكونون ، فقد جاهاوا بالسبِّ والعداوة ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ،

(١) - ابن هشام في السيرة ٢/٢٢٨ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦/١٣٣ ، وقال رواه البزار وابو يعلى باختصار ، وإسنادهما ضعيف ولكنه مرسل فالحديث ضعيف .

وكاد الفريقان يتشاثمان فلما عاد الرُّسل وأقبلوا على رسول الله ﷺ لَحَنُوا له ، وقالوا :
عَضَل وَقَارَة ، أي أنهم على غدر كغدر عَضَل وَقَارَة بأصحاب الرجيع .

الرسول ﷺ يلجأ للسياسة :

لمَّا رأى رسول الله ﷺ حرج الموقف عسكريًا ، فرأى أن يلجأ للسياسة ، ويقوم بعملٍ يكسر شوكة الأحزاب ويخفف من وطأة الحصار ، فأرسل إلى عُيينة بن حصن والحارث بن عوف ، وهما سيदा غطفان ، وتفاوض معهما على أن يُعطيها ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمنَّ معهما - عنه وعن أصحابه - وكان الهدف هو تخاذل الأحزاب بانسحاب غطفان ، وما قد يتبعه من حذو قبائل أخرى حذوها ، فيخلوا المسلمون لإلحاق هزيمة ساحقة عاجلة بقريش ، وقد اختبروا بأسهم وقوتهم مرارًا .

اعتراض الأنصار :

وجرت المفاوضات على ذلك ، وقبل توقيع الاتفاق استشار رسول الله ﷺ السعدين : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، فقالا : يا رسول الله أمرًا أمرك الله به ، لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ فقال : " بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما " (١)

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرَى أو بيعةً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزَّنَّا بك نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فنزل رسول الله ﷺ على رأيهما ولم يتم الاتفاق .

(١) - ذكره ابن حزم في جوامع السيرة ص ١٨٨ ، ذكره ابن هشام في السيرة ٣/١٤٩ ، و الخبر ضعيف الإسناد وهو مرسل

عناية الله تُسخر مخرجاً للأزمة :

فإذا أراد الله العناية بقوم هياً لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون ، فقد هياً الله رجلاً من غطفان هو نُعيم بن مسعود - كان قد أسلم وأبقى إسلامه سرّاً - وكان للرجل نفوذ ومكانة لدى الأطراف الثلاثة المتآمرة على رسول الله ﷺ : قريش وغطفان ويهود بني قريظة ، وذات ليلة تسلل نُعيم خفية إلى المدينة ، وجاء رسول الله ﷺ وأخبره بإسلامه ، وأنّ قومه لم يعلموا بهذا وطلب من رسول الله ﷺ أن يأمره بما شاء .

فقال له رسول الله ﷺ : " إنما أنت رجلٌ واحد ، فخذلّ عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة " (١) .

الحرب خدعة - دسياسة نُعيم بين الأحزاب وقريظة :

خرج نُعيم من عند رسول الله ﷺ وذهب من فوره إلى بني قريظة ، وجالس كعباً وزعماء بني قريظة وقال لهم : تعلمون ودي لكم وخوفي عليكم ، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني ، قالوا : نعم . قال : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم وفيها أموالكم ، وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تحولوا إلى غيره .

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وتركوكم ومهداً فانتقم منكم ، قالوا : فما العمل يا نُعيم ؟ قال : لا تُقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ، قالوا : لقد أشرت بالرائي ، واستحسنوه وأجابوه إلى ذلك .

ثم قام نُعيم من عندهم ومضى إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونُصحي لكم ؟ وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني ، إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد ، وخافوا منكم أن ترجعوا وتركوهم معه ، وأنهم قد أرسلوا إليه يقولون : إنّنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٩ ، هذه القصة بدون إسناد لكن قوله ﷺ الحرب خدعة - رواه الشيخان .

أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فإن سألوكم رهائن فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، ثم مضى إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش .

الشك والريبة في نفوس الأحزاب :

وما أن انتهى نُعيم من جولته حتى كانت بذور الشك والفرقة قد انغرست في نفوس الأحزاب ، وها هي مدة العشرة الأيام التي طلبتها بنو قريظة للاستعداد للقتال قد انقضت ، فبدأ القلق يساور أبا سفيان الذي يعتمد اعتماداً كبيراً على بني قريظة

فأرسل برسالة إلى كعب سيد بني قريظة - وكانت ليلة سبت - يقول فيها : إننا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف - يقصد الخيل والإبل - فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً ، فردّ عليه كعب برسالة يقول فيها : إن اليوم يوم سبت ، وهو يوم لا نستطيع العمل والقتال فيه ، وقد علمتم ما قد أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ، فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا وحدنا لنواجه ما لا طاقة لنا به .

فلما سمع أبو سفيان هذا الرد ، لم يبق لديه من كلام نُعيم ريبة ، وتحدث إلى غطفان ، فإذا هي تتردد في الإقدام على قتال رسول الله ﷺ ، وقالوا : صدقكم والله نُعيم ، وبعثوا إلى قريظة : إننا والله لن نرسل إليكم أحداً ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا ، فقالت قريظة : صدقكم والله نُعيم .

وهكذا تخاذل الفريقان ، ودبّت الفرقة بينهم - فخاف بعضهم بعضاً -

الرسول يبتهل إلى الله :

كان المسلمون في هذه الأثناء يدعون الله تعالى : " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا " . وكذلك كان يبتهل رسول الله ﷺ ودعا ربه بقوله : " اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، وانصرنا عليهم " (١) .

(١) - عند مسلم ٣/١٣٦٢ " اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم " .

استجابة من الله - العاصفة تقلع الخيام :

وقد أجاب الله دعاءه عليه السلام ، فبعد أن دبَّتْ الفُرْقَة في صفوف المشركين وسرى فيهم التخاذل ، وكان قد مضى زهاء ٢٠ يوماً على تعسكرهم أمام الخندق ، فلما كان الليل أرسل الله ريحاً باردة ، وهطل المطر وقصف الرعد واشتدت العاصفة ، فأقلعت خيام المشركين وأطفأت نيرانهم ، وكفأت قدورهم .

ارتحلوا إني مرتحل :

فقام أبو سفيان وقال بصوت عالٍ : يا معشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخُف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا إني مرتحل ، فاستخفَّ القوم ما استطاعوا حمله من متاع ، وانطلقوا وما تزال الريح تقصف بهم .

ولما علمت غطفان بما فعلت قريش ، فحذوا حذوهم ، وكذلك فعل جميع القبائل الصغرى المتحالفة .

وسار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في فرسانهما في مؤخرة الجيش يحرسونهم خشية أن يخرج المسلمون من المدينة في طلبهم .

رسول الله ﷺ يتحقق من الرحيل :

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة ، حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحالة ، وقد تهيئوا للرحيل فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم .

لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا :

وعاد أبو سفيان إلى مكة والحرارة تعتمل في صدره على هذه الحملة الفاشلة التي هزت من هيئته وهيبة قريش بين العرب الذين أيقنوا أن رسول الله ﷺ والمسلمين صاروا نداءً قوياً لقريش .

ولمَّا أصبح الصبح ، وقد تيقن المسلمون أن الأحزاب قد انفضوا تنفسوا الصعداء ، وحمدوا الله الذي رد كيد الأعداء دون أن ينالوا منهم ، وكفاهم شر القتال ، فصدق وعده وأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فعاد رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة وقد استطاعوا أن ينقذوها من هجوم ساحق ، وقال رسول الله ﷺ لصحبه : " لن تغزوكم قريشٌ بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم " (١) .

وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة سنة ٥هـ، وكان حقًا على الله سبحانه أن يسميه نعمة الله بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) [الأحزاب: ٩]

(١) - عند البخاري ٩-٤١ .. الآن نغزوهم ولا يغزونا .

غزوة بني قريظة

ما وضعت الملائكة السلاح بعد:

فلما عاد رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة في اليوم التالي ، وهموا بوضع أسلحتهم ، جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وقال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أزلزل بهم الحصون وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في كوكبة من الملائكة .

وأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يُصليَنَّ العصر إلا في بني قريظة (١) .

المسير إلى بني قريظة :

وخرج رسول الله ﷺ في كوكبه من المهاجرين والأنصار ، وقدم عليّ برايته إليها ، ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَبٍ بعد طول حصار الأحزاب إياهم ، فقد خَفُوا لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أيُّ شك في نتيجته وهم ثلاثة آلاف مقاتل ، والخيال ثلاثون فرساً .

وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق ، فصلاها بعضهم لوقتها في الطريق ، حاملين أمر رسول الله ﷺ بعدم صلاتها إلا في بني قريظة على قصد السرعة ، ولم يُصلِّها آخرون إلا في بني قريظة بعد مُضيِّ وقتها حاملين الأمر على حقيقته ولفظه ، فلم يُعنف رسول الله ﷺ فريقاً منهم وأقرّ لكل منهما فعله .

حصار بني قريظة :

وهكذا خفَّ المسلمون فرحين وراء عليّ حتى أتوا بني قريظة فإذا بهم ومعهم حُييُّ بن أخطب ، ولما دنوا من حصونهم سمعوا منهم مقالة قبيحة في رسول الله ﷺ وبعدها وصل رسول الله ﷺ ، فلقيه عليّ ، وطلب منه ألا يدنوا من حصون اليهود ، حتى لا يسمع

(١) - السلسلة الضعيفة ١٩٨١ .

شبابهم له ، فسأله رسول الله ﷺ : ولمَ ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى ؟ قال : نعم . قال رسول الله ﷺ : لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً ، فلما دنا من حصونهم وناداهم وقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً ، وجعل المسلمون بقية نهارهم يتوافدون على بني قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها ، فأمر رسول الله ﷺ بحصارها (١) .

استطالة أمد الحصار - استشارة أبي لبابة :

فتحصن بنو قريظة داخل حصونهم ، وحاصرهم المسلمون ، وظل هذا الحصار خمسا وعشرين ليلة ، لم يقع خلالها إلا بعض التراشق بالنبل والحجارة ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من حصونهم ولو مرة واحدة طول مدة الحصار ، ولمّا طال أمد الحصار وأيقنوا أن لن تُعني عنهم حصونهم من الهلاك شيئاً بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا وكان حليفاً لهم وكانت أمواله وولده في منطقتهم .

فلمّا رآوه قام إليه الرجال ، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرقّ لهم وقالوا : يا أبا لبابة ، أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، - أي أنه الذبح - ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله ، وفشا ما انتوي رسول الله ﷺ عمله فيهم ، مما قد يمنعهم من الاستسلام ، ويجعلهم يستأسدون في المقاومة .

فمضى أبو لبابة على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد النبوي ، فربط نفسه بسارية المسجد وأقسم ألا يحله إلا رسول الله ﷺ ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، وكان قد استبطأه قال : " أما لو جاءني لاستغفرتُ له ، أما إذا قد فعل ما فعل ، ما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه " (٢) وظل هكذا حتى نزلت الآية :

(وَأَخْرُوجُونَ عَنْكَ مُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا يَكْتُمُونَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ لِيُرْسِلَهُمْ اللَّهُ نَضْرِبُهُمْ كُفْرَهُمْ بِاللهِ غَضْرًا مُضَاعَفًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَسَىٰ أَلْسِنَتُهُ مَكْرَمًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ غَافِلُونَ) [التوبة : ١٠٢]

الله غفورٌ رحيمٌ ([التوبة : ١٠٢] فعفا عنه رسول الله ﷺ وأطلقه

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٣٤ .

(٢) - أخرجه الطبري في تاريخه (٢/٥٨٥) ، وجاء من طريق آخر بالتحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٧ .

جزاء الخيانة العظمى :

كان لا بدّ من استئصال شأفة يهود بني قريظة ، فقد خانوا العهد وتآمروا مع الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وهو تأمر بالغ البغي وهو ما نسميه في عصرنا الحالي " الخيانة العظمى " التي يُعاقب عليها بالإعدام ، ليكون عقاباً متناسباً مع عِظَم الجُرْم .

كما أن بني قريظة قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلاً غير الشتاء القارس الذي كان من جند الله في هزيمة العدو ، ثم إن بني قريظة لولا ارتحال الأحزاب ولولا وقوع خلاف وانقسام في صفوفهم لكانت على أهبة الاستعداد للنزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم ، لكل هذه الأسباب كان لابد من القضاء عليهم جزاءً بما فعلوا .

توسل الأوس لرسول الله ﷺ :

لما اشتد الحصار على بني قريظة ورغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حُكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان في استطاعتهم أن يتحملوا حصاراً أطول لتوفر المواد الغذائية والمياه ومناعة الحصون إلا أن الله قذف في قلوبهم الرعب ، فبادروا إلى النزول على حُكم رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم وجُعِلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال من ناحية .

وهنا توسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ بحلفائهم من الأوس ورجبوا في أن يعاملهم رسول الله ﷺ كما عامل بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج فمشي جماعة من الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبي الله ، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج ؟ فقال رسول الله ﷺ : " ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم ؟ " ، قالوا : بلى ، قال : " فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا " (١) .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٤٠ .

تحكيم سعد بن معاذ :

فاختار اليهود سعد بن معاذ ، وهو سيد الأوس وكأنما أعماهم الله عما كُتب لهم في لوح حظهم ، فأنساهم مقدم سعد إليهم أول نقضهم عهدهم وتحذيره إياهم ، وسبهم لرسول الله ﷺ والمسلمين بغير حق ، فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان في المدينة لم يخرج معهم ، للجرح الذي أصاب أكله في معركة الأحزاب ، فأركب حماراً وجاء إلى رسول الله ، فجعلوا يقولون إليه : يا سعد أجمل في مواليك ، فأحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال لهم : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومةً لائم.

حكمت بحكم الله :

فالتفت سعد إلى ناحية بني قريظة ، وقال : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . ثم التفت إلى الجهة التي فيها رسول الله ﷺ وقال : على من ها هنا ؟ وهو غاضٌ طرفه إجلالاً وتعظيماً ، قال رسول الله ﷺ : **نعم وعلى** ، فلما أخذ الموثيق على الطرفين أن يسلم كلاهما لقضائه وأن يرتضي به ، قال : " فإنني أحكم فيهم أنء يُقتل الرجال وتُسبى الذراري والنساء ، وتقسّم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : **" لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات يا سعد "** (١) .

وتم تنفيذ الحكم ، وقتل رجالهم وكان معهم خيي بن أخطب ، وجُمعت غنائمهم فكانت ١٥٠٠ سيف ، ٣٠٠ درع ، ٢٠٠٠ رمح ، ٥٠٠ ترس ، وكثير من الإبل والمواشي ، وقسّم رسول الله ﷺ هذه الغنائم والسبايا على المسلمين ، بعد إخراج الخمس ، وبعث بجزء من الخمس فباعه في نجد واشترى بثمنه خيلاً وسلاحاً زيادة لقوة المسلمين .

وهكذا تم استئصال آخر معقل لليهود بالمدينة ، وقد خانوا ونقضوا العهد والميثاق ، فكان جزاؤهم من جنس ما اقترفوا ، وقد وطدت غزوة الأحزاب ، وما تلاها من القضاء على بني قريظة للمسلمين في المدينة ، فلم يبق للمناققين فيها صوتٌ قط .

(١) - صحيح مسلم ١٧٦٨ .

وكذلك جعلت العرب كلها تتحدث عن قوة المسلمين وسلطانهم وقد أنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب ، ذكر فيها أهم جزئيات الواقعة وبيّن حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الآخر ونتائج الغدر من اليهود .

وفاة سعد بن معاذ - الملائكة تحمل عرشه :

ولما تمّ هذا الأمر ، عاد سعدٌ إلى المدينة ، وأدخل إلى الخيمة الملحقة بالمسجد ، التي أعدت لمعالجة الجرحى ، وقد كان فيها يُعالج قبل أن يذهب إلى بني قريظة ، فلما عاد انفجر جرحه ، وقد كان برأ - شفي - ومات سعد متأثراً بجراحه ، ولما حمل القوم نعشه ودفنوه ، قالوا لرسول الله ﷺ : ما حملنا يا رسول الله ميتاً أخفّ علينا منه ، قال لهم رسول الله ﷺ : ما يمنع أن يخف وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قبل يومهم ، قد حملوه معكم " (١) .

وقد كان سعد بن معاذ - رضي الله عنه - في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين ، وكان له العزمُ الثابت في جميع المشاهد التي سبقت الخندق ، وكان رسول الله ﷺ يحبه كثيراً وبشّره بالجنة على عظيم أعماله .

(١) - تخريج سير أعلام النبلاء ١/٢٨٧ ، حكمه إسناده حسن .

ما بين الغزوتين والحديبية

استتبَّ الأمرُ لرسول الله ﷺ والمسلمين بعد غزوة الخندق (الأحزاب) والقضاء على بني قُريظة استتبابًا جعل العرب تخافهم أشدَّ الخوف ، فكان لابد لرسول الله ﷺ أن يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة ، ومنهم مَنْ غدر بالمسلمين وقتل منهم من قتل ، فكانت هذه الغزوات والسرايا والبعوث :

سرية محمد بن مسلمة :

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقُريظة ، ففي محرم سنة ٦ هـ ، أرسل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا لشنَّ غارة على بني بكر بن كلاب فسار إليهم ولمَّا أغار عليهم هربوا ، فاستاق المسلمون النعم والشياخ وعادوا راجعين إلى المدينة ومعهم بين الأسرى ثمانية بن أثال الحنفي - سيد بني حنيفة - وهم لا يعرفونه ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد .

فلما خرج رسول الله ﷺ إليه وعرفه عامله بمنتهى مكارم الأخلاق وأطلق قيده ، وعرض عليه الإسلام فأبى ، وبعد ثلاث أمر رسول الله ﷺ أن يُطلقوه ، فلمَّا رأى ثمانية هذه المعاملة ، ذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فأسلم وهو غير مُكره .

وقال لرسول الله ﷺ : والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلها إليَّ ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك ، فقد أصبح أحب الدين كله إليَّ ، وما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك ، فقد أصبح أحب البلاد إليَّ ، فسُرَّ رسول الله ﷺ كثيرًا بإسلامه ، لأن من ورائه قومًا يطيعونه (١) .

(١) - صحيح مسلم رقم ١٧٦٤ .

ولمَّا رجع ثُمَامَة إلى بلاده مرَّ بمكة معتمرًا وأظهر إسلامه فقالوا له : صَبَّأت يَا ثُمَامَة ، قال : لا والله لكني أسلمتُ مع محمد ، فأرادوا إيذاءه ، فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة فتركوه ، فقال لهم : والله لا يَأْتِيَنَّكُمْ من اليمامة حبة حنطة حتى يَأْذَن فيها رسول الله ، وانصرف إلى بلاده ، ومنع حمل الحبوب إلى مكة .

ولمَّا جهدتُ قريش استغاثوا برسول الله ﷺ فعاملهم بما جُبِل عليه من الشفقة والرحمة وأرسل إلى ثُمَامَة أَنْ يُعيد عليهم ما كان يَأْتِيهم من أقوات اليمامة ففعل .

غزوة بني لحيان :

بنو لحيان هم الذين غدروا بأصحاب رسول الله ﷺ - خُبيب بن عدي وصحبه - وقتلوا منهم مَنْ قتلوا ، وسلموا الباقين إلى قريش ليقتلوهم يوم الرجيع ، ولمَّا كانت ديارهم متوغلةً من الحجاز لحدود مكة ، فلم يَكُنْ يرى رسول الله ﷺ أَنْ يتوغل في بلاد بمقربة من العدو الأكبر (قريش) فلما تخاذلت الأحزاب واستوهنت عزائمهم رأى رسول الله ﷺ أَنْ الوقت حان ليأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين غدراً بالرجيع .

فخرج ﷺ في جمادى الأولى سنة ٦ هـ ، في مائتي راكب ، وعشرين فرسًا واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام حتى لا يتخذ العدو الحيطة لنفسه ، وليُصيب من القوم على غِرَّة ، فلم يزل سائرًا حتى أتى مكان مقتل أصحابه ، فترخَّم عليهم ودعا لهم . ولمَّا سمع بنو لحيان بقدمه تفرقوا في الجبال ، فأقام ﷺ بديارهم يومين يبعث السرايا ، فلا يجدون أحدًا ، ثم خرج حتى أتى عُسفان ، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس ، حتى يعلم بهم أهل مكة فيدخلهم الرعب ، فذهبوا إلى كراع الغميم - مكان قرب مكة - .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان يومًا قانطًا وكان يقول : " آييون تائبون إن شاء الله لرَبَّنَا حامدون ، أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في الأهل والمال " (١) .

(١) - في مسند الإمام أحمد ٦/٣٢٤ ، تحقيق أحمد شاکر " آييون تائبون عابدون ساجدون لرَبَّنَا حامدون " - مسلم ٢/٩٩٨ .

غزوة ذي قرد (الغابة) :

لم يكد رسول الله ﷺ يقيم بالمدينة ليالي معدودة بعد أُوبته إليها من غزوة بني لحيان حتى أغار عليها عُيينة بن حصن في أوائل جمادى الثاني سنة ٦ هـ ، على مرعي بالغابة - شمال غربي المدينة - فيه إبلٌ لرسول الله ﷺ ، يحرسها رجلٌ من بني غفار وامرأته ، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة وساقوا الإبل وعلم رسول الله ﷺ بالوقعة ، ولم يكن عُيينة وأصحابه قد بعدوا كثيرًا ، فأرسل في إثرهم الفرسان ليشغلوهم بالنبل ، حتى يدركهم المسلمون .

وخرج رسول الله ﷺ في جمع من أصحابه ، ولحقوا بالفرسان وكانوا قد تلاحموا مع الغزاة وقُتل من المسلمين واحدًا ومن المشركين ثلاثة ، وسار النبي ﷺ حتى نزل بجبل ذي قرد ، وكان عُيينة ومن معه قد أسرعوا السير يريدون اللحاق بغطفان نجاهً من المسلمين ولكن فرسان المدينة أدركوا مؤخرتهم ، واستخلصوا شطر الإبل منهم .

ونجحت امرأة الرجل الغفاري في الهرب من الغزاة واستقلت ناقة من النوق المسروقة لتعود بها إلى المدينة ، وأراد جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، أخذت منهم الحماسة كلَّ ما أخذ ، أن يواصلوا الزحف خلف عُيينة وصحبه ، فردَّهم رسول الله ﷺ أن علم أنهم قد أدركوا غطفان واحتموا بهم ، وأنهم - أي المسلمين - لم يستعدوا لمعركة كبيرة ، ولا يُعلم عدد من يلاقونهم من المشركين ، فأقام رسول الله ﷺ في ذي قرد يومًا وليلة ثم عادا إلى المدينة .

وجاءت امرأة الغفاري في آثارهم على الناقة ، فلما أتت رسول الله ﷺ قالت له : يا رسول الله إنِّي قد نذرتُ لله أن أنحر الناقة إن نجاني الله عليها فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال لها : " بس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا تملكينه " (١) .

(١) - رواه أحمد وفي مسلم ١٩٨٥٦ " بس ما جزيتها ثم قال لانذر لابن آدم فيها ، لا يملك ولا في معصية الله .

غزوة بني المصطلق (المريسيع)

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد ذلك قرابة شهرين ثم كانت غزوة بني المصطلق بالمريسيع، وهذه الغزوة وإن لم تكن ذات قيمة من حيث الوجهة العسكرية ، إلا أن قيمتها فيما وقع فيها من أحداث ، أحدثت البلبلة والاضطراب في صفوف المسلمين ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، وما تلاها من التشريعات التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبئل والكرامة وطهارة النفوس .

أسباب الغزوة :

في شعبان سنة ٦ هـ ، بلغ رسول الله ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار - زعيم بني المصطلق - يجمع قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ وقتله، فبعث رسول الله ﷺ يتحقق الخبر فلما تأكد صحة الخبر ندب الصحابة للتشاور ، فكان العزم على الإسراع بالخروج لملاقاة العدو على غرة كعادته في أخذ أعدائه .

خروج رسول الله ﷺ :

خرج رسول الله ﷺ وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ، وخرج مع رسول الله ﷺ جماعة من المنافقين ولم يخرجوا في غزاة قبلها ، لكنهم خرجوا لعلمهم يُصيبون من غنائم هذه الغزوة السهلة .

وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجَّه عينًا لياتيه بخبر الجيش الإسلامي فألقى المسلمون القبض عليه وقتلوه وسار رسول الله ﷺ ومن معه حتى فاجأهم بالنزول على ماء قريب من بني المصطلق ، يقال له المريسيع .

بداية الهجوم :

لما بلغ الحارث بن ضرار ما حدث من مقتل جاسوسه ، ووصول المسلمين إلى المريسيع، خاف هو ومن معه خوفًا شديدًا ، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم من العرب ، أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد اصطَفُوا وبدأوا رمى النبئل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا عليهم

حملة رجل واحد ، ففرَّ رجالهم وَمَنْ أتى لُنْصرتهم ، فلم تَكُنْ هناك مقاومة تُذْكر فكانت النُّصرة للمسلمين وانهزم المشركون .

وقد قُتِلَ من بني المصطلق عشرة ، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله واحد من الأنصار خطأ ظناً منه أنه من العدو ، وسُبي من النساء والصبيان الكثير ، واستولوا على إبلهم وماشييتهم وغنمهم .

وكان من جملة السَّبِي جويرية بنت الحارث بن ضرار - سيد القوم - وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ أدى عنها وتزوجها ، وبسبب هذا التزويج أعتق المسلمون مائة من بني المصطلق وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ (١) .

المنافقون والفتنة بين الأنصار والمهاجرين :

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من الغزوة أقام على المُريسيع كعادة المنتصر لعدة أيام وكان قد خرج مع رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - رهطٌ من المنافقين في كثرة لم يخرجوا قط مثله وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول ، لا رغبةً في الجهاد ولا طمعًا في إدخال الفشل على جيش المسلمين - إذ كانوا يوقنون بانتصار المسلمين - ولكن ليصيبوا من الغنائم فخرجوا في مظهر المؤمنين ، وقد صدق ظنُّهم وأنعم الله على المسلمين بالنصر ووفرة الغنائم .

وبينما الناس على المُريسيع تزاحم رجالان على الماء للسقاء : سنان بن وبر الجهني (من الأنصار) والآخر جهجاه بن مسعود الغفاري وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب (من المهاجرين) فاشتبك دلو سنان بدلو جهجاه ، فتنازعا فضرب جهجاه سنانًا فسال دمه ، فنادى سنان : يا معشر الأنصار ، وصاح جهجاه يا معشر المهاجرين فأقبل جمْعٌ من الأنصار وجمْعٌ من المهاجرين وشهروا السلاح حتي كادت أن تكون فتنة ، فلَمَّا سمع بها رسول الله ﷺ خرج إليهم وقال " أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها فتنة " ، فترك المضروب حَقَّهُ وهدأت الفتنة .

(١) - طبقات ابن سعد ٦٥ جزء ٢ .

لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعرَّ منها الأذل :

وكان هناك مَنْ لا يريد للفتنة أن تهدأ ، فلمَّا علم عبد الله بن أبيّ بما حدث وكان جالسا في رهطٍ من قومه ، وهنا ظهرت الحقيقة الكامنة في قلبه ورآها فرصة ليؤلِّب الأنصار علي إخوانهم المهاجرين ، فقال : أو قد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سَمَنَ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعرَّ منها الأذل ، يقصد بالأعرَّ نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ والمهاجرين ، ثم أقبل على مَنْ معه وقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم حللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

الرسول يُعلم بمقولة ابن أبيّ :

وكان من بين القوم الذين أطلق ابن أبيّ لسانه أمامهم غلام حدث هو زيد ابن أرقم لم يحسب له القوم حسابًا لصغر سنِّه وكان الغلام صادق الإيمان ، ولم يعجبه مقولةُ ابن أبيّ ، فذهب إلى رسول الله ﷺ وعنده بعضٌ من أصحابه مهاجرين وأنصارًا وفيهم عمر بن الخطاب فنقل زيدُ المقالة لعمر الذي بلغها رسول الله ﷺ فتغيَّر وجهه فقال عمر : مُر به أهدنا فيقتله يا رسول الله .

حكمة رسول الله ﷺ تحسم الفتنة وترأب الصدع :

وهنا ظهر رسول الله ﷺ كدأبه مظهر القائد المُحنك والحكيم بعيد النظر فلما سمع من عمر ما قاله التفت إليه وقال : " فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ؟ " (١) .

لكن رسول الله ﷺ قدَّر في الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ حُطة حازمة فقد يستقل الأمر ، لذلك أمر أن يؤذَن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها ، فارتحل الناس فلما علم بهذا أسيد بن حُضير - أحد أشراف الأنصار - فلقى رسول الله ﷺ وسأله عن سبب أمره بالرحيل في وقت لم يعتدها الناس ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) - عند مسلم ٢٥٨٤ " دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " ، أخرجه البخاري ٤٩٠٥ .

" أومًا بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزَّ منها الأذل " (١) قال أسيد : فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، وهو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبت ملكه .

ابن أبي ينفى مقولته :

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم قد بلغ الخبر فجاء إلى رسول الله ﷺ مهرولاً يحلف بالله ، إنه ما قال شيئاً من هذا ، فقال مَنْ حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام : زيد بن أرقم ، قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، دفاعاً عن ابن أبي ، فقبل رسول الله ﷺ عذر ابن أبي إلا أنه لم يُغير من قراره بالرحيل .

فانطلق الناس طيلة يومهم حتى أمسوا وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا وصدر يوم هذا حتى آذنتهم الشمس ، فلما نزل الناس لم يلبثوا حتى مست جنوبهم الأرض أن وقعوا نياماً وأنساهم التعب حديث ابن أبي والفتنة .

القرآن يُصدق زيد بن أرقم :

راح الأنصار يلومون زيذاً ويكذنه ، وقال له عمه : ما أردتُ إلا أن كذبك رسول الله ، وكان معظم الأنصار يقولون إن عبد الله بن أبي شيخاً كبيراً ، ولا يصدق عليه كلام غلام مفتون فاستحيا زيد وصار يبعد عن رسول الله ﷺ حتى أنزل الله القرآن مصدقاً لما قاله زيد :

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لِنَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۗ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ ۗ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) [المنافقون : ٧-٨]

(١) - تفسير الطبري ٢٣/٤٠٣ .

فلما نزلت على رسول الله ﷺ أرسل إلى زيد وقال له : " إن الله قد صدقك " (١).

العودة إلى المدينة - موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي :

وعاد الناس إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بني المصطلق وسبيهم ، فلما نزلت الآيات من سورة المنافقين ، حسب الناس أنّ هذه الآيات قضاء على ابن أبي ، وأن رسول الله ﷺ أمر بقتله - فذهب ابن هذا المنافق - عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان مُسلماً حسن الإسلام ، ووقف على باب المدينة واستل سيفه .

فلما جاء أباه عبد الله بن أبي . قال له : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه هو العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء النبي ﷺ أذن له فخلى سبيله ، فقال عبد الله بن عبد الله بن أبي لرسول الله : يا رسول الله إن أردت قتله فأمرني به ، فأنا والله أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخرج ، ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإني لأخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، أقتل رجلاً مؤمناً برجل كافر فأدخل النار ، وفي هذه المقولة للإبن ما يُعبر عن اضطراب الحالة النفسية والصراع بين برّه لأبيه وصدق إيمانه وحرصه على ألا تتواتر الثارات بين المسلمين .

رسول الله ﷺ يعفو عن ابن أبي :

وهنا قال له رسول الله ﷺ بعد أن سمع مقولته : " إنّنا لا نقتله بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " (٢) فكان العفو من رسول الله على أبيه .. يا لروعة العفو وجلاله فهذا رسول الله ﷺ يترفق بهذا الذي يُؤلّب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه ، فيكون رفقته وعفوه أبعد أثرًا من عقوبته لو أنه أنزلها به ، فقد كان ابن أبي بعد ذلك إذا فعل شيئاً من هذا يُعاتبه قومه ويُعنّفونه ويُشعرونه أن حياته بعض هبات رسول الله ﷺ له .

(١) - سنن الترمذي رقم ٣٣١٤٠ .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٩٣ ، تفسير الطبري ٢٣/٤٥٣ .

وحدث أن تذاكر رسول الله ﷺ مع عمر يوماً شئون المسلمين وجاء ذكر ابن أبيّ وما يعاتبه قومه وما يعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ : " كيف ترى يا عمر .. أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته " (١) فقال عمر : والله قد علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمري .

حادثة الإفك

عائشة مع النبي ﷺ في بني المُصطلق :

كان من عادة رسول الله ﷺ عند خروجه لغزوة يُتوقع طول مدتها أن يُجري قرعةً بين نساءه وأيّهن يخرج سهمها تصحبه ، وعندما تأهب لغزو بني المُصطلق خرج سهم عائشة فخرج بها .

وكانت عائشة نحيفة خفيفة ، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه وجلست في الهودج ثم يأتي الرجال فيحملونه ويضعونه على ظهر البعير ، وهم لا يكادون يشعرون بها لخفة زنتها ، ثم يأخذون برأس البعير وينطلقون به ويفعلون ذلك كل مرة حين يُنبحون للراحة .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المُضنية التي ذكرنا ، اتجه إلى المدينة حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل ، وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي ﷺ لبعض حاجتها والهودج أمام الخيمة في انتظار دخولها فيه .

تخلف عائشة عن الركب :

وكان لعائشة عِقْدٌ ثمين ، سقط من عنقها وهي في بعض حاجتها ، فلمّا قامت عائدةً إلى مكانها ، حيث الهودج التمسّت العِقْد فلم تجده ، فرجعت أدراجها تبحث عنه ، حتى وجدته .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٩٣ ، تفسير الطبري ٢٣/٤٥٣ .

وفي هذه الأثناء كان الرجال الموكلون بهودجها قد حملوه ظانين أنها به ، ولم يلمسوا فرقا في ثقل الهودج لنحافتها وخفة وزنها ، فلم ينتبه الرجال إلى غيابها ، فوضعوا الهودج على ظهر البعير وارتحلوا .

فلما عادت عائشة إلى مكان القافلة لم تجد أحداً فالتقت في جلبابها واضطجعت في مكانها ، وهي لا تشك أنهم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها .

فخير لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فتضل السبيل.

عودتها إلى المدينة مع صفوان :

وبينما هي مضطجعة ، إذ مرَّ بها صفوان بن المُعطَّل ، وكان قد تخلف عن الركب لبعض حاجته ، فلما رآها قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، طعينة - أي زوجة - رسول الله ، ما خلفك رحمك الله ؟ فلم ترد عليه حياءً ، فقرب إليها البعير الذي كان معه ، واستأخر عنها فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعاً ليلحق بالناس ، فلم يدركهم في الطريق .

وكانوا يعجلون سيرهم يريدون المدينة ، ليستريحوا بها من عناء السير الذي أمر به رسول الله ﷺ إطفاءً للفتنة ، فوصلوا المدينة وإنَّ هي إلاَّ ساعات حتى وصل المدينة صفوان وهو يقود ناقته وعليها عائشة .

وكان ذلك في وضح النهار بأعين الناس ، فلما كانت عند منزلها بين منازل نسوة رسول الله ﷺ نزلت إليه ، ولا يجول بخاطر أحد أن يحدث في أمرها قولاً أو يثير حول تأخرها شبهة ، ولا في صفوان المؤمن حسن الإيمان .

حديث الإفك :

لما رأى المنافقون وأعداء الإسلام المُحدقون به أن قبضتهم العسكرية ومواجهة المسلمين في ميدان القتال لا جدوى منها وقد انهارت عزائمهم عمدوا إلى أسلوب جديد في الحرب ، وهي الحرب النفسية وإطلاق الشائعات.

فلما كان من قدوم عائشة وقد تأخرت عن المعسكر مع صفوان على بعيره ، تكلم الناس كلٌّ منهم بشاكرته وما يليق به ، ووجد رأس النفاق عبد الله بن أبي مُتَنَفِّسًا فتنفَّس به كرب النفاق والحسد ، فجعل يحكي الإفك ويُشيعه ويُذيعه جهد طاقته .

الخبر يبلغ رسول الله ﷺ :

وكان أكثر مَنْ خاضوا في هذا الحديث إلى جانب عبد الله بن أبي ، مُسطح بن أثاثة - ابن خالة أبي بكر الصديق - وحمنة بنت جحش - أخت زينب بنت جحش - زوج رسول الله ﷺ ، أما زينب نفسها فلم تتكلم عن عائشة إلا خيرًا . وكانت حمنة تجد من حسان بن ثابت عونًا ، فلما بلغت هذه الأنباء رسول الله ﷺ ظلَّ صامتًا لا يتكلم إلا أنه كان في حيرة من أمره (١) .

مرض عائشة :

أما عائشة فلم يجرؤ أحدٌ على أن يبلغها من هذا الحديث شيئًا ، ثم إنها مرضت بعد ذلك مرضًا شديدًا فلاحظت من رسول الله ﷺ جفاء لم تعرفه منه ، فكان إذا دخل عليها وأمها تمرضها لم يزد على قوله : " كيف تيكم ؟ " (٢) فضاقت عائشة من هذا ، وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء رسول الله ﷺ إياها ، أن قالت له يومًا : لو أذنت لي فانتقلت إلى بيت أمي فمرضتني .

فوافق النبي ﷺ وانتقلت إلى أمها ، وفي نفسها من الدهشة ما آذاها وألمها ، وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئًا .

تأذي رسول الله ﷺ من حديث الناس :

أما رسول الله ﷺ ، فبلغ من تأذيه بترامي هذه الأخبار إليه أن قام يومًا في الناس يخطبهم فقال : " أيها الناس ما بال رجالٍ يؤذونني في أهلي ، ويقولون عني غير الحق ، والله

(١) - أما قول حسان في الإفك فهو ثابت في مسند ابو داود ، ومسلم عن عائشة لكن حسان تاب ومدح السيدة عائشة في أبيات جميلة .

(٢) - أخرجه البخاري ٤١٤١ ومسلم ٢٧٧٠ .

ما علمت منهم إلا خيرًا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا ، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا معي" (١) .

فقام أسيد بن حُضير - سيد الأوس - فقال : يا رسول الله إن يكونوا من إخواننا من الأوس أكفيكمهم و إن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمُرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم ، فردَّ عليه سعد بن عبادة - سيد الخزرج - بأنه إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها ، وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة رسول الله ﷺ وحُسن مُداخلته حتى سكتوا .

الخبر يبلغ عائشة :

وظلَّت عائشة في بيت أمها ، حتى نقهت ، بعد بضع وعشرين ليلة وذات يوم خرجت إلى الخلاء لقضاء حاجتها وكانت معها أم مُسطح - خالة أبي بكر الصديق - وبينما هي تمشي بجوارها عثرت أم مُسطح في ثوبها ، فدعت على ابنها مسطح ، فاستكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر فلما عرفته كاد يُغشي عليها من هولها .

وانطلقت تبكي وذهبت إلى أمها وقالت لها والعبرة تخنقها : يغفر الله لك يا أماه ! تحدّث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا ! ورأت أمها ما بها من همٍّ ، فحاولت أن تُخفف عنها فقالت : أي بُنية ، خَفّي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأةً حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر ، إلا كَثُرْنَ وكَثُرَ الناس عليها .

إلا أن عائشة لم تهتم بهذا القول ، ولم يشف ما بها من ألم ، وزادها ألمًا أن ذكرت جفاء رسول الله ﷺ إياها ، وإن شعرت بأنه وقع في نفسه من هذا الحديث أثر ، وقامت بنفسه منه ريبة لكن ما عساها تستطيع أن تفعل !؟

(١) - نفس المصدر السابق .

رسول الله ﷺ يشاور أسامة وعليًا :

ولم يكن رسول الله ﷺ خيرًا منها مكانًا ، فقد آذاه ما يتحدث به الناس حتى أضطر إلى أن يتشاور مع خُصائه ماذا يصنع ؟ فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا إليه عليًا وأسامه بن زيد فاستشارهما ، أما أسامة فأثنى على عائشة خيرًا ، ونفى عنها كل ما نُسب إليها وقال : إنه الكذب والباطل .

أما عليّ فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف (١) ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه فدعا رسول الله ﷺ الجارية ليسألها ، فقالت : والله ما أعلم إلا خيرًا وما كنتُ أعيب عليها إلا أنني كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله .

مواجهة رسول الله ﷺ مع عائشة :

أخيرًا لم يبقَ أمام رسول الله ﷺ إلا أن يواجه زوجته ويعرف منها حقيقة الأمر فدخل عليها وعندها أبوها وأمها وامرأة من الأنصار وهي تبكي ، فجلس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أما بعد ، يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فإن كنتِ بريئةً فسيبرئك الله ، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقولون ، فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده " (٢) .

صبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون :

فما أن أتمّ رسول الله ﷺ حديثه ، حتى جف في عينها الدمع وتلفتت ناحية أبيها وقالت لهما : ألا تجيبان رسول الله ؟ فقالا : والله ما ندري بما نجيبه .

وهنا وجّهت الكلام إلى رسول الله ﷺ وقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا ، والله إنّي لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنني منه بريئة - لأقولن ما لم يكن ،

(١) - نقل الحافظ ابن حجر عن الشيخ محمد بن أبي جمره أنه قال (لم يجزم علي بالإشارة بفرافقتها لأنه عقّب ذلك بقوله (وسل

الجارية تصدقك) وفي ذلك تفويض الأمر إلى نظر النبي ﷺ .

(٢) - صحيح البخاري ٣٩١٠ .

ولئن أنكرت ما يقولون لا تصدقوني ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : (**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**)
وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ([يوسف : ١٨]

نزول الوحي ببراءة عائشة :

وما أن انتهت عائشة من مقولتها، ورسول الله ﷺ لم يبرح مجلسه ، حتى تغشاه من الوحي ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من آدم تحت رأسه ، فلما سرى عنه جلس يتصبب عرفاً فجعل يمسحه عن جبينه ويقول : " أبشري يا عائشة ، قد أنزل الله براءتك " (١) فقالت أمها : قومي إليه فقالت عائشة ، دلالة لبراءة ساحتها وثقة بمحبة رسول الله ﷺ : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التي نزلت لتبرئ ساحة عائشة :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ۗ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۚ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۗ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُحْشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)

[النور ١١-٢٠]

(١) - سنن الترمذي ٣١٨٠ واللفظ له ، و أحمد ٢٤٣١٧ ، و أخرجه البخاري معلقاً ٤٧٥٧ .

رمي المحصنات - تنفيذ حكمه في رُماة عائشة :

في هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمي المحصنات : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [النور: ٤٠] وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش فضرب كلَّ منهم ثمانين جلدة .

ولم يُحدِّد عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ، إما لأن الحدود تخفيفُ الأهلها وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، وإما للمصلحة التي ترك رسول الله ﷺ لأجلها قتله ، فكان بين الناس منبوذاً ويعنفه أهله - كما ذكرنا - وهو أشدُّ عليه من القتل ، وهكذا عادت عائشة إلى مثل مكانتها الأولى في بيت رسول الله ﷺ ومن قلبه.

جمال العفو :

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا رسول الله ﷺ وعطفه عليه ، كما طلب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ألا يحرم مسطحاً ابن خالته عطفه الذي عوّده إياه .

تتابع البعوث والسرايا :

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا بعد الأحزاب وبنِي قريظة ولم يجر في واحدة منها قتالٌ مرير ، وإنما وقعت مصادمات خفيفة فكانت هذه السرايا والغزوات بمثابة دوريات استطلاعية أو تحركات تأديبية لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ونجحت هذه الدوريات في تحقيق الهدف المنشود منها فقد انهارت معنويات أعداء الإسلام ، ولم يبقَ لهم أملٌ في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وبذلك فرغ رسول الله ﷺ إلى رسالته ، وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحديبية يفتح الله به على المسلمين فتحاً عظيماً .

الحديبية

المسلمون يتحرقون شوقاً للبيت الحرام :

إنقضت سنتٌ سنواتٍ منذ هجرة رسول الله ﷺ ، والمسلمون يتحرقون شوقاً يريدون زيارة البيت الحرام وهو قبلتهم التي ولّى إليها رسول الله ﷺ شطره ، وعدل بها عن المسجد الأقصى .

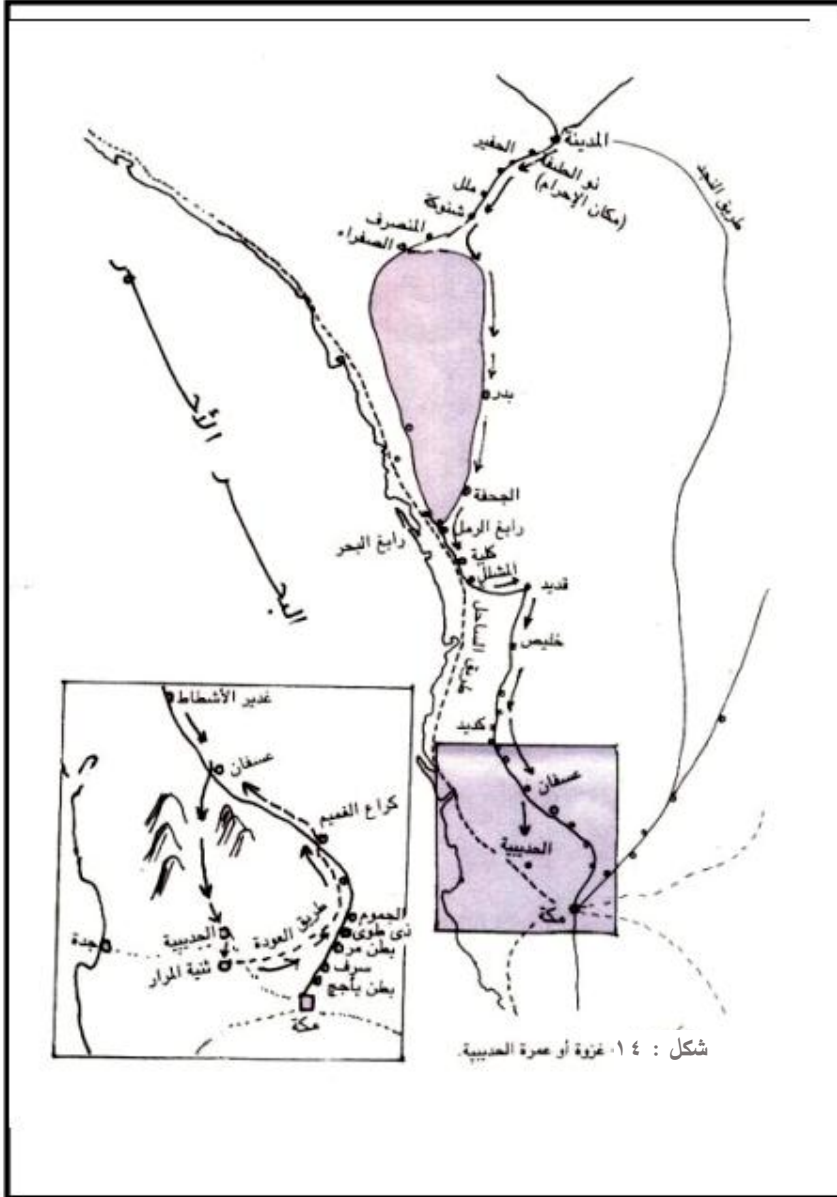
وإنهم لمجتمعون ذات صباح إذ أنبأهم رسول الله ﷺ بما رأى من رؤياه الصادقة ، إنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومُقَصِّرِينَ ، فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله ﷺ حتى علا بحمد الله صوتهم وفرحوا - وحسبوا أنهم داخلوا مكةَ عامهم ذلك - وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بأنه مُعتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين :

واستنفر رسول الله ﷺ المسلمين في المدينة ، وكذلك مَنْ حوله من البوادي ومن غير المسلمين ليخرجوا معه ، حتى لا تكون لقريش أيُّ ذريعةٍ لصدّه أو مقاتلته ، فأبطل كثيرٌ من الأعراب ، أما هو فغسل ثيابه وركب ناقته القصواء وخرج بمنّ معه من المهاجرين والأنصار ، في غُرّة ذي القعدة سنة ٦ هجرياً، ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر من سيف مُغمد ، وساق الهدى سبعين بدنة ليعلم الناس أنه لم يأتٍ محارباً .

تحرك المسلمين إلى مكة :

- وتحرك رسول الله ﷺ ومن معه متجهين إلى مكة ، فلما كان بندي الخليفة قلد الهدي -
- جرحه ليسيل دمه علامة على أنه هدي - وأشعر وأحرم بالعمرة ، فلما كان بعسفان - حوالي ٦٠ كم شمال مكة (شكل : ١٤)



لقيه رجلاً من بني كعب وأخبره أن قريشاً قد علمت بمسيرته ، وخرجوا بأسلحتهم ، ونزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله ألا ندخلها عليهم أبداً ، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس وهو مُرابطٌ بجرّاع الغميم في الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة .

فقال له رسول الله ﷺ : " يا ويح قريش ، لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني ، كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام ذافرين - الذفير: ريح زكية من طيب ومسك - فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة " (١) ، مشيراً إلى عنقه كناية عن الهلاك .

رسول الله ﷺ يؤثر السلم :

بينما كان رسول الله ﷺ يفكر ، كانت فرسانُ قريش تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين دُرك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً ، وتدور معركةٌ بين المسلمين وقريش ، وهو ما قد يكون لصالح قريش ، وقد يجعل لهم عند العرب حُجة عليه للقتال في الأشهر الحرم ، ولكنه ﷺ أبعد من هذا نظراً وأكثر حنكة .

فظلّ مستقراً على رأيه في سلوك سياسة السلم ، فنادى لمن حوله : مَنْ رجل يخرج على طريق غير طريقهم الذي هم بها ؟ (٢) فقام رجلٌ من قبيلة أسلم، وسلك بهم طريقاً وعراً بين التلال والوديان ، حتى وصلوا إلى أرض سهلة عند الحديبية - حوالي ٢٠ كم شمال غرب مكة - .

ولما رأَتْ خيلُ قريش بقيادة خالد بن الوليد أن المسلمين قد نجحوا في الإفلات منهم واقتربوا من مكة ، ركضوا إلى مكة ليُخبروا أهلها بالموقف ، وليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٥٩ ، وقد أخرجه البخاري من حديث طويل في صلح الحديبية .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٠٩ .

حبسها حابسُ الفيل :

وسار رسولُ الله ﷺ ومَنْ معه ، حتى إذا كانوا في ثنية المُرار - مهبط الحديبية من أسفل مكة - بركتْ ناقَة الرسول ﷺ القصواء ، فظن الناس أنها جهدت ، فقال رسول الله ﷺ : " إنما حبسها حابسُ الفيل عن مكة ، والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " (١) ثم دعا الناس إلى النزول ، فقالوا : يا رسول الله ، ما بالوادي ماءً ننزل عليه ، فأخرج سهمًا من كنانته ، فأعطاها رجلاً من أصحابه وأمره أن يغرزَه في بئر من الآبار المنثورة في تلك الأنحاء ، فغرزَه في الرمال من قاع البئر ، فجاش الماء وشرب الناس وسقوا إبلهم والهدى واطمأنوا ونزلوا .

بداية المفاوضات :

كان لنجاح رسول الله ﷺ وثباته على ما هو عليه ، من أن يكون الأمر سلمًا ، وتقادي المصادمة والمواجهة مع فرسان قريش ، أثرٌ كبيرٌ على موقف قريش ، فترددت وفكرت وتشاور أهلها ، ثم رأت بعد ذلك أن لا بديل إلا المفاوضات ، فبدأت إرسال رسلها للتفاوض مع رسول الله ﷺ الذين أتوا على النحو التالي :

١ - بُديل بن ورقاء :

جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه يسألون رسول الله ﷺ ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت حربًا ، وإنما زائرٌ للبيت ومعظمٌ لحرمة ، فلما اقتنعوا بما قال رسول الله ﷺ عادوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليخلوا بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبين البيت العتيق - إلا أن رجال قريش أخذتهم العزة بالإثم - وقالوا : وإن كان لا يريد قتالاً فوالله لا يدخل علينا غنوة أبدًا ، ولا نتحدث بذلك عنّا العرب

٢ - مِكرز بن حَفص :

ثم بعثت قريشُ مِكرز بن حَفص ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : " هذا رجل غادر " فلما جاء لم يسمع إلا ما سمع بُديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم به .

(٢) - رواه البخاري حديث ٢٧٣١ .

٣ - الخليس بن علقمة :

ثم أرسلت قريش الخليس بن علقمة ، وهو رجل من كنانة وهم حلفاؤهم، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : " هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البذن " (١) .

فأمر رسول الله ﷺ بالهدى أن يُطلق أمامه ، لتكون دليلاً مادياً على أنهم جاءوا معظمين البيت ، لا محاربين ، فاستقبله القوم مُلبّون وأمامهم الهدى ، فلما رأى ذلك تأثرت في نفسه ثائرات دينية ، وقال : ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت . فانقلب إلى قريش دون أن يلقى رسول الله ﷺ ، وذكر لهم ما رأى ، فلما سمعوا حديثه غاظهم وأصروا على موقعهم ، فغضب الخليس لمقاتلتهم وقال : والله ما على هذا حالفتكم ، ولا على هذا عاقدتكم ، وقد كانوا متعاقدين متعاهدين على أن يحاربوا معاً إذا كانت حرب ، ثم قال: أَيْصُدُّ عن بيت الله مَنْ جاء معظماً له ؟ والله لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنَّ بمنَّ معي ، فخشيتُ قريشَ عاقبة غضبه ، فاسترضوه وطلبوا منه أن يُنظرهم حتى يفكروا في أمرهم .

٤ - عروه بن مسعود :

ثم رأت قريش أن تُوفد حكيماً ، تطمئن لحكمته فأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي - سيد أهل الطائف - وإنه كان يميل إلى ما عرضه رسول الله ﷺ إلا أنه اعتذر أول الأمر ، لما رآه من تعنتهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم ، فاعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير ، وأنهم يطمنون لحكمته وحسن رأيه ، وأتى ابن مسعود رسول الله ﷺ وقال : يا محمد قد جمعت الناس ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لتفضها بهم !!!.

إنها قريشٌ قد خرجت تعاهد الله ، ألا تدخلها عنوة أبداً ، ولكأني بهؤلاء - يقصد صحابة رسول الله - قد فروا عنك ، فنال منه أبو بكر وقال : ويحك أنحن نفرّ عنه ؟ وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله ﷺ ، وكان المغيرة بن شعبة - ابن أخي عروة - عند رأس رسول الله ﷺ ، كلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل سيفه ، وقال له : أخزّ يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، وإلا قطعناها

(١) - صحيح البخاري ٢٧٣١ .

عن كنتك ، فسمع عروة من رسول الله ﷺ مثل ما سمع الذين سبقوه ، وجعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم إليه .

ولمَّا رجع إلى قريش قال : يا معشر قريش ، إنِّي جنُّتُ كسرى في مُلكه ، وقيصر في مُلكه ، والنجاشي في مُلكه ، وإنِّي والله ما رأيتَ ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه ، وإنهم لن يُسلموه لشيء أبدًا ، فانظروا رأيكم ، فإنه عرض عليكم رشدًا فاقبلوه (١) .

محاولة أخيرة من قريش :

في محاولة أخيرة لقريش قررت إرسال مجموعة منهم ليستطلعوا أخبار رسول الله ﷺ ويعرفوا قوته فخرج أربعون رجلًا منهم ليلاً ، فهبطوا في جبل التتعيم وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس هو ومن معه ، أحاطوا بهم ، وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ ورغبةً منه في الصلح والسلم أطلق سراحهم وعفا عنهم .

سفارة رسول الله ﷺ إلى قريش :

ولمَّا طالمت المحادثات على هذا النحو فكَّر رسول الله ﷺ في أن يُسل قريش إليه ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يُقنعون به قريشًا بالرأي الذي يرى فبعث من جانبه رسولاً يُبلغهم رأيه لكنهم عقروا ناقته ، وأرادوا قتله لولا منعتهم الأحابيش فخلوا سبيله .

ودلَّ هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء ، وظل رسول الله ﷺ على ما هو عليه من إثارة السلم فلم يرد عليهم فسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أنه يريد حربًا وأيقنوا أن كلَّ اعتداء من جانبهم علي المسلمين لن ينظر إليه العرب إلا أنه عذْر دنيءٌ ومن حق المسلمين أن يدفعوه بكل قوة .

سفارة عثمان بن عفان :

ومع استمرار الوضع على ما هو عليه ، فلا قريشٌ تريد النزول عن موقفها ، ولا المسلمون يريدون العودة دون تأدية المشاعر ، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرًا من كبار الصحابة

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٣ .

هذه المرة ليشرح لأشراف قريش ما جاء به ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم فاعتذر عمر قائلاً : يا رسول الله ، ليس أحدٌ بمكة من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت ، ولكن أدلك على رجل أعزّ بها مني : عثمان بن عفان ، فإن عشيرته فيها وأنه مبلغ ما أردت .

فدعا النبي ﷺ عثمان ليبعثه إلى قريش وقال له : " أخبرهم أننا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمّارًا ، وادعهم للإسلام ، وأتي بالمستضعفين من المؤمنين بمكة ، وبشرهم بفتح قريب ، وأخبرهم أن الله مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي أحدٌ بالإيمان " (١) .

عثمان في مكة :

فانطلق عثمان ودخل مكة ، فلقه أبان بن سعيد الأموي ، فأجاره فترة وجوده بمكة حتى يفرغ من تبليغ رسالته ، وبلغ عثمان الرسالة إلى زعماء قريش ، فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت إن شاء ، فرفض العرض وأبى أن يطوف ، حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان :

واستمر الجدل بين عثمان وأشراف قريش ، وطال الحديث وطال احتباس عثمان عندهم ، ولعلهم أرادوا في هذه الأثناء البحث مع عثمان عن صيغة توفّق بين قسمهم ألا يدخلها المسلمون هذا العام عنوةً ، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ، ويؤدوا الفريضة ، ولعلهم أيضًا قد أنسوا إلى عثمان ، فلما طال احتباس عثمان ، شاع بين المسلمين أن عثمان قُتل .

بيعة الرضوان :

وأثارت هذه الشائعة قلق المسلمين ، ولمّا بلغت هذه الشائعة رسول الله ﷺ قال : " لا نبرح حتى نناجز القوم " ثم دعا أصحابه إليه وكان واقفًا تحت شجرة ، فبايعوه جميعًا على ألا يفرّوا حتى الموت وكلهم ثباتٌ وعزيمة .

(١) - زاد المعاد ٢٥٧/٣ .

فلما أتمّ المسلمون البيعة ضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال : " هذه عن عثمان " (١) كأنه حاضرٌ معهم ، وهذه هي بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨]

عودة عثمان :

لمّا أتمّ المسلمون البيعة ، وإنهم لذلك إذ ترامي إليهم أن عثمان لم يُقتل ، ثم لم يطلّ بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم ، فأبلغ رسول الله ﷺ ما قالت قريش .

صلح الحديبية وبنوده :

وعرفت قريش ضيق الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له ألا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا محمدٌ عامه هذا ، حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة ابداً فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فلما رآه ﷺ قال : " قد سهّل الله أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " (٢) .

فجاء سهيل وتكلم طويلاً ثم اتفقا على قواعد الصلح .

وهي :

- ١ - يرجع رسول الله ﷺ من عامه فلا يدخل مكة ، فإذا كان العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج قريش منها ، فيقيم ثلاثة أيام ، وليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس .
- ٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها كل الناس ويكف بعضهم عن بعض - أي يمكن للمسلمين القدوم إلى مكة في أمن وأمان - ، وكذلك القريش أن تعبر بتجارتها إلى الشام وغيرها في أمن وأمان ، فلا حرب ولا قتال .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٦ .

(٢) - صحيح البخاري ٢٧٣١ .

٣ - مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ مِنْ غَيْرِ قَرِيشٍ ، دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَهْدِ قَرِيشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ ، وَتُعْتَبَرُ الْقَبِيلَةُ الَّتِي تَنْضَمُ إِلَى أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ جِزَاءً مِنْ ذَلِكَ الْفَرِيقِ ، وَعَلَيْهِ فَأَيُّ عَدْوَانٍ تَتَعَرَّضُ لَهُ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ يُعْتَبَرُ عَدْوَانًا عَلَى ذَلِكَ الْفَرِيقِ .

٤ - مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قَرِيشٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ - أَيِّ هَارِبًا مِنْهُمْ - رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ جَاءَ قَرِيشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ - أَيِّ هَارِبًا مِنْهُ - لَا يَرُدُّهُ عَلَيْهِ .

كتابة الصلح :

لَمَّا تَمَّ الْإِتِّفَاقُ عَلَى بِنُودِ الصَّلْحِ ، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا لِيَكْتُبَ الْكِتَابَ ، فَأَمَلَى عَلَيْهِ : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " . فَقَالَ سُهَيْلٌ : أَمَا الرَّحْمَنُ ، فَوَاللَّهِ لَا نَدْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ أَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ . فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ .

ثُمَّ أَمَلَى : " هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ " ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنْ أَكْتُبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي " ، وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحُو لَفْظَ رَسُولِ اللَّهِ وَيَكْتُبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَبَى عَلِيٌّ أَنْ يَمْحُو هَذَا اللَّفْظَ ، فَمَحَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ (١) .

ثُمَّ تَمَّتْ كِتَابَةُ الصَّحِيفَةِ ، وَشَهِدَ عَلَى الصَّلْحِ : أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقُ ، وَعَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَاتِبُ الصَّلْحِ - وَبَعْضُ كِبَارِ الصَّحَابَةِ .

بداية تنفيذ بنود الصلح :

• مَا كَادَ هَذَا الْعَهْدُ أَنْ يُوقَعَ حَتَّى أُسْرِعَتْ خُزَاعَةٌ بِإِعْلَانِ انْضِمَامِهَا إِلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كَمَا اسْرَعَ بَنُو بَكْرٍ إِلَى إِعْلَانِ انْضِمَامِهِمْ إِلَى عَهْدِ قَرِيشٍ .

• أبو جندل بن سهيل بن عمرو :

وَفُورَ التَّوْقِيعِ وَمَا كَادَ يَجْفَى مَدَادَ الْكِتَابَةِ ، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو

(١) - صحيح البخاري ٢٧٣١ .

- ممثل قريش في الصلح - وكان قد أسلم فقيده أبوه وحبسه ، ولكنه استطاع الهرب وأتى لاجئاً إلى رسول الله ﷺ فقام إليه سهيل - والده - فضربه وأخذ بتلابيبه وجعل يجره ويرده إلى قريش . وطلب من النبي ﷺ عدم قبول أبي جندل لاجئاً . وذلك تنفيذاً لنبود الصلح ، وصار أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُرِّدْ إلى المشركين يفتنونني عن ديني ! وكان هذا أول اختبار للصلح ، فقام رسول الله ﷺ برده إلى قريش وقال له : " يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، وإنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم " (١) .

ردود أفعال المسلمين وحوار عمر :

ودخل الناس أمر عظيم ، إذ كانوا لا يشكُّون في أداء العمرة للرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ وها هم مُنعوا عنها ، وكذلك الشرط الذي يُلزم المسلمين برده من جاءهم من قريش مسلماً - وقد رأوا ما حدث لأبي جندل - وبدأ البعض يعلن تدمره وقد غلبهم الحزن ، وكان أعظمهم حزناً عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : " بلى " ، قال : أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : " بلى " ، قال : ففيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : " يا ابن الخطاب ، إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناجدي ولن يُضيعني أبداً " .

قال : وأليس كنتَ تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : " بلى ، هل أخبرتك أننا نأتيه العام ؟ " قال : لا . قال : فإنك أتيتِه ومطوف به " ثم انطلق عمر إلى أبي بكر وقال له مثل ما قال لرسول الله ﷺ وردَّ عليه أبو بكر كما رد رسول الله ﷺ وزاد عليه : " يا عمر الزم عَرَكَ ، فإنِّي أشهد أنه رسول الله " ، فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٣/٧٨٣ .

أما باقي المسلمين ، فكان الحزن هو سيد الموقف ، حتى إن رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من كتابة الصلح قال : " قوموا فانحروا " (١) فما قام منهم أحد حتى قالها ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: يا نبي الله ، اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . ففعل النبي ﷺ بمشورتها . فخرج ولم يكلم أحدًا حتى نحر ثم حلق . فلما رأى الناس ذلك فقاموا فانحروا وحلقوا . ودعا لهم رسول الله ﷺ .

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا :

لم يبقَ للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل ، وإن كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ، ولا يهونها على نفسه إلا أنه أمر رسول الله ﷺ ، وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة عند كراع الغميم ، إذ نزل الوحي على رسول الله ﷺ بسورة الفتح

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) [الفتح : ١-٣])

فقرأها النبي ﷺ على أصحابه وهو ما أدخل الفرح والاطمئنان لنفوسهم، ولم يبقَ ريبة في أن الفتح آتٍ لا محالة ، ولما تلاها رسول الله ﷺ على عمر ، فقال : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : " نعم " (٢) ، فطابت نفس عمر ، ثم ندم على ما فرط منه ندمًا شديدًا . قال عمر : فعلتُ لذلك أعمالاً، ما زلتُ أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعتُ يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به ، حتى رجوتُ أن يكون خيرًا .

الحديبية فتح مُبين :

كان صلح الحديبية فتحًا مبينًا لا محالة ، وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد، حكمة سياسية ، وبعُد نظر من رسول الله ﷺ كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الإسلام ، بل ومستقبل العرب كلهم .

(١) - صحيح البخاري ٢٧٣١ .

(٢) - رواة مسلم ١٧٨٥ .

فكان من أهم نتائج الصلح :

١ - الموافقة على الصلح في حد ذاته هو اعتراف من قريش بكيان الدولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين نِدَّين فلم تُعدَّ قريش تنظر إلى رسول الله ﷺ أنه نائر بها خارج عليها ، ولكن على أنه ندُّ لها وهو كذلك اعترافٌ بفشلها في القضاء عليه وإقرارٌ بقوة المسلمين .

٢ - إقرار قريش للمسلمين بحقِّ زيارة البيت وإقامة الشعائر وإن كان في العام المقبل هو اعتراف منها بأن الإسلام دين مُقرر مُعترف به بين أديان شبه الجزيرة .

٣ - الهدنة لعشر سنوات فكان من نتائجها :

أ. أعطت المسلمين فرصةً لنشر الإسلام والتعريف به بعد أن اطمأن المسلمون من حروب قريش وبطشها ، وهو ما يؤكد أن الحروب التي جرت لم تكن هدفها - بالنسبة للمسلمين - إكراه الناس على اعتناق الإسلام ولكن كانت لمنح الناس فرصة ، في حرية العقيدة (**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ**) [الكهف ٢٩]

وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع، أضعاف انتشاره من قبل في ظل الحروب ، فقد كان الذين جاءوا إلى الحديبية ١٤٠٠ فلما كان بعد عامين اثنين عند فتح مكة جاءوا في ١٠٠٠٠٠ ، وهذا يؤكد مرة أخرى أن الإسلام لم ينتشر بحدِّ السيف إنما بالإقناع والافتتاح .

ب - أمن المسلمون جانب قريش ، فحولوا ثقلهم إلى اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى ، وهو ما أدخل المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وسارعت القبائل المجاورة للمدينة إلى الاعتذار .

ج - فرصة لمراجعة بعض صناديد قريش لمواقفهم ، وإعلان إسلامهم مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

د - كانت الهدنة فرصة لإرسال رسول الله ﷺ رسائل إلى ملوك الفرس والروم وغيرهم وبداية لنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة .

٤ - نصت المعاهدة على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردهم عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم ترده ، فقد كان وإن كانت تبدو مجحفة في حق المسلمين ، وكانت أشد ما اعترض عليه المسلمون ، إلا أن رسول الله ﷺ رأى أنه لن يفر إلى قريش إلا من ارتد عن الإسلام ، فإذا ارتد فلا حاجة للمسلمين به ، وقال : " إنه إن ذهب منا إليهم فأبعده الله " وأما من أسلم من أهل مكة وحاول اللحاق بالمسلمين ولم يستطع ، فقال فيه رسول الله ﷺ : " فسيجعل الله له مخرجاً " (١) ، وقد صدقت الحادثات رأي رسول الله ﷺ بأسرع مما يظن أصحابه .

قصة أبي بصير :

فبعد أيام من عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفد أبو بصير - وهو رجلاً من قريش قد أسلم وكان يُعذَّب بمكة - فأرسلت قريش رجلين في طلبه حسب شروط الصلح فردَّه رسول الله ﷺ إلى الرجلين وقال : " يا أبا بصير إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . فانطلق إلى قومك " (٢) . فانطلق مع الرجلين حتى إذا كان بذى الخليفة نزلوا ليستريحوا ، واحتال أبو بصير عليهما حتى أخذ سيف أحدهما فقتله وفرَّ الآخر فرعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وقال له : قتل صاحبك صاحبي ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف وقال : يا نبي الله ، قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم .

لكن رسول الله ﷺ عزم على رده إلى قريش ، فخرج أبو بصير فاراً من المدينة ، حتى لا يُرد إلى قريش ولما أتى إلى ساحل البحر - طريق قريش إلى الشام - مكث هناك ولم يدخل مكة ، فلما علم أبو جندل بن سهيل بما حدث فرَّ وانضم إلى أبي بصير ، وخرج المسلمون المحتجزون في مكة تباعاً ولحقوا بهما حتى أصبح منهم ما يقرب من ٧٠ رجلاً كانوا لا تمرّ بهم غير قريش إلا هاجموا ، وقتلوا من رجالها وغنموا الغنائم .

(١) - صحيح مسلم ١٧٨٤ .

(٢) - سنن البيهقي وأسد الغابة والاستيعاب .

قريشُ تتنازل عن بعض شروط الصلح :

وهنا أدركتُ قريشُ حجم الخطر المحيط بها ، وأن بقاء هؤلاء المسلمين إنما هو شوكة في نُحورهم وخطر على تجارتهم واقتصادهم فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها أن يتنازل عن شرط ردِّ المسلمين الفارّين وأن يؤيِّهم حتى يتركوا الطريق أمنًا ، ففعل رسول الله ﷺ وطلبهم إلى المدينة وآوي إليه كل من أسلم ويريد اللحاق به .

وهكذا سقط الشرط الذي أثار حفيظة الكثيرين ، وصدقت رؤية رسول الله ﷺ بأسرع مما ظنوا .

المهاجرات المسلمات :

أما المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان الرسول الله فيهن رأيي آخر ، فقد أسلمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وخرجت من مكة مهاجرة فرج أخاها :

عمارة والوليد حتى قدما إلى رسول الله ﷺ يسألان أن يردها ، وحذا حذو أم كلثوم نساء أخريات وخرج ذوهن في طلبهن ، لكن رسول الله ﷺ تمهل ورأى أن الصلح لا ينطبق على النساء ، وأن النساء إذا استجرن وجب إجارتهن وإنهن ضعيفات ليس لهن جلد الرجال ، ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تصبح حلاً لزوجها المشرك ، فوجب التفريق بينه وبينها .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ
اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۗ وَءَاثُوهُمْ مَّا أَنفَقُوا ۗ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۗ وَلَا تُسْكُوا بَعْصَمَ الْكُوفِرِ وَسْأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَّا أَنفَقُوا ۗ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَكُمْ ۗ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [الممتحنة : ١٠]

وهنا أيقنتُ قريشُ أنه ما دام ذلك الأمر من الله فلا سبيل للمسلمين بمخالفته ولمّا كان المسلمون قد صاروا في موقف أقوى مما كانوا عليه وقت صلح الحديبية ، فقد رأث قريشُ أنه ليس من الحكمة الادعاء أن رسول الله ﷺ قد نقض العهد وعلنوا الحرب .

وتلمسوا في شروط الصلح ما يحفظ ماء وجههم ، وكان نص الشرط "لا يأتيك أحد منا بدون إذن أهله إلا رددته" ، فقالوا : إن أخذ تعني الرجال دون النساء .

رحمة للناس كافة :

في أواخر السنة السادسة للهجرة ، وبفضل الأمان النسبي الذي حققه صلح الحديبية بدأ رسول الله ﷺ يتطلع إلى دعوة الملوك جميعاً إلى دين الحق فخرج يوماً على أصحابه ، فقال : " أيها الناس إن الله قد بعثني رحمةً للناس كافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم" ^(١) ثم ذكر لهم أنه مُرسلٌ إلى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم من ملوك وأمراء الدول .

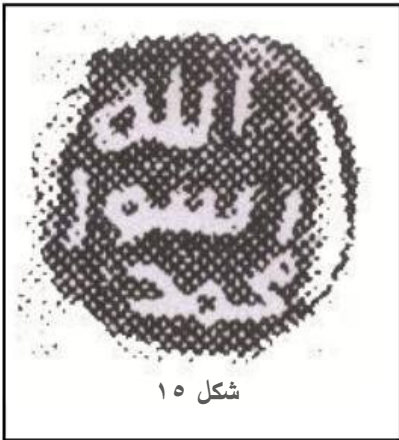
وقد أشار الله إليه في قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سبأ : ٢٨] وهو ما يعني عدم اقتصار دعوة الإسلام على العرب فحسب بل يجب نشرها في ربوع الأرض وللناس أجمعين .

مكاتبة الملوك والأمراء :

ولمَّا أراد رسول الله ﷺ مكاتبة الملوك قيل له إنهم لا يقرءون كتاباً إلا وعليه خاتم ، فصنع له خاتماً من فضة نُقش عليه " محمد رسول الله وكان ثلاثة أسطر من أسفل إلى أعلى : محمد سطر - رسول سطر - الله سطر - (شكل : ١٥) - وكان يختم به كتبه .

رُسل رسول الله ﷺ :

واختار رسول الله ﷺ من أصحابه رسلاً وكان يدقق الاختيار في الأنسب لكل مهمة ، فاختار من بين أصحابه مَنْ لهم معرفة وخبرة بالجهات المرسلين إليها .



شكل ١٥

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٠٧ .

فكان رُسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء على النحو التالي :

- دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم
 - عبد الله بن جذامة السهمي إلى كسرى ملك الفرس
 - عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة
 - حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر
 - الحارث بن عمير إلى حاكم بصرى
 - عمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي ملكي عُمان
- كما أرسل إلى غير هؤلاء من رؤساء الدويلات المحيطة بالجزيرة العربية .

وانطلق الرسل جميعهم إلى أنحاء الأرض في وقت واحد يحملون رسالة الرحمة من رسول الله ﷺ ، وكانت كل الرسائل تحمل نفس المعنى ونسوق منها مثلاً ما كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتبع الهدى : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين " (١) (الخدم والحشم وفلاحي القرى ، يقصد رعاياه) .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران : ٦٤]

ومن هذا الخطاب نلاحظ :

- أن الخطاب كان سهلاً في لفظه قوياً في معناه .
 - يحمل صلابة الموقف مع الاحترام اللائق بالمرسل إليه ، وكان هناك اختلافٌ طفيفٌ في نصّ الكتب المُرسلة ، حسب المرسل إليه .
- وتباينت ردود الأفعال من الملوك والأمراء وهو ما سنعرض إليه لاحقاً .

(١) - مسلم ١٧٧٤ ، البخاري ٧ .

خيبر

أسباب الغزوة :

بإبرام صلح الحديبية أمن رسول الله ﷺ قريشًا وأمن الجنوب كله لكنه لم يأمن الشمال ، وفيه يهود خيبر وهم الذين يَكُونُ البغضاء للنبي ﷺ وللمسلمين ، وهم الذين حَزَبُوا الأحزاب ضد المسلمين وأثاروا بني قُريظة على الغدر والخيانة .

فلما عاد المسلمون من صلح الحديبية دون أن يدخلوا مكة أو يطوفوا بالبيت ، وقبلوا بشروط الصلح وكان فيها بعض الإجحاف بالمسلمين ظن اليهود أن ذلك لم يَكُنْ إلا ضعفًا ، ففكروا أن يثاروا لأنفسهم ولإخوانهم الذين طُردوا من المدينة من بني قَيْنِقَاع وبني النضير وبني قُريظة وأعدوا لذلك عدتهم ، وبعثوا إلى غطفان ليعاونهم على حرب المسلمين ، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين .

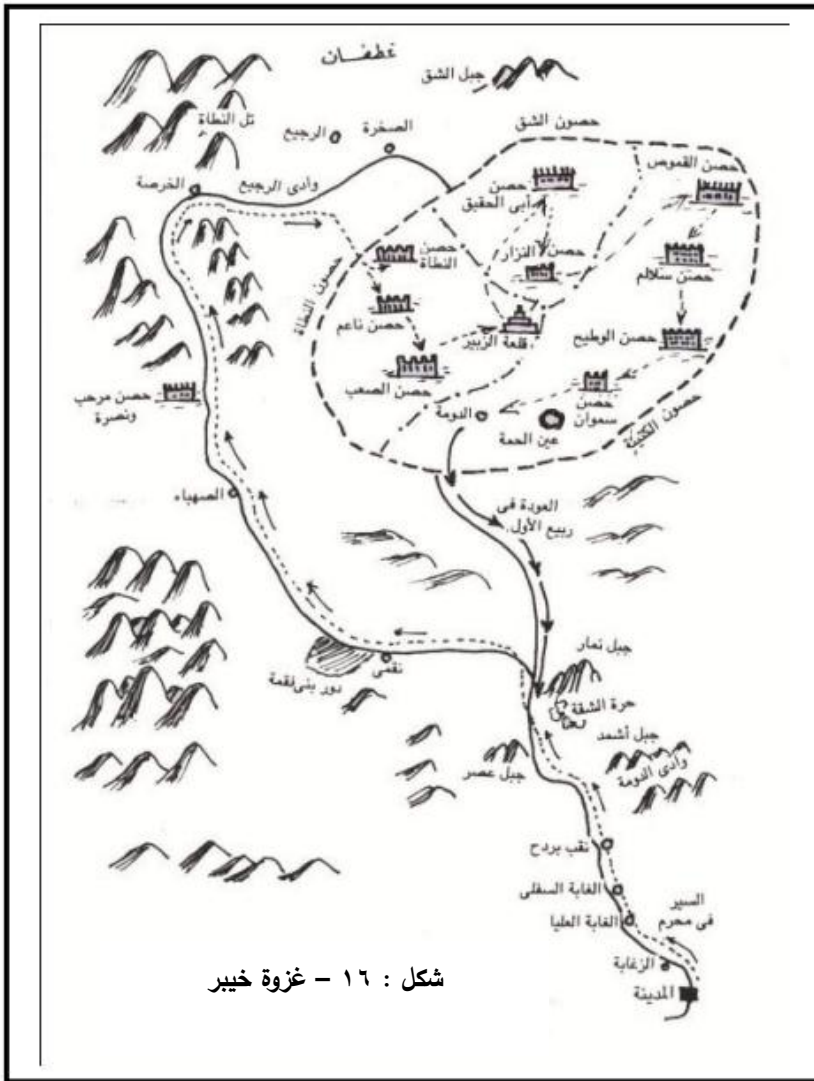
وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون متعددة في مجموعات يحمي بعضها بعضًا وبها مزارع كثيرة ، وهي تقع على بُعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة ، وهي آخر معقل لليهود في أرض الجزيرة العربية ، وإليها لجأ معظم يهود المدينة ممَّن طُردوا منها عقابًا لغدرهم وخيانتهم .

الخروج إلى خيبر :

ونظرًا لهذا الخطر المُحدق بالمسلمين والقادم من الشمال لم ينتظر رسول الله ﷺ حتى يفاجئوه ، فأمر الناس بغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا مَنْ شهد الحديبية ، وجاءه المنافقون الذين تخلفوا عن الحديبية للخروج رجاء الغنيمة فقال لهم رسول الله ﷺ : " لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد . أما الغنيمة فلا " فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

في الطريق إلى خيبر :

وخرج رسول الله ﷺ ومَنْ معه في محرم سنة ٧ هـ أي بعد شهرين من الحديبية ، وكان معه من نسائه أم سلمة . ومَرَّ على الغابة العليا ثم الغابة السفلى ثم نقب بردخ ثم جبل عصر ثم الصهباء ثم إلى وادي الرجيع . الذي يقع بين ديار غطفان وخبير ليمنع النقاء الحليفيين (شكل ١٦) فلما سمعت غطفان بنزول رسول الله ﷺ في وادي الرجيع خرجوا متوجهين إلى خيبر ليظاهروا اليهود .



فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسًا ولغطًا فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهليهم ، فرجعوا وخلصوا بين رسول الله ﷺ وخبير ، وواصل جيش المسلمين السير نحو خبير ، وسلك طريقًا يُدخلهم إلى خبير من الشمال ، فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام .

اليهود يرتجفون :

وبعد سَيْر ثلاثة أيام حتى كانوا أمام حصون خبير ، ولم تَكُنْ خبير تحسّ بهم أثناءها ، وكان الليل قد أقبل ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يغزُهُم حتى يصبحوا فباتوا ، وفي الصباح فُتحت الحصون وخرج الزُّرَّاع والرُّعاة إلى عملهم ، فلمَّا رأوا جيش المسلمين ، ولوا الأدبار يتصايحون : هذا محمد والجيش معه .

فلمَّا سمعهم رسول الله ﷺ قال : "خربت خبير ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" (١) . فكان اليهود في حصونهم يرتجفون ، مع أنهم كانوا حوالي عشرة آلاف مقابل ألف وأربعمائة من المسلمين .

وكان عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين - قد أرسل لهم يخبرهم بسير رسول الله ﷺ إليهم ، ويؤكد لهم أن قوم محمد شرذمة قليلون ، عُزِّل لا سلاح معهم إلا قليل .

ورغم هذا كله إلا أن الله قذف في قلوبهم الرعب ، فراحوا يرتجفون خوفًا ، وحاصر المسلمون حصون خبير .

حصون خبير :

تنقسم حصون خبير إلى ثلاث مناطق : (شكل ١٦)

أ. منطقة حصون النطاة ، وبها :

١ - حصن النطاة .

٢ - حصن ناعم .

(١) - صحيح البخاري ٤١٩٧ .

٣ - حصن الصعب بن معاذ .

٤ - حصن قلعة الزبير .

ب . منطقة حصون الشق وبها :

١ - حصن ابن أبي الحقيق .

٢ - حصن النزار .

ج . منطقة حصون الكتيبة ، وبها :

١ - حصن القموص .

٢ - حصن الوطيح .

٣ - حصن السّلام .

وفي خيبر حصون وقلاع أخرى إلا أنها صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها .

معسكر جيش المسلمين :

وتقدم رسول الله ﷺ ونزل قريباً من حصن النطاة ، فجاءه الحُباب بن المنذر ، فقال : يا رسول الله أرايتَ هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأي والحرب ؟ فقال : بل هو الرأي ^(١) . فقال : إن هذا المنزل قريب من حصن نطاة وبه جميع مقاتلي خيبر وهم يدرون أحوالنا ، ولا ندري أحوالهم . وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم . فلو أمرتَ بمكان آخر نتخذهُ معسكراً . فعدل رسول الله ﷺ عن ذلك الحصن ، وأمر بالتمركز حول حصن ناعم .

بداية القتال وبشائر النصر ^(٢) :

وبدأ القتال وراح المسلمون يُمطرون اليهود المدافعين عن حصن ناعم بوابل من السهام ، واليهود يستميتون في القتال ، حتى إذا اشتد عليهم المسلمون رجعوا إلى حصونهم

(١) - الرحيق المختوم ص ٢٥١ .

(٢) - كتاب المغازي ، ٣٩٦٠ ، كتاب الجهاد و السير مسلم ١٨٠٢ .

فدخلوها ، وأغلقوا بابها . وتتابعت الأيام على هذا الحال ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى الحصن كي يفتحه ، فقاتل ورجع دون أن يفتحه .

وفي الغداة بعث عمر بن الخطاب ، فكان حظّه كحظّ أبي بكر فقال رسول الله ﷺ

: " لأعطينَ الرايةَ غداً رجلاً يُحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولى الدُّبر ويفتح الله على يديه " (١) . ويات المسلمون ليلتهم ، كل واحد يتمنى أن يكون هو مَنْ يُعطي الراية . فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : إنه يشتكي عينيه . قال : فأرسلوا إليه ، فأتى عليّ وقد أصاب عينه رمداً فوضع رسول الله ﷺ يديه الكريمتين على عينه وذلكهما ، فبرأ فأعطاه رسول الله ﷺ الراية وقال له : " انفذ عليّ رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم " (٢) .

ومضى عليّ بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجلٌ من اليهود فطرح ثُرسه من يده ، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن فنترس به ، وتقهقر المسلمون بعض الشيء ولكنهم رأوا ثبات عليّ بن أبي طالب فتشجعوا وكرّوا على اليهود ، أما عليّ فلم يزل يقاتل والباب في يده متترساً به ، حتى فتح الحصن وجعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى أبنية الحصن .

تتابع فتح الحصون :

بعد فتح حصن الناعم ، كان فتح حصن النطاة وهما من أصعب الحصون وأكثرها مناعةً ، ثم توالت بعد ذلك فتح الحصون الواحد تلو الآخر :

حصن الصعب بن معاذ :

فتحه المسلمون بعد ثلاثة أيام من الحصار ، قاد الهجوم الحباب بن المنذر، وبعد فتحه قلّت حاجة المسلمين ، فقد وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكنّهم من متابعة القتال .

(١) - البخاري ٤٢١٠ .

(٢) - البخاري ٤٢١٠ .

قلعة الزبير :

بعد ذلك تحوّل اليهود إلى قلعة الزبير ، فقاد رسول الله ﷺ الهجوم وحاصرهم ثلاثة أيام قبل أن يفتحه، قُتل فيه نفر من المسلمين وأصيب عشرة من اليهود .

قلعة ابن أبي الحقيق :

بعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة ابن أبي الحقيق وتحصنوا بها فقاد الهجوم أبو دُجانة سماك - صاحب العصابة الحمراء - وتم فتحها ، وبعدها تسلل اليهود إلى حصن النزار .

حصن النزار :

وكان من الحصون المنيعة وقد أبقى فيه اليهود الذراري والنساء ، ولم يتم اقتحامه إلا بعد أن قذف المسلمون جدرانه باستخدام آلات المنجنيق .
وبذلك تم فتح حصون منطقتي النطاة والشق .

حصون منطقة الكتيبة :

وبها حصون القموص والسّلالم والوطيح وكانت آخر حصون خيبر ، وقد فرض عليها رسول الله ﷺ الحصار أربعة عشر يومًا واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى صمم رسول الله ﷺ بنصب المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

صلح خيبر :

بعد فتح الحصون صالحت خيبر رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ، وأن يخلوا بينه وبين ما كان لهم من أرض ومال وزرع وأنعام . وبهذا الصلح تم تسليم الحصون للمسلمين وبذلك تم فتح خيبر .

وعامل رسول الله ﷺ يهود خيبر بغير ما عامل به بني قَيْنُقَاع وبني النضير حين أجلاهم عن أرضهم لأنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود ، وأنه لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبدًا .

ثم إنَّ ما كان لها من مزارع كان يحتاج للأيدي العاملة الكثيرة فأبقاهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح ، وهو ما يوفر الأيدي العاملة بين المسلمين للقيام بدورهم في الجهاد ، وأقرَّ رسولُ الله ﷺ لهم نصف ثمرها مقابل عملهم ، وجعل رسول الله ﷺ عليهم عبد الله بن رواحة ، يأتيهم كل عام ليكون بينهم في تقدير الثمر وقسمته .

إحسان النبي لليهود :

وكان من إحسان النبي ﷺ في معاملة يهود خيبر أنْ كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عدة صحائف من التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبي ﷺ بتسليمها لهم ، ولم يصنع كما فعل الرومان حين فتحوا أورشليم ، وأحرقوا الكتب المقدسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا كما فعل النصارى في حرب اضطهاد اليهود في الأندلس .

غنائم خيبر :

كانت غنائم خيبر من أكبر الغنائم التي حصل عليها المسلمون في غزواتهم من حيث الأراضي والأطعمة والثياب والسبايا فقسمها رسول الله ﷺ بعد أن أفرز الخمس وكان من بين السبايا صفية بنت حُيي بن أخطب - زعيم بني النضير - فأعتقها رسول الله ﷺ فأسلمت وتزوَّجها .

وكان قد قُتل من اليهود ٩٣ رجلاً واستشهد من المسلمين ٢٠ رجلاً .

قدوم جعفر بن أبي طالب ومهاجري الحبشة :

كان مهاجرو الحبشة يتابعون ما يحدث في مكة ، ثم بلغهم هجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إلى المدينة ، وسُرُّوا لانتصار المسلمين ببدر ، وكذلك لما علموا بصلح الحديبية ، وما أضفاه من صفة النَّدية ، بين قريش والمسلمين وكان رسول الله ﷺ قد رأى أنه لا داعي لبقائهم أكثر من ذلك ، وقد تغيرت الأحوال إلى الأفضل فأرسل إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، رسالة أخرى غير التي أرسلها مع عمرو بن أمية يدعو فيها للإسلام مع باقي الملوك والأمراء ، رسالة يطلب منه السماح لهم بالعودة ، فغادروا في سفينتين ونزلوا بميناء ينبُع ثم ساروا إلى المدينة .

فلما علموا بسير رسول الله ﷺ إلى خيبر لحقه الرجال إلى هناك ، وبقيت النساء ، وكان من بينهن (رملة) أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكان رسول الله ﷺ قد طلب من النجاشي أن يتزوجها بالوكالة عنه ، فلما وصلت المدينة دخلت أحد بيوت النبي ﷺ .

أما الرجال فلما قدموا إلى رسول الله ﷺ بخيبر وكان على رأسهم جعفر ابن أبي طالب ، وتصادف وصولهم يوم فتح خيبر . فرح رسول الله ﷺ بمقدمهم ، وخاصة جعفر ، فتلقاه رسول الله ﷺ وقبّل ما بين عينيه وقال : " والله ما أدري بأيّهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدم جعفر " (١) .

محاولة أخرى لاغتيال رسول الله ﷺ - الشاة المسمومة :

كانت المحاولة الأولى من اليهود - كما أسلفنا - في ديار بني النضير ، لما حاولوا قتل رسول الله ﷺ بإلقاء حجر على رأسه لكن الله نجاه منها .

وها هي المحاولة الأخرى للاغتيال من اليهود : فلما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها وتوقيع الصلح مع أهلها أهدت زينب بنت الحارث - امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلية ، وكانت قد سألت أيّ عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع ، فوضعت السّم في الشاة وأكثرت منه في الذراع ، ثم جاءت بها ووضعتها بين يدي رسول الله ﷺ فتناول الذراع فلاك منها مضغاً فلم يُسغها ولفظها ، ثم قال : " إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم " (٢) ثم دعا بها فاعترفت فلما سألها عما حملها على ذلك قالت : لقد بلغت من قومي - اليهود - ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسُخبر ، فعفا عنها رسول الله ﷺ وكان معه بشير بن البراء بن معرور أخذ منها أكلة فأساغها فمات منها .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٥٩ ، المستدرک علی الصحیحین ٤/٢١٧ .

(٢) - مسند الزار ١٢/٢٠٦ " إن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة " .

إذعان باقي يهود شبه الجزيرة :

يهود فدك :

كان رسول الله ﷺ لمّا سار إلى خيبر بعث إلى يهود فدك يدعوهم للإسلام فأبطنوا عليه ، فلما جاءهم خبر فتح خيبر قُذِف الرُّعْب في قلوبهم وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل به أهل خيبر فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك كلها خالصة لرسول الله ﷺ لأنها أخذت بدون قتال فلم يُوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب .

يهود وادي القرى :

لمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى وكان بها جماعة من اليهود وانضم إليهم جماعة من العرب ، فلما جاء المسلمون استقبلوهم بالرمي بالسهم ، فقاتلهم المسلمون وقتلوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم غنائم كثيرة ، فاضطروا إلى الإذعان والصلح كما فعلت خيبر .

يهود تيماء :

لما بلغ يهود تيماء خبر استسلام خيبر ثم فدك ووادي القرى فلم يُبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح ، فقبل بذلك رسول الله ﷺ ، وصالحهم على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين .

العودة إلى المدينة :

بعد ذلك أخذ رسول الله ﷺ في العودة إلى المدينة مؤيداً منتصراً ، وقد دان اليهود في شبه الجزيرة لسلطانه ، وتضعض في بلاد العرب مركزهم وكان ذلك في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول سنة ٧ هـ .

عودة الرُّسلُ وردود أفعال الملوك والأمراء

كنا قد أسلفنا أن رسول الله ﷺ بعد الحديبية أرسل رسائل إلى ملوك وأمراء الدول والدويلات المجاورة ، حملها رُسله إلى أرجاء المعمورة ، ولعل رحلة الذهاب والعودة استغرقت نحو شهرين أو أكثر - فترة خبير وما بعدها - فلما عاد رسول الله ﷺ

إلى المدينة ، بدأ بعدها الرسل يعودون إلى المدينة، ومع كل منهم الرد .
وفيما يلي سنعرض لأهم هذه الردود :

١ - رد هرقل ملك الروم :

لمَّا وصل كتاب رسول الله ﷺ يحمله دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم ، وكان عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلب على الفرس فلما تُلّي عليه الخطاب لم يغضب ، ولم تتثر تائرتة .

حديث أبي سفيان :

ثم قال : انظروا لنا أحداً من قوم هذا الذي يدعي أنه نبي لنسأله عنه ، وقد تصادف وجود أبي سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة فجاءت رسل هرقل لأبي سفيان فدعوه ومنّ معه للقاء الملك ، فلما وصل أبو سفيان في ركبٍ من القريشيين دعاهم الملك إلى مجلسه وسألهم من خلال ترجمان - أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ ؟ فقال أبو سفيان : أنا .

فلم يَكُنْ في الرُّكب من بني عبد مناف غيره . فقال الملك : أدنيه مني ، ثم أمر بأصحابه فجعلهم خلف ظهره ثم أبلغهم : إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه حتى لا تخجلوا من رد كذبه عليه إن كذب ، ثم بدأ الملك يسأل أبا سفيان ، ودار بينهما الحوار التالي :

هرقل : كيف نسبُ هذا الرجل فيكم ؟

أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل كان يغدر إذا عاهد؟

أبو سفيان : لا ، ونحن الآن معه في ذمة ، لا ندري ما هو فاعل فيها ؟

هرقل : هل كان من آبائه من ملك .

أبو سفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

أبو سفيان : بل ضعفاؤهم .

هرقل : فهل يزيدون أم ينقصون ؟

أبو سفيان : بل يزيدون .

هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبو سفيان : نعم .

هرقل : كيف كان قتالكم إياه ؟

أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

هرقل : فيما يأمركم ؟

أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً ، وينهي عما كان يعبد آباؤنا ،

ويأمر بالصلاة ، والصدق ، والوفاء ، بالعهد وأداء الأمانة .

فلما انتهى هذا الحوار قال الملك : إن هذه الصفات لا تكون إلا لرسول ، وإن كان ما

كلمتني به حقاً ، فسيملك موضع قدمي هاتان ، ولو أعلم أنني أخلص إليه ، التكلفت ذلك

وذهبت إليه .

وهنا ارتفعت الأصوات وكثر اللغظ . وأمر الملك أبا سفيان ومن معه فخرجوا من عنده ،
فلما خرجوا قال أبو سفيان لأصحابه : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة .

يقصد رسول الله ﷺ . إنه ليخافه ملك بني الأصفر - يقصد ملك الروم - .

أما هرقل فقد رد دحية ردًا جميلاً ، وحمله الهدايا لرسول الله ﷺ ، فلما أتى بها إلى رسول
الله ﷺ وبلغه رده . قسمها بين المسلمين .

٢ - رد كسرى ملك الفرس :

لما وصل كتاب رسول الله ﷺ يحمله عبد الله بن خذافة السهمي إلى كسرى وكان ما زال
يعاني من آثار هزيمته أمام الروم ، فما أن قُرئ الكتاب عليه حتى مزقه
وقال في غطرسة : عبدٌ من رعيتي يكتب اسمه قبلي . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ
قال : " مَرْقُ الله مُلكه " (١) . وقد كان ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً . ولم يكتف
كسرى بذلك فحسب ، بل كتب إلى بازان ، عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي
بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به . فأوفد بازان بوزيرين من عنده مع وزير كسرى إلى
رسول الله ﷺ . فلما قابلوه قالوا له : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى
الملك بازان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيك إليه . فإنْ أبيت هلكت وهلك قومك ، فقال لهم
رسول الله ﷺ : " ارجعوا حتى تأتوني غداً " (٢) .

وكان في تلك الليلة أن شيرويه (ابن كسرى) قد ثار على أبيه وقتله وجلس مكانه ، وعلم
رسول الله ﷺ بالخبر من الوحي . فلما كان الصباح جاء وزير كسرى ووزيرا بازان ، فقال
لهم رسول الله ﷺ : " بلغوا صاحبكم - يقصد بازان - إن ربي قتل ربه كسرى في هذه
الليلة ، لسبع ساعات مضت ، وإن الله سلط عليه ابنه شيرويه فقتله " (٣) .

(١) - البداية و النهاية لابن كثير .

(٢) - نفس المصدر (البداية و النهاية) .

(٣) - رواه الطبري في التاريخ عن يزيد بن أبي حبيب مرسلا ، وابن سعد في الطبقات

فلما غدوا على بازان وأخبروه بالخبر ، فقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال . وبعد أيام جاء الخبر ووصله كتابٌ من شيرويه يقول له فيه : انظر الرجل الذي كتب فيه أبي إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فأيقن بازان أنه رسول الله ، فأسلم وأسلمت اليمن كلها .

٣ - رد النجاشي - ملك الحبشة :

كان طبيعياً ، بعد الذي عرفنا من صلوات النجاشي بالنبى ﷺ وبالمسلمين أن يكون رده جميلاً ، فلما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي ، أخذه ووضعه على عينيه ونزل من سريره إلى الأرض وأسلم ، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ وكان رسول الله - كما أسلفنا - قد بعث بكتاب آخر ، يطلب رد المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة ، فجهز لهم النجاشي سفينتين ، حملناهم ، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب ، ومعهم " أم حبيبة " رملة بنت أبي سفيان - بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش - وقد أصبحت أم حبيبة بعد عودتها إلى المدينة من أزواج النبي ﷺ وأمهات المؤمنين .

ولمّا ثوِّقَى النجاشي سنة ٩ هـ ، نعاه رسول الله ﷺ وصلي عليه صلاة الغائب .

٤ - رد المقوقس - حاكم مصر :

كان رد المقوقس غير رد كسرى ، بل كان أجملَ من رد هرقل . حمل حاطب بن أبي بلتعة رسالة رسول الله ﷺ إليه ، وكان يحكم باسم هرقل قيصر الروم ، وكانت الإسكندرية مقر حكمه . فلما قرأها قال : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على منْ خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : أأست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما باله حين أخذه قومه ليقتلوه ألا يكون دعا عليهم ، أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه إليه . فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال : إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدتُ معه آية النبوة : إخراج الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

ثم أخذ كتاب النبي فجعله في حُقٍّ من عاج وختم عليه . وأكرم المقوقس حاطبَ بن أبي بلتعة وأعطاه هدية إلى رسول الله ﷺ : جاريتان ، وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وخمسة أثواب ، ودعا مَنْ كتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًّا قد بقى وكنت أظنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك ، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبثياب وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك " لم يزد على هذا ولم يسلم .

وكانت الجاريتان هما : مارية التي اصطفاها النبي ﷺ لنفسه وولدت له ابنه إبراهيم من بعد ، وسيرين التي أعطاه رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت . أما البغلة فأسمها رسول الله ﷺ دُولُذِل .

٥ - رد أمير بُصرى :

كان أشد الردود قسوةً ، إذ ذهب الحارث بن عُمير الأزدي برسالة رسول الله ﷺ إلى أمير بُصرى . فلما بلغ الحارث أرض مؤتة تعرض له شُرحبيل بن عمرو - أحد كبار الغساسنة - فقال له : أين تريد ؟ فقال : الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأمر به فضُربت عنقه .

وهذا إنَّمْ كبير في الأعراف المُتبعة آنذاك ، أن يُقتل رسولٌ يحمل رسالة ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره . ولمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ ، حزن حزناً شديداً ، وكان ذلك سبباً في إرساله ﷺ سريةً مؤتة ، كما سيأتي فيما بعد .

وبهذه الكتب وبهذه الردود ، يكون رسول الله ﷺ قد بلَّغ رسالته إلى أكثر ملوك الأرض منهم مَنْ آمن به ، ومنهم مَنْ كفر ، ولكنه شغل فكر هؤلاء ، وعُرف لديهم اسمه .

عمرة القضاء

خروج المسلمين إلى مكة :

استدار العام بعد الحديبية ، وهلّ شهر ذي القعدة سنة ٧ هـ وأصبح رسول الله ﷺ وأصحابه في جِلِّ بعدهم مع قريش من الدخول إلى مكة وأداء العمرة قضاءً عن العمرة التي صدتهم قريش عن أدائها العام السابق ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه للتجهز للخروج إلى العمرة وألاً يتخلف منهم أحدٌ شهد الحديبية ، فخرج معه كل من شهد الحديبية إلا من استشهد بخبير ، وخرج آخرون لم يشهدوا الحديبية ، حتى كان عددهم ألفين ، سوى النساء والصبيان بعد أن كان عددهم ١٤٠٠ في العام السابق . وتنفيذاً لعهد الحديبية ، لم يحمل أحدٌ من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا سلاح المسافر . السيف في قرابه .

إلا أن رسول الله ﷺ كعهده ، لم يترك شيئاً للصدفة ، فأخذ حذره وجهازه مائة فارس ليكونوا في طليعة الركب يحملون السلاح والدروع والرماح وجعل على رأسهم محمد بن مسلمة ، وذلك خشيةً أن يقع من قريش غدر ، وأن يُخرجوا قبائل من حلفائهم لمهاجمة المسلمين قبل منطقة الحرم ، فلو كانوا غير مسلحين لكانوا لقمّة سائغة لهم.

دخول مكة :

وسار الركب يتقدمهم رسول الله ﷺ على ناقته القصواء ، وقد ساق ستين بدنة . ولمّا بلغ ذا الخليفة أحرم للعمرة وأحرم المسلمون معه ، ولبّي ولبّي المسلمون معه . فلما بلغ يأجج (وادي قبل مكة ب ١٨ كم) أمر بوضع السلاح هناك وأمر عليه أوس بن حولى في مائتي رجل يحرسونه ، وذلك احتراماً لعهد مع قريش ألا يدخل مكة إلا بسلاح المسافر .

ودخل رسول الله ﷺ مكة والمسلمون حوله ، يُلبون ويكبرون . وما أن رأى المهاجرين البيت الحرام حتى كادت تخنقهم العبرات ، أن عادوا - وإن كانت عودة قصيرة - إلى البلد الحبيب مكة إلى أرض صباهم وشبابهم ، ولكلّ منهم من الذكريات ما لبثت أن تعود إلى المخيلة .

إجلاء قريش عن مكة :

أما أهل مكة من المشركين فقد خرجوا إلى جبل أبي قُبَيْس وغيره من الجبال والتلال - نزولاً على صلح الحديبية - لإخلاء مكة للمسلمين ، ليؤدوا مناسكهم . وقال قائلٌ منهم : يقدم عليكم وفدٌ - يقصد المهاجرين - قد أوهنتهم حُمَى يثرب . وأطلع الله نبيّه على ما قالوا .

المسلمون يطوفون بالكعبة :

وبدأ رسول الله ﷺ والمسلمون من حوله يطوفون بالكعبة في حشد جلل ، اهتزت له أرجاء المكان ، وكان هذا الصوت المنبعث من القلوب يدوي : لبيك اللهم لبيك ، كان يخترق آذان أهل مكة ويهز قلوبهم .

ولمّا علم رسول الله ﷺ بمقولة المشركين بأن الحُمَى أوهنت أهل يثرب ، قال لأصحابه : " اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم في نفسه قوة " (١) . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود ، وهول وأصحابه معه ، فلما استلم الركن اليماني مشي حتى استلم الحجر الأسود مهرولاً من جديد ثلاثة أشواط . ومشى سائرهما والمسلمون معه ، يهرولون كما يهرول ويمشون كما يمشي . وقريش تنظر وقد التهم الحقد قلوبهم .

ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، وبعد انتهاء السعي سبعة أشواط نحر الهدي عند المروة وحلق هناك . وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث أناساً إلى بطن يأجج لحراسة السلاح ويأتي آخرون فيقضون مناسكهم ففعلوا ، وبهذا أتمّ المسلمون طوافهم بالبيت آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومُقصرين كما رأى رسولُ الله ﷺ في منامه .

ثلاثة أيام في مكة :

وبعد أداء العمرة ، ولمّا كان الغد، عاد رسول الله ﷺ إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر ، وأمر بلالاً أن يعتلي ظهر الكعبة ويؤذن للصلاة . وصلى النبي الظهر بألفين

(١) - ابن كثير السيرة النبوية ٣/٤٣٠ .

من المسلمين صلاة الإسلام عند البيت الذي كان يُصد من سبع سنين عن الصلاة عنده ، وأقام المسلمون بمكة ثلاثة أيام تنفيذًا لصلح الحديبية ، لا يصيبهم فيها أذى ، ولا يعترضهم أحدٌ بسوء ، والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويسترجعون الذكريات في مراتع الصِّبا والشباب ويُزيرون أصحابهم من الأنصار إياها .

وفي هذه العمرة ، تزوج رسول الله ﷺ من برة (ميمونة) بنت الحارث - أخت أم الفضل - ، زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ - ولمَّا انقضت الأيام الثلاثة جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ في نفر من قريش وقال: أنشدك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا ، فقد مضتْ الثلاث . وأراد النبي ﷺ أن يُطيل مُكثه في مكة ، عسى أن يقتنع رجالها ويُسلموا فقال : ((إني نكحت فيكم امرأة فيما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها ، وأصنع الطعام فأأكل وتأكلون معنا ؟)) (١) .

ولكن قريشًا خشيتُ من أن يزداد عدد من يتبعونه فردُّوا بغلظة : لا حاجة لنا في طعامك ، اخرج من أرضنا .

فأمر النبي ﷺ بالرحيل ، وطاف المسلمون بالكعبة طواف الوداع ، وانسلوا خارجين من مكة ، ولمَّا أراد رسول الله ﷺ الخروج من مكة ، تبعتهم عمارة بنت حمزة وكانت قد أسلمت وأرادت أن تلحق بهم ، فقال النبي ﷺ : علام نترك بنت عمنا يتيمَةً بين أظهر المشركين ؟ (٢) واختصم فيها علي وجعفر وزيد ، ففضى النبي ﷺ لجعفر لأن خالتها كانت تحته .

عودة إلى المدينة :

بعد ذلك أخذ المسلمون سلاحهم ، وساروا راجعين إلى المدينة ، وقد تركت عمرة القضاء أثرًا عظيمًا في نفوسهم ، وكذلك أثَّرت في نفوس قريش وأهل مكة جميعًا ، وهو ما ظهر أثره سريعًا في إسلام بعض من ساداتها .

(١) - السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٣٣ .
(٢) - رواها الواقدي وابن كثير في البداية و النهاية

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة :

بعد أداء رسول الله ﷺ ومنَّ معه للعمرة ودخولهم وخروجهم من مكة آمنين ، بدأ خالد بن الوليد يفكر ودارَ في خلدِه هذا الصراع بين قريش و رسول الله ﷺ وكيف أن الله نصر المسلمين في بدر مع قلة عددهم . وكاد أن ينصرهم في أحد ، إلا أنه أهدى إلى قريش ميزة عسكرية لما احتلوا التل الذي أخلاه الرماة ، ومع ذلك لم تنتصر قريش ، بل إن رسول الله ﷺ والفئة القليلة معه ثبتوا حتى تخاذلت قريش وفرَّت .

وكذلك في معركة الأحزاب ، إذ انتصر المؤمنون وأرسل الله ريحًا أقلعت قريشًا وأحزابها ، بينما لم تسعف آلهة قريش أتباعها ولم تساعدهم على إحراز أي نصر . وها هو رسول ﷺ جاء للعمرة وخرج من مكة آمنًا ، وأتباعه في ازدياد .

فوضحت الحقيقة في ذهنه فوقف يقول في جمع من المشركين : " لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدًا ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق لكل ذي لب أن يتبعه " وفتح عكرمة وكذلك أبو سفيان وغيرهم لما سمعوا هذا القول ، وكادوا يقاتلونه إلا أن عكرمة منع نشوب القتال ، وقال : " مهلاً فوالله لقد خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، والله لقد خفتُ ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم "

خروج خالد ولقاء صاحبيه :

فخرج خالد من داره عازمًا الانطلاق إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ ويُسلم على يديه ، فقابلته عثمان بن طلحة - حارس الكعبة - فقال له : أما ترى محمدًا قد ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه فأتبعناه فإنَّ شرفه شرفٌ لنا . فقال عثمان : هذا هو الرأي وتواعدا على اللقاء للسير إلى المدينة ، فما سارا إلا قليلاً حتى لقيهما عمرو بن العاص الذي سأله خالدًا عن وجهتهما فأخبره بما انتوي عليه ، فقال عمرو : إنه ما سار هو الآخر إلا ليُسلم .

خالد وأصحابه في حضرة النبي ﷺ :

ووصل ثلاثتهم إلى المدينة ، ولما انتهوا إلى رسول الله ﷺ تقدّم خالد من رسول الله ﷺ ودار بينهما الحديث التالي :

خالد : السلام عليك يا رسول الله .

رسول الله ﷺ : وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله .

خالد : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ ألا يُسلمك إلا إلى خير .

خالد : يا رسول الله ، ادعُ الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك .

رسول الله ﷺ : الإسلام يجبُّ ما قبله .

وكذلك نطق عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة بالشهادتين . وعمّ المسلمين فرحٌ عظيم لإسلام هؤلاء الثلاثة من صناديد قريش لا يماثله إلا فرحتهم بإسلام عمر بن الخطاب في مكة ، وقد أسلم هؤلاء كثير من أهل مكة . وبذلك قويت شوكة الإسلام والمسلمين وأصبح فتح مكة أمراً لا ريب فيه (١) .

(١) - سير أعلام النبلاء للذهبي " السيرة النبوية " ٢٧/١٠٤ .

معركة مؤتة

وهي سرية وليست غزوة كما تذكر بعض كتب السيرة ، لأن رسول الله ﷺ لم يخرج فيها . كل ما خرج فيه رسول الله ﷺ من معارك يُسمى غزوة وما لم يخرج فيه يُسمى سرية او بعث - كما أسلفنا - وكانت مؤتة مقدمة لفتوح بلاد الشام ووقعت في جمادى الأول سنة ٨ هـ .

أسبابها :

كان رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - قد بعث الحارث بن عُمير بكتابه إلى حاكم بُصرى ، لما أرسل إلى ملوك وأمراء الدول . فلما كان بأرض مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - أحد كبار الغساسنة - ، وكان عاملاً على البلقاء من قبل هرقل . ولمّا علم أنه مرسلٌ من قبل رسول الله ﷺ أوثقه رباطاً ثم قتله .

وكان قتلُ السفراء والرسول من أبشع الجرائم ، يساوي أو قد يزيد عن إعلان حالة الحرب ، فلمّا بلغ رسول الله ﷺ ما حدث لمبعوثه فقرر الرد على هؤلاء .

التعبئة للمعركة - وصايا رسول الرحمة ﷺ للمقاتلين :

جهز رسولُ الله ﷺ جيشاً قوامه ٣٠٠٠ من خيرة رجاله ، وكان من بينهم خالد بن الوليد ، جندياً عادياً ، وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال : **إن قُتل زيدٌ فجعفر بن أبي طالب ، فإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن قُتل عبد الله فليترض المسلمون رجلاً فليجعله عليهم** " (١) وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عُمير - رسوله إلى حاكم بُصرى - وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوهم خيرًا ، فهو خيرٌ لهم ، وإن أبوا فليستعينوا بالله عليهم ويقاتلوهم .

وقال لهم : **" اغزوا بسم الله في سبيل الله ، مَنْ كفر بالله . لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ، ولا كبيرًا فانيًا ، ولا منعزلًا بصومعته ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناء "** (٢) فكان هذا ما وصّى به رحمة الله للعالمين جنده .

(١) - البخاري ٤٢٦١ .

(٢) - الرحيق المختوم ، عند الطبري المعجم الأوسط ٤/٢٦٨ " ولا شيئًا " .

توزيع الجيش :

وكانت الروح المعنوية للجنود مرتفعة ، وخرجوا وخرج رسول الله ﷺ مشياً لهم ، حتى بلغ ثنية الوداع ، ودعا لهم رسول الله ﷺ ، ودعا لهم المسلمون قائلين : صحبكم الله ودفن عنكم وردكم إلينا سالمين .

وكان اليوم يوم الجمعة ، فتخلف عن الركب عبد الله بن رواحة ، حتى يصلي الجمعة مع رسول الله ﷺ ، فلما قضيت الصلاة رأى النبي ﷺ عبد الله وسأله عن سبب تخلفه . قال : أردتُ أن أصلي الجمعة معك ثم ألحق بهم . فقال له رسول الله ﷺ : " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركتْ غدوتهم" ^(١) فأسرع عبد الله بن رواحة حتى لحق بهم .

تحرك الجيش ومباغرة العدو :

وتحرك الجيش الإسلامي ، وكان ظنهم أنهم سيقاتلون الغساسنة ، وكان أمراؤه يفكرون في أخذ القوم على غرة منهم . كعادة النبي ﷺ في سابق غزواته . فيسرع إليهم النصر ويعودون بالغنائم ، وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام ، وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم . فقد علم بقدمهم شرحبيل بن عمرو ، فجمع جموع القبائل ممن حوله ، وأرسل إلى هرقل ينجده بجيوش من عنده فكان جيشاً عرمرماً قوامه مائتا ألف - مائة ألف من هرقل ، ومائة ألف من القبائل المجاورة - فما عسى جيش المسلمين ذي الثلاثة آلاف يفعل مع هذا الجيش الكبير .

المسلمون يتشاورون :

أقام المسلمون في معان ليلتين ، يفكرون في أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ، فقال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإمّا أن يمدنا بالرجال ، أو أن يأمرنا فنمضي لِمَا أمرنا به .

وكاد هذا الرأي يسود ، لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة وعارض هذا الرأي ، على اعتبار

(٢) - مسند الإمام أحمد رقم ١٩٢٠ ، الترمذي في جامعه باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله ١٦٣٧ .

أن تأخير الالتحام سيعطي للعدو انطباعًا بأن المسلمين قد ساورهم الخوف ، وهو ما قد يزيد من روحه المعنوية ، بينما تتدنى الروح المعنوية للمسلمين . فقام عبد الله بن رواحة في الناس مخاطبًا وقال : يا قوم ، والله إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحُسنيين ، إما الظهور - النصر - أو الشهادة .

واستقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة ، وامتدت عدوى الشجاعة والنخوة من عبد الله بن رواحة إلى الجيش كله . وقال الناس : فوالله صدق ابن رواحة . ومضى الجيش في اتجاه بُصْرَى ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيهم جيشُ هرقل بقرية يُقال لها : " مَشَارِفِ " .

فلمَّا دنا العدو ، رأى زيد بن حارثة أن التلال لا تصلح للقتال فانحاز إلى قرية مؤتة أن رآها خير من مَشَارِفِ للتحصُّن بها ، وهناك بدأت المعركة حامية الوطيس ، بين مائتي ألف أو يزيدون من جيوش هرقل ، وثلاثة آلاف من المسلمين .

بداية المعركة واستشهاد زيد وجعفر وعبد الله :

حمل زيد بن حارثة راية رسول الله ﷺ ، وجعل يقاتل بضراوة وبسالة لا يوجد لها نظير ، فلم يزل يقاتل ويقاوم حتى قُتل . فلَمَّا سقطت الراية من يديه رفعها جعفر بن أبي طالب وطفق يقاتل بشجاعة ، حتى قتل من الرومان والغساسنة العدد الكبير ، فلما أرهقه القتال ، اقتحم على فرسه الشقراء فعفرها ، ثم قاتل حتى قُطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعًا إياها ، حتى قُتل .

يُقال إن روميًا ضربه ضربة قطعتة نصفين ، وقد أثابه الله أن أبدله بذراعيه جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء . كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ . ولذلك سُمي بجعفر الطائر أو الشهيد الطائر . ورُوي أنه وُجد به بضع وتسعون طعنة ، ليس منها شيءٌ في دبره - أي من ظهره - ولمَّا وقعت الراية بعد مقتل جعفر التقطها عبد الله بن رواحة ورفعها وظل يقاتل حتى قُتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله :

حينئذ تقدم رجل من عجلان اسمه ثابت بن أقرم فأخذ الراية وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . واصطلح الناس على خالد بن الوليد .

رسول الله ﷺ يُخبر الناس بما حدث :

وكان رسول الله ﷺ بالمدينة قد صعد على المنبر ، وأمر فنودي فاجتمع الناس ، ليخبرهم عن جيش المسلمين . قبل أن يأتي للناس خبرٌ من ساحة القتال . مُخبرًا بالوحي ، فقال : " أخبركم عن جيشكم هذا ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، أخذ زيدُ الراية فقتل شهيدًا ، ثم أخذ جعفر الراية فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيدًا ، ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قُتل شهيدًا " وبدأت عيناه ﷺ تذرغان بالدمع واستطرد قائلاً : ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله خالد بن الوليد حتى فتح الله عليه " (١) ومن يومئذ سُمي خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

نهاية المعركة ومناورة خالد بن الوليد :

لمَّا أخذ الراية خالد بن الوليد وكان قائدًا ماهرًا ومحررًا للجيش فأصدر أوامره فداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم واستعاد سيطرته على الجيش الصغير ، وصمد به حتى أرخى الليل سدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح وبدأ خالد يفكر في الانسحاب الآمن لجيشه وإنقاذه من إبادة محققة . فوضع خطته كالتالي :

- ١ - وزع عددًا غير قليل من رجاله في خط طويل في مؤخرة الجيش ليحدثوا صيحة وجلبة ، حتى يدخل الرعب في قلوب الأعداء ، أن مددًا جاءه من عند رسول الله ﷺ .
- ٢ - جعل ميمنة الجيش في ميسرته والعكس والمقدمة في المؤخرة والعكس .

(١) - البداية و النهاية ٤١٢/٤٣٦/٦ .

٣ - غيّر ملابس جنوده ورايتهم وهياتهم.

فلماً أصبح الصباح رأى العدو كأنه أمام جيش جديد ودخل في روعهم أن مدداً جاءهم من المدينة ، وقالوا فيما بينهم : إن كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بنا الأفاعيل في اليوم الأول ، وقتلوا خلقاً كثيراً . فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته ، لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد .

فهجم خالد هجمة شرسة على طول الجبهة ، مما أحدث ارتباكاً في جيش العدو وكثيراً من الفوضى فتقهقروا ، وظل خالد يحارب حتى تحطم في يده تسعة سيوف ، وراح يحارب بالعاشر . ثم أوقف القتال وبدأ سحب قواته إلى الخلف قليلاً قليلاً ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يمدعونهم ويحاولون القيام بمكيدة تلقي بهم في الصحراء . وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ونجح المسلمون في الانحياز سالمين حتى عادوا إلى المدينة .

قتلى الفريقين :

استشهد من المسلمين يومئذ اثنا عشر رجلاً ، وقُتل من الرومان ما يقرب من مائتين أو يزيدون .

الفرار الكرار :

غادر خالد وجنوده مؤتة ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، ويكفي أنه أنقذ جيشه من هزيمة ، بل هلاك محقق ، فغادر مؤتة ولم يكن معه غنائم ولا أسرى . فلما دخل المدينة وحسد الناس أنهم فرّوا من القتال ، فراحوا يحثون التراب عليهم ويقولون : يا فرّار ، فررت في سبيل الله . فمنعهم رسول الله ﷺ من ذلك وقال : " ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله " (١) .

وحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً على من استشهدوا ، خاصة زيد حب رسول الله ﷺ ، وجعفر ابن عمه وأقرب الناس له خلقاً وخلقاً .

(١) - السيرة النبوية لابن كثير وهو مرسل .

أثر معركة مؤتة :

كان لهذه المعركة ، وإن لم يكن للمسلمين فيها الظفر المبين ، إلا أنها تركت أثرًا كبيرًا ، فقد ألقى الرعب في قلوب العرب جميعًا الذين لم يفكروا ، ولم يظنوا أن أحدًا عنده القدرة على مقاومة الرومان - فكان هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف . الذي واجه الرومان بقوتهم الهائلة ، وانتهى من هذه المعركة بدون خسائر تُذكر ، لذلك بدأت القبائل اللدودة تنجح للإسلام - وانتشر الإسلام شمال الجزيرة - وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، وكان تمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية ونشر الإسلام بها .

سرايا وبعوث أخرى :

واستمر رسول الله ﷺ في إرسال السرايا والبعوث ، لتوطيد وتقوية المسلمين والرد على كل مَنْ يحاول التعدي على المسلمين من القبائل المجاورة .

فتح مكة

مر عامان على صلح الحديبية ، قويت فيها شوكة الإسلام وازداد سلطانه، وازداد أتباعه في أرجاء الجزيرة بل وصلت رسالته إلى كل ملوك وأمراء الأرض ، فلما كان نصر الله أمراً مقضياً كما وعد عبده بالفتح المبين : (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**) [الفتح : ١]
وأن الله إذا أراد أمراً هيئاً أسبابه وأزال موانعه ، فقد هيأ الله إلى هذا الفتح المبين والنصر العظيم أسبابه ، ليعز الله بهذا الفتح دينه ورسوله وجنده ، ليدخل الناس في دين الله أفواجا .

نقض قريش عهد الحديبية - سبب غزوة الفتح :

كان عهد الحديبية يقضي في أحد بنوده - كما أسلفنا - أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده ، دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - أي أن القبيلة التي تنضم إلى أي من الفريقين تُعتبر جزءاً من ذلك الفريق ، وأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل ، يُعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

وكانت خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية ، وأمن كل منهما الآخر . فحدث أن شخصاً من بني بكر راح يهجو رسول الله ﷺ وسمعه غلاماً من خزاعة ، فضربه وشج رأسه وأثار هذا الحادث العداء القديم بين القبيلتين .

وطلب بنو بكر من قريش أن يمدوهم بالرجال والسلاح ؛ فأمدوهم وكان أكثر قريش تلبيةً هم : صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو لعداوتهم

لرسول الله ﷺ ، فجاءوا خزاعة ليلاً فقتلوا منهم عشرين رجلاً ، وكان هذا نقضاً صارخاً لبنود صلح الحديبية.

استنصار خزاعة بالنبي :

لمّا هجم بنو بكر بمساعدة قريش على بني خزاعة ، فرّوا إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدِيل بن ورقاء الخزاعي ، وشكوا إليه نقض قريش ، ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله ﷺ . وسارع عمرو بن سالم الخزاعي فغدا متوجّهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد بين الناس ، وجعل يقصُّ عليه ما حدث ويستنصره . فقال له رسول الله ﷺ : " نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم " (١) .

ثم خرج بُدِيل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا رسول الله ﷺ بمنْ أُصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم فأخبرهم رسول الله ﷺ أن يعودوا إلى ديارهم وأن يتفرقوا في الأودية وأنه ناصرهم ، ولا يُحدّثوا أحداً بلقائه بهم ، فسُرَّ الوفد بما سمعوا ، وفهموا أنه يُضمّر أمراً ويريد منهم أن يكتموه . فغادروا ، ففريق عن طريق الساحل ، وفريق عن الطريق المعتاد .

عند ذلك رأى رسول الله ﷺ أنّ ما قامت به قريش من نقض للعهد ، لا مقابلَ له إلا فتح مكة . وكان رسول الله ﷺ قد دخل على عائشة وقال لها : " حدثٌ في خزاعة حدثٌ " فقالت : يا رسول الله أتري قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم ؟ قال : " ينقضون العهد لأمر يريده الله " (٢) .

مخاوف قريش - سفارة أبي سفيان :

أما حكماء قريش وذوو الرأي فيها ، فما لبثوا أن قدروا ما عرّضهم إليه شبابُ قريش من خطر ، فهذا عهد الحديبية قد نُقض ، وهذا سلطان رسول الله ﷺ في شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة . ولئن فكر في أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لكانَ هو الخطر الأعظم عليهم . لذلك استقر الرأي على أن تبعث قريشُ قائدها أبا سفيان ، في محاولة لتثبيت العقد وليزيد في المدة . فخرج أبو سفيان متجّهاً إلى المدينة ، فلما كان بعُسفان لقي

(١) - الراوي ابن اسحاق السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٩٤ .

(٢) - كتاب المغازي للواقدي ١/٣٢٠ .

بُديل بن ورقاء ، وبعض من وفد خزاعة - باقي الوفد تفرقوا في الأودية كما أمرهم رسول الله ﷺ - ، فسأل أبو سفيان بُديل : من أين أقبلت يا بُديل ؟ وظنَّ أنه أتى من عند رسول الله ﷺ فقال له بُديل : سرْتُ في خزاعة في مهمة صلح بإحدى قرى الساحل . قال : أو ما جئتُ محمدًا ؟ قال : لا .

فلما انصرف بُديلٌ ومنْ معه ، فت أبو سفيان في أبعار إبْلهم فوجد فيها النوى فعرف أنهم جاءوا المدينة وعلقوا بها ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بُديل محمدًا .

أبو سفيان في المدينة - إخفاق سفارته :

لمَّا أيقن أبو سفيان أنَّ بُديلاً كان بالمدينة ، آثر ألاَّ يكون رسول الله ﷺ أول من يلقي ، فجعل وجهته بيت ابنته ، أم حبيبة - زوج رسول الله ﷺ - فلمَّا دخل المدينة توجه إلى بيتها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوَّته عنه . فقال : يا بنية ، أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني ؟ قالت : بل هو فراشُ رسول الله ﷺ ، وأنت رجلٌ مشرك نجس .

فخرج أبو سفيان مغاضبًا ، وقال : والله لقد أصابك بعدي شرٌّ . ثم توجه إلى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئًا . ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلاَّ الذرَّ لجاهدتكم به . ثم جاء إلى

علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وابنها الحسن ، وكان غلامًا يدب بين يديهما ، فعرض عليه ما جاء به واستشفعه إلى رسول الله ﷺ فأخبره عليٌّ في رفق أن لا يستطيع أحد أن يرد رسول الله ﷺ عن أمر إذا هو اعتزمه . فالتقت إلى فاطمة يسألها أن يجبر ابنها الحسن بين الناس . فقالت : والله ، ما بلغ ابني ذاك أن يُجبر بين الناس ، وما يُجبر أحدٌ على رسول الله ﷺ .

واشتد الأمر على أبي سفيان ، وسأل عليًّا النصيحة ، فقال له : والله ما أعلم لك شيئًا يُغني عنك . ولكنك سيد بني كنانة ، فمُف فأجز بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو

ترى ذلك مُعْنِيًا عني شيئًا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس إنِّي قد أجزتُ بين الناس ، ثم ركب راحلته وانطلق ، ذاهبًا إلى مكة وقلبه يفيض أسى على ما لقيه من هوان .

ولمَّا عاد إلى مكة ، قصَّ على قومه ما لقي بالمدينة ، وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة علي بن أبي طالب . فسأله : وأجاز محمدًا ذلك ؟ قال : لا . قال قومه : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : والله ما وجدتُ غير ذلك .

الاستعداد للفتح :

أما رسول الله ﷺ ، فتجهَّز للتحرك إلى مكة وأمر أصحابه بذلك ، وقد رأى ألاَّ يترك للمشركين الفرصة حتى يتجهزوا للقائه ، فقد كان يرجو أن يبغت القوم في غرة منهم ، فلا يجدوا له دفعًا ، فيسلموا من غير أن تُراق دماء ، فاستنفر رسول الله ﷺ الأعراب الذين حول المدينة ، فقدم جمْعٌ من قبائل أسلم وغفار وعُرينة وأشجع وجُهينة ، حتى بلغ الجيش عشرة آلاف مقاتل ، وطوى رسول الله ﷺ الأخبار عن الجيش ، حتى لا يشيع الأمر ، فتعلم قريش وتستعد للحرب . ثم دعا ربه : " اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها " (١) .

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم ، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ، ليظن الظان أنه ﷺ سيتوجه إلى تلك الناحية . وواصلت السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت ، بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى الحقتة .

كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش :

بينما رسول الله ﷺ يستعد للسير إلى مكة وهو يكتم وجهته كما أشرنا إلاَّ أن أصحاب رسول الله ﷺ لمَّا علموا من نقض قريش العهد، ووصول عمرو بن سالم ، ثم من بعده بُديل بن ورقاء في وفد من خزاعة ، يسألون رسول الله ﷺ النصرة .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٩٨ .

ومن بعدها وفادة أبي سفيان . وهذا الجمع الهائل الذي دعا إليه رسول الله ﷺ للتحرك ، جعل الناس يعتقدون أن وجهته ستكون إلى مكة .

فقام حاطب بن أبي بلتعة ، وهو أحد الذين شهدوا بدرًا ، وكتب كتابًا إلى قريش يُخبرهم بنية رسول الله ﷺ في غزوهم ، وأعطاه لامرأة وجعل لها أجرًا أن تبلغه لقريش ، فجعلته في رأسها ثم فلتت عليه قرون شعرها ، ثم خرجت متوجهة إلى مكة .

وأعلم الله رسوله بما صنع حاطب فأرسل في إثرها عليًا والزبير والمقداد وقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خَآخ فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتابٌ لقريش ، فخذوه منها " (١) فانطلقوا تعادى بهم خيلهم ، حتى وجدوا المرأة في المكان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ ، فاستوقفوها وأنزلوها ، وقالوا لها : معكِ كتاب ؟ قالت : ما معي كتاب ، ففتحوا رحلها بحثًا عن الخطاب ، فلم يجدوه .

فقال لها عليٌّ : أحلف بالله ، ما كذب رسولُ الله ﷺ ، ولا كذبنا ، ولنُخرجنَّ هذا الكتاب أو لنكشفنك . كما نقول في عصرنا القيام بنفتيش ذاتي وهو ما يستدعي كشف عورتها . فلمَّا رأت المرأة الجِدَّ من عليٍّ قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلَّت قرون شعرها واستخرجت الكتاب ودفعتة إليه .

رسول الله ﷺ يعفو عن حاطب :

لمَّ أتوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ ، دعا حاطبًا ليسأله عمَّا فعل وقال له: يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : لا تعجل عليَّ يا رسول الله ، والله إنِّي لمؤمِّنٌ بالله ورسوله ، وما ارتدُّت ، ولا بدَّلتُ ، ولكني كنتُ امرءًا مُلصقًا في قريش - ليس لي أصلٌ ولا عشيرة - وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ ، وليس لي فيهم قرابةٌ يحمونهم ، فصانعتُهم عليهم ، ليكون لي يدٌ عندهم ، حتى يحفظوا ولدي وأهلي .

فقال رسول الله ﷺ : " إنه قد صدقكم " (٢)

(١) - اخرجہ البخاري ٣٠٠٧ ، ومسلم ٢٤٩٤ .

(٢) - البخاري ٤٢٧٤ ، ومسلم ٢٤٩٤ .

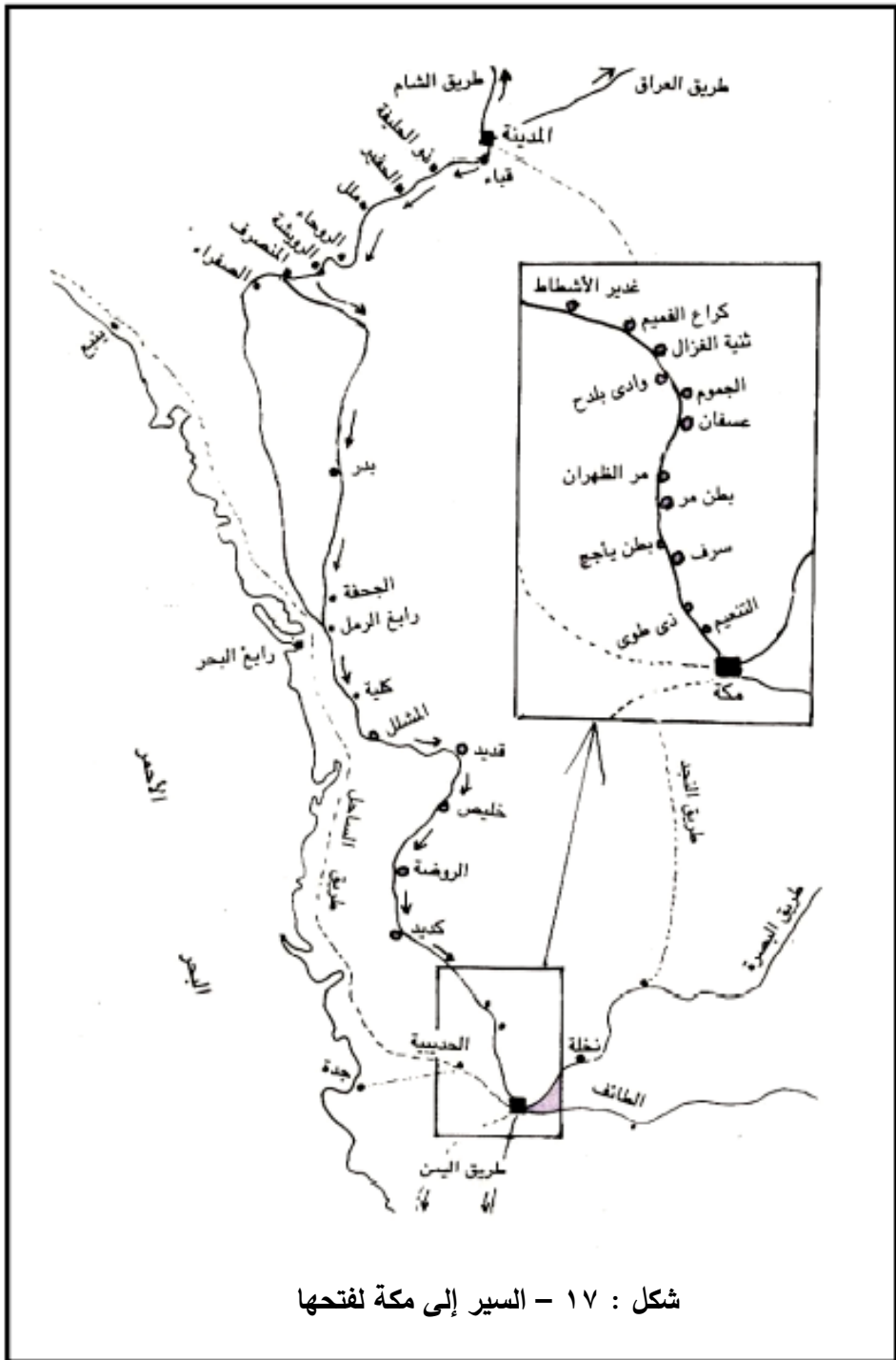
فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه خان الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : " إنه قد شهد بدرًا ، وما يُدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " (١) وعفا عنه رسول الله ﷺ .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..) [المتحنة : ١] . وهكذا أخذ الله العيونَ والأبصار ، فلم يبلغ إلى قريش أيَّ خبر من أخبار تجهيز المسلمين للزحف العظيم .

تحرك جيش المسلمين للفتح العظيم :

في العاشر من رمضان سنة ٨ هـ ، تحرك رسولُ الله ﷺ على رأس جيش من المسلمين ، بعد أن انضم إليه كثيرٌ من القبائل المجاورة - كما أسلفنا - وآخرون انضموا إليه في الطريق ، حتى وصل قوائم جيشه إلى عشرة آلاف مقاتل ، تحرك قاصدًا مكة ليفتحها ، وهو جيشٌ ما عرفت لمثله العربُ عددًا ولا قوة . وسار هذا الجيش بهؤلاء الرجال ، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أنه لا غالبَ لهم من دون الله ، وأنَّ الفتح قادمٌ لا محالة - (شكل ١٧) - .

(١) - أخرجه البخاري ٤٢٧٤ ، ومسلم ٢٤٩٤ .



شكل : ١٧ - السير إلى مكة لفتحها

خروج بني هاشم وإسلامهم :

لعل طائفة من بني هاشم كانت بنبأ أو شبه نبأ من خروج رسول الله ﷺ ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى . فلما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (شقيق عبيدة بن الحارث) وابن عمته وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة (شقيق زوجته أم سلمة) فأعرض عنهما ، ورفض أن يأذن لهما لِمَا كان يلقاه منهما من شدة الأذى .

فلما بلغ أبا سفيان بن الحارث هذا قال : والله ليؤذنين لي أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فقال علي لأبي سفيان بن الحارث : إئت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال أخوه يوسف ليوسف :

(تَاللهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) [يوسف : ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحدًا أحسن منه قولاً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ : **(لَا تَتْرِبْ عَلَيْنَا أَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ) [يوسف : ٩٢]** ورق رسول الله ﷺ ، ثم أذن لهما ، فدخلا عليه فأسلما ، ولمَّا كان بالجحفة لقيه عمه العباس ، وقد خرج بعياله مسلمًا مهاجرًا ، وقد اغتبط النبي ﷺ لإسلام العباس

نزول الجيش الإسلامي بمصر الظهران :

وواصل رسول الله ﷺ سفيره وهو صائم ، حتى بلغ الكديد فرأى أن الصوم شق على المسلمين ، فأمرهم بالفطر ، وأفطر معهم ، ثم واصل السير حتى نزل بمصر الظهران (١٠ كم شمال مكة) دون أن تحس قريش بمسيرتهم فأمر الجيش أن يُوقد النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار وجعل رسول الله ﷺ على الحراسة عمر بن الخطاب .

العباس يحذر قريشًا - أبو سفيان يستطلع :

رأى العباس بن عبد المطلب من جيش ابن أخيه ومن قوته ما راعه وأزعجه ، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يأخذ بغلته ، ويخرج لعله يلتمس أحدًا يُخبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عليهم عنوةً ، فأذن له رسول الله ﷺ .

وكانَّ الله قد عمي الأخبار على قريش فهم في وجل وترقب ، ويشعرون بأنَّ خطرًا يقترب منهم ، فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الأخبار ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحسَّ به قلوبهم ، فلما كان العباسُ يسير على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء في الظلام إذ سمع هذا الحوار بين أبي سفيان ، وبُدَيْل بن ورقاء :

أبو سفيان : ما رأيتُ كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا .

بُدَيْل : هذه والله خُزاعة حمشتها (أحرقتها) الحرب .

أبو سفيان : خزاعة أقلَّ وأذلَّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

لقاء العباس بأبي سفيان وإجارته :

وعرف العباسُ صوتَ أبي سفيان فناداه بكُنْيته ودار بينهما الحوار التالي :

العباس : أبا حنظلة !

أبو سفيان : أبا الفضل !

العباس : نعم ، ويحك يا أبا سفيان ؟ هذا رسولُ الله ﷺ في الناس ، وإصباح قريش إذا دخل مكة عُنوة .

أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟

العباس : والله لئن ظفر بك ، ليضربنَّ عنقك . فاركب في عجز هذه البغلة ، حتي آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك .

فركب أبو سفيان خلف العباس وردَّ صاحبيه (بُدَيْل وحكيم) إلى مكة . وسار به ، فكلما مرَّ على نار من نيران المسلمين ورأوا بغلة رسول الله ﷺ وهو عليها فيقولون : عم رسول الله ﷺ على بغلته .

حتى كان بنار عمر بن الخطاب - وهو على رأس الحراسة - فقام إليه فلمَّا رأى أبا سفيان خلفه على بغلة رسول الله ﷺ قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد .

فأسرع العباسُ إلى خيمة رسول الله ﷺ ، وقد علم ما يقصد إليه عمر . ودخل على رسول الله ﷺ ثم دخل عمر فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه . فقال العباس : مهلاً يا عمر ؛ إني قد أجرته فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا . فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بي إلا أنّي قد عرفتُ أن إسلامك كان أحبَّ إليّ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فقال رسول الله ﷺ : " اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأت به " .

أبو سفيان في حضرة رسول الله ﷺ :

فلما كان الصباح وجيء بأبي سفيان في حضرة النبي ﷺ وبمسمع من كبار الصحابة جرى الحوار التالي :

رسول الله ﷺ : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد .

رسول الله ﷺ : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ (١)

أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً .

وهنا تدخل العباسُ موجّهاً القول إلى أبي سفيان أن يُسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تُضرب عنقه - فأسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق - ثم توجه العباسُ بالقول إلى رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنَّ أبا سفيان رجلاً يحب الفخر فاجعل له شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمنٌ (٢) .

(١) - شرح معاني الآثار للطحاوي ٢/٣٢٠ .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٠٢٩ ، صحيح أبي داود ٣٠٢١ .

رسول الله ﷺ يأخذ كلَّ الحذر قبل دخول مكة :

كان التحرك لفتح مكة حدثًا هامًا وجوهريًا ، إن لم يكن أهم الأحداث على الإطلاق في تاريخ الدعوة الإسلامية ، كما كانت الهجرة رحلةً مفصلية في تاريخ الدعوة . وقد تعلمنا من رسول الله ﷺ ، رغم أنه مؤيدٌ من الله تعالى بالوحي إلا أنه لا يترك شيئًا للصدفة ، وقد رأينا ذلك جليًا في رحلة هجرته وفي بدر وأحد والخندق والحديبية وغيرها .

وها هو اليوم على أعتاب مكة واقترب من الفتح المُبين ، فلم يدع مجالاً للفشل أو لضياع هذه الفرصة التي طالما انتظرها المسلمون ، لذلك اتخذ رسول الله ﷺ كلَّ ما لديه من أهبة وحذر . ولم يمنعه من ذلك إسلامُ أبي سفيان ، ولا جيشه القوي الكبير فإذا كان النصر بيد الله يؤتية من يشاء ، فإن الله لا يؤتي النصر إلا لمن أَعَدَّ له عُدَّتَه ، واحتاط لكلِّ شيء قد يقف في سبيله . وكان رسول الله ﷺ يريد أن يدخل مكة دون أن تُراق دماء ، لذلك اتخذ الخطوات التالية :

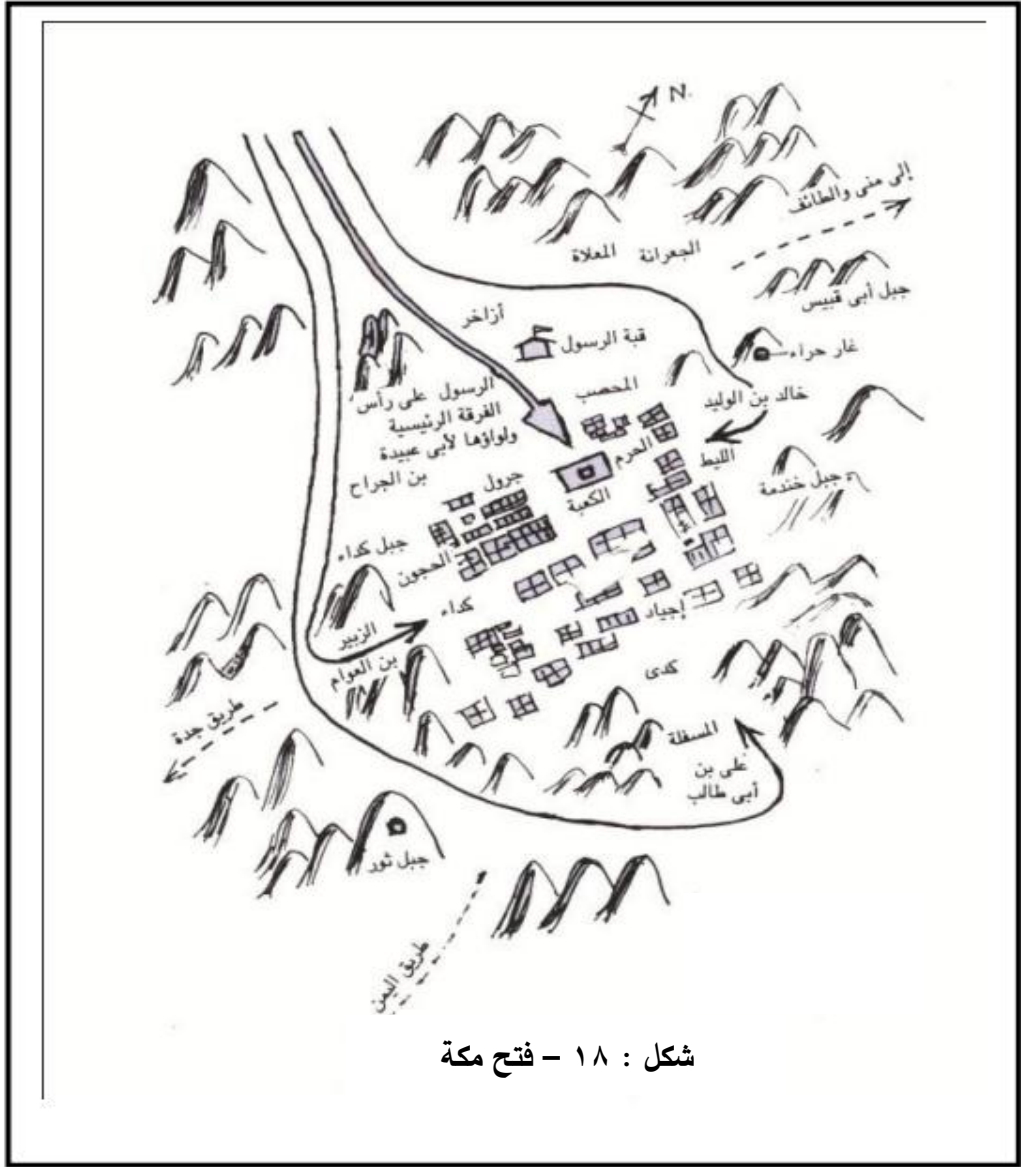
١ - أمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خَطَم (مدخل) الجبل ، حتى تمرَّ به جنودُ الله فيراها ليحدث قومه بها عن بينة ، وألا يكون هناك مقاومة أيًا كان نوعها .

٢ - أمر رسول الله ﷺ أن يُفرق الجيش أربع فرق ، ليدخلوا مكة من جميع نواحيها في وقت واحد لتشتيت جهود قريش ، وبذلك لا تدع فرصة للمقاومة أو إراقة الدماء . وأمرهم جميعًا :

((ألا تقاتل ولا تسفك دماءً إلا إذا أكرهت على ذلك)) (١)

فكان ترتيب الفرق على النحو التالي : (شكل : ١٨)

(١) - معرفة السنن و الآثار للبيهقي تحقيق القلجعي .



شكل : ١٨ - فتح مكة

- أ. الفرقة الرئيسية : وعلى رأسها رسول الله ﷺ نفسه وعقد لواءها لأبي عبيدة بن الجراح ليدخل من الطريق الرئيسي الشمالي الغربي .
- ب . الفرقة الثانية : وعلى رأسها خالد بن الوليد ، وتدخل مكة من ناحية الشمال الشرقي .
- ج. الفرقة الثالثة: وعلى رأسها علي بن أبي طالب وتدخل مكة من ناحية الجنوب الشرقي.

د. الفرقة الرابعة : وعلى رأسها الزبير بن العوام وتدخل مكة من ناحية الجنوب الغربي .

أبو سفيان يشهد الجند :

وتحرك جند الله وأبو سفيان يحبسه العباسُ عند حَظْمِ الجبل كما أمره رسول الله ﷺ فكلمنا مَرَّتْ قبيلة سأل أبو سفيان العباس ، فأخبره ، فيقول : ما لي ولبني فلان ؟ حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد .

قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، مَنْ هؤلاء ؟

قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . فقال : ما لأحد بهؤلاء ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابنِ أخيك اليوم عظيمًا . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . فقال : نَعَمْ إذن .

اليوم يوم المرحمة :

وكانت رايةُ الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان وحاذاه ، قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم أذلُّ الله قريشًا . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ فإنَّ سعدًا يزعم أنك قاتلنا وردد ما قاله سعد ، فقال النبي ﷺ : " كذب ^(١) سعد ، بل اليوم يومُ المرحمة ، اليوم أعزَّ الله قريشًا " ^(٢) . ونزع رسول الله ﷺ الراية من سعد وأعطها لابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد .

أبو سفيان يحذر قريشًا :

بعد أن أمر رسول الله ﷺ بأبي سفيان ومضى ، قال له العباس : النجاة إلى قومك ! فأسرع أبو سفيان ليحذرَّ قومه - كما خطط وأراد رسول الله ﷺ - حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به . مَنْ دخل

(١) - كذب : أخطأ .

(٢) - عند البخاري " كذب سعد ولكن هذا يوم يُعظم الله فيه الكعبة " ٤٢٨٠ .

دار أبي سفيان فهو آمنٌ . فقالوا : وما تغني عنَّا دارك ؟ قال : ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن واستراح القوم لهذا القول ، وتفرقوا إلى دُورهم والمسجد .

فتحًا مُبينًا :

وتقدمت الفرق الأربعة التي نظمها رسولُ الله ﷺ في وقت واحد ، ودخل المسلمون وعلى رأسهم رسولُ الله ﷺ مكة في يوم ٢٠ رمضان سنة ٨ هـ (بعد ١٠ أيام من خروجهم من المدينة) وسارت الأمور كما أراد وخطط لها رسولُ الله ﷺ ، فقد عمل معظم الناس بنصيحة أبي سفيان ولزموا بيوتهم والمسجد ولم تلق الفرق الأربعة مقاومة تُذكر ، ولم تُرَق دماءٌ إلا في القطاع الذي كان يشرف عليه خالد بن الوليد .

فقد كان يقيم في هذا الحي أشدُّ قريش عداوةً لرسولِ الله ﷺ ، فحشد عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية جماعةً للقتال ، فلما دخلت فرقة خالد أمطروها بالنبال ، لكن خالدًا ما لبث أن فرَّقهم بعد أن قتل منهم اثني عشر رجلاً ، مقابل رجلين من المسلمين ضلّا طريقهما وانفصلا عن الجيش فقتلًا، وفرَّ عكرمة وصفوان لَمَّا رأوا الدائرة تدور عليهم .

وتقدّم رسولُ الله ﷺ والتفت الفرق جميعًا حوله في وسط مكة ، ورسولُ الله ﷺ على ناقته وهو يقرأ : (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**) [الفتح : ١] ويحني رأسه حتى أن لحيته لتكاد تمسُّ ظهر راحلته ، وتم الفتح المبين الذي وعد الله به رسوله .. وفُتحت مكة .

رسول الله ﷺ في مكة

نزل رسول الله ﷺ بقُبة ضُربت له بالحجون بأعلى مكة - المكان الذي تعاقدت فيه قريشٌ على مقاطعة بني هاشم والمسلمين - (شكل ١٨) وسُئل : هل يريد أن يستريح في بيته ؟ فأجاب : " كلا ! فما تركوا لي بمكة بيتاً " (١) ودخل القبة يستريح وقلبه مفعمٌ بشكر الله أن عاد عزيزاً منتصراً إلى البلد الذي عذبه وآذاه وأخرجه من بين أهله ودياره وأجال بصره في الوادي والجبال المحيطة به .

هذه الجبال التي كان يأوي إلى شعابها حين يشتد به أذى قريش ، ومن بينها حراء حيث كان يحنث حتى نزل عليه الوحي . أجال بصره في هذه الجبال ، وفي الوادي منازل مكة متبعثرة فيه ، يتوسطها البيت الحرام . فبلغ من خضوعه الله أن ترقرت في عينه دمعَةٌ إسلام وشكر الله ، وشعر أن مهمة القائد قد انتهت فلم يقيم بالقبة طويلاً .

بل خرج وامتنى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة ، والمسلمون من حوله ، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمِحن (عصاة قصيرة منعطفة الرأس) ، وأخذ يحطم الأصنام التي كانت في ساحة الحرم بالمحجن الذي في يده وهو يقول : **(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ ۚ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا)** [الإسراء: ٨١]

ولمّا أتمّ طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بفتحها فدخلها ، وحطم ما بها من أصنام وكان مرسومًا على حوائطها صور للملائكة ، وصور لإبراهيم عليه السلام وفي يده الأزلام يستقسم بها ، وكذلك لابنه إسماعيل عليه السلام ، فقال : " قاتلهم الله ، والله ما استقسما الأزلام قط " (٢) ثم أمر بتلك الصور فطمست .

وقد كان حول الكعبة وداخلها ثلاثمائة وستون صنمًا ، وهكذا تطهرت الكعبة من هذه الأصنام ، وتحطمت الوثنية ، وأتمّ رسول الله ﷺ ما كان يدعو إليه منذ عشرين سنة .

(١) - حياة محمد " محمد حسين هيكل " .

(٢) - صحيح أبي داود ٢٧-٢٨ " لقد علموا ما استقسما بها قط " .

اذهبوا فأنتم الطلقاء - العفو العام :

ولمَّا أتمَّ رسولُ الله ﷺ تطهيرَ البيتِ مما فيه من أصنامٍ وصورٍ ، استقبلَ بابَ الكعبةِ وهو ما زالَ بداخلها ، ثم دارَ فيها وكبَّرَ في كلِّ نواحيها ، ووحدَ اللهُ ثم خرجَ من الكعبةِ ، وقريشٌ قد ملأتُ المسجدَ صفوفًا ينتظرونَ ماذا يصنعُ ؟ فأخذَ بعضادتي البابِ وهم تحتَه فخطبهم ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)** [الحجرات : ١٣]

ثم قال : " يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم : قال : " فإني لا أقول لكم إلا ما قال يوسف لإخوته " لا تثريب عليكم اليوم " اذهبوا فأنتم الطلقاء " ^(١) وبهذه الكلمة ، صدر العفو العام عن قريش ، وعن أهل مكة جميعًا . وما أجمل العفو عند المقدرة ، فلقد مكَّنه اللهُ من عدوه ، فقدر فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله وللتاريخ مثلاً في البر والوفاء بالعهد ، وفي سمو النفس سموًا لا يبلغه أحد .

مفتاح الكعبة لأهله ^(٢) :

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ومفتاح الكعبة ما زال في يده ، فقام إليه العباس ، وقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة والسقاية ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدُعي له ، فقال له رسول الله ﷺ : " هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برٍّ ووفاء ^(٣) . وتلا قوله تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)** [النساء : ٥٨]

العفو عمَّن ظلموه :

لقد شمل عفو رسول الله ﷺ كذلك أكابر المجرمين من الذين أمر بقتلهم - وعدَّتهم بضعة عشر - ولم يكن الأمرُ بقتلهم لحقد منه ، أو غضب عليهم . فإنه لم يكن يعرف الحقد ، ولكن كان لجرائم كبيرة ارتكبوها ، أو كما نسميهم في وقتنا الحاضر بـ " مجرمي حرب " .

(١) - ضعيف الإسناد عبد الله بن المؤمن ضعيف الحديث ، انظر التهذيب ٦/٤٦ .

(٢) - فقه السيرة ٣٨٢ ضعفه الألباني .

(٣) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٣ .

وفيما يلي بعض من هذه الأمثلة :

١ . عكرمة بن أبي جهل :

كان قد اختفى بعد انسحابه من القتال ضد خالد بن الوليد ثم فرَّ هاربًا إلى اليمن ، وكان ينوي الإبحار إلى الحبشة ، وكانت زوجته قد أسلمت يوم الفتح وأخذت له أمانًا من رسول الله ﷺ ، فلحقت به في اليمن قبل أن يركب البحر فقالت : جئتُك من عند أبرد الناس وخيرهم . فلا تهلك نفسك ، وإني قد استأمنتُك لك ، فرجع .

ولمَّا رآه رسول الله ﷺ استقبله فرحًا به ، وقال : " مرحبًا بمنْ جاءنا مهاجرًا مسلمًا " (١) ثم أسلم عكرمة وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها ، فاستغفر له رسول الله ﷺ وكان بعد ذلك من خيرة المسلمين .

٢ . صفوان بن أمية :

كان قد خشى على حياته ففرَّ إلى جده مزعمًا اللجوء إلى الحبشة فجاء عُمر بن وهب الجُمحي إلى رسول الله ﷺ يستأمنه له ، فأمنه وأعطاه عمامته كعلامة ، فلحق بصفوان وهو يريد أن يركب البحر ، فردَّه بعد أن أعطاه عمامة رسول الله ﷺ كعلامة على صدق قوله ، فلمَّا دخل صفوان على رسول الله ﷺ قال له : أعطني شهرين مهلة ، فأعطاه أربعة أشهر ، أسلم بعدها وحسُن إسلامه .

٣ . هند بنت عُتبة :

كانت هند قد مضغتْ كبد حمزة بعد استشهاده في أُحد، وكانت تُكِنُّ أشد العداوة لرسول الله ﷺ ، فلما فتح الله على رسوله وأيقن أهل مكة أنه لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا واجتمعوا للبيعة . فجلس رسول الله ﷺ يبائع الناس وجلس عمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة .

(١) - المغازي للواقدي ٨٥١-٨٥٣ / ٢ ، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة لمحمد أبو شهبه .

ولمَّا فرغ من بيعة الرجال أخذ بيعة النساء ، فجاءت هند بنت عتبة - امرأة أبي سفيان - متكررةً ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها . فقال رسول الله ﷺ للنساء : " أبايعن على ألا تُشركن بالله شيئاً " فبايعن النساء . فقال : " ولا تسرقن " . فقالت هند : إن أبا سفيان رجلٌ شحيح ، فإن أنا أصبتُ من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان . وكان جالساً مع رسول الله ﷺ يحضر البيعة : وما أصبت فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك لهند ؟ ^(١) قالت : نعم ، فاعفُ عمَّا سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك . فعفا عنها وأسلمت .

٤ . فضالة بن عمير :

كان فضالة قد أراد قتل النبي ﷺ ، وهو يطوف بالبيت ولم يخبر أحداً بما يدور في خلدته ، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدثت به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنتُ أذكر الله . فضحك النبي ﷺ وقال : " استغفر الله " ^(٢) ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه . ويقول فضالة : والله ما رفع رسول الله ﷺ يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه .
وغير هذه الأمثلة الكثير - ولا مقام لذكرها كلها .

إقامة رسول الله ﷺ بمكة وعمله فيها :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً ، يهدي الناس ويرشدهم إلى الطريق القويم الذي يدعو إليه منذ البعثة ، وها هي أهم ما حدث في هذه الأيام :

١ - الأذان والصلاة :

لمَّا تطهرت الكعبة من أصنامها ، أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يُؤذِّن فأذِن فوقها ، وصلَّى الناس بإمامة رسول الله ﷺ . ومن يومئذ إلى يومنا وإلى أن تقوم الساعة ، وبلال وخلفاء

(١) - البداية و النهاية لابن كثير ٦/٦١٦ .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام ص ٢/٤١٧ .

بلال من بعده ينادون بالأذان كلَّ يوم خمس مرات . والمسلمون يُلبُّون الأذان ، و يقيمون الصلاة ، كما صلاها رسول الله ﷺ متوجَّهين إلى الله بقلوبهم مستقبلين البيت الحرام الذي طَهَّره رسول الله ﷺ من أوثانه وأصنامه .

٢ - خُطْب رسول الله ﷺ :

خُطْب رسول الله ﷺ عدة خطب في هذه الأثناء ، بيَّن فيها أمورًا وأحكامًا مختلفة :

أ. الخطبة الأولى :

وكانت على باب الكعبة - كما أسلفنا - والتي أصدر فيها عفوه الشامل " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

ب. الخطبة الثانية :

وكانت غداة يوم الفتح ، لمَّا بلغ رسول الله ﷺ أن خزاعة - حلفاءه - عدت على رجل من هذيل فقتلوه - وهو مُشرك - برجل قُتل لهم في الجاهلية فغضبت هذيل . فقام رسول الله ﷺ في الناس خطيبًا ، وقال : " يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك دمًا ، أو يُعضد بها شجرة . لم تحل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لي إلا هذه الساعة ، غضبًا على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب " (١) .

ثم توجه إلى بني خزاعة وقال : " يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل إن نَفَع ، ولقد قتلتم قتيلاً لأدينته ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النَّظَرين ، إن شاءوا فدُم قاتله ، وإن شاءوا فَعَقَلهُ (ديته) " (٢) . وهكذا استمرَّ رسول الله ﷺ في وُضْع الأحكام التي تنظم الأمور بين الناس ، ونضعهم على الطريق القويم الذي يرضاه الله ورسوله .

(١) - صحيح الترمذي ٨٠٩ ، باختلاف يسير .

(٢) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٦ .

٣ . أخذ البيعة :

وبهذا التصرف وهذا الخطاب الذي زاد على السماحة والعفو الذي منحه رسول الله ﷺ إياهم ، كسب قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدرّون ، فأقبلوا على الإسلام ، وتوافدوا إلى رسول الله ﷺ يعلنون البيعة ويُسلموا طواعية واختيارًا - كما أسلفنا -

أ . إسلام أبي قحافة - والد أبي بكر :

جاء أبو بكر بأبيه إلى رسول الله ﷺ يقوده - إذ كان كفيًا - حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ ؟^(١) فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، فأجلس النبي ﷺ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له : أسلم . فأسلم وحسن إسلامه .

ب . هند بنت عتبة :

ولمَّا فرغ رسولُ الله ﷺ من بيعة الرجال ، أخذ بيعة النساء اللاتي كان من بينهن هند بنت عتبة - كما أسلفنا - وبذلك أسلمت قريش رجالاً ونساءً وبايعت .

٤ - إرسال السرايا لتحطيم الأصنام حول مكة :

لمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ من تطهير الكعبة من أصنامها ، أرسل سرايا صغيرة إلى مواضع حول مكة ، ليدعو أهلها إلى الإسلام ، وتحطيم ما بها من أصنام . وفيما يلي أخبار بعض من هذه السرايا :

أ . سرية خالد بن الوليد :

أرسل رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد في ثلاثين فارسًا لهدم العُزَيِّ أكبر صنم القريش ، وكان هيكلها ببطن نخلة .

ب . سرية عمرو بن العاص :

أرسل رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى هذيل لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل ، وهيكله على ثلاثة أميال من مكة ، فذهب إليه وهدمه .

(١) - الصحيح المسند للوادعي ١٥٤٣ ، أخرجه أحمد ٢٦٩٥٦ ، والطبراني ٨٨/٢٤ ، وابن حبان ٧٢٠٨ .

ج. سرية سعد بن زيد الأشهلي :

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي ، في عشرين فارساً لهدم مناة، صنم لكلب وخزاعة، وكان العربُ يعظّمونه وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم. فذهبوا إليه وهدموه.

هـ . مخاوف الأنصار وتبديدها :

لمّا رأى الأنصارُ من أهل المدينة ذلك كله ، وقد فتح اللهُ مكة على رسول الله ﷺ

- وهي بلده ووطنه ومولده - فحُيِّل إليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأول ، وقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ يقوم على الصفا ويدعو للناس ، فما لبث حين أتم دعاءه أن سألهم : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : " معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم " (١)

فضرب بذلك للناس مثلاً في البر بعهدده في بيعة العقبة والوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه براً ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ، ولو كان هذا الوطن هو مكة البلد الحرام .

نتائج فتح مكة :

تلك هي غزوة فتح مكة ، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية ، قضاءً باتاً في ربوع الجزيرة العربية ، وكذلك فتحت هذه الغزوة أعين الناس وأزالت عنها كلَّ السُّتور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام ، وبهذا سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني ، كليهما في طول الجزيرة العربية وعرضها فكانت حقاً : فتحاً مُبيناً .

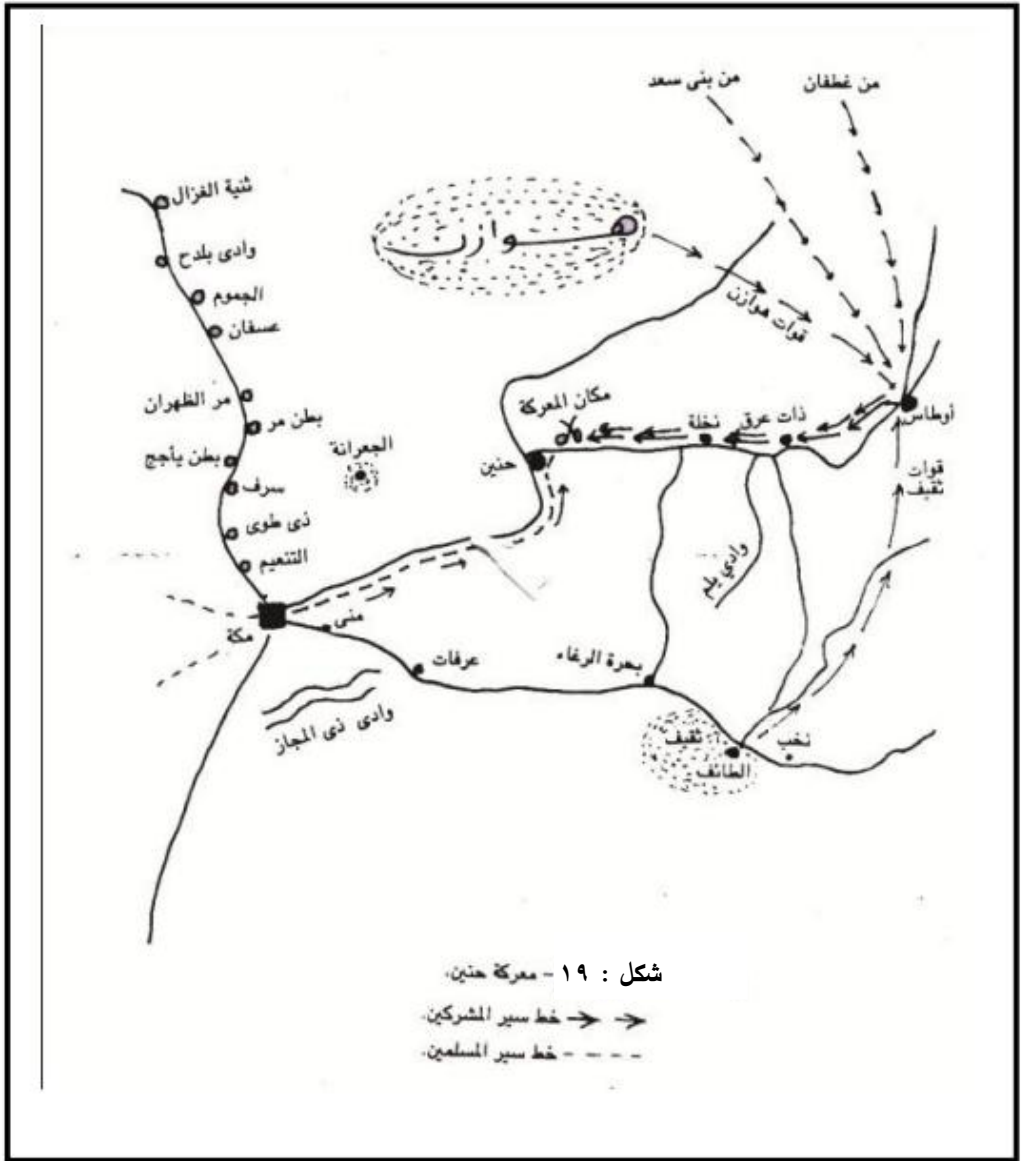
(١) - صحيح ابن حبان ٤٧٦٠ .

غزوة حنين

أقام رسول الله ﷺ والمسلمون معه بمكة بعد فتحها ، فرحين بنصر الله وبإذعان قريش والقبائل المجاورة لها لدين الحق ، إلا أن هوازن وثقيف ، وهما ثاني أكبر قوة بعد قريش في جزيرة العرب ، وفي حالة صراع دائم على زعامة العرب مع قريش ، حتى أن ثقيفًا كان لها اللات الذي تعبده وبنث له بيتًا لتضاهي به الكعبة ، فلمّا علمت بمثول قريش وانضمامها إلى رسول الله ﷺ وتحطيم أصنامها خشيت أن تدور الدائرة عليهما وأن يقتحم المسلمون عليهما منازلهما .

التحالف ضد المسلمين :

فبدأت قبيلتا هوازن وثقيف تحاولان الوقوف ضد تنامي قوة الإسلام . فقالوا : قد فرغ محمدٌ من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزوه قبل أن يغزونا .. وأعدوا لذلك عدته فأجمعوا على ذلك وولوا رئاستهم إلى مالك بن عوف النصري . وكان معروفًا ببسالته وشجاعته رغم صغر سنّه التي لم تتجاوز الثلاثين . وانضم إليهما جموعٌ كثيرة من قبائل بني سعد بن بكر . كان رسول الله ﷺ مسترضعًا فيهم - وغطفان وبني هلال ، وقبائل أخرى - وتحركوا نحو الأوطاس قُرب حنين حيث اجتمعوا (شكل : ١٩) .



وكان مالك بن عوف قد أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذرياتهم وأموالهم وإبلهم وماشييتهم .

الخبرة تُدين القائد :

وكان من المجتمعين بأوطاس - دُرَيْد بن الصَّمّة - وكان شيخًا كبيرًا ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب وقد حنَّكته التجارب ، فلمَّا سمع دُرَيْد رُغَاء البعير ونهيق الحمير وبكاء الصغير وتُغَاء النساء ، سأل مالك بن عوف : لِمَ ساق المحاربون أموالهم ونساءهم وصغارهم ؟ فقال مالك : أردت أن أجعل خلف كلِّ رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم . فقال دُرَيْد : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفَعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحَتْ في أهلك ومالك ! أرجعهم إلى ممتنع بلادهم ، إلا أن مالكا رفض هذا الرأي من الشيخ المحنَّك وقال : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك .

وتبع الناسُ أمرَ مالك ، أما دُرَيْد فتابعهم على رغم عدم استحسانه لما أمر به مالك .

تحصُّن الأعداء بمضيق الوادي - حُنَيْن :

وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قمم حُنَيْن وعند مضيق الوادي ، وأمرهم أن يشتدوا على المسلمين إن هم نزلوا الوادي ، فامتثلت القبائل أمر مالك ، وتحركت من أوطاس إلى حنين للتحصُّن بمضيق الوادي .

استخبارات رسول الله ﷺ :

أما رسول الله ﷺ فلما علم بمسير العدو بعث أبا حَدَرَدَ الاسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

مسيرة المسلمين إلى حُنَيْن :

وفي يوم السادس من شوال سنة ٨ هـ ، بعد تسعة عشر يومًا من دخول مكة خرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفًا . عشرة آلاف ممَّن كانوا خرجوا معه من المدينة لفتح مكة ، وألفان ممَّن أسلم من قريش وبينهم أبو سفيان بن حرب وغيره . وسار هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله .

ذات أنواط :

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سِدْرَةً عظيمة خضراء يُقال لها : ذات أنواط، كانت العرب يأتونها كلَّ عام ، فيعلّقون عليها أسلحتهم تبرُّكًا بجلب النصر ، ويذبحون عندها ويعكفون - فقال بعض أهل الجيش - خاصة حديثي العهد بالإسلام . لرسول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : " الله أكبر ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّهَا السَّنَنُ لَتَرْكُبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ " (١) .

في حنين :

وعندما اقترب رسولُ الله ﷺ من حنين أرسل مَنْ يستطلع له عدد العدو من فوق أحد الجبال المُطلّة على وادي حنين ، فلما عاد وأخبر النبي ﷺ أنهم خرجوا بأولادهم ونسائهم وإبلهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : " تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله " (٢) .

لن نُغلب اليوم من قلة :

وبات المسلمون ليلتهم ، على وعْدٍ بهجوم كاسح في الصباح على الأعداء وكلّهم ثقة وإعجابًا بكثرة عددهم وصار شعور عند البعض أنهم لن يُغلبوا ، حتى أنه قال أحدهم : لن نُغلب اليوم من قلة ، وهو ما شقَّ على رسول الله ﷺ سماعه ، وعاتبهم القرآن عليه فيما بعد كما سيأتي ذكره .

جيش الأعداء يُباغت جيش المسلمين :

وبالسحر (قبل الفجر) عقد رسولُ الله ﷺ الألوية والرايات وفرّقها على الناس . وفي عمية الصباح تحرك الجيش وركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء وسار في مؤخرة الجيش ، قاصدين مباغته العدو قبل أن يأخذ أهْبته للقتال وانحدروا إلى حنين .

(١) - صحيح الترمذي ٢١٨٠ .

(٢) - صحيح أبي داود ٢٥٠١ .

وكان العدو - كما أسلفنا - قد سبقهم إليه وكمنوا في شِغابه ومضايقه ، وفوجئ جيش المسلمين بما لم يُكن يتوقع فإذا هم ما زالوا في عماية الصبح إذ انهالت عليهم النبال وشدَّت عليهم كتائب الأعداء ، شد رجل واحد ، كما أمرهم مالك . إذ ذاك اختلط أمرُ المسلمين واضطرب وقر كثيرٌ منهم لا يلوي أحدٌ على أحدٍ .

شماتة حديثي العهد بالإسلام :

ولمَّا رأى أبو سفيان هذا الموقف وهو حديث العهد بالإسلام قال وعلى شفتيه ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - يقصد البحر الأحمر - وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم أدرك ثأري من محمد . وقال حُدة بن حنبل وكان معه أخوه صفوان بن أمية - أخوه من أمه - ألا بطل السحر اليوم . فردَّ عليه أخوه : اسكت ، فوالله لأن يرُبني (يملكني) رجلٌ من قريش أحب إليَّ من أن يرُبني رجلٌ من هوازن .

يحدث كل هذا والجيش الإسلامي يختلط حابله بنابله ، ورسول ﷺ في المؤخرة ، تمر عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مهزومة لا تلوى على شيء .

ثبات رسول الله ﷺ وقوة عزمته :

أما رسول الله ﷺ فقد ثبت مكانه وأحاط به جماعةٌ من الأنصار والمهاجرين وراح ينادي : " هلمُّوا إلي أيها الناس ، أنا رسولُ الله ، أنا محمد بن عبد الله " (١) ولمَّا رأى المسلمين يفرُّون والأعداء يطاردونهم ، يطعنون مَنْ يُدركون منهم . هنا ظهرت شجاعةُ رسول الله ﷺ التي لا نظيرَ لها وبدأ يندفع ببغلته البيضاء في صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو وهو يقول : ((أنا النبي لا كذب .. أنا بن عبد المطلب)) . بيد أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بلبام بغلته وحال دون تقدُّمها ، فنزل رسول الله ﷺ واستنصر ربَّه قائلاً : " اللهم أنزل نصرك " (٢)

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٤٤٣ / ٢ ، الراوي ابن اسحاق . فقه السيرة ٣١٩ .

(٢) - أخرجه البخاري ٤٣١٧ ، ومسلم ١٧٧٦ .

نداء العباس ورجوع المسلمين :

وأمر رسول الله ﷺ عمّه العباس ، وكان رجلاً جسيماً جهوريّ الصوت أن ينادي الصحابة ، فنادى بما أسمع الناس جميعاً من كلّ فجٍّ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة - يقصد الذين بايعوا تحت الشجرة - هلمّوا إن محمداً حيٌّ . وظل هكذا والصوت يتردد في جنبات الوادي . فلما سمع الناس النداء تصايحوا : لبيك لبيك . وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى ، وعادوا ليلتقوا حول رسول الله ﷺ إلى أرض المعركة مستبسلين .

تحول سَيْر القتال لصالح المسلمين :

بدأت الطمأنينة تعود إلى رسول الله ﷺ وقد بدأ الناس يعودون ويزداد عددهم ، وقد أضاء النهار وطمغى النور على عماية الفجر وانحدرت هوازن من مكانها ، وأصبحت وجهًا لوجه مع المسلمين في الوادي ، وتجالد الفريقان مجالدةً شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى الساحة ، وقد احتدم القتال فقال : ((الآن حمى الوطيس))^(١) ثم أخذ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم وقال : " شاهت الوجوه " ^(٢) .

واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله ، وما هي إلا ساعات قلائل حتى انهزم العدو هزيمةً منكرة حتى أن هوازن وثقيف ومَنْ معهم ما لبثوا أن رأوا أنهم معرضون للفناء إن فرّوا منهزمين لا يلوون على شيء ، وتابع المسلمون مطاردتهم إلى عدوهم ، وقد صارت طائفة منهم إلى الطائف وطائفة إلى نخلة وطائفة إلى أوطاس .

وانتهت المطاردة بانهزام المشركين ، بعد أن قُتِلَ منهم الكثير ، وتركوا وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين . أما معظم فلول المشركين فلجئوا إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف الذي ثبت هنيهة ثم فرّ وقومه مع هوازن إلى الطائف .

(١) - الجامع الصغير للسيوطي ٣٠١٢ .

(٢) - صحيح ابن حبان ٦٥٢٠ .

الغنائم :

غنم المسلمون من هذه المعركة غنائم كثيرة ، فغنموا من الإبل : أربعة وعشرين ألفاً ، ومن الغنم: أكثر من أربعين ألفاً، ومن الفضة : أربعة آلاف أوقية ، ومن السَّبْي : ستة آلاف . أمر رسول الله ﷺ بجمع هذه الغنائم ثم حبسها بالجعرانة ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

هزيمة تامة للمشركين :

وكذلك كان نصر الله للمؤمنين ، وكانت هزيمة تامة للمشركين ، بعد ذلك الفزع الذي أصاب المسلمين في عماية الصباح حين شدَّ المشركون عليهم ، ثم كان نصر الله للمسلمين مؤزراً ، بفضل ثبات رسول الله ﷺ والفئة القليلة التي أحاطت به . وفي ذلك نزل قوله تعالى واصفاً هذا التطور في المعركة وعاتباً لمن أعجبتهم كثرتهم :

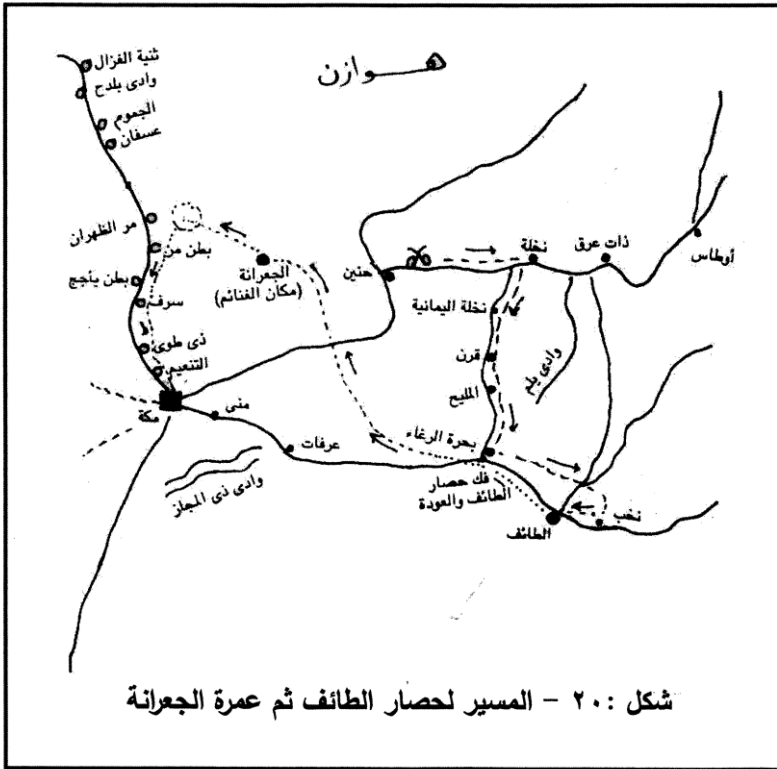
(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) [التوبة : ٢٥-٢٦] .

غزوة الطائف

وهذه الغزوة في الحقيقة هي امتداداً لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف - كما أسلفنا - دخلوا الطائف مع قائدهم مالك بن عوف النصري وتحصنوا بها ، فأمر رسول الله ﷺ بالسير إلى الطائف بعد أن فرغ من حنين وجمَعَ الغنائم بالجرعانة.

السير إلى الطائف :

وسار رسول الله ﷺ من حنين إلى الطائف (شكل ٢٠) ، وكان على رأس الجند خالد بن الوليد فمرَّ في طريقه على نخلة اليمانية ، ثم على قرية المنازل ثم على ليئة وكان هناك حصنٌ لمالك بن عوف تركه لما لجأ إلى الطائف ، فأمر رسول الله ﷺ بهدمه ، ثم مضى إلى نخب شرقي الطائف وواصل السير حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه وهي حصون منيعة .



حصار الطائف :

وعسكر هناك وفُرض الحصار على أهل الحصن الذين تحصنوا به ، وقد أدخلوا معهم قوت سنتهم ، ودام الحصار سبعة عشر يوماً وقيل بضعاً وعشرين ليلة . وفي هذه المدة وقعت مقاومة شرسة من أهل الحصن لما رأوا المسلمين أول ما فرضوا الحصار ، رموهم بالنبال رمياً شديداً . وكان موقع الحصن العالي يساعدهم ، واستمر هكذا الحال حتى أصيب من المسلمين الكثيرون بجراح منهم عبد الله بن أبي بكر ، وقُتل منهم اثنا عشر رجلاً .

ولمّا رأى رسول الله ﷺ أنّ العدو متمكّن من الرمي ، ارتفع عن معسكرهم وأمر بنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبال في محل آخر - أقيم عليه مسجد الطائف فيما بعد - .

وكان خالد بن الوليد أثناء الحصار ينادي بالمبارزة ، فكان يأتيه الرد : لدينا من الطعام ما يكفيننا سنين ، فإن أقمتم حتى يفني الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً ، حتى نموت عن آخرنا .

رمي الحصن بالمنجنيق :

وهنا فكّر رسول الله ﷺ في طريقة غير تقليدية ، فأمر بنصب المنجنيق عليهم وقذف به القذائف ، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابتين - عبارة عن عربة من الخشب مغطاة بالجلد السميك - ثم زحفوا إلى جدار الحصن ليخرقوه ، فأرسل عليهم أهل الحصن سكك الحديد مُحماة بالنار فأحرقت الدبابات ، ففرّ الجند من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلوا منهم رجالاً .

الثعلب في جحره :

ولم يفلح هذا المجهود ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعة هذه الحصون ، وطال الحصار واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وسكك الحديد المحماة . فلما رأى رسول الله ﷺ أن الفتح لم يؤذن فيه ، استشار نوفل بن معاوية الدبلي في الذهاب أو المقام . فقال : يا رسول الله ، ثعلب في جحره ، إن أقمتم عليه أخذته ، وإن تركته لم يضررك .

اللهم اهدِ ثقيفًا :

حينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس ، إنّا قافلون غدًا إن شاء الله ولمّا ارتحل الناس طلب بعضهم من رسول الله ﷺ أن يدعو على تثقيف . فكان ردّ الرحمة المهداة ﷺ : "اللهم اهدِ ثقيفًا وأت بهم مسلمون" (١) وبالفعل هداهم الله ، وقدموا على النبي في العام التالي مسلمين ، وسنعرض لذلك لاحقًا .

رد سبايا هوازن :

وانصرف رسول الله ﷺ والمسلمون معه عن الطائف حتى نزلوا بالجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم هناك ثم بدأوا يقتسمون ، وفصل رسول الله ﷺ الخمس لنفسه ، ووَزَّع ما بقي على أصحابه وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفدٌ من هوازن وأعلنوا إسلامهم ، وهم يرجون أن يمُنَّ عليهم رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله إنّنا أهلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا ، مَنْ الله عليك .

وقال أحدهم : يا رسول الله إنّ في السبي عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك ، ولو أنّا ملّحنا (أرضعنا) للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منّا مثل الذي نزلت به ، ورجونا عطفه وعائده علينا ، وأنت خيرُ المكفولين ، فردّ عليهم النبي ﷺ وقال : " ما كان لي ولبنّي عبد المطلب فهو لكم " (٢) فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار مثل ذلك وقال بنو سليم مثلهم ، فتنازل الجميع عن حقهم في السبايا وردوا إليهم سباياهم .

الشيماء أخت رسول الله ﷺ :

ولم يخطئ هؤلاء في تذكير رسول الله ﷺ بصِلته بهم وقربته منهم ، فقد كانت بين السبايا امرأة عُنْفَ عليها الجنود فقالت لهم : تعلموا أنّي والله لأخت صاحبكم من الرضاة ، فلم يصدقوها .

(١) - رواة الترمذي ٣٩٤٢ .

(٢) - صحيح النسائي ٣٦٩٠ .

وجيءَ بها إلى رسول الله ﷺ فعرفها ، فإذا هي الشيماءُ بنت الحارث بن عبد العزرى أخته من الرضاعة ، فأدناها منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وقال لها : " إن أحببتِ فعندي مُحَبِّبَةٌ مُكْرَمَةٌ ، وإن أحببتِ أنْ ترجعي إلى قومك فعلت " (١) ففضلت أنْ تعود إلى قومها ، فأعطاها غلامًا وجارية وردَّها إلى بني سعد مُعَزَّزَةٌ مُكْرَمَةٌ .

وهكذا كان ذلك دائماً شأنه ﷺ مع كلِّ مَنْ أسدى إليه يوماً من الدهر يدًا كان عرفان الجميل بعض شأنه والبر يكلم القلب في جِبَلْتِهِ .

إسلام مالك بن عوف :

وسأل رسولُ الله ﷺ وفدَ هوازن عن مالك بن عوف النصرى ، فلمَّا علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف ، طلب إليهم أنْ يبلغوه أنه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، ولم يبيطئ مالك حين علم بوعد رسول الله ﷺ فخرج مُتَخَفِيًّا عن قومه خشية أنْ يمنعه .

فلحق برسول الله ﷺ وأعلن إسلامه ، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على مَنْ أسلم من قومه ، ولكن غالبية ثقيف ظلوا على كفرهم إلى أنْ أسلموا بعد ذلك كما سيأتي ذكره .

عطايا المؤلِّفة قلوبهم :

ثم بدأ رسول الله ﷺ بعد ذلك بتوزيع الغنائم ، وبدأ بالمؤلِّفة قلوبهم ، وهم حديثو الإسلام من أشرف قريش ، فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة ، و ١٠٠ من الإبل فقال أبو سفيان : وابني يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال وابني معاوية ، فأعطاه مثلها . فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لأنت كريم في الحرب وفي السِّلم ، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتُك فنعم المُسالِم أنت .. هذا غاية الكرم ، جزاك الله خيراً .

(٢) - البداية و النهاية لابن كثير ٧/١١٠ .

وأعطى رسول الله ﷺ كلاً من حكيم بن حزام ، وصفوان بن أمية - كان ما يزال على كفره وأسلم بعدها - وقيس بن عدي وحويطب بن عبد العزّي ، وغيرهم من رؤساء قريش كل واحد منهم مائة من الإبل ، وأعطى أناساً آخرين خمسين وأربعين من الإبل .

ثم بعد ذلك بدأ يقسّم الغنائم على المحاربين ، فكان لكلّ رجل أربع من الإبل ، وأربعون شاةً ، فإن كان فارساً كان له عشرون من الإبل ومائة شاة .

وكان نصيب الأنصار مثل نصيب المحاربين ، ولم يُصبهم شيءٌ من العطايا التي أُعطيت للكبراء قريش .

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم :

كانت هذه القسمة مبنيةً على سياسة حكيمة لرسول الله ﷺ ، وهي تأليف قلوب مَنْ كانوا إلى الأمس أعداءه ، ولكنها لم تُفهم في أول الأمر ، ممّا جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع رسولُ الله ﷺ حتى قال قائل منهم : لقد لقي والله رسول الله قومه ! وقال آخرون : إنّ هذا لهو العجب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر دماؤهم .

فدخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ وأخبره بمقالة القوم ، فقال له رسول الله ﷺ : " فأين أنت يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي ، فأمر رسول الله بالأنصار دون غيرهم أن يأتوا إليه ، فلمّا اجتمعوا أتاهم رسولُ الله ﷺ ودار بينه وبينهم الحوار التالي :

رسول الله ﷺ : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم . ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فأثّف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار : بلى .. الله ورسوله أمّن وأفضل .

رسول الله ﷺ : ألا تُجيبوني يا معشر الأنصار ؟

الأنصار : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولسوله المنّ والفضل .

رسول الله ﷺ : أما والله ، لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مُكذِّبًا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريدًا فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار من لعاعة (شيء قليل) من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم بإسلامكم ؟

الأترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله في رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار (١) .

قال رسول الله ﷺ هذه العبارات وكله فَيُضُّ من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه ، حتى بلغ تأثره أن بكى الأنصار حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قِسْمًا وحظًّا ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا .

وبذلك أظهر رسول الله ﷺ زهده عن هذا المال الذي غنم في حنين والذي بلغ ما لم يبلغه من قبل فجعله وسيلة تتألف بها قلوب الذين كانوا إلى وقت قريب كانوا مشركين ليرؤا في الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة ، وعادوا جميعا وكلهم نفوس مرضية وقلوب مطمئنة مستعدة لأن تهب حياتها في سبيل الله .

عمرة الجعرانة والانصراف إلى المدينة :

ولمَّا فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة ، خرج منها معتمرًا إلى مكة ، فلما قضى عمرته استخلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه مُعَاذُ بن جبل لِيُفَقِّهَ الناس في دينهم ، ويُعلمهم القرآن . وعاد رسول الله ﷺ والأنصار قافلين إلى المدينة ، وكان رجوعه في ذي القعدة سنة ٨ هـ .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٨ ، فقه السيرة ٣٩٥ .

أهم الأحداث بين حنين وتبوك

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وحصار الطائف ، وقد ثبت في نفوس العرب جميعاً أنه لا قبل لأحد به ﷺ ، وأنه لم يبق للسان أن ينطق بإيذائه أو الطعن عليه ، وقد ترك هذا النصر الذي لم يُعرف له في تاريخ العرب نظير أثرًا بالغا في نفوس العظماء والسادة مقابل ما يلقون منهم .

فكان بداية مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة ، وهي تسابق الشعوب والقبائل على اعتناق الإسلام ، وإن كان هناك ما زال بعض المجاهدة ، إلا أنها لم تكن بحدّة وشراسة ما سبقها من تحديات .

ولنعرض لأهم الوقائع التي حدثت بين حنين وتبوك :

أولاً : إسلام كعب بن زهير ، ونهاية الهيمنة الإعلامية على الجزيرة :

بلغ من الأثر في نفوس العرب أن كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب بعد منصرف رسول الله ﷺ عن الطائف ، يخبره أن محمداً قتل رجلاً بمكة ممّن كانوا يهجونه . وكان كعب بن زهير شاعراً يهجو رسول الله ﷺ ، وقد أهدر دمه فنصح أخوه ، إما التوجّه إلى رسول الله ﷺ ليتوب ويحقن دمه أو يهرب إلى مكان آخر في الأرض .

وانتوى كعب بن زهير التوبة فقدم المدينة وكان رسول الله ﷺ قد انتهى من صلاة الصبح ، فاعتذر كعب وتاب عمّا قال وأعلن إسلامه ، فقبله النبي ﷺ وأمنه ، فأنشد قصيدة من ٥٨ بيتاً عُرفت بقصيدة " بانث سعاد " وفيها يمدح رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : " لولا نكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل " فقال ثلاثة عشر بيتاً يمدح فيها الأنصار .

وبإسلام كعب بن زهير ، يمكن القول بأنّ عصر الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية والمهيمن مع الدعاية الإعلامية المناهضة لرسول الله ﷺ قد انتهى ، وانتهى دورهم .

فقد أسلم قبل كعب ، ضرار بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، والعباس بن مرداس .. وغيرهم ، وقد تحولوا إلى الصفّ الإسلامي

ولم يكتفِ بعضهم أن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام ، بل كان سيفه إلى جانب كلمته .

ثانيًا : ترتيب استيفاء الصدقات :

شرع رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة في تنظيم الإدارة والجباية ، فقد استخلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه مُعَاذ بن جبل - كما أسلفنا - وكان هدي النبي ﷺ عندما تدخل القبائل في الإسلام ، يحرص على تعليمها وترتيبها ، ويُعين مَنْ يُشرف على ذلك .
ففي مطلع السنة التاسعة للهجرة ، وجه رسول الله ﷺ عُماله إلى المناطق المختلفة .
فبعث :

- عُتَيْبَةُ بن حصن..... إلى بني تميم .
- يزيد بن الحُصَيْن..... إلى أسلم وغفار .
- عمرو بن العاص إلى فزارة .
- بشير بن سفيان إلى بني كعب .
- علي بن أبي طالب..... إلى نجران .

وغيرهم إلى كل القبائل التي أسلمت ، لأخذ الصدقات وكانوا يُعرفون "بالمُصدِّقين" ، وفي هذا الصدد هناك أمران أقرهما الإسلام :

١ - استيفاء الحساب :

كان رسول الله ﷺ يستوفي الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، كما فعل مع أحد عماله حين حاسبه عندما قال الرجل : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا ، والذي نفسُ محمد بيده ، لا ينال أحدٌ منكم منها شيئًا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ، اللهم هل بلغت " (١) .

(١) - صحيح مسلم ١٨٣٢ .

وقال ﷺ : " أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقاً ، فما أصاب بعده من رزق ، فهو غلول" (١) .

٢ - تبيان الأنباء قبل ردود الأفعال :

بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط ، لأخذ صدقات بني المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً مقلدين سلاحهم ، احتفالاً بقدومه . وكان معهم إبلُ الصدقة ، فلما نظرهم ، ظنهم يريدون حربه ، لِمَا كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية ، فرجع مسرعاً إلى المدينة .

وأخبر رسول الله ﷺ : أن القوم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة . فأرسل رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد لاستكشاف الخبر فسار إليهم في عسكره خفية ، حتى إذا كان بناديهم سمع مؤذنهم للصبح فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة ، فرجع وأخبر رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ لهم غير الوليد بن عُقبة لأخذ الصدقات ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نُدْمِينَ) [الحجرات : ٦]

ثالثاً : السرايا :

كما بعث رسول الله ﷺ العُمال إلى القبائل لجمع الصدقة ، مَسَّت الحاجة إلى بعث عدة سرايا لسيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة العربية.

وهاك بيان لبعض من هذه السرايا :

١ - سرية قُطبة بن عامر :

في صفر سنة ٩ هـ أرسل رسول الله ﷺ قُطبة بن عامر إلى حيٍّ من خثعم بناحية تَبَالَةَ بالقرب من تُرَبَّة . خرج قُطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشنَّ الغارة

(١) - البدر المنير لابن الملقن ٩/٥٦٤ ، أخرجه أبو داود ٢٩٤٣ وابن خزيمة ٢٣٦٩ واللفظ لهما و البزار ٤٤٢٧ باختلاف يسير .

فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقُتِلَ قُطْبَةُ مع مَنْ قُتِلَ ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاة إلى المدينة .

٢ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابي :

في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، بعث رسول الله ﷺ الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب ، لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزهم المسلمون ، وقتلوا منهم رجلاً

٣ - سرية علقمة بن مُجرز المُدَلْجِي :

في ربيع الآخر سنة ٩ هـ ، لما بلغ رسول الله ﷺ أنَّ جمْعاً من الحبشة رآهم أهل جدة وهم في مراكبهم يريدون الإغارة عليها ، فأرسل رسول الله ﷺ لهم علقمة بن مُجرز ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم ، هربوا ولم يلق المسلمون كيداً ، فرجع علقمةُ ومَنْ معه بلا قتال . وكان هناك سرايا أخرى لم يتسع المقام لذكرها جميعاً .

رابعاً : أحداث متفرقة :

١ - وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ :

كانت زينب أكبر أبناء رسول الله ﷺ ، ومرضت مرضاً شديداً منذ أن آذاها الكفار حين خروجها من مكة ، فقد ظلت مهتمة العافية ، وانتهى المرض بوفاتها ، و بوفاتها لم يبق لرسول الله ﷺ من عقبه إلا فاطمة ، بعد أن ماتت أم كلثوم ، كما ماتت رقية وكان أخوهم القاسم قد مات قبل البعثة .

وحزن رسول الله ﷺ لفقدائها ، وذكر لها رقةً شمائلها ، وجميل وفائها لزوجها أبي العاص بن الربيع ، حين بعثت تقيده من أبيها بقلادة أمها السيدة خديجة وقد أسر بيدر ، وذكر لها ما لاقَتْ من ألم المرض طول أيامها ، منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها . وجديرٌ بالذكر أن بعض الروايات ذكرت ، أنها توفيت في محرم سنة ٨ هـ أي قبل الفتح .

٢ - مولد إبراهيم :

بعد وفاة زينب وجد رسول الله ﷺ من بر الله ورفقه به ما يعزيه فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاماً دعاه إبراهيم ، تيمناً بإبراهيم جد الأنبياء . وقد سُرَّ النبي ﷺ أيما سرور وقد شَرَّف على الستين من عمره ، بأن رزقه الله ولداً . وتصدق رسول الله ﷺ بوزن شعره فضة ، وتنافس الأنصار فيمن ترضعه ، فاختر رسول الله ﷺ مرضعة لولده وجعل في حيازتها سبعاً من الماعز ، كي تُرضعه بلبنها إذا شح ثديها .

وكان ميلاد إبراهيم في ذي الحجة سنة ٨ هـ .

غزوة تبوك

رجب سنة ٩ هـ

قلق الرومان من تعاضم قوة المسلمين :

بعد فتح مكة وسيطرة المسلمين على ربوع الجزيرة العربية ، وهو ما أثار قلق الرومان ، وهي أكبر قوة عسكرية على وجه الأرض في ذلك الزمان .

ويرجع الصراع بين الرومان والمسلمين منذ أن قتل شُرحبيل بن عمرو، الحارث بن عُمير سفير رسول الله ﷺ وهو يحمل رسالته إلى عظيم بُصرى. وما تلاه من إرسال رسول الله ﷺ بسرية زيد بن حارثة إلى مؤتة، والتي لم يستطع الرومان التغلب عليهم رغم قلّة عددهم بالقياس إلى الجيش الجرار من الرومان . ونجاح المسلمون في الانسحاب الماهر ، وهو ما ترك أروع الأثر في نفوس العرب الذين يعانون تحت وطأة الاحتلال الروماني .

تهيؤ الرومان لغزو المسلمين :

لذلك تهيأ الرومان لغزو حدود الجزيرة الشمالية للقضاء على قوة المسلمين التي وصلت إلى حدود الشام ، قضاءً تاماً قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تُثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان ، فلم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ، حتى أخذ يُهيء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم . وبدأ يُجهز لمعركة دامية فاصلة .

ترامي أنباء الغزو على المدينة :

وترامتُ الأنباء إلى المدينة ، بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين حتى كان الخوف يساورهم كلّ حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونونه زحف الرومان . وخاصة أن هناك اعتقاداً عاماً كان سائداً عند العرب من قوة وبطش بني الأصفر (الرومان) .

كان هذا حال المسلمين ، أما المنافقون فقد طفقوا يأملون في تحقيق ما كانوا يُخفونه في صدورهم، وهو القضاء التام على الإسلام والمسلمين ، وممّا زاد من خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد وكان الناس في عُسرة وجذب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم.

قرار رسول الله ﷺ للقيام بعمل حاسم :

كان رسول الله ﷺ ينظر إلى كلّ هذه الظروف والتطورات بنظر أدق وأعمق من هذا كله ، إنه كان يرى أنه لو تواني أو تكاسل عن غزو الرومان، وتركهم يجوسون خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة المسلمين لرحلوا إلى المدينة .

وكان لذلك أسوأ الأثر على الدعوة الإسلامية وخاصة أن الجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين قد يتصلون بالرومان ، ويضربون المسلمين من الخلف . كما هي عاداتهم ..

لذلك قرر رسول الله ﷺ القيام بغزوة فاصلة ، يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم ، ولا يُمهلونهم حتى يزحفوا إلى المدينة .

دعوة رسول الله ﷺ لغزو الرومان :

لمّا عزم رسول الله ﷺ السير إلى الرومان وقتالهم ، طالع الناس بعزمه حتى يأخذوا عدتهم ، ولا مفرّ من أن يُخالف بذلك تقاليدهم في سابق غزواته. حتى كان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي يقصدها ، تضليلاً للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته . ، فبعث إلى القبائل من العرب وأهل مكة يستنفرهم ، وإلى أثرياء المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش ، بما أتاهم الله من فضله ، ليعد جيشاً يستطيع أن يدخل الرُوع في نفوس الرومان الذين عُرفوا بوفرة عدتهم وكثرة عديدهم ، ثم إن المسافة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقة ، تحتاج إلى الجَلَد وإلى المؤونة وإلى الماء .

ردود الأفعال لدعوة رسول الله ﷺ غزو الرومان :

كان هناك تفاوت كبير في ردود الأفعال لدعوة رسول الله ﷺ لغزو الرومان . بين المسلمين وبين المنافقين ، وحتى بين المسلمين أنفسهم ، فكان هناك تسابق من السواد الأعظم للمسلمين لبذل كل جهد لمساندة الدعوة إلا أنه كان هناك تخاذلٌ من البعض ، أما المنافقون فحدّث ولا حرج فيما قاموا به لتثبيط العزائم وإفشال المهمة .

وفيما يلي ملخصٌ لتلك المواقف وردود الأفعال :

أولاً : ردود أفعال المسلمين :

١- السواد الأعظم :

ما لبث المسلمون أن سمعوا نداء رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم ، إلا وتسابقوا إلى امتثاله بسرعة فائقة ، فأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب ، كما تسابق الأثرياء منهم على إنفاق الأموال وبذل الصدقات .

وهاك بعض الأمثلة من عطاء المسلمين :

• تصدّق عثمان بن عفان بتسعمائة بعير ومائة فرس وعشرة آلاف دينار ، نثرها في حجر رسول الله ﷺ . فكان رسول الله ﷺ يقول له : " اللهم ارض عن عثمان ، فإنّي راضٍ عنه " (١) . وقال : " ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم " (٢) .

• جاد أبو بكر بكامل ماله وهو أربعة آلاف درهم . فقال رسول الله ﷺ : " هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ " (٣) فقال : أبقيتُ لهم الله ورسوله .

• جاد عمر بن الخطاب بنصف ماله .

• جاد عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من فضة وعشرة آلاف دينار .

(١) - رواه ابن هشام / والإمام أحمد في " فضائل الصحابة " بإسناد مرسل انظر فقه السيرة ص ٤٣٨ و السيرة النبوية ٤/٢١٩ .

(٢) - رواه الترمذي ٣٧٠١ والمستدرک في الحاكم للحاكم ٣/١١٠ .

(٣) - أخرجه ابو داود ١٦٧٨ ، و الترمذي ٣٦٧٥ ، و الدرامي ١/٤٨٠ باختلاف يسير .

• جاد العباس وطلحة وعاصم بن عدي بمال كثير .

• لم يقتصر العطاء على أغنياء المسلمين فحسب ، بل كان للفقراء في العطاء دورٌ أيضاً ، حتى أن بعضهم كان يأتي بمُدٍّ أو مدين من التمر ، ومنهم مَنْ لم يكن يستطيع غيرها ، حتى أنه جاء إلى النبي ﷺ سبعة نفر من فقراء الصحابة ، وهم لا يقدرّون على شيء ويريدون اللحاق بهم ، وأن يحملهم معه ، فقال لهم : " **لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ** " [التوبة : ٩٢]

فلما رأى عثمان بن عفان هذا المشهد ، طلب من رسول الله ﷺ أن يُجهزهم فسمح له وجهزهم .

• أما النساء فقد شاركن أيضاً ، فبعثن بما يقدرن عليه من خُلِهِنَّ .

وهكذا كانت هذه هي الروح السائدة في السواد الأعظم من المسلمين .

٢ - قلة من المخلفين :

• جاء نفرٌ من الأعراب يستأذنون النبي ﷺ في القعود ، وكانوا من ٨٢ رجلاً من قبائل أسد وغطفان ، وكانوا حديثي العهد بالإسلام ، وكانوا ادعوا أن الهم عذراً .

• تخلّف بعض المسلمين ، ممّن لا يُتهمون في إسلامهم . منهم ثلاثة أشار القرآن إليهم فيما بعد ، وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

كانوا تكاسلوا ولم يخرجوا مع الجيش بنية أن يلحقوا بهم فيما بعد ، ولكنهم أجلوا خروجهم يوماً بعد يوم ، حتى وصل الجيش وظلوا هم لم يخرجوا .

وسنأتي لذكرهم بالتفصيل فيما بعد .

ثانياً : ردود أفعال المنافقين :

أما المنافقون فقدّموا كل أنواع الأعذار للتخلّف عن اللقاء ومحاولة تثبيط العزائم .

وهاك بعض من تلك الأعذار :

١ - قال قوم منهم بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر .

فكان رد الله عليهم بقوله سبحانه : (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا)

لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ([التوبة : ٨١])

٢- جاء الجَدُّ بن قيس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تقتني ،

فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشدَّ عُجْبًا بالنساء مني ، وإنِّي أخشى إن رأيتُ

نساء بني الأصفر (الروم) ألا أصبر . فأعرض عنه النبي ﷺ ، ولكن ردَّ عليه الله

بقوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي ۗ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) [التوبة : ٤٩]

٣- أما عبد الله بن أبي (رأس النفاق) : فلم يكتفِ بإعلان تخلفه عن رسول الله ﷺ ،

وعدم مشاركته في الأعداد ، بل قاد حملة لبثَّ السموم والتثبيط عن الحرب . وكان

يقول في شماته : يغزو محمد بنو الأصفر مع جهد الحال ، والحر والبلد البعيد ،

أحسب محمد أن قتال بني الأصفر لعب ، والله كأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين في

الحبال .

واجتمع نفرٌ من المنافقين يرددون مقالة عبد الله بن أبي ويقولون : أحيسون جلاذ بني

الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا ، والله لكأنهم مقرنون في الحبال .

ولمَّا علم رسول الله ﷺ بما قالوا أرسل إليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا فاعتذروا

وقالوا : كنا نخوض ونلعب .

جيش العسرة :

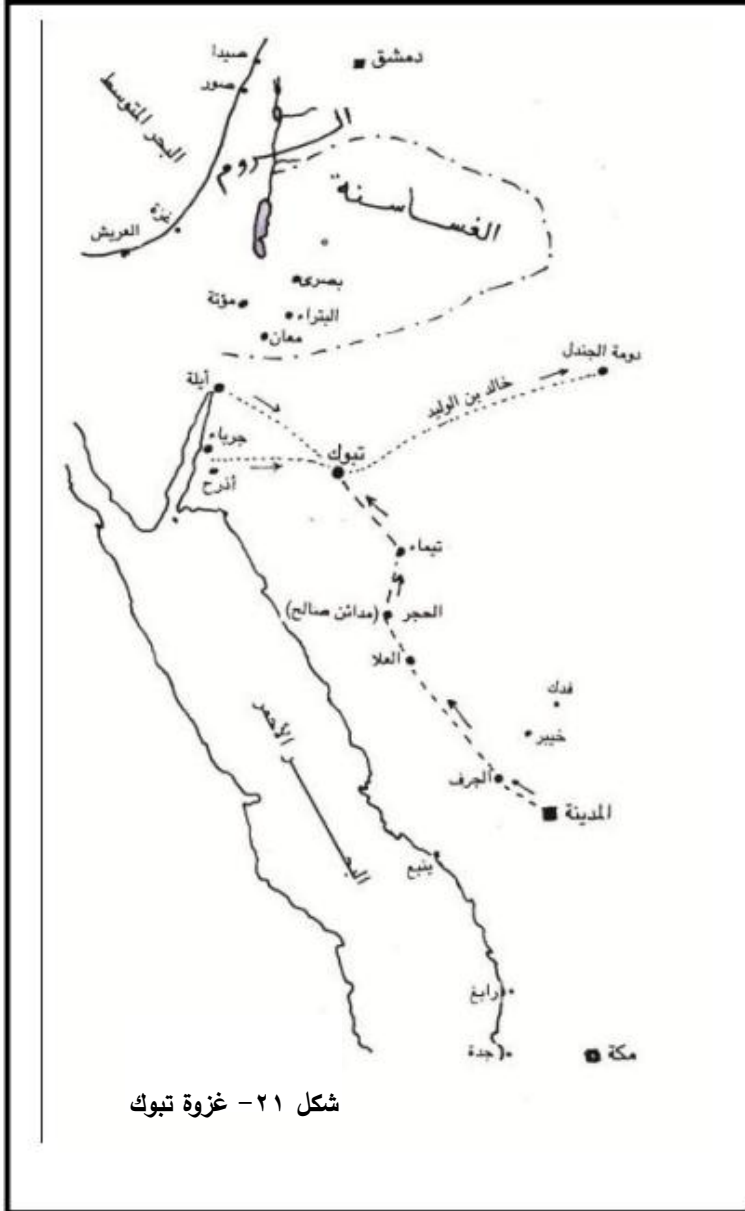
رغم كل هذه المعوّقات والمُتنبّطات من المنافقين وغيرهم ، فقد نجح رسول الله ﷺ في أن

يجمع إليه ثلاثين ألف رجلٍ ، وسُمِّي هذا جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه ، وما

لاقى أثناء سيره . وكانت هذه آخر غزوة لرسول الله ﷺ .

ولعلنا نلاحظ كم زادت قوة المسلمين ، فكانت أول غزوة لرسول الله ﷺ ببدر وكان عدد المقاتلين معه ثلاثمائة مقاتل فقط وهو اليوم في آخر غزواته يغزو بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل ، أي مائة ضعف ، فله المنة من قبل ومن بعد .

مسيرة جيش العسرة : (شكل : ٢١)



اجتمع الجيش في معسكره عند ثنية الوداع ، وقام أبو بكر يؤم الناس للصلاة في انتظار عودة رسول الله ﷺ من تدبير شئون المدينة في غيابه . فقد استخلف عليها محمد بن مسلمة ، وخلف علي بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، وأصدر ما رأى أن يُصدر من الأوامر .

ثم عاد إلى الجيش ليتولّى قيادته ، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق ورايته العظمى للزبير بن العوام ، وراية الأوس لأسيد بن حُضير ، وراية الخزرج إلى الحُباب بن المنذر ، وقطع الجيش ثلاثة أميال ثم نزل بالجرف .

أحداث ومعجزات في الطريق :

وفي الطريق إلى تبوك حدثت بعض الأحداث ، ومنها معجزات لرسول الله ﷺ نلخصها فيما يلي :

١ - المنافقون يُرجفون بعلي :

لمّا خلف رسول الله ﷺ عليّ في أهل بيته ، قال المنافقون : ما خلفه إلا استقلاً له ، وتخفّفاً منه ، فأخذ عليّ سلاحه وفرسه وسار حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف ، وأخبره بما سمع .

فقال له النبي : " كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فا خلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبيّ بعدي " (١) فهدأتْ ثائرة علي ورجع إلى المدينة .

٢ - النزول بالحجر :

وسار حتى بلغ الحجر . وبها أطلال ديار ثمود ، الذين جابوا الصخر بالواد ، فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال لهم رسول الله ﷺ : " لا تشربوا من مائها ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه " وفي رواية ابن

(١) - البداية و النهاية لابن كثير ٧/١٥٥ .

عمر قال لهم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين " (١) ثم رفع رأسه وأسرع بالسير ، حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح وأمرهم أن يستسقوا منها .

٣ - قلة الماء ومعجزات رسول الله ﷺ :

وحدث في الطريق بعض من معجزات رسول الله ﷺ نذكر منها :

أ. عند بئر ناقة صالح (٢) :

وهم ما زالوا عند البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح ، قلب رسول الله ﷺ وجهه في السماء وأخبر الناس : أنه تهبُّ عليهم الليلة ريحٌ شديدة وأمرهم بإحكام شد عقال بغيرهم . ونهاهم : ألا يخرجن أحدٌ منهم الليلة منفردًا وإن كانت ضرورة يخرج ومعه صاحبٌ له .

ولقد خرج رجالن كلٌّ بمفرده ، على خلاف ما أمر رسول الله ﷺ ، أما أحدهما فحملته الريح حتى ألقَتْ به بجبال طيء فبقى هناك حتى أعادته طيء إلى المدينة . أما الآخر فضلَّ الطريق وطمرته الرمال ، فاختنق ومات . فلما أصبح الناس لقوا هذه الرمال قد طمَّت البئر فلم يبق بها ماء ، ففزعوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا فأرسل الله سبحانه فأمطرت حتى ارتوى الناس ، وأصابوا منها ما شاءوا وزال عنهم الفزع .

ب . وادي المشقق - عين تبوك :

وكان بالطريق وادٍ يُسمَّى وادي المشقق ، وكان به وشل . وهو الماء القليل يتقطر من جبل أو صخرة مرتفعة . فقال رسول الله ﷺ : " مَنْ سَبَقْنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي ، فَلَا يَسْتَسْقِينُ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَهُ " (٣) . وكان رجالن قد سبقوا رسول الله ﷺ إلى الوشل وشربوا من مائها وبقي القليل ، فلما سألهما رسول الله ﷺ : " هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا " . قالوا : نعم وهو ما أغضب رسول الله ﷺ .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٢٢ .

(٢) - صحيح مسلم ٢٩٨٠ .

(٣) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٢٧ .

ثم غرف من العين قليلاً قليلاً ، حتى اجتمع منه ما يكفي لغسل وجهه ويده ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس . وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : " يوشك يا معاذ ، إن طالت بك الحياة أن ترى ما هنا قد ملئ جنائناً " (١) . وقد كان ما تنبأ من رسول الله ﷺ وأصبحت هذه الأرض فيما بعد مليئة بالحدائق والجنان .

ج. ناقة رسول الله ﷺ تَضَلُّ :

ولمّا كانوا في الطريق ، ضلّت ناقة رسول الله ﷺ فخرج أصحابه في طلبها ، فقال أحد المنافقين : أليس محمد يزعم أنه نبيّ ، ويخبركم خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقتة !
وعلم رسول الله ﷺ بمقولة المنافق فقال : " إن رجلاً قال كذا ، وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله ، وقد دلّني عليها ، وهي بالوادي في شُعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني إياها " (٢) فذهبوا وجاءوا بها ، وقيل : إن هذا المنافق تاب بعد ذلك ، وحسّن إسلامه .

٣- أخبار بعض الصحابة وإيثارهم :

لاقي الصحابة في هذه الغزوة الكثير من المتاعب في مسيرتهم ، وذلك لقلّة الزاد والركاب فكان ثمانية عشر رجلاً يتعقّبون بغيراً واحداً . وربما أكلوا أوراق الأشجار واضطروا إلى ذبح البعير - مع قتلها - ليشربوا ما في كرشه من ماء ، فكانت هناك صورٌ جليّة لتضحيات الصحابة وإيثارهم نذكر منها :

أ. أبو خيثمة - مالك بن قيس :

رجع أبو خيثمة من سفر بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سار أياماً ، فلما دخل على أهله وكان يوماً حارّاً ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستان ، وقد رشّت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً ، فلما نظر إلى ذلك قال : يكون رسول الله ﷺ في الضح والريح والحرّ ، وأبو خيثمة في ظلّ بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء : ما هذا

(١) - صحيح ابن حبان ٦٥٣٧ .

(٢) - المحلى لابن حزم ١١/٢٢٢ ، السيرة النبوية لابن هشام .

بِالنَّصْفِ (العدل) والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهينتا له زادًا وارتحل يركب بعيره ومعه سيفه حتى لحق برسول الله ﷺ .

ب . عُمير بن وهب :

ولمَّا كان أبو خيثمة في الطريق ، قابل عُمير بن وهب يريد هو الآخر للحاق برسول الله ﷺ ، فسارا معًا حتى إذا دنا من تبوك وقبل أن يمكن رؤيتهما ، أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بأنهما أبو خيثمة وعُمير بن وهب ، فلمَّا وصلا دعا لهما رسولُ الله ﷺ بالخير . ولعل جماعةً من الخوالم قد فعلوا فعلَ أبي خيثمة وعُمير ، بعد أن رأوا ما في التقاعس من عار ومذلة .

ج . أبو ذر الغفاري :

كان أبو ذر قد تخلف عن الجيش عند بدء مسيرته ، ولكن بعد يومين قرر للحاق برسول الله ﷺ ، فركب ناقته وأسرع يقنفي أثر الجيش ولكن الناقة ضعفت عن السير فأخذ متاعه ، وحمله على ظهره وسار حتى لحق برسول الله ﷺ ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ يسير وحده ، قال : " رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده " (١) وقد كان وسنأتي لذكره بالتفصيل في الأجزاء التالية إن شاء الله .

د . ذو البجادين :

كان عبد الله ذو البجادين المزني ، لمَّا أسلم ضيق عليه قومه حتى تركوه في بجاد - أي كساء خشن - ليس عليه غيره ، فشقَّ بجاده نصفين : ائتزر بنصف وارتدي النصف الآخر ، فسماه رسول الله ﷺ " ذو البجادين " .

ولمَّا خرج في غزوة تبوك قال لرسول الله ﷺ : ادع لي بالشهادة ، فربَّت النبي ﷺ على عضده وقال : " اللهم حرِّم دمه على الكفار " (٢) فقال له : ليس هذا أردتُ ، فقال رسول الله ﷺ : " إنك إذا خرجت غازيًا فأخذتكَ الحمى فقتلتكَ فأنت شهيد أو وقصتكَ دابَّتكَ فأنت شهيد " . فأقام بتبوك أيامًا ثم تُوفِّي .

(١) - رواة الحاكم في المستدرک ٣/٥١ ، دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٢٢-٢٢١ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٢٤ .

(٢) - تاريخ الخميس ٢/١٢٩ .

فقام عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ودفنوه ، وقال رسول الله ﷺ بعد دفنه : " اللهم إني أمسيْتُ راضيًا عنه ، فارضُ عنه " (١) . فلما سمع ابن مسعود هذا قال : يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة .

والأمثلة كثيرة لتضحيات الصحابة وإيثارهم ، لا يتسع المقام لذكرها .

الجيش الإسلامي بتبوك - انسحاب الروم :

وسار الجيشُ حتى بلغ مشارفَ تبوك بعد سبعة أيام من خروجه من المدينة ، ونزل هناك وهو مستعدٌّ للقاء العدو ، مع كل ما بهم من نقص الزاد والمادة والمؤنة .

أما الروم ، فلما علموا بزحف المسلمين أخذهم الرعب ، فلم يجترئوا على التقدّم للقاء بل آثروا الانسحاب وتفرقوا داخل حدودهم ، ولعلمهم تذكروا ما أصابهم في مؤتة من ثلاثة آلاف رجل فقط ، فما بالهم بثلاثين ألفًا !!؟

أما رسول الله ﷺ ، لمّا نما إليه ما أصابهم من خوف لم يرَ محلاً لتتبعهم داخل بلادهم وبقي في تبوك بضعة عشرة ليلة .

وكان لذلك بالغ الأثر بالنسبة لسمعة المسلمين العسكرية في داخل الجزيرة وخارجها .

معاهدة أهل الحدود :

أقام رسول الله ﷺ عند الحدود ، يناجز من شاء أن يُنازله أو يقاومه ويعمل لكفالة هذه الحدود، حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد .

فكانت معاهدته لأهل هذه الحدود :

١ - أيلة :

وهي تقع على الطرف الشمالي لخليج العقبة (شكل : ٢١) ، فلمّا رأى ملكها يوحنا بن روية ما انتهى إليه الموقف بين المسلمين والروم ، وإحجام الروم عن محاربة رسول الله ﷺ ؟ فأتى النبي ﷺ في تبوك وصالحه على دفع الجزية .

(١) - معرفة الصحابة للأصبهاني ٣٦٤٤ .

وكتب له رسول الله ﷺ ، كتابًا ، جاء فيه :

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذه أمانة من الله ومن محمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤية وأهل أبله . سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يريدونه ولا طريقًا يريدونه من برٍّ وبحرٍ " (١) .

وإيضًا بهذا العهد أهدى رسول الله ﷺ إلى يوحنا رداءً من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتفق معه على أن تدفع أيلة الجزية وقدرها ثلاثمائة دينار كل عام ، وبذلك أمن المسلمون على تجارتهم المارة إلى الشام ومصر .

٢ - أهل جرباء وأنزح :

أتى أهل جرباء ، وأهل أنزح إلى رسول الله ﷺ ، وعاهدوه على أن يعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا جاء فيه :

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذا كتاب من محمد النبي إلى أهل أنزح وجرباء ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين " (٢) .

٣ - أهل مينااء :

وصالح رسول الله ﷺ أهل مينااء على رُبْع ثمارها ، وكتب لهم بذلك عهدًا .

٤ - بعثة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل :

بعد أن أمن رسول الله ﷺ وعاهد القبائل الواقعة على الحدود معه ، خشى انتفاضة أكيدر بن عبد الملك أمير دومة الجندل ، ومعاونة الروم إذا هاجمت المسلمين من ناحيته .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٥٢٥-٥٢٦ / ٢ ، عيون الأثر لابن سيد الناس ٢٥٨ / ٢ ، زاد المعاد لابن القيم ٤٦٦ / ٣ .

(٢) - طبقات ابن سعد ١ / ٢٩٠ ، السيرة النبوية لابن كثير ٤ / ٣٠ .

فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك وكان نصرانيًا . وكان رسول الله ﷺ قد أخبر خالدًا أنه سيجده يصيد البقر ، فخرج خالد في ٤٢٠ فارسًا ، حتى أشرف على حصن دومة الجندل ، وكانت ليلة مقمرة ، ورأى أكيدر وهو على سطح الصحن والبقر تحكّ قرونها بباب القصر ، فأغراه هذا بالإسراع للخروج من الحصن لصيدها ، دون أن يكون معه إلا أخوه وقليل من الحراس .

فلما خرجوا من باب الحصن كان خالد قد كمن لهم خارجه فأحاط بهم وأسر أكيدر والحراس ، وحاول أخوه القتال فقتل . وأتى خالد بالأسرى إلى النبي ﷺ ، فحقن دم أكيدر وصالحه على الجزية ثم خلّى سبيله . فرجع إلى قومه وقد أصبح حليفًا للمسلمين .

وعاهد رسول الله ﷺ عددًا من القبائل الأخرى ، وبذلك أيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ساداتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين .

وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان ، وشهد عملاؤهم نهايتهم إلى حد كبير .

العودة إلى المدينة :

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ومعه جيشه مظفرين منصورين لم ينالوا كيدًا وكفى الله المؤمنين القتال وقد استغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا .

ولمّا قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة بدأ بالمسجد كعادته ، فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، وجاءه المخلفون يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يحلفون له ، فقيلَ علانيتهم وإيمانهم ، وأوكل سرائرهم إلى الله تعالى .

مسجد ضرار :

كان أبو عامر الراهب - سماه رسول الله ﷺ أبو عامر الفاسق - وهو معروف بكرهه الشديد لرسول الله ﷺ وللإسلام . وكانت له مواقف معادية في بدر وأُحد - كما أسلفنا - فكان قد استنصر الروم لغزو المدينة ، فوعده هرقل ومنّاه ، فبعث إلى

جماعة من أنصاره المنافقين في المدينة يطلب منهم أن يتخذوا له معقلاً في المدينة فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، ليكون مركزاً يجتمع فيه المنافقون ليفرقوا جماعة المسلمين ، ويحاولوا تحريف كلام الله عن موضعه .

فلما اكتمل البناء أتوا إلى رسول الله ﷺ وكان ذلك قبل خروجه إلى تبوك ، وسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في المسجد ، وذلك ليعطوا لمسجدهم شرعية ، ويحتجوا بصلاة رسول الله ﷺ فيه ، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية .

لكن الله عصم رسوله من الصلاة فيه فاستمهلهم حتى يعود من تبوك وقال لهم : " إني على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " (١). فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبقَ بينه وبين المدينة إلا يوماً أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر السماء وبَيَّن له ما اعتمده بأثو هذا المسجد من الكفر والتفريق بين جماعة المسلمين في مسجدهم قباء الذي أسس على التقوى من أول يوم . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : (**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۗ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) (١٠٧) **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۗ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ** (١٠٨) [التوبة : ١٠٧-١٠٨]

المُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرُونَ :

لمَّا عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهو المنتصر على هرقل قاهر الفرس ، وقد دانته له كل جزيرة العرب ، بدأ المخلفون بالتوافد عليه لإبداء الأعدار . وكانوا صنفين :

١ - المنافقين :

وقد قبل رسول الله ﷺ أعدارهم وهو يعلم أنهم كاذبون وأوكل سرائرهم إلى الله . وفيهم نزل قوله تعالى : (**وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) [التوبة : ٩٠]

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣٠ ، " إني على جناح سفر ولو قدمنا لأتيناكم إن شاء الله

٢ - المسلمون :

أما المسلمون فكانوا صنفان :

أ. مسلمون لهم أعداء حقيقية :

مثل الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يجدون المال لتجهيز أنفسهم ، وكذلك الذين أتوا بسلاح ولكنهم لم يجدوا ما يحملهم ، فاعتذر لهم رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع . لذلك سُموا " البكائين " وقد تاب الله على كل هؤلاء وقال فيهم :

(لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) [التوبة : ٩١-٩٢]

وقد قال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : " إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبْسَهُمُ الْعَذْر " (١) قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : " وهم بالمدينة " .

ب. مسلمون ليس لهم أعداء - الثلاثة - :

كنا قد أسلفنا أنه تخلف ثلاثة من المسلمين ممن لا يُتهمون في إسلامهم عن رسول الله ﷺ وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وهؤلاء الثلاثة لم يكن لهم عذرٌ في تخلفهم عن رسول الله ﷺ .

فلما عاد رسول الله ﷺ من الغزوة ، وهو ما زال جالسًا بالمسجد بعد أن انتهى من الركعتين ، قدم إليه كعب بن مالك ، فقال له رسول الله ﷺ : ما خلفك ؟ فأقرَّ كعبٌ بأنه لم يكن له عذر . فقال له رسول الله ﷺ : " أما هذا فصدق ، فقم حتى يقضي الله فيك "

(١) - صحيح مسلم ١٩١١ " حبسهم المرض " .

وكذلك فعل مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة ، فاجتنبهم الناس ، وقعدوا في بيوتهم .

وكان كعب بن مالك أشجعهم ، فكان يخرج للصلاة مع المسلمين ، وإذا حدث والتقى برسول الله ﷺ أعرض الرسول عنه ، حتى إذا مضت أربعون ليلة أمرهم رسول الله ﷺ أن يعتزلوا نساءهم ، واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها ، لأنه شيخ كبير وضعيف ليس له من يخدمه ، فأذن لها رسول الله ﷺ .

ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، حتى كانت صلاة الفجر في الليلة الخمسين حيث نزل العفو عنهم في قوله تعالى : (**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**) [التوبة : ١١٨]

وفرح المسلمون وفرح الثلاثة فرحًا لا يُقاس فُبشروا وأبشروا واستبشروا، فلما دخل كعب المسجد بعد البشارة أتى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن من توبتي أن انزع من مالي صدقةً لله ورسوله ؟ فقال له رسول الله : " أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك " (١) .

عقاب الدنيا أخف وأهون من عقاب الآخرة :

وقد يسأل سائل : لماذا عاقب رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة مع اعترافهم وعلمه بصدقهم ، بينما لم يعاقب المنافقين وقبيل أعدارهم مع علمه بكذبهم ؟

فعل رسول الله ﷺ أراد بهؤلاء الثلاثة خيرًا . فقد قال رسول الله ﷺ : " إن الله إذا أحب عبداً عجل له العذاب في الدنيا ، قبل يوم القيامة " (٢) أو كما قال ، فكان معاقبة رسول

(١) - صحيح البخاري ٤٤١٨ .

(٢) - أخرجه الترمذي ٢٣٩٦ ، و اللفظ له و البيهقي في " الأسماء و الصفات ٣١٦ و البغوي في شرح السنة ١٤٣٥ باختلاف يسير .

الله ﷺ وحزمه معهم في الدنيا رحمة بهم ، ليخفف عنهم ما قد ينالونه في الآخرة من عقاب ، وبالفعل فقد تاب الله عليهم ليتوبوا .

أما المنافقون الكاذبون فقد وكل رسول الله ﷺ سرائرهم إلى الله ، وقد وعدهم الله بعذاب شديد، كما أشار الله سبحانه إلى ذلك في قوله : **(سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** [التوبة : ٩٠] . وهكذا كان في عقاب رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة رحمة منه .

أهم أحداث سنة ٩ هـ وبداية سنة ١٠ هـ

كانت غزوة تبوك هي الحدث الأكبر والأهم في سنة ٩ هـ ، وإلى جانب هذه الغزوة فقد كان هناك بعض الأحداث التي يجب ذكرها مع نهاية سنة ٩ هـ وبداية سنة ١٠ هـ . وكان من أهمها :

١ - وفاة أم كلثوم :

كانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ زوجًا لعثمان بن عفان تزوجها بعد وفاة أختها رقية ، وقد تُوفيت في شعبان سنة ٩ هـ . ولمّا ماتت قال رسول الله ﷺ لعثمان : " لو كانت عندي ثالثة لزوجتها " (١) .

٢ - موت رأس النفاق - عبد الله بن أبيّ بن سلول :

مرض عبد الله بن أبيّ - رأس النفاق - في أواخر شوال ومات في ذي القعدة سنة ٩ هـ . وكان قد طلب من رسول الله ﷺ قبل موته لمّا كان يعوده وهو مريض ، طلب منه أن يعطيه قميصه ليُكفن فيه ، وأن يُصلي عليه ويستغفر له . فلمّا تُوفّي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليُكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فصلى عليه .

خيرني ربي فاخترت :

ولمّا قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، أخذ عمر بن الخطاب بثوب رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي؟ فقال رسول الله ﷺ : " إنما خيرني ربي فقال : (أَسْتَغْفِرُ هُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ هُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ هُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ) [التوبة : ٨٠] . وإنّي اخترت أن أستغفر له وسأزيد على السبعين " (٢) .

(١) - مجمع الزوائد للهيتمي ٩/٨٣ ، رواة ابن عساکر في تاريخه ٣٩-٤٥/٤٤ .

(٢) - صحيح البخاري ٤٦٧٠ .

وصلى عليه رسول الله ﷺ الرحمة المهداة للعالمين ، ثم أنزل الله بعدها قوله : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) [التوبة : ٨٤] .

فكان بعدها لا يصلي على أحد منهم إن مات .

حكمة رسول الله ﷺ وبعده نظره :

وكان لهذا التصرف الحكيم من رسول الله ﷺ أسبابه ، منها :

أ. إجراء على حُكم الظاهر وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام لولده عبد الله ، وكان من خيار الصحابة وكان قد عرض على النبي رسول الله ﷺ أن يقتل أباه لمقاتلته يوم غزوة بني المصطلق - كما أسلفنا - .

ب . تأليف قلوب تابعي عبد الله بن أبي ، وكان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين ، عسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم وقد كان .

ج . لو لم يُجب رسول الله ﷺ ابنه ، وترك الصلاة عليه ، قبل ورود النهي الصريح ، لكان سببًا وعارًا على ابنه وقومه ، فاتبع رسول الله ﷺ أحسن الأمرين في السياسة ، حتى نُهي فانتهى .

د . أما إعطاؤه القميص ، فلأنه كان من خُلقه ﷺ أن لا يرد طالب حاجة أبدًا ، وكان ردًا للجميل على إعطاء عبد الله بن أبي العباس عم رسول الله ﷺ قميصه لما جيء به أسيرًا في بدر .

تراجع حركة النفاق :

وتموت عبد الله بن أبي ، تراجع حركة النفاق لانهايار ركن المنافقين ، وآثر من بقي منهم أن يُخلص لله توبته ، ولم يعد لهم حضورٌ بارزٌ فيما بعد إلا قلة قليلة كانت غير معروفة لأصحاب رسول الله ﷺ إلا لصاحب سره - حذيفة بن اليمان - وكان عمر فيما بعد لا يصلي على جنازة من جهل حاله، حتى يُصلى عليه حذيفة بن اليمان ، لأنه يعلم أعيان المنافقين إذ أخبره رسول الله ﷺ بهم .

٣ - حجّ أبي بكر :

كانت فريضة الحج لم تمارس في السنوات الماضية ، فحجة سنة ٨ هـ بعد الفتح كُلف بها عتاب بن أسيد ، ولم تكن قد تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين ، فلما حلّ موسم الحج أراد رسول الله ﷺ الحج ، ولكنه كان لا يحب أن يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت ، فأجلّ حجته حتى يقضي الله أمراً في حج المشركين .

فأرسل أبو بكر الصديق أميراً على الحج في ذي القعدة سنة ٩ هـ ، فخرج أبو بكر في عدد كبير من الصحابة ، وساقوا معهم الهدى ، وبينما أبو بكر في الطريق ، وبعد عدة أيام من خروجه نزلت سورة التوبة ، وتُسمى أيضاً سورة براءة . فبعث رسول الله ﷺ علياً وأمره أن يلحق بأبي بكر ليلبغ الناس سورة التوبة ، فخرج مسارعاً حتى لحق به .

فلما رآه الصديق قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور . وأخبره بما جاء فيه ، ثم سارا معاً - فأقام أبو بكر للناس الحج - فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج ، طالب أبو بكر من علي بن أبي طالب أن يقف ، وإلى جانبه أبو هريرة يعاونه ، ليتلو على الناس الآيات من صدر سورة التوبة :

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذُنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) [التوبة : ١-٣]

واستمر في التلاوة حتى قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة : ٣٦]

وبعد تلاوتها وقف علي بن أبي طالب هنيهة ثم صاح بالناس بهذه الأمور الأربعة :

١ - لا يدخل الجنة كافر .

٢ - لا يطوف بالبيت عريان .

٣ - لا يحج بعد العام مشرك .

٤ - مَنْ كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهذه إلى مدته .

ثم أجل الناس أربعة أشهر ، بعد ذلك اليوم ، ليرجع كل قوم إلى مأمَنهم وبلادهم .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب، وإنما لا تُعبد بعد هذا العام.

٤ - وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ :

كان إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية قرّة عينه وكان كلما فرغ من أداء حق الله ورسالته يذهب ليرى ابنه وهو يكبر ويترعرع ، ويزداد شبهاً به، ولكن هذه السعادة لم تظل في أول السنة العاشرة للهجرة مرض إبراهيم مرضاً شديداً ، وكان قد بلغ ستة عشر شهراً وجزعت أمه ، ودعت إليها أختها سيرين وقامتاً ساهرتين حول فراشه ثمّرضانه ولكن بلا فائدة .

وجاء رسول الله ﷺ وحمل صغيره من جبر أمه وهو يجود بأخر أنفاسه، فلما استوى إبراهيم جثماً لا حراك به ، ولا حياة فيه . زرفت عينا رسول الله ﷺ بالدمع وهو يقول : " يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن أخرجنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك أكثر من هذا ."

وبعد أن صمت هنيهة قال : " تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون " (١) . وأقبل الفضل بن العباس فغسل الصغير ثم ساروا به إلى البقيع وأضجعه النبي ﷺ في قبره ، ثم سوّي عليه التراب ونذاه بالماء .

كسوف الشمس :

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ، فرأى المسلمون في ذلك معجزة وقالوا : إنها انكسفت لموت ابن رسول الله ﷺ . وهنا نسي رسول الله ﷺ كل ما به من أحزان ، ومن هول

(١) - أخرجه ابن ماجه ١٥٨٩ و اللفظ له و الطبراني (٢٤/١٧١) .

الفجعية وتدكر رسالته التي هي أهم وأكبر . ووقف في الناس خطيباً لما سمع هذه المقولة من الناس ، وقال : " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تُخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة " (١) .

٥ - الوفود :

كان العرب لما رأوا قريشاً وقد تصدّت لحرب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فإنه نبيّ صادق ، فلما كانت غزوة فتح مكة التي قضت على الوثنية قضاء باتاً ، ودخول قريش في الإسلام ، عرفت العرب الحق من الباطل وتأكد ذلك بعد غزوة تبوك .

لذلك بدأت القبائل من كل أنحاء الجزيرة تبعث بوفودها إلى رسول الله ﷺ لتعلن إسلامها ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسُمِّي العام التاسع للهجرة بحق عام الوفود ، وإن كانت الوفود قد استمرت مع بدايات العام العاشر للهجرة ، وكانت الوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً .

وسنذكر فيما يلي بعضاً من أهم هذه الوفود :

أولاً : وفد بني ثقيف :

كانت وفادتهم في رمضان سنة رمضان ٩ هـ ، وكانت أول من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد تبوك ، وإن ترددت طويلاً . وكان رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - لما طلب منه أن يدعو على ثقيف بعد حصار الطائف قال : " اللهم اهدِ ثقيفاً وأت بهم مسلمين " (٢) .

إسلام عروة بن مسعود :

كان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف ، وكان غائباً باليمن أثناء غزو رسول الله ﷺ الطائف ، فلما عاد وعلم بما حدث أسرع إلى المدينة ولقى رسول الله ﷺ وكان ذلك بعد

(١) - عند البخاري " لا تكسفن " ١٠٤٣ .

(٢) - رواة الترمذي ٣٩٤٢ .

عودة رسول الله ﷺ من الطائف ليعلن إسلامه وكان عروة يعرف رسول الله ﷺ ويُعظّم أمره ، وقد كان أحد الذين فاوضوه عن قريش في صلح الحديبية .

فلما اعتزم عروة الذهاب إلى قومه ، بعد أن أعلن إسلامه ، ليدعوهم إلى دين الله ، حذره النبي رسول الله ﷺ وقال له : " إنهم قاتلوك " ^(١) لَمَّا يعلمه من تعصب ثقيف لصنعها اللات ومن شدتها ، إلا أن عروة اعتز بمكانته في قومه فقال : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم من أبصارهم وأبكارهم .

مقتل عروة :

وذهب عروة فدعا قومه إلى الإسلام ، فتشاوروا بينهم ، ولم يُيدوا له رأياً ، فلما كان الصباح قام على مكان عالٍ ينادي للصلاة . هناك صدقت فراسة رسول الله ﷺ فلم يُطق قومه صبراً ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه .

ثقيف ترسل وفدًا إلى رسول الله ﷺ :

لم يذهب دُمُ عروة هدرًا ، فبعد عدة أشهر كانت فيها القبائل المحيطة بثقيف قد أسلمت ، لذلك رأت ثقيف إنمًا كبيرًا فيما صنعت بسيد من ساداتها ورأت كذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سرب ولا يخرج منهم رجل إلا اقتطع. وأيقنوا أنه لا طاقة لهم بحرب كل من حولها من العرب . فتحدثوا إلى كبير منهم عبد ياليل بن عمرو ، كي يذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه الصلح معهم . فأبى خشية أن يصنعوا به إذا رجع إليهم ، مثل ما صنعوا بعروة بن مسعود ، وقال لهم : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فصاروا ستة وكان أحدثهم سنًا هو عثمان بن أبي العاص الثقفي .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣٨ .

مفاوضات الوفد مع رسول الله ﷺ :

فلما قدم الوفد على رسول الله ﷺ ، ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد ، لكي يسمعون القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ في مفاوضاتهم إياه ، فكانوا لا يُطعمون طعاماً يأتيهم من عند النبي ﷺ حتى يأكل منه خالد .

وكان ممنْ اشترطوا عليه ليدخلوا الإسلام ، أن يدع لهم صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها ، وأن يُعفيهم من الصلاة فأبى رسول الله ﷺ عليهم ما طلبوا ، فنزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ، ثم أن يدعها سنة ثم أن يدعها شهراً واحداً ، لكن إباء ذلك كان حاسماً لا تردد فيه ، أما عن الصلاة فرفض رسول الله ﷺ كذلك إعفاءهم منها ، وقال : " لا خير في دين لا صلاة فيه " .

ونزل التقفيون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامة الصلاة ، ولكنهم طلبوا من رسول الله ﷺ ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك وكتب لهم كتاباً ، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص التقفي لأنه رغم أنه أحدثهم سناً إلا أنه كان أحرصهم على التقفه في الإسلام ، وتعلم الدين والقرآن ، بشهادة أبي بكر والسابقين إلى الإسلام .

وأقام القوم مع رسول الله ﷺ ما بقي من رمضان ، فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص قائلاً : ((تجوّز في الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة)) (١) .

إسلام ثقيف - هدم اللات :

ورجع الوفد إلى بلادهم فأظهروا إلى قومهم ما صالحوا عليه ، وأسلمت ثقيف ، وكان رسول الله ﷺ بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، وكانت لهما بتقيف مودة ورحمة ليقوموا بهدم اللات ، مع رجال من المسلمين ، فهدم المغيرة اللات ثم علا الرجال

(١) - صحيح ابن ماجه ٨١٣ " تجاوز في الصلاة " ، عند مسلم ٤٦٨ باختلاف يسير .

فاستمروا في الهدم وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ومالها ، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ بها فقسّمها من يومه ، وحمد الله على نُصرة نبيه وإعزاز دينه .

ثانياً : وفد بني طيء :

قدم وفدٌ من طيء وعلى رأسهم سيدهم ، زيد الخيل ، وهو زيد بن مُهلhel بن زيد الطائي ، ولُقّب بزيد الخيل لخمس أفراس كُنَّ له ، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ كَلّموه وعرض عليه الإسلام .

وقال رسول الله ﷺ عن زيد : ما دُكر لي رجلٌ من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يُقال فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه " وسماه رسول الله ﷺ " زيد الخير " فأسلموا وحسّن إسلامهم ، ووافقوا على هدم صنم لهم يقال له " الفُلس " (١) .

بعثة علي بن أبي طالب لهدم الفُلس :

بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى الفُلس - صنم لطيء - ليهدمه ، فخرج في مائة وخمسين رجلاً على مائة بعير وخمسين فرساً . فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم . حاتم الطائي الذي كان يُضرب به المثل في الجود والكرم . مع الفجر فحطموا الفُلس وضربوه وملأوا أيديهم من السبي والغنائم والشاة . وكان من بين السبي أخت عدي بن حاتم الطائي ، أما عدي فقد هرب إلى الشام .

إسلام عدي بن حاتم :

فلما جاءوا إلى المدينة بالسبي ، استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ ، فمَنَّ عليها رسول الله ﷺ ، وذكر ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب . فأمر بتسريحها وكساها كسوةً حسنة ، وأعطاهم نفقتها وحملها مع أول ركب قاصداً إلى الشام .

فرجعت إلى أخيها بالشام ، فلما لقيتُه قالت له عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها ، أنته راغباً أو راهباً ، فإن يُكُنْ نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يُكُنْ ملكاً فلم تزل في حماه ، وأنت أنت .

(١) - البداية و النهاية لابن كثير ٥/٧٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٧٨ .

فخرج عدي بن حاتم حتى قدم على رسول الله ﷺ ، فدخل عليه وهو في مسجده فلما عرفه رسول الله ﷺ سلم عليه ، وقام فانطلق به إلى بيته . وإذا هو عامدٌ إلى بيته ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه عن حاجتها .

فقال عدي في نفسه : والله ما هذا بملك ، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم - محشوة ليفاً - فقذفها إليه وقال : " اجلس على هذه " قال : بل أنت فاجلس عليها . فقال رسول الله ﷺ : " بل أنت " (١) فجلس عليها عديٌّ وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . فقال عديٌّ في نفسه : والله ما هذا بأمر ملك ، فلما عرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام ، أسلم وألقى بنفسه في صفوف المسلمين .

ثالثاً : وفد نصارى نجران :

يجدر الإشارة إلى أن هناك وفدين لنجران :

الوفد الأول :

وقد أتى المدينة بعد موقعة بدر ، لما انتشر خبر انتصار المسلمين ، وقد أرادوا التعرف على رسول الله ﷺ ، وعلى التأكد من نبوته والاستزادة من نظرة هذا الدين الجديد في المسيح ، فبقوا في المدينة عدة أيام وقد انضم إليهم يهودُ المدينة في جدالهم مع رسول الله ﷺ .

ولم يكن موقف المسلمين بعد موقعة بدر من القوة ورهبة الجانب ما يحمل وفد نصارى نجران أن يطلب المسالمة والمعاهدة في ذلك الوقت . فغادروا إلى بلادهم ولم يُسلموا أو يهادنوا رغم علمهم بأنه رسول الله حقاً . وكان ذلك طمعاً في الجاه والمال ، وفي كاذب الألقاب والرتب ، وهو الذي جعل أبا حارثة بن علقمة ، وهو أكثرهم علماً ومعرفة ، يدلي إلى رفيق له باقتناعه بما يقول رسول الله ﷺ .

فلما سأله رفيقه : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ كان جوابه : يمنعني ما صنع هؤلاء القوم (يقصد أهل نجران) : شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا الخلافة ، فلو فعلت ، نزعوا منّا كل ما ترى .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٨١ .

الوفد الثاني :

وكانت وفادته إلى المدينة سنة ٩ هـ (عام الوفود) ، وكان قوامه ستون رجلاً من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه في دينهم ، ولمّا نزل الوفد بالمدينة ولقى رسول الله ﷺ سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ، وسألوه عن عيسى فذكر لهم قوله تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) [آل عمران : ٥٩-٦٠]

المباهلة :

فأبوا أن يُقرّوا بما قال في عيسى ، فلما أصبحوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وهي أن يبتهل هو وإياهم مع من يحبه ويحبونهم من الأبناء والنساء إلى الله بأن يجعل لعنته على الكاذب من الفريقين ، وهو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ) [آل عمران : ٦١]

وجاء رسول الله ﷺ بفاطمة وعلي والحسن والحسين ، وقال لهم : " إن أنا دعوتُ فأمنوا " . فلما رأوا منه الجد والتهيؤ استمهلوه ليتشاوروا ، وقد قالوا فيما بينهم : فوالله لئن كان نبياً فلاعننا ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، ولا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم .

فلما كان الغد جاءوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا أبا القاسم رأينا ألا نلاعنك ، وأن نعطيك ما سألتنا . فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية وأعطاهم ذمة الله ورسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وبقاء كل صاحب منصب في منصبه . وفرض عليهم إمداده بالسلاح إن حاربه أهل اليمن ، وكتب لهم بذلك كتاباً .

أمين الأمة :

ولمّا رأوا حرص رسول الله ﷺ على العدل حرصاً احتذى أصحابه فيه مثاله ، فطلبوا منه

أن يبعث معهم رجلاً أميناً يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ، ليقبض مال الصلح ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

دعوة أخيرة للإيمان :

وقبل انصراف الوفد عائدين إلى بلادهم وجه إليهم رسول الله ﷺ بوحي من الله دعوة أخيرة للإيمان : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران : ٦٤]

والآية فيها أمرٌ واضح لا خلاف فيه ، ولا يستطيع اليهود ولا النصارى أن يقولوا غيره ، وعاد الوفد إلى أوطانهم ، وقد طفق الإسلام يفسو فيهم وقد ذُكر أن بعض سادتهم أسلموا لما رجعوا .

رابعاً : وفد تميم :

سرية عُيينة بن حصن :

كان رسول الله ﷺ بعث بشير بن سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم - كما أسلفنا - فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما عليهم . فلما علم بذلك رسول الله ﷺ أرسل إليهم عُيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب . لم يكن منهم مهاجري ولا أنصاري . وكان ذلك في محرم سنة ١٠ هـ ، فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا وساقهم إلى المدينة ، فأمر رسول الله ﷺ أن ينزلوا في دار رملة بنت الحارث .

قدوم وفد تميم :

وجاء على إثرهم وفد تميم ، وفيه رؤسائهم فجلسوا ينتظرون رسول الله ﷺ ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جاف : يا محمد أخرج إلينا ، فخرج عليه الصلاة والسلام ، وقد تأذى من صياحهم ، فنزل فيهم قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۗ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) [الحجرات : ٢-٥]

وكان وقت صلاة الظهر فأذن بلالٌ ودخل رسولُ الله ﷺ للصلاة ، فلما خرج من الصلاة تعلقوا به يقولون : نحن ناسٌ من تميم جننا بشاعرنا وخطيبنا شاعرك ونفاخرك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما بالشعر بُعِثنا ولا بالفخار أمرنا " (١) فاجتمع حوله الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم .

فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس خطيب الإسلام ، فأجابهم ثم قدّموا شاعرهم فأنشد مفاخرًا ، فلما فرغ أجابه حسان بن ثابت شاعر الإسلام ، بعد ذلك أسلم القوم ، فردّ رسول الله ﷺ عليهم أسراهم وأحسن جائزتهم . وأقاموا بالمدينة مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين .

خامسًا : الناس يدخلون في دين الله أفواجًا :

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سنتي ٩ ، ١٠ هجرية ، وهي تربو على السبعين وفدًا - كما أسلفنا - وقد ذكر أهل السير والمغازي منها :

وفود : أهل اليمن وبني سعد هُذيم بن قضاة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد ، وبهراء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب وذئبة ونخع ، ووفود أخرى لا مجال لذكرها جميعًا .

وكانت الوفود تأتي من جميع أنحاء الجزيرة تُعلن إسلامها ، حتى عمّ الإسلام جميع أرجاء الجزيرة حتى أن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح إذا

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٢ ، أسد الغابة لابن الأثير ١/١٢٨ .

هو يزحف في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك ، قبل أن يمضي عام كامل على الفتح .
ثم نرى حجة الوداع فيها بحرًا من رجال الإسلام - مائة ألف أو يزيدون - يموج حول
رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد . وهنا نزلت سورة النصر تشير إلى هذا
الفتح المبين : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢)
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) [النصر : ١-٣]
ولمَّا نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ : " نُعِيتُ إِلَيَّ نَفْسِي " (١) .

(١) - تفسير سورة النصر للقرطبي .

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، وتطهرت الكعبة من أصنامها ، بل ومن كل أشكال الوثنية بها وكأنَّ هاتفاً أنبعث في قلب رسول الله ﷺ يُشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى أنه حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن في السنة العاشرة للهجرة ، قال له فيما قال : " يَسِّرْ (١) وَلَا تُعَسِّرْ ، بَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ ، يَا مَعَاذُ ، إِنَّكَ عَسَىٰ أَلَّا تَلْقَانِي (٢) بَعْدَ عَامِي هَذَا ، وَلَعَلَّكَ تَمُرُ بِمَسْجِدِي هَذَا وَقَبْرِي " فبكى معاذُ خشعًا لفراق رسول الله ﷺ .

رسول الله ﷺ يتجهز للحج :

لم يكن رسول الله ﷺ قد حجَّ الحج الأكبر وإن كان قد اعتمر قبل ذلك مرتين . عُمره القضاء وعُمره الجُعْرانة . وإن كان البعض يذكر أنهم ٤ عمرات :
عمرة الحديبية - التي لم تتم - ، ثم عمرة القضاء ، ثم عمرة الجُعْرانة ، والرابعة في حجته (حجة الوداع) .

فلمَّا أقبل ذو القعدة من السنة العاشرة هجرية تجهز رسول الله ﷺ للحج وأمر الناس بالتجهز له ، فللحج مناسك يجب أن يكون ﷺ قدوة المسلمين فيها ، وما كاد الناس يعرفون ما عزم عليه رسول الله ﷺ ودعوته إياهم للحج حتى انتشرت الدعوة في كلِّ أنحاء شبه جزيرة العرب ، فأبي خير وأبي بركة أعظم من الحج ، وخاصة إن كان هذا الحج في صحبة رسول الله ﷺ .

فأقبل الناس على المدينة من كل حذب وصوب ألوفًا ألوفًا ، فاجتمع الناس وضربت لهم الخيام حول المدينة لمائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبيةً لدعوة نبيهم ﷺ ، جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودة والرحمة .

(١) - صحيح البخاري ٦٩ و صحيح مسلم ١٧٣٤ .

(٢) - تخريج صحيح ابن حبان ٦٤٧ .

مسيرة المسلمين للحج :

وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٠ هـ سار النبي ﷺ وأخذ نساءه جميعاً معه ، كلٌّ في محفَّتها ، سار وتبعه هذا الجمع الزاخر بعد أن صلى الظهر أربع ركعات في مسجد المدينة ، فلما بلغوا ذا الحليفة صلى رسول الله ﷺ والمسلمون معه العصر ركعتين وباتوا ليلتهم هناك .

فلما أصبحوا اغتسل النبي للإحرام وتطيَّب ولبس إزاره ورداءه وقلَّد بُدنة . أي وضع في رقبتها ما يُعرف أنها هُدي . ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهلَّ بالحج والعمرة في مُصلاه وقرن بينهما ثم خرج وسار الركب ورسول الله ﷺ على ناقته القصواء والجميع يسرون حوله ، وهم جميعاً في زي واحد أبسط ما يكون .

وتوجَّه رسول الله ﷺ بكلِّ قلبه إلى ربه ونادي مُلبياً والمسلمون معه : ((لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك)) (١) . ثم واصل سيره حتى قُرب من مكة فبات بذئ طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر في صباح الأحد . الرابع من ذي الحجة سنة ١٠ هـ . وقد قضى في الطريق ثمانى ليالٍ .

التمتع والقران في الحج :

كان رسول الله ﷺ قارئاً ، أي أهلَّ بحج وعمرة ، فلما جاء البيت فاستلم الحجر الأسود فقبَّله وطاف بالبيت سبعاً ، هرول في الثلاث الأولى منها ومشى أربعاً ، حتى إذا فرغ من طوافه أتى إلى مقام إبراهيم وصلى ركعتين قرأ فيهما سورة الصمد في الأولى والكافرون في الثانية ، ثم خرج إلى الصفا وسعى بين الصفا والمروة سبعاً .

ولمَّا فرغ من السعي لم يحلَّ لأنه كان قارئاً وقد ساق معه الهدى ، وأمر مَنْ لم يكُنْ معه هدى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرةً وبعد طوافهم وسعيهم يحلون من إحرامهم ، وهذا فعل المتمتع ، فترددوا فقال : " لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ، ما سُئِلْتُ الهدى معي حتى أشتريه ، ثم أحلَّ كما حلَّوا " (٢)

(١) - صحيح النسائي ٢٧٤٨ .

(٢) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/٢٣١ .

فَحَلَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ وَحَلَّ نَسَاؤُهُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى إِحْرَامِهِ إِلَّا مَنْ سَاقَ الْهَدْيَ مَعَهُ .

عودة علي من اليمن :

وبينما المسلمون في حجهم أقبل علي بن أبي طالب عائداً من بعثته باليمن ، فلما علم أن رسول الله ﷺ حج بالناس أحرم للحج ، فلما قدم على رسول الله ﷺ ودخل على فاطمة فوجدها في حلٍّ من إحرامها ، وعرف من رسول الله ﷺ أنها متمتعة .

فلما أمره رسول الله ﷺ أن يؤدي العمرة ثم يحل كما فعل أصحابه قال : يا رسول الله ﷺ إِنِّي قَلْتُ حِينَ أَحْرَمْتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْلٌ بِمَا أَهَلَ بِهِ نَبِيكَ وَعَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ . فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ : أَمَعَهُ هَدْيٌ ؟ فَلَمَّا نَفَى عَلِي ، أَشْرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَدْيِهِ ، وَثَبَتَ عَلِيٌّ عَلَى الْحَجِّ مُقَرَّنًا .

أداء مناسك الحج :

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة - يوم التروية - توجه رسول الله ﷺ إلى منى فأقام بها وصلى بها فروض يومه ، وقضى الليل حتى مطلع الفجر من يوم الحج التاسع من ذي الحجة ، فصلى الفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس فركب ناقته القصواء وسار والمسلمون يتبعونه حتى أتى عرفات فوجد القبة ضربت له بنمرة ، ومكث بها حتى إذا زالت الشمس (وقت الزوال - وقت الظهر) سار بناقته حتى أتى بطن الوادي وقد اجتمع حوله مائة ألف أو يزيدون ، فقام فيهم خطيباً .

خطبة رسول الله ﷺ - خطبة الوداع :

بدأ رسول الله ﷺ خطبته بالحمد لله والثناء عليه ، وكان خطابه بصوت جهوري ومع ذلك أمر ربيعة بن أمية بن خلف أن يردد ما يقوله لما كان يقف بين عبارة وأخرى ، فقال :
" أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً " (١) .

(١) - أحكام القرآن لابن العربي ٢/٥٠٣ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٠٤ .

" أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا في بلدكم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها " (١) .

" إن كل ربا موضوع (أي مهدر) ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله " .

" وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دماءكم أضع ، دم ابن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل) .

" أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إنما يطمع فيما سوى ذلك ، فقد رضي بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم " .

" أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب مفرد - الذي بين جمادى وشعبان " أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائك حقًا ولهنّ عليكم حقًا ، لكم عليهنّ ألاّ يوطئنّ فرشكم أحدًا تكرهونه ، وعليهنّ ألاّ يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلنّ فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهينّ فلهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٌ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله "

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٦٠١٢/٦ .

" أيها الناس ، اسمعوا قولي هذا واعقلوه ، فأني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تصلوا أبداً بيئاً : كتاب الله وسنة رسوله "

" أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلّم أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم "

" اللهم هل بلغت "

أجاب الناس من كل صوب : نعم

فقال : " اللهم اشهد " وكررها ثلاث مرات .

اليوم أكملت لكم دينكم (١) :

ولمّا أتّم رسول الله ﷺ خطابه هذا الذي جمع فيه كل أمور الدين . نزل قول الله تعالى :

(**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**) [المائدة : ٣]

فلمّا سمعها أبو بكر بكى ، فلمّا سأله النبي ﷺ عما يُكيه ؟ قال : أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا كمل فإنه لا يكتمل شيء إلا نقص . فقال رسول الله ﷺ : " صدقت " .

ويُروى أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب أثناء ولايته ، وقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم، لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال عمر : وأي آية ؟ قال قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) . فقال عمر : والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها عليه : عشية عرفة في يوم الجمعة وهو يوم عيد عندنا .

الرسول يُكمل المناسك :

وبعد هذه الخطبة أدّن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ركعتين ثم أقام فصلي العصر ركعتين (جمع قصر) ولم يُصلّ بينهما شيئاً .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٠٤ .

ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن نافقة القصواء إلى الصخرات - أسفل جبل الرحمة - واستقبل القبلة وأخذ يدعو ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس .

وترك رسول الله ﷺ عرفات إلى المزدلفة ، فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع حتى الفجر ، فصلّى الفجر من يوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم النحر ، وبعد صلاة الفجر أتى المشعر الحرام فوقف فيه وهو راكبٌ ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وهلل وكبّر ، ثم سار حتى أتى جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات ثم انصرف إلى المنحر . فنحر بيده ثلاثة وستين بدنة ، ثم أعطى على بن أبي طالب فنحر سبعة وثلاثين بدنة ليتم المائة .

ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدرٍ فطُبخت وأكل من لحمها وشرب من مرقها .

ثم حلق رسول الله ﷺ رأسه وتطيّب وركب إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة ، ثم رجع إلى منى ، فمكث بها أيام التشريق الثلاثة يرمي الجمرات إذا زالت الشمس بسبع حصيات يُكبّر مع كل حصة .

وفي ثالث أيام التشريق . الثالث عشر من ذي الحجة . ركب ناقته وسار إلى البيت فطاف طواف الوداع ثم خرج من أسفل مكة قاصداً المدينة .

وبذلك أتم رسول الله ﷺ حجته التي يسميها البعض (حجة الوداع) وآخرون (حجة البلاغ) وغيرهم (حجة الإسلام) . وهي في الحقيقة ذلك كله ، فكانت حجة الوداع ، رأى فيها النبي ﷺ مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة ، وكانت حجة البلاغ ، أتم النبي ﷺ فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه ، وحجة الإسلام ، أكمل الله فيها للناس دينهم وأتم عليهم نعمته .

آخر البعوث - بعثة أسامة بن زيد :

تمت حجة الوداع ، وأنّ لعشرات الألوف ممن صحبوا رسول الله ﷺ فيها أن يعودوا إلى ديارهم ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة وأقام بها في أمن من شبه الجزيرة كلها . فكان

آمنًا من ناحية الجنوب والشرق والغرب . إلا أن تفكيره كان متجهًا نحو الشمال حيث دولة الروم ، التي لا تقبل بوجود دولة قوية على حدودها ، وكان يقودهم إلى ذلك الكبرياء والغطرسة .

لذلك كان رسول الله ﷺ يحسب لناحية الروم حسابها ، ويرى توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام ، فكانت مؤتة ومن بعدها تبوك وكلها تصبُّ في نفس الاتجاه .

فلما زادت جرأة وغطرسة الروم ، أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا في صفر سنة ١١ هجريًا لملاقاة الروم . وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان حدثًا لم يتجاوز السابعة عشر من عمره ، وتكلم الناس على إمارة أسامة على جيش فيه كبار الصحابة منهم : أبو بكر وعمر و سعد و أبو عبيدة .

إلا أن إيمانهم الصادق برسول الله ﷺ جعلهم يقبلون اختيار رسول الله ﷺ الذي أراد باختيار أسامة أن يُقيم مقام أبيه الذي استشهد في موقعة مؤتة.

وأمر رسول الله ﷺ أسامة أن يُوطى الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة ، حيث استشهد أبوه .

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجرف (على مقربة من المدينة) حيث عسكر الجيش ليتجهز للسفر إلى فلسطين . وإنهم لفي جهازهم إذ حال مرض رسول الله ﷺ ثم اشتداد المرض به دون مسيرتهم ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق .

الفصل الأخير من الحياة الطيبة

مقدمات الوداع :

إن لكل شيء نهاية ، ولكل أجل كتابًا ، وقد أتمَّ اللهُ سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ النصر والفتح المبين ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

فلما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على كل أرجاء الجزيرة أخذت مقدمات التوديع للحياة تطلع من مشاعره ﷺ وتتضح بعباراته وأفعاله :

• فقد اعتكف في رمضان السنة العاشرة من الهجرة عشرين يومًا ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب وتدارسه جبريلُ القرآن مرتين في هذا العام ، بينما كان يراجعه ويتدارسه مرة واحدة كل عام .

• في حجة الوداع قال : " إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا " (١) .

• لمَّا نزلت عليه سورة النصر عرف أنه الوداع ، وقال : " نُعِيتَ إِلَيَّ نَفْسِي " (٢) .

• ولمَّا نزلت الآيات : (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** الآية) [المائدة ٣]

بكي أبو بكر وقال : ما اكتمل شيء إلا نقص ، فقال له رسول الله ﷺ " صدقت "

زيارة أهل البقيع :

وفي أواخر صفر سنة ١١ هـ ، خرج رسول الله ﷺ ولم يصطحب معه أحدًا إلا مولاه أبو مؤيبهة وقال له : " إني أمرتُ أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي ، فلما وقف بين المقابر ، قال مخاطبًا أهلها : " السلام عليكم يا أهل المقابر ، أنتم السابقون وإنَّا بكم

(١) - أحكام القرآن لابن العربي ٢/٥٠٣ ، سيرة ابن هشام ٢/٦٠٤ .

(٢) - تفسير سورة النصر للقرطبي .

للاحقون ، ليهناً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلتُ الفتنُ كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها والآخرة شرُّ من الأولى" (١) .

اخترتُ لقاء ربي :

فلما استغفر رسول الله ﷺ لأهل البقيع ، وأن له أن يؤوب أقبل على أبي موهبة فقال له : " يا أبا موهبة ، إني قد أوتيتُ مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة ، فخُيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة " فقال أبو موهبة : بأبي أنت وأمي ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة .

فقال رسول الله ﷺ : " لا والله يا أبا موهبة ! لقد اخترتُ لقاء ربي والجنة " (٢)

بداية مرض رسول الله ﷺ :

غداة هذا اليوم بدأ رسول الله ﷺ يشكو المرض ، إذ أخذه صداع في رأسه واتقدت حرارة جسمه ، فاشتد خوف الناس ، ولم يتحرك جيش أسامة بعد

ولم لا يخافوا ويشتد قلقهم ، وقد عهدوا رسول الله ﷺ راسخاً كالجبال لم تهزه الشدائد ولا المصائب ؟ فقد هاجر في أدق الأحوال وأشدّها تعرضاً للخطر ، وكان له في الغزوات مواقف تشيب من هولها الولدان .

وأى موقف أشد من موقفه يوم أُخذ حين ولى المسلمون وسار هو يصعد في الجبل ورجال قريش يشتدون في تتبعه ويرمونهُ حتى كُسرت ربايته . وأيّ موقف أشد هولاً من موقفه يوم حُنين ، حين ارتد المسلمون في عمية الصبح مؤلّين الأدبار ، ورسول الله ﷺ واقفٌ لا يرتد ولا يتراجع وينادي في المسلمين حتى عادوا وانتصروا . فإذا مرض بعد ذلك فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا في السير من معسكرهم بالجُرف ، حتى تطمئن نفوسهم على ما يكون من أمر الله في نبيه ورسوله .

(١) - رواية أحمد ١٥٥٦٧ و الدرامي ٧٨ ، و الطبراني في المعجم الكبير ٨٧١ ، و الحاكم ٤٣٨٣ .

(٢) - نفس المصدر السابق .

رسول الله ﷺ يداعب عائشة رغم مرضه :

ومرّ رسول الله ﷺ بعائشة فوجدها تشكو صداعًا في رأسها وتقول : ورأساه . فقال لها : " بل أنا والله يا عائشة ورأساه " ولكنه لم يكن قد اشتد به المرض إلى الحد الذي يُلزمه الفراش فكررت عائشة شكواها من الصداع. فقال لها رسول الله ﷺ

مداعبًا : " وما ضرك لو مُتَّ قبلي فمُتُّ عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتُك " (١) قالت عائشة : والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك ، فتبسّم النبي ﷺ وقد زاد وجعه والحمى .

فلمّا سكن عنه الألمُ بعض الشيء ، قام يطوف بأزواجه كما عودهن ، وكأنه يودعهن ، لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته ، حتى إذا كان في بيت ميمونة ، لم يُطق مغالبة الآلام . هنالك دعا نساءه إليه واستأذنه بعد أن رأيّن حاله ، أن يُمرّض في بيت عائشة ، وأذن له أزواجه ، فخرج عاصبًا رأسه يسنده علي بن أبي طالب والفضل بن العباس ، وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة ، ليقضي عندها آخر أيام من حياته .

اشتداد الحمى وخروج رسول الله ﷺ إلى المسجد :

وزادت به الحمى ، لكن ذلك لم يَكُنْ يمنعه من أن يمشي إلى المسجد بمساعدة أحد من أهل بيته ليصلي بالناس ، وظل هكذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه. وإن لم يَحُلْ ذلك دون أن يصل إلى أذنه الهمس بما يقوله الناس: أن أمر غلامًا حدثًا جِلَّةَ الصحابة لغزو الشام . فشعر رغم شدة مرضه بضرورة التحدث إلى الناس .

فقال لأهله : " هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم " فأقعده في مخَصَّب (طست) وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول : " حسبكم حسبكم " (٢) . عند ذلك أحسَّ بخفة فلبس ثيابه وعصب رأسه ، وخرج إلى المسجد وجلس على أول درجة من المنبر .

(١) - صحيح ابن حبان ٦٥٨٦ .

(٢) - البخاري ٤٤٤٢ باختلاف يسير .

المجلس الأخير :

وكان ذلك آخر مجلس جلسه رسول الله ﷺ مع أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لئن قلت في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن أباه لخليق لها " (١) . ثم أوصى بالأنصار قائلاً : " يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا غيبتي (مستودع السرائر) التي آويت إليها . فأحسنوا إلي محسنهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم " (٢) .

ثم سكت برهة وقال : " اشتقت لرؤية إخواني " (٣) ، قيل : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : " بل أنتم أصحابي ، أما إخواني فهم أناس سيأتون من بعدي ، يؤمنون بي ولم يروني ، وإني والله لمشتاق لرؤياهم " (٤) .

ثم سكت هنيهة خيم الصمت على الناس أثناءها ، ثم عاود الحديث فقال : " إن عبداً من عباد الله ، خير الله بين زهرة الدنيا ، وبين ما عند الله فاختر ما عند الله " .

وسكت رسول الله ﷺ من جديد والناس كأنما على رءوسهم الطير ، لكن أبا بكر أدرك أن النبي ﷺ إنما يعني نفسه ، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته للنبي أن يمسك عن البكاء فأجهش ، وقال : نفديك بأنفسنا وأبائنا وأمهاتنا يا رسول الله .

وقد تعجّب الصحابة من ردّ فعل أبي بكر حتى قال بعضهم : انظروا هذا الشيخ ، يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير الله بين أن يؤتية زهرة الدنيا وبين ما عنده ، وهو يقول فديناك بأمهاتنا وأبائنا يا رسول الله ، ثم أيقنوا فيما بعد أن رسول الله ﷺ هو المُخير وأن أبا بكر كان أعلمهم .

(١) - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٤٩ .

(٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٤٩ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٥١ .

(٣) - أخرجه أحمد ١٢٥٧٩ باختلاف يسير ، و الطبراني في المعجم الأوسط " و إن عبداً من عباد الله خير الله بين زهرة

الدنيا " - صحيح ابن حبان ٦٨٦١ .

(٤) - أخرجه أحمد ١٢٥٧٩ ، ٥٤٩٤ بلفظ آخر .

فلما بكى أبو بكر وأجهش بالبكاء خشي رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبي بكر على الناس . فأشار إليه قائلاً : " على رسلك يا أبا بكر " ، ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر .

فلما أقلت الأبواب قال : " إني لا أعلم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا من أبي بكر ، وإني لو كنت متخذًا من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده " (١) .

الأيام الأخيرة من حياته ﷺ :

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة لكن المجهود الذي أنفقه يومئذ وهو في مرضه زاد وطأة المرض شدة . وعند العشاء لمّا زاد ثقل المرض لم يستطع الخروج إلى المسجد للصلاة وأغشي عليه ، فلما أفاق وعلم أن الناس لم يصلوا بعد انتظارهم لخروجه إذ ذاك قال : " مروا أبا بكر فليصل بالناس " .

وكانت عائشة تخشى أن يتشاءم الناس من أبيها ، وكانت تحرص على أن يؤدي النبي ﷺ الصلاة لمّا في ذلك من مظهر الصحة . فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن . ورسول الله ﷺ يكرر ما قاله من قبل ، ولمّا راجعته عائشة ثلاث أو أربع مرات أبي وقال : " إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس " (٢) .

فصلى أبو بكر تلك الأيام وهي ثلاثة أيام حيث صلي أبو بكر بالناس ١٧ صلاة في حياة النبي ﷺ وهي : صلاة العشاء من يوم الخميس وصلاة الفجر من يوم الاثنين وخمس عشرة صلاة فيما بينهما (خمس صلوات في كل منها : الجمعة والسبت والأحد) .

وهذه الأيام الثلاث الأخيرة من حياته ﷺ كان المرض قد اشتد عليه، وكان أهله يُمرّضونه. وكانت السيدة عائشة تقرأ له القرآن في كفه ثم تمسح به على وجهه وهي تقول : " إن كففك خيرٌ من كفي " .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٠٦٤ ، عند مسلم " لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً " .

(٢) - صحيح البخاري ٦٨٢ .

أحداث يوم الأحد ١١ ربيع الأول ١١ هـ قبل يوم من وفاته ﷺ

١ - حديث رسول الله ﷺ إلي فاطمة :

كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وهي الابنة الوحيدة الباقية من عقبه ، تعوده كل يوم ، وكان يحبها حبًّا جمًّا ، لذلك كانت إذا دخلت عليه ﷺ قام إليها وقبَّلها وأجلسها في مجلسه إلى جواره .

فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ ودخلت كعادتها ، فلم يستطع أن يقوم لها كما تعودت فقَبَلته وقالت : " واكربًا أبتاه " فقال لها رسول الله ﷺ : " لا كربَ على أبيك بعد اليوم " (١) ثم أجلسها إلى جانبه وأسرَّ إليها حديثًا فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثًا آخر فضحكت ، فسألته عائشة عن ذلك . فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ، فلما توفي ذكرت أنه : أسرَّ إليها أنه سيُقبض في مرضه هذا ، فبكت ، ثم أسرَّ إليها أنها ستكون أول أهله يلحقه فضحكت . وقد توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر .

٢ - التصدق بماله ﷺ :

كان عند رسول الله ﷺ أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير ، خاف أن يُقبض وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها لكن انشغالهم بتمريضه والقيام على خدمته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الأحد السابق على وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة : أنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تُحضرها . فوضعها في كَفِّه ثم قال : " ما ظنُّ محمدٍ بربه لو لقي الله وعنده هذه " (٢) ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين . وفي ذات اليوم ، أعتق غلمانهم وكلهم ووهب أسلحته للمسلمين .

(١) - أخرجه النسائي ١٨٤٤ ، مختصرًا وابن ماجه ١٦٣٠ و اللفظ له .

(٢) - أخرجه أحمد وابن حبان ٥/٨٨ ، من طريق موسى بن جبير عن أبي أمامة بن سهل ، الطبقات لابن سعد ٢/٢١٠ .

اليوم الأخير : الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١ هـ

رسول الله ﷺ يخرج للصلاة :

قضى رسول الله ﷺ ليلته هادئاً مطمئناً وقد نزلت عنه الحمى ، فلما كان الفجر كشف رسول الله ﷺ ستر حجرة عائشة ليرى الناس في صلاتهم ، فتبسم يضحك ، فعصب عمامته وخرج إلى المسجد ، فلما رآه المسلمون وهم في صلاتهم وقد خرج إليهم كادوا يُفتنون في صلاتهم فرحاً به وانفرجوا فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم ، وسرَّ رسول الله ﷺ بما رأى .

فلما أحسَّ أبو بكر بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ، فنكص عن مُصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه ، فدفعه رسول الله ﷺ في ظهره ، يريد أن يأمره أن يصلي بالناس ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبي بكر فصلى قاعداً عن يمينه .

غبطة المسلمين برؤية رسول الله ﷺ :

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من صلاته ، أقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد . ولقد عَظُم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر تقدم صحة النبي ﷺ حتى أن أبا بكر أتاه قائلاً : " يا نبيَّ الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب " وطلب أن يأتي أهله ، فأذن له النبي ، فانطلق إلى السنح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجته وانصرف الناس كلُّ إلى عمله ، وهم في غبطة وكلهم مستبشر بما أصبح عليه رسول الله ﷺ .

بل الرفيق الأعلى من الجنة :

لم يكن خروج النبي ﷺ إلى المسجد إلا الصحو الذي يسبق الموت ، فدخل إلى بيته ، ولمَّا اشتد الضحى اشتدت سكرات الموت به ، فأخذت عائشة رسولَ الله ﷺ وأسندت رأسه إلى صدرها ، بين سخرها ونحرها .

فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر ويده سواك ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر إليه . فقالت عائشة : آخذه إليك ؟ فأشار رسول الله ﷺ برأسه : نعم (١) ، فأخذته من أخيها ثم مضته ولينته وناولته إياه ، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك .

وإنه وقد شقَّ عليه النزح توجه إلى الله يدعوه : " لا إله إلا الله ، إن للموت سكراتٍ ، اللهم أعني على سكرات الموت ، وإن كان ألمٌ فاجعله لي واجعلها سهلة على أمتي " أو كما قال ، ثم جعل يقول : " بل الرفيق الأعلى من الجنة " (٢) .

وكان جبريل قد أتاه ليقول له : إن الله يُخَيِّرُك بين الملك والخلود في الدنيا ، وبين لقاء وجهه الكريم والرفيق الأعلى من الجنة . فكان رد رسول الله ﷺ الذي سمعته عائشة وهو ما زال يردده حتى قُبض : " بل الرفيق الأعلى من الجنة .. بل الرفيق الأعلى من الجنة " فقالت عائشة : " خُيرت فاخترت والذي بعثك بالحق "

فمالت يده وقُبض رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. وكان ذلك في يوم الاثنين من ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ . وقد أتم ٦٣ سنة وأربعة أيام : أي أكثر من ٦١ سنة شمسيًا .

هول الفاجعة ومواقف الصحابة :

لمَّا قُبض رسول الله ﷺ وهو في حجرة عائشة ، وضعت رأسه على وسادة ، وقامت تلدم مع النساء ، وتسرب النبا الفادح وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها ، فكانت فاجعة كبرى للصحابة الذين سمعوا له وآمنوا به وبدين الحق والهدى الذي بعثه الله به .

فلا يستطيع المرء أن يلومهم على ردود أفعالهم وفجيعتهم في فقد رسول الله ﷺ . فهم يرونه صباح مساء ، ويستمعون إليه ، ويصافحونه ويجلسون إليه ، وينزل الوحي عليه وهم حوله .. كل ذلك يفقدونه فكانت الفاجعة الكبرى ..

وهاك مواقف بعض الصحابة من الفاجعة :

(١) - هذا لفظ البخاري ٤٤٤٩ ، ولمسلم نحوه .

(٢) - البخاري ٤٤٤٩ .

موقف عمر بن الخطاب :

لمّا سمع عمر بالخبر ، أسرع إلى حيث رسول الله ﷺ وهو لا يصدق أنه مات ، فكشف عن وجهه فألقاه لا حراك به فحسبه في غيبوبة لابد أن يفيق منها ، فخرج إلى المسجد وهو يصيح قائلاً : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم ، بعد أن قيل أنه مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات ، وبدأ يصور لنفسه حقائق يكاد يستريح إليها ، والناس قد اختلفوا بين مصدّق أو يريد أن يصدق ، وبين من قبل الأمر الواقع ، وكلهم في حالة أشبه شيء بالذهول .

موقف أبي بكر :

وإنهم لذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السنح وقد بلغه الخبر الفادح ، ولأبي بكر مع رسول الله ﷺ تاريخ طويل ، فهو صديق عمره ، وأول من آمن به ورفيقه في الغار ولم يفارقه لحظة من عمره . فلما دخل المسجد وتبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم فلم يقف ولم يلتفت إلى شيء ، بل قصد بيت عائشة مباشرة . فاستأذن ليدخل عملاً بقوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) [الأحزاب : ٥٣]** . فقالت له عائشة : لا حاجة لأحد اليوم بإذن ، فقد مات رسول الله ﷺ .

ودخل فألقى النبي ﷺ مُسجئاً في ناحية من البيت ، عليه بُرده ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أكب عليه فقَبَله وبكى وقال : ما أطيبك حياً ! وما أطيبك ميتاً ! ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً . ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البُرْدَة على وجهه .

وخرج للناس ، وعمر ما زال يكلمهم فناده : على رسلك يا عمر !! أنصت ، لكن عمر أبى أن يسكت وقد أعطى الله أبا بكر - رغم رقة حسه وصداقته العميقة برسول الله - ، أعطاه الله القوة ورباطة الجأش ، حتى لا ينهار هذا الدينُ بوفاة رسول الله ﷺ .

فوقف أبو بكر مخاطبًا الناس فأقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
أيها الناس ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ
لا يموت .

ثم تلا قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۗ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُبِّلَ
أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۗ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)
[آل عمران : ١٤٤]

وكان عمر قد أنصت حين رأى الناس قد انصرفت إلى أبي بكر ، فلما سمع أبا بكر يتلو
الآية ، خرَّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله ﷺ قد مات . وكذلك فعل
الذين كانوا قد أخذوا من قبل بأقوال عمر ، وكانهم يسمعون هذه الآية لأول مرة .

موقف علي بن أبي طالب :

لمَّا سمع علي بن أبي طالب خبرَ وفاة رسول الله ﷺ ، خرَّ على الأرض وظل هكذا لا
يستطيع القيام وما تحمله رجلاه .

موقف عثمان بن عفان :

أما عثمان فأغشي عليه وظلَّ في حالة من الذهول ، سيطرت عليه لفترة طويلة استمرت
عدة شهور بعد وفاة رسول الله ﷺ .

موقف بلال :

ظل بلال يؤذن لرسول الله ﷺ طوال حياته ، وكان رسول الله ﷺ يأنس إلى هذا الصوت ،
وكثيرًا ما كان يقول له : " أرحنا بها يا بلال " (١) ، ولمَّا انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق
الأعلى ، وحان وقت الصلاة قام بلال يؤذن في الناس ، ورسول الله ﷺ مُسجًى لم يُدفن
بعد ، فلمَّا وصل إلى قوله :

(١) - صحيح أبي داود ٤٩٨٥ .

"أشهد أن محمدًا رسول الله " خنقته العبرات واحتبس صوته في حلقه . وأجهش المسلمون من البكاء وأغرقوا في النحيب .

ثم أذن بعد ذلك ثلاثة أيام فكلما وصل إلى قوله : أشهد أن محمدًا رسول الله بكى وأبكي . بعد ذلك طلب من أبي بكر - خليفة رسول الله - أن يُعفيه من الأذان بعد أن أصبح لا يحتمله . وقال : لا أستطيع أن أقوم للأذان ثم آتي للصلاة فأجد رسول الله ﷺ غير موجود هناك ..

وبعدها صعب عليه حتى الإقامة في المدينة وقد خلت من رسول الله ﷺ فخرج مع المجاهدين إلى الشام وترك المدينة .

أين يُدفن رسول الله ﷺ ؟

اختلف المسلمون فيما بينهم ، أين يُدفن رسول الله ﷺ ؟ قال جماعة من المهاجرين : يُدفن في مكة مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يُدفن في بيت المقدس حيث دُفن الأنبياء من قبله . وقال فريق آخر : يُدفن في مسجده ، حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلي بهم ، ورأى هؤلاء أن يُدفن حيث يقوم المنبر أو على جانبه . ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما قُبض نبيٌّ إلا دُفن حيث قُبض " (١) ففروا أن يُحفر له مكان الفراش الذي قُبض فوقه .

غُسل النبي ووداع الجسد الطاهر :

وتولى غُسل النبي رسول الله ﷺ أهله الأقربون : علي والعباس وولده الفضل وقُثم ، وشقران مولى النبي وأسامة بن زيد. وقد غُسل رسول الله ﷺ وعليه قميصه ، فأبوا أن ينزعوا عنه القميص . وكانوا أثناء الغسل يجدون ريحًا طيبًا .

(١) - صحيح الترمذي باختلاف بسير ١٠١٨ .

فكان عليّ يقول : بأبي أنت وأمي ، ما أطيبك حيًّا وميتًا . فلَمَّا فرغوا من غسله وعليه قميص ، كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض ، ولمَّا تم الجهاز على هذا النحو ، تُرك الجثمان حيث كان وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد عشرة عشرة فيصلون على نبيهم لا يؤمهم في صلاتهم أحد . وصلى عليه أولاً أهله ثم المهاجرين ثم الأنصار ثم النساء ثم الصبيان .

ولَمَّا تمت الصلاة وقف الجميع وكلُّ واجف قلبه ، محزون فؤاده ، وحُمِل الجسد الطاهر ، تحفُّه الملائكة و على رأسهم جبريل وهم جميعًا يصلون عليه ويسلموا تسليمًا ليودعوا رسول الله ﷺ إلى مثواه الأخير .

الشمائل النبوية

منح الله نبينا ﷺ من جمال الخلق وكمال الخلق ، ما لا يحيط بوصفه البيان ، فكان لا بد أن نأتي في هذا الباب بنبذة يسيرة من محاسن صفاته ومحاسن آدابه ، لتكون لنا مناراً نهتدي به ونموذجاً نسير عليه .

جمال الخلق : وهذا وصفه ﷺ كما جاء في الآثار الصحيحة :

صفة طوله ﷺ :

كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن (المفطر طولاً) ولا بالقصير ، كان بين ذلك .

صفة لونه ﷺ :

كان رسول الله ﷺ أزهر اللون ، لا بالأبيض الأمهق (شديد البياض) ولا بالأدم (شديد السُمرة) . كما نقول : قمحي اللون .

صفة وجهه ﷺ : لم يكن شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، كأنَّ الشمس تجري في وجهه .

إذا تكلم رُئى النورُ يخرج من بين ثناياه ، وإذا ضحك يتلألأ نوره في الجدر (أي نور وجهه يُرى على الجدران من حوله) . وفي وصف آخر : يتلألأ وجهه تَلَألُ القمر ليلة البدر . واسع الجبين ، كث اللحية ، مُفلج الأسنان .

وفي وصف علي بن أبي طالب : كان في الوجه تدوير مَنْ رآه بديهته هابه ، ومنْ خالطه معرفة أحبه .

صفة شعره ﷺ :

لم يكن شعره ﷺ بالجعد ولا بالسبط (المسترسل) وكان يبلغ شعره ﷺ شحمة أُذنيه (أي نصف أُذنيه)

صفة كتفيه وخاتم النبوة :

كان رسول الله ﷺ عريض المنكبين ، وكان بين كتفيه خاتم النبوة - مثل بيضة الحمامة ويشبه جسده -

صفة كَفَيْهِ وطيب ريحه :

قال أنس بن مالك : ما مسستُ حريزًا ولا ديباجًا ألينَ من كفِّ النبي ﷺ ، ولا شممتُ عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيبَ من ريح رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ يصافح المصافح ، وكأنما أخرج يده من جُونة عطار مسها بطيب ، فيظل يومه يجد ريحها ، وكان ﷺ لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد ، إلا عرف أنه سلكه من طيبه .

جمال خلق رسول الله ﷺ :

كان رسول الله ﷺ من أكمل الناس خُلُقًا ، وقد أدبَه ربه فأحسن أدبه : فقال سبحانه مُعلمًا ومُربيًا نبيه :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف : ١٩٩]

(وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء : ٢١٥]

(وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَبِ حَمِيمٍ) [فصلت : ٣٤]

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) [الإسراء : ٢٩]

وبعد هذه التربية الربانية لرسول الله ﷺ نعته ربُّه بأحسن ما يُنعت به عبدٌ من عباد الله . .

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم : ٤]

ولما سُئِلَتْ عائشة عن خُلُقِ رسول الله ﷺ ، قالت : " كان خُلُقُه القرآن " فكان رسول الله ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض . وقال ﷺ : " بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " .

وفيما يلي سنعرض لبعض من مكارم أخلاقه ﷺ :

١ - كلامه وفصاحة لسانه ﷺ :

كان رسول الله ﷺ كثير الصمت ، قليل الكلام ، يسمع أكثر مما يتكلم وإذا تكلم لا ينطق إلا صدقاً ، وكان كلامه سهلاً ليناً .

وكان ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان وبلاغة القول . فكان ﷺ يتكلم بجوامع الكلم وبدائع الحكم ، ويدعو إلى الحق وينطق بالحكمة . وقد علم السنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها . وقال ﷺ عن نفسه :

" بُعِثْتُ بجوامع الكلم " (١) .

ولمَّا سأله عمر : يا رسول ، ما بالك أفصحنا ؟ قال : " لأن كلام إسماعيل عليه السلام كان درس فأتى به جبريل عليه السلام فعلمنيهِ " (٢) .

فكان علمه وفصاحته لم تكن من تعليم بشر ، وإنما هي تعليم الله سبحانه وتعالى .
وهاك بعض أمثلة من فصيح كلامه ﷺ :

- " إياكم وخضراء الدَّمن " . قيل : وما خضراء الدَّمن يا رسول الله ؟ قال : " المرأة الحسناء في المنبت السوء " (٣) .

- " لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين " (٤) .

- " الناس كَأَسنان المشط " (٥) .

- " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة " (٦) .

- " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " (٧) .

(١) - صحيح مسلم ٥٢٣ ، البخاري ٢٩٧٧ .

(٢) - رواية الطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن عباس .

(٣) - رواية العسكري في كتابه الأمثال وضعفه العراقي في الإحياء .

(٤) - صحيح البخاري .

(٥) - ضعفه الألباني .

(٦) - أخرجه البخاري ٣٤٩٥ .

(٧) - أخرجه مسلم ٢٩٥٦ .

- " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم " (١) .
- " إن هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفق " (٢) .
- " المؤمن مرآةٌ أخيه " (٣) .
- " ما قلَّ وكفي خيرٌ مما كثُرَ وألهي " (٤) .
- " من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " (٥) .
- " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت " (٦) .
- " اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى " (٧) .

والأمثلة كثيرة لا مجال لرصدها جميعاً ، ولكن الملاحظ هنا أنها كلمات قليلة ، ولكنها تحمل معاني كبيرة تُفرد لها مجلدات لشرحها .

٢ - زهده ﷺ :

كان رسول الله ﷺ لا يهتم بمفاتن الدنيا وزينتها .
وهذه بعض الشواهد على زهده واعراضه عن الدنيا وزهرتها :

لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري :

لمَّا عرض عليه المشركون أن يكون ملكاً أو غنياً ويجمعوا له من المال ما يريد ، رفض كل هذا ، حتى لمَّا آتاه عمه يسأله ترك ما يدعو إليه ويأخذ منهم ما يريد . كان ردّه قاطعاً ، فقال قولته الشهيرة : " لو وضعوا الشمس عن يميني ، والقمر عن يساري ، لن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه " (٨) .

(١) - قال العراقي رواه البزار وأبو يعلى والطبراني وضعفه آخرون .

(٢) - أحمد في مسنده .

(٣) - أخرجه أبو داود ٤٩١٨ ، و البخاري ٢٣٩ .

(٤) - أخرجه أحمد ٢١٧١٢١ .

(٥) - رواية الترمذي وقال حسن .

(٦) - البخاري ٦١٣٥ .

(٧) - البخاري ١٤٢٧ و مسلم ١٠٣٤ .

(٨) - السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٦ .

عُرِضَ عَلَيَّ بِطَحَاءِ مَكَّةَ ذَهَبًا :

قال رسول الله ﷺ : " عُرِضَ عَلَيَّ بِطَحَاءِ مَكَّةَ ذَهَبًا ، فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ ، أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا ، فَأَمَّا الْيَوْمَ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ ، وَأَمَّا الْيَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأُحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ " (١) .

الدنيا لا تعدل جناح بعوضة :

وقال ﷺ : " لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " (٢) .

احشرنى فى زمرة المساكين :

وقال ﷺ : " اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين " (٣) .
وقال ﷺ : " ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " (٤) .

ما قالته السيدة عائشة عن زهده ﷺ :

قالت : ما شبع رسولُ الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله .
وقالت : إنا كنا آل محمد لنمكث شهراً ، لا نستوقد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء .
وقالت : ما ترك رسولُ الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً .

أوتى خزائن الأرض : مات ودرعه مرهونة :

أوتى رسول الله ﷺ خزائن الأرض ومفاتيح البلاد ، وأُحِلَّتْ لَهُ الْغَنَائِمُ وَفُتِحَ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ بِلَادَ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَجَمِيعَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمَا دَانَ مِنْ ذَلِكَ الشَّامَ وَالْعِرَاقَ ، وَجُلِبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَخْمَاسِهَا وَجَزِيرَتَيْهَا وَصَدَقَاتِهَا ، وَهَادَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مُلُوكِ الْأَقَالِيمِ ، فَمَا اسْتَأْثَرَ بِشَيْءٍ

(١) - طبقات ابن سعد .
(٢) - صحيح الترمذي ٢٣٢٠ .
(٣) - رواة الترمذي ٢٣٥٢ .
(٤) - رواة ابن ماجه .

منه ، ولا أمسك منه درهماً ، بل صرفه في مصارفه ، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال : " ما يسرني أن أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لديني " وأتته دنانير مرة فقسّمها وقال : " الآن استرحت " (١) ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله .

فراش رسول الله ﷺ :

سُئِلَتْ حفصة عن فراش رسول الله ﷺ ؟ فأجابت : أنه كان مسحاً - أي فراشاً خشباً - من الصوف كان يُثني ثنيتين فينام عليه ، فلما كان ذات ليلة حدّثت حفصةً نفسها بأن الفراش لو تُثِي أربعاً لكان ألين ، فتنته أربع ثنيات ونام عليه رسول الله ﷺ ، فلما أصبح سأل عما فرشوه تلك الليلة ، وذلك لما أنكر من نعمته ولينه فأخبرته حفصة بما فعلت . فطلب منها أن ترده كما كان وقال : " ردوه لحالته الأولى فإنها منعني وطأته صلاتي الليلة " (٢) أي صلاة التهجد .

٣ - جوده وكرمه ﷺ :

رغم قلة ما كان يملك رسول الله ﷺ إلا أن كرمه وجوده كان بلا حدود .
وهالك بعض الشواهد على كرمه وجوده .

ما سُئِلَ عن شيء فقال لا :

قال جابر بن عبد الله : ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئاً قط . فقال : لا .

أجود ما يكون في رمضان :

عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير ، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن ، فإذا لقيه جبريلُ كان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخير من الريح المُرسلَة .

أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً :

(١) - صحيح البخاري ٢٣٨٨ .

(٢) - رواة الترمذي في الشمائل .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعطيه شيئاً ، فقال : " ما عندي شيء ولكن ابع عليّ ، فإن جاءني شيء قضينا " أي أن يشتري الرجل ما يبغيه ، ويكون ثمنه ديناً على رسول الله ﷺ يدفعه إذا جاءه شيء ، فقال عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره ذلك رسول الله ﷺ . فقال رجلٌ من الأنصار : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً " . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : " بهذا أمرت " (١) .

عطاؤه للمؤلفة قلوبهم :

أسلفنا ، ما كان من رسول الله ﷺ من كرمه وجوده في عطائه للمؤلفة قلوبهم بعد حُنين وما أعطاه لهوازن ، حتى أن أبا سفيان قال له ﷺ : كنت كريماً في الحرب ، كريماً في السلم " .

والأخبار عن كرمه وجوده كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها .

٤ - صبره وعفوه عند المقدرة :

اتصف رسول الله ﷺ بالحلم والصفح عن الإساءة ، فكان لا ينتقم لنفسه أبداً إلا أن تنتهك حرمة الله ، وكان شديد الصبر على الأذى من أعدائه ﷺ .

وهاك بعضٌ من شواهد صبره وعفوه ﷺ .

الصبر على إيذاء قريش :

تحمل رسول الله ﷺ من قريش وسفهاؤها من الأذى ما لم يتحمله بشرٌ ، فكانوا - كما أسلفنا - يضعون له الشوك في الطريق ويلقون بالقاذورات على ظهره وهو يصلي ويرمونه بأسوأ الصفات وأبشعها وهو صابر محتمل .

إنك لا تكافئ بالسيئة السيئة :

عن أنس بن مالك أنه قال : كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرد غليظ الحاشية ، ف جذبته إعرابيٌّ بردائه جذبته ، حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد

(١) - رواية الترمذي في الشمائل ٣٠٥ .

احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك .

فسكت النبي ﷺ وقال : المائل مائل الله وأنا عبده ، ثم قال : ويُقاد منك يا أعرابي . ما فعلت بي ؟ ^(١) قال الأعرابي : لا . فقال له : لم ؟ قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة . فضحك رسول الله ﷺ ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر .

أحسن إليك ؟

عن أبي هريرة أنه قال : إن إعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء فأعطاه ثم قال : " أحسن إليك ؟ " قال الأعرابي : لا ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه . فأشار إليهم النبي ﷺ أن كفوا ، ثم قام فدخل منزله ثم دعا الأعرابي فزاده شيئاً ثم قال : أحسن إليك ؟ قال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال رسول الله ﷺ : " إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك وقلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، وإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك " ^(٢) .

فلما كان الغد ، جاء الأعرابي وقال ما قاله لرسول الله ﷺ بين أيدي أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : " ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي ، كمثل رجل له ناقة شردت عليها ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين الناقة ، فأنا أرفق الناس بها وأعلم ، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها هوي هوى ، حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ودخل النار " ^(٣) .

اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون :

(١) - الشفا للقاضي عياض ١/١٠٨ .
(٢) - مسند البزار ، تفسير ابن كثير ٤/١٧٩ ، ضعيف
(٣) - رواية البزار وابو الشيخ في الأمثال .

في يوم أُخْدَ لَمَّا كُسرَتْ رِباعية رسول الله ﷺ وجعل الدَّمُ يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول : " كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ " فقيل : أدعو عليهم يا رسول الله . فقال : " اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون " (١)

الشاة المسمومة :

لما أتت زينب بنت الحارث النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكلَ منها ، فأخبرته الشاة أنها مسمومة قبل أن يأكل منها فتركها ، ثم جيءَ بزَيْنب إلى رسول الله ﷺ فسألها عمَّ دفعها لذلك ؟ فقالت : حدثتني نفسي : إن كان نبيًّا حقًّا فسوف يُخبر بهذا ، وإن كان ملكًا ويريد الملكَ خلصنا منه . فقال الناس : أفلا نقتلها يا رسول الله ؟ قال : لا . وعفا عنها .

العفو العام - فتح مكة :

تجلَّت عظمة عفوهِ ﷺ عندما دخل مكة فاتحًا، بعدما أُخرج منها، وهي أحب بلاد الله إليه، وبلغه من أذى أهلها ما بلغه ، فلَمَّا رآه كفار قريش داخلًا مكة ومعه المسلمون يزيدون عن العشرة آلاف ارتعدوا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ " قالوا : أخ كريم وابنُ أخ كريم . فأصدر عفوهُ العام عنهم قائلًا : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " (٢) .

خَيْرُ مَا خَيْرْتُمْ :

لَمَّا مات عبد الله بن أبيّ وكان رأس المنافقين ، دُعِيَ رسول الله ﷺ ليصلي عليه ويستغفر له ، فلَمَّا أراد أن يصلي جذبته عمر . وقال : أتصلي عليه وقد قال يوم كذا : كذا وكذا ، أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين ؟ فتبسّم رسول الله ﷺ وقال : " أنا بين خيرتين " قال الله : (أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرِ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

[التوبة : ٨٠]

(٤) - صحيح ابن ماجه ٢٠٧٤ وأخرجه النسائي في السنن الكبرى ١١٠٧٧ .

(١) - رواه ابن اسحاق في السيرة ٢/٤١٢ .

وَأَنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا (١) " ثم صلى عليه وبعدها نزلت الآية : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) [التوبة : ٨٤]

٥ - شجاعته ونجدته ﷺ :

كان رسول الله ﷺ من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل ، فقد حضر المواقف الصعبة وفرَّ عنه المقاتلون والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح .

وهاك بعض الشواهد على شجاعته ﷺ :

يوم أُحد ويوم حنين :

حسبنا ما فعله يوم أُحد - كما ذكرناه مستوفي - ويوم حنين لما فرَّ الناس من فزع وولوا الأدبار في عمية الصباح - كما أسلفنا - ورسول الله ﷺ ثابت على بغلته البيضاء ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب (٢) .

أقرب الناس إلى العدو :

قال علي بن أبي طالب : إنا كنا إذا اشتد البأسُ واحمرَّت الحِدَق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشدَّ الناس يومئذ بأسًا .

فزع بالمدينة :

(٢) - صحيح الترمذي ٣٠٩٧ .
(١) - أخرجه البخاري ٤٣١٧ ، ومسلم ١٧٧٦ .

قال أنس : كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس وأجودَ الناس وأشجعَ الناس ، لقد فزع أهلُ المدينة ، فخرج الناسُ قِبَل الصوت ، فاستقبلهم رسولُ الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر - أي استطلع الأمر - الفرس لأبي طلحة عُري - ما عليه سرج - والسيف في عنقه وهو يقول : " لم تُراعوا ، لم تُراعوا " (١) أي : لا تفرعوا ولا تخافوا . وهذا دليلٌ على أن رسولَ الله ﷺ كان أشجعَ الناس ، فهو لم ينتظر حتى يضع السرج على الفرس ويركب ، وإنما خرج دون سرج سابقًا لجميع أهل المدينة .

٦ - حياؤه ﷺ :

كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً .
وهاك بعض الشواهد على حياؤه ﷺ :

إذا كره شيئاً عُرف في وجهه :

عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، كان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه .

لا يواجه أحد بشيء يكرهه :

عن عائشة قالت : كان رسولُ الله ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول : " ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا وكذا " (٢) . فينهى عن الفعل ولا يسمى فاعله .

كمال الحياء :

كان رسولُ الله ﷺ من شدة حياؤه ، لا يُثبت بصره في وجه أحد يحدثه ، خافض الطرف ، نظرُهُ إلى الأرض أطولَ من نظره إلى السماء ، جُل نظره الملاحظة ، فالحياء شعبة من شعب الإيمان ، وهو شيمة أهل الفضل .

٧ - تواضعه ﷺ :

(٢) - أخرجه البخاري ٣٠٤٠ ، ومسلم ٢٣٠٧ .
(١) - شرح السنة للإمام النووي و البيهقي في شعب الإيمان

كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظاً ولا غليظاً، ولا صخاباً، ولا فحاشاً، وكان أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكبر .
وهالك بعض الشواهد على تواضعه :

يجلس حيث ينتهي به المجلس :

كان رسول الله ﷺ يجلس حيث ينتهي به المجلس وكان مختلطاً بالناس، ويعطي لكل واحد ممن يجالسهم نصيبه .

يحب أن يدعى عبد الله :

عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تُطروني ، كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فقولوا : عبد الله ورسوله " (١) .

عيادة المرضى وشهود الجنائز :

كان من تواضع رسول الله ﷺ أن يعود المريض، أي مريض كان حرّاً أو عبداً شريعاً أو ضعيفاً، وكان يسأل المريض عن حاله، وربما يضع يده على المكان الذي يألم منه المريض ويدعو له بالشفاء . وكان من تواضعه ﷺ أنه كان يشهد الجنائز للصلاة عليها ودفنها والدعاء للميت .

يبدأ بالسلام ويكرم من دخل عليه :

قال أنس : كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ بالمصافحة .
وقال : ما أخذ أحد بيده ﷺ فيرسل (يسحب) يده حتى يرسلها الآخر .
وقال : ما النقم أحدٌ أذن النبي لا يُحادثه فنحى (أبعده) رأسه حتى يكون الرجل الذي ينحي رأسه . أي : إذا حادثه أحدٌ ينصت ويحني رأسه ويقربها من المتكلم .
وقال : كان لا يقطع لأحد حديثه حتى يجور (يظلم أو ينحرف) فيقطعه بنهي أو قيام .

(١) - صحيح البخاري ٣٤٤٥ .

وقال : كان رسول الله ﷺ يُكرم من يدخل عليه ويبسط له ثوبه ، ويُؤثره بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه بالجلوس عليها إن أبي ، ويجلس هو على الأرض .

عدم التمييز عن أصحابه :

كان رسول الله ﷺ في سفر فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجلٌ : يا رسول الله ، عليّ نبحُها . وقال آخر : عليّ سلخُها . وقال آخر : عليّ طبخُها . فقال رسول الله ﷺ : " وعليّ جمعُ الحطب " فقالوا : يا رسول الله ﷺ نحن نكفيك . فقال : " قد علمتُ أنكم تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا على أصحابه " (١) .

مزاحه ﷺ لأصحابه ومداعبته لأطفالهم :

كان من تواضعه ﷺ أنه كان يداعب أصحابه ويمازحهم ولا يقول إلا حقًا ، ومن أمثلة مزاحه :

إن الجنة لا تدخلها عجوز :

عن الحسن قال : أتت عجورٌ إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يُدخلني الجنة . فقال : " يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز " قال : فولت تبكي ، فقال رسول الله ﷺ : " أخبروها إنها لا تدخلها وهي عجوز " (٢) إن الله تعالى يقول : (إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) [الواقعة : ٣٥-٣٧]

يدعو أصحابه مداعبًا :

كان رسول الله ﷺ يُكنى أصحابه مداعبًا يا عُثيم (عثمان) يا أنيس (أنس) وهكذا ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمةً لهم .

عليّ والنوى :

(١) - ذكره المقرئ في إمتاع الأسماء بدون أسناد ٢/١٨٨ .

(٢) - رواية الترمذي .

جاء علي بن أبي طالب بتمر وجلس ليأكله مع رسول الله ﷺ ، وكان عليّ كلما أكل ثمرة وضع النوى بناحية رسول الله ﷺ ، فلما فرغا من أكل التمر كله والنوى جميعه بناحية رسول الله ﷺ قال عليّ مازحًا : عجبْتُ لك يا رسول الله ، تأكل التمر كله . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : وعجبت لك يا ابن أبي طالب تأكل التمر بنواه (١) . أو كما قال .

يُمَازِحُ الأَطْفَالَ ﷺ :

عن أنس قال : كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : " يا أبا عُمير .. ما فعل النُّعَيْر " (٢) (طائر صغير) .

وفي هذا الحديث : يخبر أنس عن ممازحة رسول الله ﷺ لأصحابه حتى غلمانهم يمازحهم ، ويطيّب قلوبهم ويتبسّط معهم في الحديث ، فقد كان لأنس أخ صغير اسمه كبشة ، وكان لهذا الغلام طائر يشبه العصفور يلعب به ، فمات الطائر فحزن عليه حزناً شديداً ، فلما عرف النبي ﷺ سبب حزنه ، مازحه لتسليته وطيّب خاطره فكناه ، وهو الغلام الصغير ، بأبي عُمير وقال له : " يا أبا عُمير .. ما فعل النُّعَيْر " (٣) .

٨ - الوفاء والأمانة :

كان رسول الله ﷺ أكثر الناس وفاءً وأمانةً وصلّةً لرحمه .

الصادق الأمين :

عُرِف رسول الله ﷺ قبل بعثته بالصادق الأمين ، وظل هكذا بعد بعثته وكان المشركون يأمنون له ويودعون أموالهم عنده ، رغم أنهم ما زالوا لا يؤمنون به ، لعلمهم بأمانته ووفائه ، وكان رسول الله ﷺ قد سأل علي بن أبي طالب أن يبقى بمكة بعد هجرته ثلاثة أيام ليرد الأمانات إلى أهلها .

شديد الوفاء لخديجة :

(٣) - الحديث ليس له أصل في كتب السنة و الآثار و إنما نقلت في بعض كتب السير .

(١) - صحيح البخاري ٦٢٠٣ .

(٢) - أخرجه البخاري ٦٢٣ ، و مسلم ٢١٥٠ .

كان رسول الله ﷺ إذا أتى بهدية قال : " اذهبوا إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة " (١) .

الوفاء لمن أحسنوا إليه ﷺ :

كان رسول الله ﷺ قد قال لأصحابه يوم بدر : " إنني قد عرفتُ أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا ، لا حاجة لهم بقتالنا. فمن لقي أحدًا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البخثري بن هشام فلا يقتله " (٢)

فكان هذا أمرًا من رسول الله ﷺ بالإحسان لمن أحسنوا إليه وفاءً لما فعلوه من منعهم إياه ثلاثة عشر عامًا وما فعله آخرون في مطالبتهم بنقض الصحيفة التي اضطرت به قريش أن يلزم هو وأصحابه الشَّعب .

٩ - خوفه من الله وبكاؤه ﷺ :

رغم ما شرفه الله به من نعم ووعده إياه بأحسن منها يوم يلقاه ، إلا أن رسول الله ﷺ كان أكثر الناس خوفًا من الله وطاعة له .

لو تعلمون ما أعلم :

لذلك قال رسول الله ﷺ : " لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلاً " .

يُصلي حتى تتورم قدمًا رسول الله ﷺ :

كان رسول الله ﷺ يُصلي حتى تتورم قدماه ، فقيل له : أتكلف هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : " أفلا أكون عبدًا شكورًا " .

كثير الصيام :

(٣) - رواية البخاري في الأدب المفرد ٢٣٢ .

(١) - السيرة النبوية لأبن هشام ٢/٢٢٩ .

قالت السيدة عائشة : كان عمل رسول الله ﷺ ديمةً (أي متواصل دون انقطاع) وأيكم يطبق ما كان يطبق ؟

وقالت : كان يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم .

كثير البكاء خاصة عند سماع القرآن :

عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ عليّ ، فقلت يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : " إني أحب أن أسمع من غيري . فقرأت سورة النساء حتى بلغت (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال: فرأيت عيني النبي ﷺ تهملان (تسيلان دموعاً) (١).

روى ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء . (أي كصوت القدر أو الوعاء عند الغليان) .

١٠ - رحمته ﷺ :

أما عن رحمته ﷺ فالحديث عنها لا ينضب ، فهو الشفقة والرأفة والرحمة لجميع خلق الله ، فقد وصفه الله بها في مواقع عدة من القرآن الكريم في قوله تعالى

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء : ١٠٧]

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[التوبة : ١٢٨]

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتِنُوا مِن حَوْلِكَ)

[آل عمران : ١٥٩]

وعنه ﷺ قالت السيدة عائشة : " ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا واختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه " .

ولنا في هذا الشأن بحثٌ متواضع .

(١) - أخرجه البخاري ٤٥٨٢ ، و مسلم ٨٠٠ باختلاف يسير .

فقد كانت رحمته رسول الله ﷺ لجميع مخلوقات الله منذ يوم ولادته إلى يوم أن لحق ربه بالرفيق الأعلى و إلى يوم الدين :

فلنعرِّج على مراحل حياته ولنلاحظ رحمته ﷺ في كل مرحلة من مراحل حياته :

عند مولده :

لمَّا أخذته مرضعته حليلة السعدية وكان قد جفَّ لبنها ، وجدبتْ ناقئها ، فما أن حملت رحمة الله للعالمين رسول الله ﷺ حتى تدفَّق اللبن في ثديها فأرضعته من ثديها الأيمن ، ولمَّا أرادت أن تعطيه ثديها الأيسر رفض ، وكأنه يقول لها : اعطيه لأخي عبد الله ، إنه جائع مثلي .

فكانت رحمته رسول الله ﷺ على حليلة وأهلها وقبيلتها ، فما أن وطأ أرض بني سعد وقد كانت أرض قحط بلا مطر ولا زرع حتى هطل المطر واخضرت الأرض .

عند ١٠ إلى سن ١٢ سنة :

يُستسقى الغمام بوجهه : ١٠ سنوات :

أخرج ابنُ عساكر عن جلهمة بن عُرْفُطة ، قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادي وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دُجْنة ، تجلث عنه سحابة قتماء حول أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قرعة (سحابة) فأقبل السحابُ من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق وانفجر الوادي ، وأخصب النادي والبادي . وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

ثَمَالِ الْيَتَامَى عِصْمَةَ لِلْأَرَامِلِ

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

وملخص هذا الحديث : أن أبا طالب لمَّا اشتد القحط وأراد الناس أن يُستسقوا ، جاء برسول الله ﷺ وقد ظهر منه علاماتُ البركة وجعل ظهره للكعبة ووجهه للسماء ، فإذا بالسحاب يُقبل ويمطر المطر ويستسقى الناس .

الغمام يظّله هو ومن معه ١٢ سنة :

لمّا كان رسول الله ﷺ في الثانية عشرة من عمره ، وأخذته عمه أبو طالب معه في تجارة إلى الشام ، وفي أثناء رحلتهم ، وقبل وصولهم بصرى رأى راهبًا يُسمى بحيرا هذا الركب قادمًا ، ولفّت نظره سحابةً بيضاء من الغيم ، تعترض زُرقة السماء الصافية - على خلاف العادة في هذا الوقت من السنة - فكانت الغمامة تحلّق فوق القافلة بل وتتبعها .

وحين تلجأ القافلة إلى الظل تتلاشى السحابة ، فعلم أن فيهم رسولَ الله ﷺ المكتوب في كُتُبهم ، فكان ﷺ رحمةً لمن معه ، تُظله وتُظلمهم الغمامة .

عند سن ٣٥ سنة :

لمّا قامت قريش لإعادة بناء الكعبة ، بعد أن صدعت جدرانها وأوشكت على الانهيار فجزّأوا الكعبة وخصّصوا لكلّ قبيلة جزءًا منها لتتال شرف المشاركة في بناء الكعبة . ولمّا بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، واستمر النزاع حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس لا يعلم مداها إلا الله ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة عرض عليهم أن يُحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد ، فارتضوا هذا العرض .

و شاء الله أن يكون ذلك هو رحمة الله للعالمين : رسول الله ﷺ ، فلمّا رأوه هتفوا : الصادق الأمين ، رضيناك حكمًا . فلمّا أخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا وصلوا إلى موضعه أخذه بيديه الشريفتين فوضعه في مكانه . فكان ﷺ رحمة الله للعالمين - سببًا في منع حرب أهلية قد تآكل الأخضر واليابس .

عند سن ٤٠ سنة :

ولمّا بلغ ٤٠ سنة كانت بداية الوحي ونزول القرآن على قلبه ﷺ ، وهو أكبر رحمة من الله بها على عباده ، ترشدهم وتهديهم الصراط المستقيم .

بعد البعثة :

مع قريش :

صبره ﷺ على أذى قريش - كما أسلفنا ذلك بالتفصيل - .

في الطائف :

لمَّا أُوذِيَ ﷺ من أهلها - كما أسلفنا - وجاء جبريل يبلغه أن الله أمره أن يأتي بملك الجبال ليُطبق عليهم الأخشبين ، فكان رد رسول الله ﷺ رحمة الله للعالمين : " لا ، عسى أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله " (١) .

في المعراج :

لمَّا عُرِج برسول الله ﷺ حتى كان عند سدرة المنتهى ، ووقف بين يدي الله رب العالمين . وقال لربه : **التحيات لله والصلوات الطيبات** ، فردَّ عليه الحق سبحانه : **السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته** .

وهنا اختصَّ الله رسوله ونبيه بهذا الشرف العظيم - سلام ورحمة وبركة من الله - وهو شرفٌ لم ينلْهُ أحدٌ من العالمين ، من قبل ولا من بعد . ولكن رسول الله ﷺ - رحمة الله للعالمين - لم يحتفظ بهذا الشرف وهذا التكريم لنفسه فقط بل ورَّعه على أمته وعلى المؤمنين حين قال : **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين** (٢) . وهذه العبارات هي بداية " التحيات " التي يرددها المسلمون في صلاتهم كل يوم .

في غزواته ﷺ :

(١) - عند البخاري ٣٢٣٠ ، " بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(٢) - ليس له أصل في كتب الحديث .

وقد أوردناها بالتفصيل ، وكيف كان رسول الله ﷺ رحيماً بأصحابه حين خالفوه في أخذ ، ورحيماً بأعدائه حين دعا لهم : " اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون " (١) . وغيرها من المواقف التي سبق ذكرها .

رجل يبول في المسجد

رُوي أنه : بينما رسول الله ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أصحابه ، إذ جاء أعرابيٌّ فبالَ في المسجد ، فقام إليه أصحابُ رسول الله ﷺ ليمنعوه وقالوا : مَهْ مَهْ ، فقال لهم رسول الله : " لا تزرموه " . (أي لا تقطعوا عليه بولته) وتركه حتى أتم بولته ثم قال له : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء ، إنما هي لقراءة القرآن وذكر الله والصلاة " (٢) ثم أمر رسول الله ﷺ بدلو من ماء فشَنَّهُ عليه .

يتجوّز في صلاته لسماع بكاء طفل :

روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : " إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطاعتها ، فأستمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه " (٣) .

في بيته :

كان رسولُ الله ﷺ أرحمَ الناس بأهله وأشدّهم عطفاً ، وقد قال : " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي " (٤) .

رحمة لأعدائه ﷺ :

لم يكن رسول الله ﷺ رحيماً بالمؤمنين فحسب ولا بأتباعه ومن آمنوا به فقط ، بل كان رحمةً لأعدائه ، فقد دمر الله وأنزل عذابه على كل من عادى أحدًا من رسله : إما بريح مرسلّة ، أو طوفان ، أو برق أو رعد إلا أعداء رسول الله ﷺ ، فقال سبحانه وتعالى فيهم :

(٣) - رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(١) - صحيح مسلم ص ٢٨٥ .

(٢) - ابن حزم في الداخلي ٤/١٩٨ باختلاف يسير .

(٣) - صحيح الترمذي ٣٨٩٥ .

(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) [الأنفال : ٣٢-٣٣]

فكأنَّ وجود رسول الله ﷺ بين كفار قريش وأعدائه ما هو إلا رحمة بهم، فكان بحق رحمة الله للعالمين .

رحمته ﷺ بالجماد :

لم يكن رسول الله ﷺ رحيماً بيني الإنسان فقط بل كان رحمة بالجماد ، فما روي : أنه لما بُني مسجده لم يكن له منبر يقف عليه ، بل كان يخطب الناس وهو مستندٌ على جذع نخلة عند مصلاه ولما تطور المسجد وبُني له منبر (ثلاث درجات فقط) .

وفي أول يوم يقف فيه على المنبر لاحظ الصحابة أن رسول الله ﷺ ينزل مُهرولاً من على منبره ، ويذهب إلى جذع النخلة ويُرَبَّت عليه بيديه الشريفتين وكله عطف وشفقة . فلما سُئِل عن هذا ، قال : " إن جذع النخلة كان يجهش بالبكاء لأني لن أستند عليه بعد اليوم ، فأردتُ أن أهدئ من روعه " (١) أو كما قال .

فكانت هذه رحمته ورأفته بالجماد ، حتى أنه ﷺ كان لا يمر على حجر أو شجر إلا سمعه يقول : السلام عليك يا رسول الله .

رحمته ﷺ بالحيوان :

كان رسول الله ﷺ أرحم ما يكون بالحيوان :

فقد روي أن هرة (قطة) أتت إلى باب النبي ﷺ وهي جائعة، فأخذ إناءً به لبن وحمله لها وأصفاه ولم يرفعه حتى ارتوت ، رحمة لها .

(١) - البخاري ٣٥٨٥ ، بلفظ آخر .

وروي أن رسول الله ﷺ في يوم الحديبية ومعه أكثر من ألف وربعمئة من الرجال مروا على كلبة قد وضعت ومعها صغارها الرضع ، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ما بها من هلع لمَّا رأت هذا الجمع من الناس ، أمر الرجال أن يسلكوا طريقًا آخر ، وهو الأطول ، حتى لا تتزعج الكلبة على صغارها .

عند وفاته ﷺ :

لمَّا اشتدت على رسول الله ﷺ سكرات الموت قال : " إن للموت لسكرات ، اللهم أعني على سكرات الموت وإن كان ألمًا فاجعله لي ، واجعلها سهلة على أمتي " (١) أو كما قال . فكان رحمة لأمته ، فكان خروج الروح وسكرات الموت أسهل ما تكون على المؤمنين كما تُسكب قطرة ماء من كوب مملوء - كما قال العلماء - .

يوم القيامة :

ولم تقتصر رحمته ﷺ بأمته في حياته ، بل إنه ﷺ كما روي في حديث طويل : كل رسول يُسئل يوم القيامة فيقول : نفسي نفسي إلا رسول الله ﷺ فيسجد لله تحت عرشه ، ويدعوه ويُسبِّحه بأسمائه الحسنى كلها ، حتى يشفق الله عليه ويقول : ارفع رأسك يا محمد ، ألم يُعطكَ ربك فترضى ؟ فيرد عليه رسول الله ﷺ : والله لن أرضي ، والله لن أرضي وواحدٌ من أمتي في النار (٢) ، فيقبل الله شفاعته ويعفو عن أمته . صلوات الله عليك يا رحمة الله للعالمين .

كان هذا جزءًا يسيرًا من شمائله ﷺ وخطوطًا قصارًا من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ما كان عليه ﷺ من الأمجاد والشمائل فلا يُدرك كنهه ...

فالصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله ، صلاةً وسلامًا وتعظيمًا وتشريفًا .

إنَّا نُشهد الله أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمّة ، وإنا على ذلك لمن الشاهدين .

(٢) - البخاري ٤٤٤٩ .
(١) - البيهقي في شعب الإيمان ٢/١٦٤ .

فابعثه اللهم مقامًا محمودًا الذي وعدته .. إنك لا تخلف الميعاد .

مراجع الكتاب

- ١- القرآن الكريم
- ٢- تفسير ابن كثير ٤ أجزاء
- ٣- تفسير القرطبي
- ٤- تفسير الامامين الجلالين
- ٥- تفسير الشعراوي : للشيخ محمد متولي الشعراوي
- ٦- السيره النبويّة : لابن هشام ٤ أجزاء
- ٧- السيره النبويّة : للحافظ بن كثير ٤ أجزاء
- ٨- زاد الميعاد في هدي خير العباد : لابن القيم
- ٩- البداية والنهاية : لابن كثير ٤ أجزاء
- ١٠- محمد رسول الله والذين معه : عبد الحميد جوده السحار ٢٠ جزءاً
- ١١- مختصر صحيح البخاري : الحافظ المنذري
- ١٢- قصص الأنبياء : الحافظ بن كثير
- ١٣- قصص الأنبياء والتاريخ : رشدي البدرابي ٧ أجزاء
- ١٤- أنبياء الله : أحمد بهجت
- ١٥- الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري
- ١٦- حياة محمد : محمد حسين هيكل
- ١٧- عبقرية محمد : عباس محمود العقاد
- ١٨- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين : محمد الخضري
- ١٩- السيرة النبويّة ، عرض وقائع وتحليل أحداث : علي محمد الصلابي
- ٢٠- الشمائل المحمديه والخصائل المصطفويه : الترمذي
- ٢١- شمائل النبي المختار الحسن بن مسعود البغوي
- ٢٢- الشمائل المحمديه : للحافظ بن كثير

- ٢٣- حياة الصحابه : محمد يوسف الكاندهولي ٣ أجزاء
- ٢٤- أصحاب الرسول : محمود المصري
- ٢٥- صور من حياة الصحابه : عبد الرحمن رأفت باشا
- ٢٦- رجال حول الرسول : خالد محمد خالد
- ٢٧- تراجم سيدات النبوه : عائشه عبد الرحمن
- ٢٨- أطلس تاريخ الاسلام : حسن مؤنس
- ٢٩- التاريخ الاسلامي مواقف وعبر : عبد العزيز الحميدي
- ٣٠- تاريخ دولة الاسلام الأولي : فايد حماد عاشور - سليمان ابو عزب سليمان ابو عزب
- ٣١- تنظيمات الرسول الاداريه في المدينه صالح أحمد العلي
- ٣٢- العرب قبل الاسلام : حسين الشيخ

فهرس

- ٣ اهداء
- ٥ مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي
- ٦ مقدمة المؤلف
- ٨ الهدف من سرد السيرة النبوية
- ٨ أولاً : التعلم وأخذ الدروس والعبر من حياته ﷺ
- ٨ ثانياً : إحياء حب رسول الله ﷺ في قلوب الناس
- ٨ الصحابة وحبهم لرسول الله ﷺ
- ٩ أبو بكر الصديق
- ٩ عمر بن الخطاب
- ١٠ خبيب بن عدي
- ١١ النسب الشريف
- ١١ من هو رسول الله ﷺ ؟
- ١١ إبراهيم عليه السلام
- ١١ مولده ونشأته
- ١١ الديانات والمعتقدات المنتشرة في قومه
- ١٢ الجولة الأولى : ضد عبدة النجوم
- ١٢ الجولة الثانية : ضد عبدة الأصنام
- ١٢ ١ . حوار إبراهيم مع قومه
- ١٣ ٢ . حوار إبراهيم مع أبيه
- ١٣ ٣ . إبراهيم يبرهن لقومه ضلال ما يعبدون
- ١٤ النار برداً وسلاماً على إبراهيم
- ١٥ الجولة الثالثة : ضد عبدة الملوك والحكام
- ١٦ الهجرة إلى بلاد الله
- ١٦ إلى بلاد الشام

- ١٧ إلى فلسطين
- ١٧ إلى مصر
- ١٨ البشري بـغلام حلـيم
- ١٨ إلى مكة
- ١٩ هاجر ورضيعها بلا ماء ولا غذاء
- ١٩ الحياة تُدب في الصحراء
- ٢٠ جُرهـم و العـماليق يُعمروا الوادي
- ٢٠ بناء الكعبة
- ٢١ مقام إبراهيم
- ٢٢ قصة الذبح
- ٢٢ إبراهيم يمتثل لأمر الله والشيطان يحاول أن يمنعه
- ٢٣ إبراهيم يهـمُّ بذبح ابنه
- ٢٤ عودة إبراهيم وولده
- ٢٤ الأذان بالحج
- ٢٥ أنا دعوة إبراهيم
- ٢٧ إسماعيل عليه السلام
- ٢٧ إبراهيم ينصح ابنه - إسماعيل نبياً
- ٢٨ ذرية إسماعيل
- ٢٩ أحوال الجزيرة العربية - الحالة الدينية
- ٣٠ الحالة السياسية في الجزيرة العربية
- ٣١ قُصي بن كلاب - من مآثر قُصي ومظاهر الرئاسة - أبناء قُصي
- ٣٢ هاشم - مآثر هاشم
- ٣٣ منافسة أمية لهاشم - زواج هاشم - المطلب
- ٣٤ عبد المطلب - إعادة حفر زمزم
- ٣٥ قريش تعترض
- ٣٦ نذر عبد المطلب - فداء عبد الله

- ٣٧ زواج عبد الله - مرض عبد الله ووفاته.....
- ٣٨ وقعة الفيل - الهجوم على الكعبة لهدمها.....
- ٣٩ مواجهة جيش أبرهة مع جند الله.....
- ٤١ **ميلاد النبي ﷺ** - فرح عبد المطلب بالمولود.....
- ٤٢ **مرحلة الطفولة** - مرضعه وحواضنه ﷺ - حليلة السعدية.....
- ٤٣ رسول الله ﷺ عند سن سنتين.....
- ٤٤ حادثة شق الصدر - في أحضان أمه الحنون.....
- ٤٥ وفاة أمه آمنة- في كفالة جده عبد المطلب - وفاة عبد المطلب.....
- ٤٦ في كفالة عمه أبي طالب.....
- ٤٨ **مرحلة الشباب** - شبابه حتى العشرين - حرب الفجار.....
- ٤٩ حلف الفضول - خديجة بنت خويلد.....
- ٥٠ خروج رسول الله ﷺ في تجارة خديجة.....
- ٥١ الزواج من خديجة.....
- ٥٢ الرسول الزوج.....
- ٥٤ **أبناء رسول الله ﷺ**.....
- ٥٥ إعادة بناء الكعبة.....
- ٥٦ زواج زينب.....
- ٥٧ زواج رقية وأم كلثوم - مرحلة النبوة - بشائر الوحي وبوادر النبوة - غار حراء.....
- ٥٨ **بداية الوحي**.....
- ٥٩ بداية نزول القرآن.....
- ٦٠ مقالة ورقة بن نوفل.....
- ٦٢ **بداية عصر النبوة**.....
- ٦٢ الوضوء والصلاة - فتور الوحي.....
- ٦٣ **بداية الدعوة** - السابقون الأولون - في بيت رسول الله.....
- ٦٤ من خارج بيت النبوة.....
- ٦٦ المسلمون يمارسون شعائرهم في الخفاء - الجهر بالدعوة - الدعوة في الأقرين.....

- ٦٧ الدعوة للناس عامة - أبو لهب يواجه رسول الله ﷺ
- ٦٨ قلق قريش
- ٧٠ **الصراع بين الحق والباطل**
- ٧٠ خطة قريش لهدم الدعوة - السخرية والتحقير والاستهزاء
- ٧١ إثارة الشبهات والشائعات الكاذبة - الحيلولة بين الناس وسماعهم القرآن
- ٧٢ الإيذاء الجسدي لأصحاب رسول الله ﷺ
- ٧٤ مساومات قريش مع رسول الله ﷺ لصرفه عن الدعوة
- ٧٥ سفارة عتبة بن ربيعة
- ٧٥ وفد قريش إلى أبي طالب
- ٧٦ قريش يُهددون أبا طالب
- ٧٧ الإيذاء البدني لرسول الله ﷺ - أبو لهب وزوجته أم جميل
- ٧٨ عتبة بن أبي مُعيط - أبو جهل (عمرو بن هشام)
- ٧٩ خطة رسول الله ﷺ المضادة لقريش
- ٧٩ نشر الدعوة - دار الأرقم
- ٨٠ حماية أصحابه - الصلاة سرّاً - هجرة الحبشة الأولى
- ٨٢ هجرة الحبشة الثانية - مكيدة قريش لمهاجري الحبشة
- ٨٥ **إسلام عمر وحزمة** - إسلام حمزة بن عبد المطلب
- ٨٦ إسلام عمر بن الخطاب
- ٨٨ انتشار خبر إسلام عمر - عمر - الفاروق - المسلمون يخرجون للصلاة جهراً
- ٨٩ **مفاوضات ومساومات قريش**
- ٨٩ أولاً : مفاوضات زعماء قريش مع رسول الله ﷺ - محاولات الترغيب
- ٩١ طلب المعجزات
- ٩٢ ثانياً : المساومات والتنازلات - نعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد
- ٩٢ طلب إجراء بعض التعديلات في القرآن
- ٩٢ مساومات النضر بن الحارث - قريش تسأل اليهود عن رسول الله ﷺ
- ٩٥ لماذا لم يؤمنوا ؟

- ٩٩ **المقاطعة العامة** - بداية المقاطعة - المعاناة داخل شِعب أبي طالب
- ١٠٠ دوريات لحراسة رسول الله ﷺ - استمرار الدعوة رغم الحصار
- ١٠١ بوادر كسر الحصار
- ١٠٢ نقض الصحيفة وإنهاء الحصار
- ١٠٤ **عام الحزن** - وفاة أبي طالب - وفاة خديجة
- ١٠٥ معاناة رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة
- ١٠٦ **الخروج إلى الطائف** - الخروج من الطائف وأذى الرسول ﷺ
- ١٠٧ يُطبق عليهم الأخشبين
- ١٠٧ عداس النصراني
- ١٠٨ العودة إلى مكة
- ١٠٩ **عزّ الإسلام على القبائل والأفراد** - ردود أفعال القبائل
- ١١١ **الإسراء والمعراج** - البُرّاق - رسول الله ﷺ يصلي بالأنبياء
- ١١١ إلى سدره المنتهى
- ١١٢ في حضرة المولى عز وجل - فرض الصلاة
- ١١٣ مشاهد مما رأى رسول الله في هذه الرحلة
- ١١٤ عودة إلى مكة - قريش تستنكر
- ١١٦ ملاحظات على قصة الإسراء والمعراج
- ١١٨ **الإسلام يجد النور خارج مكة** - سويد بن الصامت - إياس بن معاذ
- ١١٩ أبو ذر الغفاري
- ١٢٠ طُفيل بن عمرو الدوسي
- ١٢١ ضِماد الأزدي - نسمات طيبة من يثرب
- ١٢٢ **بيعة العقبة الأولى** - أول سفير للإسلام - الإسلام في يثرب - المدينة
- ١٢٥ **بيعة العقبة الثانية أو الكبرى** - الاستعداد للقاء
- ١٢٥ بداية اللقاء وتخوف العباس
- ١٢٦ بنود البيعة
- ١٢٨ قريش تحتج - مطاردة قريش للمُبايعين

- ١٢٩.....الهجرة إلى يثرب - طلائع الهجرة - مساءات قريش وتضحيات المهاجرين
- ١٣٢.....الهجرة النبوية - مخاوف قريش من هجرة النبي ﷺ - قريش تخطط
- ١٣٤.....خطة النبي ﷺ في الهجرة - في بيت أبي بكر
- ١٣٥.....علي بن أبي طالب في فراش النبي ﷺ
- ١٣٦.....بداية رحلة المهاجر إلى الله - إلى الغار
- ١٣٧.....لا تحزن إن الله معنا - معجزة الغار
- ١٣٨.....ثلاثة أيام في الغار
- ١٣٩.....في الطريق إلى يثرب
- ١٤٣.....دخول يثرب - المدينة المنورة
- ١٤٣.....رسول الله ﷺ في المدينة
- ١٤٤.....في دار أبي أيوب الأنصاري
- ١٤٥.....هجرة أهل البيت
- ١٤٦.....بناء المسجد النبوي - وصف المسجد النبوي
- ١٤٧.....الأذان
- ١٤٩.....تأسيس دولة الإسلام
- ١٥٣.....منهاج رسول الله ﷺ في مواجهة تلك التحديات
- ١٥٣.....أولاً : وحدة الأنصار
- ١٥٤.....ثانياً : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
- ١٥٦.....ثالثاً : ميثاق التحالف بين أبناء الوطن
- ١٥٨.....حرب الجدل بين رسول الله ﷺ واليهود
- ١٥٩.....تحويل القبلة
- ١٦٠.....التحديات الخارجية
- ١٦١.....محاولة اغتيال رسول الله ﷺ
- ١٦١.....إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام
- ١٦٢.....مشروعية القتال - هل انتشر الإسلام بحد السيف ؟
- ١٦٤.....رسول الله ﷺ يخطط لمواجهة قريش

- ١٦٥..... الغزوات والسرايا قبل بدر
- ١٦٥..... سرية سيف البحر
- ١٦٧..... سرية زابغ
- ١٦٨..... سرية الخرار
- ١٦٩..... غزوة الأبياء أو ودَّان
- ١٧٠..... غزوة ذي العُشيرة
- ١٧١..... غزوة بواط
- ١٧٢..... غزوة سَفَوان (بدر الأولي)
- ١٧٣..... سرية نخلة (عبدالله بن جحش)
- ١٧٦..... **موقعة بدر الكبرى**
- ١٧٦..... مقدمة لأسباب الغزوة
- ١٧٦..... خروج رسول الله ﷺ
- ١٧٧..... مسيرة جيش المسلمين
- ١٧٨..... حَيْطَة أبي سفيان
- ١٧٨..... رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب
- ١٧٩..... استتفار وتحفز أهل مكة
- ١٨٠..... تسليح جيش قريش
- ١٨٠..... مخاوف من بني بكر
- ١٨٠..... تحرُّك جيش المشركين
- ١٨٠..... رسول الله ﷺ يعلم بخروج قريش
- ١٨١..... المسلمون في وضع حرج
- ١٨١..... مجلس شورى المسلمين
- ١٨١..... مقالة المهاجرين
- ١٨١..... مقالة الأنصار
- ١٨٢..... أبو سفيان ينجو بغير قريش
- ١٨٣..... حرب أو لا حرب - انشقاق في جيش المشركين

- ١٨٣.....استمرار سير جيش قريش
- ١٨٤.....استمرار زحف جيش المسلمين
- ١٨٥.....حرب الاستخبارات
- ١٨٩..... **يوم المعركة**
- ١٨٩.....خطة رسول الله ﷺ للمعركة
- ١٩٠.....تشكيل الفريقين - قوات المشركين
- ١٩٠.....آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك
- ١٩٠.....أول وقود للمعركة : حمزة يقتل ابن عبد الأسد
- ١٩١.....المبارزة
- ١٩٢.....التقاء الجمعين
- ١٩٢.....رسول الله ﷺ يتضرع إلى الله
- ١٩٢.....بشائر النصر
- ١٩٣.....ارتباك في صفوف المشركين وبداية الهجوم المضاد
- ١٩٣.....إنها حياة طويلة !!
- ١٩٣.....نزول الملائكة لنصر المؤمنين
- ١٩٤.....إبليس ينسحب من الميدان
- ١٩٤.....النصر المبين
- ١٩٤.....صور من قلب الميدان
- ١٩٦.....المسلمون يحسنون إلى من أحسن إليهم
- ١٩٧.....لا قرابة إلا قرابة الدين
- ١٩٧.....المحصلة النهائية للمعركة
- ١٩٧.....مكة تتلقى أنباء الهزيمة
- ١٩٨.....عودة إلى بدر
- ١٩٨.....اليوم الثاني للمعركة
- ١٩٨.....اليوم الثالث للمعركة - أهل القليب
- ١٩٩.....بُشرى النصر إلى المدينة

- ١٩٩..... وفاة رقية
- ٢٠٠..... **الغنائم والأسرى**
- ٢٠٠..... الاختلاف على الغنائم
- ٢٠٠..... تحرك الجيش المنتصر إلى المدينة
- ٢٠١..... قسمة النفل بينهم على السواء
- ٢٠٢..... قتل أسيرين من مجرمي الحرب
- ٢٠٢..... حُسن معاملة الأسرى
- ٢٠٣..... مقاتلا أبي بكر وعمر في الأسرى
- ٢٠٤..... التعليم مقابل الفداء
- ٢٠٤..... المن بالعفو بلا مقابل
- ٢٠٥..... أبو العاص بن الربيع
- ٢٠٥..... عتاب الله في الفداء
- ٢٠٦..... **نتائج غزوة بدر**
- ٢٠٦..... أولاً : أثره على المسلمين
- ٢٠٦..... ثانياً : أثره على قريش
- ٢٠٧..... ثالثاً : أثره على يهود المدينة
- ٢٠٧..... رابعاً : أثره على مشركي المدينة
- ٢٠٨..... **أحداث ما بين بدر وأُحد**
- ٢٠٨..... أولاً : تحديات من القبائل المجاورة
- ٢٠٩..... ثانياً : تحديات من قريش
- ٢١٢..... ثالثاً : تحديات من داخل المدينة يهوداً ومشركين
- ٢١٣..... الرسول يحرص على رشدهم
- ٢١٣..... رسول الله يحافظ على العهد ويكظم الغيظ
- ٢١٤..... **غزوة بني قَيْنُقَاع**
- ٢١٤..... حصار بني قَيْنُقَاع
- ٢١٤..... وساطة عبد الله بن أبي

- ٢١٥..... إخلاؤهم عن المدينة
- ٢١٥..... **سرية زيد بن حارثة**
- ٢١٥..... قریش تسلك طريق العراق إلى الشام
- ٢١٦..... الأخبار تصل إلى المدينة
- ٢١٦..... بعثة زيد
- ٢١٦..... نكبة كبيرة على قریش
- ٢١٧..... **معركة أحد**
- ٢١٧..... أولاً : الاستعداد المادي
- ٢١٧..... ثانياً : الاستعداد المعنوي
- ٢١٩..... مسيرة جيش قریش
- ٢٢٠..... استخبارات المدينة تكشف تحرك العدو
- ٢٢٠..... المدينة في حالة طوارئ
- ٢٢١..... رسول الله ﷺ يستشير أصحابه لوضع خطة الدفاع
- ٢٢١..... رأي رسول الله ﷺ بالتحصن بالمدينة
- ٢٢٢..... رأي بعض الصحابة بالخروج
- ٢٢٢..... الرسول ينزل على رأي الأغلبية
- ٢٢٢..... الاستعداد للقتال
- ٢٢٢..... المسلمون في جدل يتحاورون
- ٢٢٣..... تحرك جيش المسلمين . انكشاف أمر المنافقين
- ٢٢٣..... سير بقية جيش المسلمين إلى أحد
- ٢٢٤..... خطة رسول الله ﷺ
- ٢٢٥..... عبقرية رسول الله ﷺ العسكرية
- ٢٢٥..... تعبئة جيش المسلمين
- ٢٢٦..... تعبئة جيش المشركين
- ٢٢٦..... محاولات قریش إيقاع الفرقة في صفوف المسلمين
- ٢٢٦..... المحاولة الأولى

- ٢٢٦.....المحاولة الثانية
- ٢٢٧.....بداية القتال - المباراة
- ٢٢٧.....احتدام القتال
- ٢٢٨.....مصراع أسد الله حمزة بن عبد المطلب
- ٢٢٨.....ظفر المسلمين صبيحة أحد
- ٢٢٩.....الرؤماة يُخالفون أمر رسول الله ﷺ
- ٢٢٩.....الدائرة تدور على المسلمين
- ٢٣٠.....موقف رسول الله ﷺ الشجاع
- ٢٣٠.....إشاعة مقتل رسول الله ﷺ وارتباك في صفوف المسلمين
- ٢٣٢.....احتدام القتال حول رسول الله ﷺ وإصابته
- ٢٣٢.....بلاء طلحة وسعد
- ٢٣٢.....بعض مما أصاب رسول الله ﷺ
- ٢٣٣.....بداية تجمع الصحابة حول رسول الله ﷺ
- ٢٣٤.....اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون
- ٢٣٤.....استماتة المؤمنين في الدفاع عن رسول الله ﷺ والبطولات النادرة
- ٢٣٥.....توقف القتال
- ٢٣٥.....الرسول يواصل المعركة
- ٢٣٥.....أبشروا هذا رسول الله ﷺ لم يُقتل
- ٢٣٦.....محاولة لعرقلة الانسحاب
- ٢٣٦.....مقتل أبي بن خلف
- ٢٣٦.....الانسحاب والوصول الآمن إلى الشَّعب
- ٢٣٦.....محاولة هجوم أخيرة من المشركين وحُلوا ساحة القتال
- ٢٣٧.....التمثيل بشهداء المسلمين
- ٢٣٧.....تحدي أبو سفيان وردَّ عمر
- ٢٣٨.....أبو سفيان يريد التيقن من مقتل رسول الله ﷺ
- ٢٣٨.....أبو سفيان يتبرأ من التمثيل بالقتلى

- ٢٣٨..... مواعدة للتلاقي في بدر
- ٢٣٨..... قريش تغادر والرسول يتحقق
- ٢٣٩..... تفقد القتلى والجرحى
- ٢٣٩..... جَمع الشهداء ودفنهم.....
- ٢٤٠..... العودة إلى المدينة.....
- ٢٤٠..... قَتَلَ الفريقين.....
- ٢٤٠..... الرسول يفكر في استرداد هيبة المسلمين
- ٢٤٢..... **غزوة حمراء الأسد**.....
- ٢٤٢..... لقاء رسول الله ﷺ بمعبد بن أبي معبد.....
- ٢٤٣..... انهيار عزائم المشركين.....
- ٢٤٣..... فبما رحمةٍ من الله لئنُت لهم.....
- ٢٤٤..... هل كانت معركة أُخذ نصراً للمشركين وهزيمة للمسلمين ؟
- ٢٤٥..... دروس من معركة أُخذ.....
- ٢٤٧..... **ما بين أُخذ والأحزاب عام ٤ هـ**.....
- ٢٤٧..... سرية أبي سلمة بن عبد الأسد.....
- ٢٤٨..... بعث عبد الله بن أنيس.....
- ٢٤٨..... قريش ترصد المكافآت.....
- ٢٤٨..... أولاً : بعث الرجيع.....
- ٢٤٩..... مقتل عبد الله وبيع زيد وخُبيب.....
- ٢٤٩..... ما يسرني أن شوكةً تؤذي رسول الله ﷺ.....
- ٢٥٠..... ثانياً : بعث بئر معونة :
- ٢٥١..... حُزن رسول الله ﷺ على أهل الرجيع وبئر معونة.....
- ٢٥١..... دفع دية القتيلين من بني عامر
- ٢٥٢..... **غزوة بني النضير**.....
- ٢٥٢..... مؤامرة بني النضير على قتل رسول الله ﷺ.....
- ٢٥٢..... نجاة رسول الله ﷺ من المؤامرة.....

- ٢٥٣.....عاقبة الغدر والخيانة
- ٢٥٣.....عبد الله بن أبي يُحرض بنو النضير
- ٢٥٤.....حصار بني النضير
- ٢٥٤.....خذلان ابن أبي واستسلام بني النضير
- ٢٥٥.....سياسة الأرض المحروقة - جلاء بني النضير
- ٢٥٥.....مغانم بني النضير
- ٢٥٦.....كاتب سر رسول الله ﷺ
- ٢٥٧.....غزوة ذات الرقاع
- ٢٥٧.....ربيع الآخر سنة ٤ هجرياً
- ٢٥٨.....غزوة بدر الآخرة
- ٢٥٩.....غزوة دومة الجندل
- ٢٦٠.....غزوة الخندق (الأحزاب)
- ٢٦٦.....خطة الدفاع
- ٢٦٦.....وصول المشركين والفرع من الخندق
- ٢٦٧.....المبارزة ومقتل ابن عبد ود
- ٢٦٨.....ثبات المؤمنين - تسرب روح الهزيمة في نفوس الأحزاب
- ٢٦٨.....خوف حِييٍ من انسحاب الأحزاب
- ٢٦٩.....محاولات كسب بني قريظة
- ٢٦٩.....قريظة تنقض العهد
- ٢٦٩.....بوادر الغدر - صفية تقتل يهودياً
- ٢٧٠.....الرسول ﷺ يعلم بخيانة بني قريظة ويرسل الرُّسل للتحقق
- ٢٧١.....الرسول ﷺ يلجأ للسياسة
- ٢٧١.....اعتراض الأنصار
- ٢٧٢.....عناية الله تُسخر مخرجاً للأزمة
- ٢٧٢.....الحرب خدعة - دسياسة نُعيم بين الأحزاب وقريظة
- ٢٧٣.....الشك والريبة في نفوس الأحزاب

- ٢٧٣.....الرسول يبتهل إلى الله.....
- ٢٧٤.....استجابة من الله - العاصفة تقلع الخيام.....
- ٢٧٤.....ارتحلوا إنني مرتحل.....
- ٢٧٤.....رسول الله ﷺ يتحقق من الرحيل.....
- ٢٧٤.....لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا.....
- ٢٧٦.....**غزوة بني قُريظة**.....
- ٢٧٦.....ما وضعت الملائكة السلاح بَعْد.....
- ٢٧٦.....المسير إلى بني قُريظة.....
- ٢٧٦.....حصار بني قُريظة.....
- ٢٧٧.....استطالة أمد الحصار - استشارة أبي لُبابة.....
- ٢٧٨.....جزاء الخيانة العظمى.....
- ٢٧٨.....توسل الأوس لرسول الله ﷺ.....
- ٢٧٩.....تحكيم سعد بن معاذ.....
- ٢٧٩.....حكمت بحكم الله.....
- ٢٨٠.....وفاة سعد بن معاذ - الملائكة تحمل عرشه.....
- ٢٨١.....ما بين الغزوتين والحديبية.....
- ٢٨١.....سرية محمد بن مسلمة.....
- ٢٨٢.....غزوة بني لحيان.....
- ٢٨٣.....غزوة ذي قرد (الغابة).....
- ٢٨٤.....**غزوة بني المُصطلق (المرسيع)**.....
- ٢٨٤.....أسباب الغزوة.....
- ٢٨٤.....خروج رسول الله ﷺ.....
- ٢٨٤.....بداية الهجوم.....
- ٢٨٥.....المنافقون والفتنة بين الأنصار والمهاجرين.....
- ٢٨٦.....لئن رجعنا إلى المدينة لُيُخرجنَّ الأعرُّ منها الأذل.....
- ٢٨٦.....الرسول يُعلم بمقولة ابن أبي.....

- ٢٨٦.....حكمة رسول الله ﷺ تحسم الفتنة وترأب الصدع.
- ٢٨٧.....ابن أبي ينفى مقولته
- ٢٨٧.....القرآن يُصدق زيد بن أرقم.....
- ٢٨٨.....العودة إلى المدينة - موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي.....
- ٢٨٨.....رسول الله ﷺ يعفو عن ابن أبي.....
- ٢٨٩.....**حادثة الإفك**.....
- ٢٨٩.....عائشة مع النبي ﷺ في بني المُصطلق.....
- ٢٨٩.....تخلف عائشة عن الركب.....
- ٢٩٠.....عودتها إلى المدينة مع صفوان.....
- ٢٩٠.....حديث الإفك.....
- ٢٩١.....الخبر يبلغ رسول الله ﷺ.....
- ٢٩١.....مرض عائشة.....
- ٢٩١.....تأذي رسول الله ﷺ من حديث الناس.....
- ٢٩٢.....الخبر يبلغ عائشة.....
- ٢٩٣.....رسول الله ﷺ يشاور أسامة وعليًا.....
- ٢٩٣.....مواجهة رسول الله ﷺ مع عائشة.....
- ٢٩٣.....صبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون.....
- ٢٩٤.....نزول الوحي ببراءة عائشة.....
- ٢٩٥.....رُمي المحصنات - تنفيذ حكمه في رُماة عائشة.....
- ٢٩٥.....جمال العفو.....
- ٢٩٥.....تتابع البعوث والسرايا.....
- ٢٩٦.....الحديبية.....
- ٢٩٦.....المسلمون يتحرقون شوقًا للبيت الحرام.....
- ٢٩٦.....استتفار المسلمين.....
- ٢٩٧.....تحرك المسلمين إلى مكة.....
- ٢٩٨.....رسول الله ﷺ يؤثر السلم.....

- ٢٩٩..... حبسها حابسُ الفيل.....
- ٢٩٩..... بداية المفاوضات.....
- ٣٠١..... محاولة أخيرة من قريش.....
- ٣٠١..... سفارة رسول الله ﷺ إلى قريش.....
- ٣٠١..... سفارة عثمان بن عفان.....
- ٣٠٢..... عثمان في مكة.....
- ٣٠٢..... إشاعة مقتل عثمان.....
- ٣٠٢..... بيعة الرضوان.....
- ٣٠٣..... عودة عثمان.....
- ٣٠٣..... صلح الحديبية وبنوده.....
- ٣٠٤..... كتابة الصلح.....
- ٣٠٤..... بداية تنفيذ بنود الصلح.....
- ٣٠٥..... ردود أفعال المسلمين وحوار عمر.....
- ٣٠٦..... إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا.....
- ٣٠٦..... الحديبية فتح مُبين.....
- ٣٠٧..... فكان من أهم نتائج الصلح.....
- ٣٠٨..... قصة أبي بصير.....
- ٣٠٩..... قريشٌ تتنازل عن بعض شروط الصلح.....
- ٣٠٩..... المهاجرات المسلمات.....
- ٣١٠..... رحمة للناس كافة.....
- ٣١٠..... مكاتبة الملوك والأمراء.....
- ٣١٠..... رُسل رسول الله ﷺ.....
- ٣١٢..... **خيبر**.....
- ٣١٢..... أسباب الغزوة.....
- ٣١٢..... الخروج إلى خيبر.....
- ٣١٣..... في الطريق إلى خيبر.....

- اليهود يرتجفون ٣١٤
- حصون خيبر ٣١٤
- معسكر جيش المسلمين ٣١٥
- بداية القتال وبشائر النصر ٣١٥
- تتابع فتح الحصون ٣١٦
- حصن الصعب بن معاذ ٣١٦
- قلعة الزبير ٣١٧
- قلعة ابن أبي الحقيق ٣١٧
- حصن النزار ٣١٧
- حصون منطقة الكتبية ٣١٧
- صلح خيبر ٣١٧
- إحسان النبي لليهود ٣١٨
- غنائم خيبر ٣١٨
- قدوم جعفر بن أبي طالب ومهاجري الحبشة ٣١٨
- محاولة أخرى لاغتيال رسول الله ﷺ - الشاة المسمومة ٣١٩
- إذعان باقي يهود شبه الجزيرة : يهود فدك ٣٢٠
- يهود وادي القرى ٣٢٠
- يهود تيماء ٣٢٠
- العودة إلى المدينة ٣٢٠
- عودة الرُّسل وردود أفعال الملوك والأمراء** ٣٢١
- رد هرقل ملك الروم ٣٢١
- حديث أبي سفيان ٣٢١
- رد كسرى ملك الفرس ٣٢٣
- رد النجاشي - ملك الحبشة ٣٢٤
- رد المقوقس - حاكم مصر ٣٢٤
- رد أمير بُصرى ٣٢٥

- ٣٢٦.....**عُمرَةُ القِضَاءِ**.....
- ٣٢٦.....خروج المسلمين إلى مكة.....
- ٣٢٦.....دخول مكة.....
- ٣٢٧.....إجلاء قريش عن مكة.....
- ٣٢٧.....المسلمون يطوفون بالكعبة.....
- ٣٢٧.....ثلاثة أيام في مكة.....
- ٣٢٨.....عودة إلى المدينة.....
- ٣٢٩.....إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.....
- ٣٢٩.....خروج خالد ولقاء صاحبيه.....
- ٣٣٠.....خالد وأصحابه في حضرة النبي ﷺ.....
- ٣٣١.....**معركة مؤتة**.....
- ٣٣١.....أسبابها :.....
- ٣٣١.....التعبئة للمعركة - وصايا رسول الرحمة ﷺ للمقاتلين.....
- ٣٣٢.....توزيع الجيش.....
- ٣٣٢.....تحرك الجيش ومباغطة للعدو.....
- ٣٣٢.....المسلمون يتشاورون.....
- ٣٣٣.....بداية المعركة واستشهاد زيد وجعفر وعبد الله.....
- ٣٣٤.....الراية إلى سيف من سيوف الله.....
- ٣٣٤.....رسول الله ﷺ يُخبر الناس بما حدث.....
- ٣٣٤.....نهاية المعركة ومناورة خالد بن الوليد.....
- ٣٣٥.....قتلى الفريقين.....
- ٣٣٥.....الفرار الكرار.....
- ٣٣٦.....أثر معركة مؤتة.....
- ٣٣٦.....سرايا وبعوث أخرى.....
- ٣٣٧.....**فتح مكة**.....
- ٣٣٧.....نقض قريش عهد الحديبية - سبب غزوة الفتح.....
- ٣٣٨.....استتصار خزاعة بالنبي.....

- ٣٣٨.....مخاوف قريش - سفارة أبي سفيان
- ٣٣٩.....أبو سفيان في المدينة - إخفاق سفارته
- ٣٤٠.....الاستعداد للفتح
- ٣٤٠.....كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش
- ٣٤١.....رسول الله ﷺ يعفو عن حاطب
- ٣٤٢.....تحرك جيش المسلمين للفتح العظيم
- ٣٤٤.....خروج بني هاشم وإسلامهم
- ٣٤٤.....نزول الجيش الإسلامي بمر الظهران
- ٣٤٤.....العباس يحذر قريشاً - أبو سفيان يستطلع
- ٣٤٥.....لقاء العباس بأبي سفيان وإجارته
- ٣٤٦.....أبو سفيان في حضرة رسول الله ﷺ
- ٣٤٧.....رسول الله ﷺ يأخذ كل الحذر قبل دخول مكة
- ٣٤٩.....أبو سفيان يشهد الجند
- ٣٤٩.....اليوم يوم الرحمة
- ٣٤٩.....أبو سفيان يحذر قريشاً
- ٣٥٠.....فتحاً مبيئاً
- ٣٥١.....رسول الله ﷺ في مكة
- ٣٥٢.....اذهبوا فأنتم الطلقاء - العفو العام
- ٣٥٢.....مفتاح الكعبة لأهله
- ٣٥٢.....العفو عمّن ظلموه
- ٣٥٤.....٤ . فضالة بن عمير
- ٣٥٧.....نتائج فتح مكة
- ٣٥٨.....التحالف ضد المسلمين
- ٣٦٠.....الخبرة تُدين القائد
- ٣٦٠.....تحصن الأعداء بمضيق الوادي - حنين
- ٣٦٠.....استخبارات رسول الله ﷺ
- ٣٦٠.....مسيرة المسلمين إلى حنين

- ذات أنواط..... ٣٦١
- في حُنين..... ٣٦١
- لن نُغلب اليوم من قلة..... ٣٦١
- جيش الأعداء يُباغت جيش المسلمين..... ٣٦١
- شماتة حديثي العهد بالإسلام..... ٣٦٢
- ثبات رسول الله ﷺ وقوة عزمته..... ٣٦٢
- نداء العباس ورجوع المسلمين..... ٣٦٣
- تحول سَيْر القتال لصالح المسلمين..... ٣٦٣
- الغنائم..... ٣٦٤
- هزيمة تامة للمشركين..... ٣٦٤
- غزوة الطائف**..... ٣٦٥
- السير إلى الطائف..... ٣٦٥
- حصار الطائف..... ٣٦٥
- رمي الحصن بالمنجنيق..... ٣٦٦
- الثعلب في جحره..... ٣٦٦
- اللهم اهدِ تقيفًا..... ٣٦٦
- رد سبايا هوازن..... ٣٦٦
- الشيماة أخت رسول الله ﷺ..... ٣٦٧
- إسلام مالك بن عوف..... ٣٦٧
- عطايا المؤلفة قلوبهم..... ٣٦٨
- الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم..... ٣٦٨
- عمرة الجعرانة والانصراف إلى المدينة..... ٣٧٠
- أهم الأحداث بين حُنين وتبوك**..... ٣٧١
- أولاً : إسلام كعب بن زهير ، ونهاية الهيمنة الإعلامية على الجزيرة..... ٣٧١
- ثانياً : ترتيب استيفاء الصدقات..... ٣٧٢
- غزوة تبوك**..... ٣٧٦
- جيش العُسرة..... ٣٨٠

٣٨٢.....	أحداث ومعجزات في الطريق
٣٨٦.....	معاهدة أهل الحدود
٣٨٨.....	العودة إلى المدينة
٣٨٨.....	مسجد ضرار
٣٨٩.....	المُخَلَّفون يعتذرون
٣٩٣.....	أهم أحداث سنة ٩ هـ وبداية سنة ١٠ هـ
٣٩٣.....	وفاة أم كلثوم
٣٩٣.....	موت رأس النفاق - عبد الله بن أبي بن سلول
٣٩٣.....	خيرني ربي فاخترتُ
٣٩٤.....	حكمة رسول الله ﷺ وبعُد نظره
٣٩٤.....	تراجع حركة النفاق
٣٩٥.....	حجّ أبي بكر
٣٩٦.....	وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ
٣٩٦.....	كسوف الشمس
٣٩٧.....	الوفود
٣٩٧.....	أولاً : وفد بني ثقيف
٣٩٧.....	إسلام عروة بن مسعود
٣٩٨.....	مقتل عروة :
٣٩٨.....	ثقيف ترسل وفدًا إلى رسول الله ﷺ
٣٩٩.....	مفاوضات الوفد مع رسول الله ﷺ
٣٩٩.....	إسلام ثقيف - هدم اللات
٤٠٠.....	ثانيًا : وفد بني طيء
٤٠٠.....	بعثة علي بن أبي طالب لهدم الفُلس
٤٠٠.....	إسلام عدي بن حاتم
٤٠١.....	الوفد الأول
٤٠٢.....	الوفد الثاني
٤٠٢.....	المباهلة
٤٠٢.....	أمين الأمة

- ٤٠٣..... دعوة أخيرة للإيمان.....
- ٤٠٣..... رابعًا : وفد تميم : سرية عُيينة بن حصن.....
- ٤٠٣..... قدوم وفد تميم.....
- ٤٠٤..... خامسًا : الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.....
- ٤٠٦..... **حجة الوداع**.....
- ٤٠٦..... رسول الله ﷺ يتجهز للحج.....
- ٤٠٧..... مسيرة المسلمين للحج.....
- ٤٠٧..... التمتع والقرآن في الحج.....
- ٤٠٨..... عودة علي من اليمن.....
- ٤٠٨..... أداء مناسك الحج.....
- ٤٠٨..... خطبة رسول الله ﷺ - خطبة الوداع.....
- ٤١٠..... اليوم أكملت لكم دينكم.....
- ٤١٠..... الرسول يُكمل المناسك.....
- ٤١١..... آخر البعوث - بعثة أسامة بن زيد.....
- ٤١٣..... **الفصل الأخير من الحياة الطيبة**.....
- ٤١٣..... مقدمات الوداع.....
- ٤١٣..... زيارة أهل البقيع.....
- ٤١٤..... اخترت لقاء ربي.....
- ٤١٤..... بداية مرض رسول الله ﷺ.....
- ٤١٥..... رسول الله ﷺ يداعب عائشة رغم مرضه.....
- ٤١٥..... اشتداد الحمى وخروج رسول الله ﷺ إلى المسجد.....
- ٤١٦..... المجلس الأخير.....
- ٤١٧..... الأيام الأخيرة من حياته ﷺ.....
- ٤١٨..... أحداث يوم الأحد ١١ ربيع الأول ١١ هـ قبل يوم من وفاته ﷺ.....
- ٤١٨..... حديث رسول الله ﷺ إلي فاطمة.....
- ٤١٨..... التصدق بماله ﷺ.....
- ٤١٩..... اليوم الأخير : الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١ هـ.....

- ٤١٩.....رسول الله ﷺ يخرج للصلاة.....
- ٤١٩.....غبطة المسلمين برؤية رسول الله ﷺ.....
- ٤١٩.....بل الرفيق الأعلى من الجنة.....
- ٤٢٠.....هول الفاجعة ومواقف الصحابة.....
- ٤٢١.....موقف عمر بن الخطاب.....
- ٤٢١.....موقف أبي بكر.....
- ٤٢٢.....موقف علي بن أبي طالب.....
- ٤٢٢.....موقف عثمان بن عفان.....
- ٤٢٢.....موقف بلال.....
- ٤٢٣.....أين يُدفن رسول الله ﷺ ؟.....
- ٤٢٣.....غُسل النبي ووداع الجسد الطاهر.....
- ٤٢٥.....**الشمائل النبوية**.....
- ٤٢٥.....جمال الخلق : وهذا وصفه ﷺ كما جاء في الآثار الصحيحة : صفة طوله ﷺ.....
- ٤٢٥.....صفة لونه ﷺ.....
- ٤٢٥.....صفة وجهه ﷺ.....
- ٤٢٥.....صفة شعره ﷺ.....
- ٤٢٥.....صفة كتفيه وخاتم النبوة.....
- ٤٢٦.....صفة كفيته وطيب ريحه.....
- ٤٢٦.....جمال خلق رسول الله ﷺ.....
- ٤٢٧.....كلامه وفصاحة لسانه ﷺ.....
- ٤٢٨.....زهده ﷺ.....
- ٤٢٩.....عرض علي بطحاء مكة ذهباً.....
- ٤٢٩.....الدنيا لا تعدل جناح بعوضة.....
- ٤٢٩.....احشرنني في زمرة المساكين.....
- ٤٢٩.....ما قالته السيدة عائشة عن زهده ﷺ.....
- ٤٢٩.....أوتي خزائن الأرض : مات ودرعه مرهونة.....
- ٤٣٠.....فراش رسول الله ﷺ.....
- ٤٣٠.....أنفق ولا تحش من ذي العرش إقلالاً.....

- ٤٣١.....عطاؤه للمؤلفة قلوبهم.....
- ٤٣١.....صبره وعفوه عند المقدرة.....
- ٤٣١.....الصبر على إيذاء قريش.....
- ٤٣١.....إنك لا تكافئ بالسيئة السيئة.....
- ٤٣٢.....أحسننت إليك؟.....
- ٤٣٢.....اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.....
- ٤٣٣.....الشاة المسمومة.....
- ٤٣٣.....العفو العام - فتح مكة.....
- ٤٣٣.....خُيرتُ فاخترتُ.....
- ٤٣٤.....شجاعته ونجدته ﷺ.....
- ٤٣٤.....فزع بالمدينة.....
- ٤٣٥.....حياؤه ﷺ.....
- ٤٣٥.....إذا كره شيئاً عُرف في وجهه.....
- ٤٣٥.....لا يواجه أحد بشيء يكرهه.....
- ٤٣٥.....كمال الحياء.....
- ٤٣٥.....تواضعه ﷺ.....
- ٤٣٦.....يجلس حيث ينتهي به المجلس.....
- ٤٣٦.....يجب أن يُدعى عبد الله.....
- ٤٣٦.....عيادة المرضى وشهود الجنائز.....
- ٤٣٦.....يبدأ بالسلام ويكرم من دخل عليه.....
- ٤٣٧.....عدم التميّز عن أصحابه.....
- ٤٣٧.....مزاحه ﷺ لأصحابه ومداعبته لأطفالهم.....
- ٤٣٧.....إن الجنة لا تدخلها عجز.....
- ٤٣٧.....يدعو أصحابه مداعباً.....
- ٤٣٧.....عليّ والنّوى.....
- ٤٣٨.....يُمزح الأطفال ﷺ.....
- ٤٣٨.....الوفاء والأمانة.....
- ٤٣٨.....الصادق الأمين.....

- ٤٣٨.....شديد الوفاء لخديجة.....
- ٤٣٩.....خوفه من الله وبكاؤه ﷺ.....
- ٤٣٩.....لو تعلمون ما أعلم.....
- ٤٣٩.....يصلي حتى تتورم قدماً رسول الله ﷺ.....
- ٤٣٩.....كثير الصيام.....
- ٤٤٠.....كثير البكاء خاصة عند سماع القرآن.....
- ٤٤٠.....رحمته ﷺ.....
- ٤٤١.....عند مولده.....
- ٤٤١.....عند ١٠ إلى سن ١٢ سنة.....
- ٤٤١.....يُستسقى الغمام بوجهه : ١٠ سنوات.....
- ٤٤١.....الغمام يظّله هو ومن معه ١٢ سنة.....
- ٤٤٢.....عند سن ٣٥ سنة.....
- ٤٤٢.....عند سن ٤٠ سنة.....
- ٤٤٢.....بعد البعثة.....
- ٤٤٣.....في الطائف.....
- ٤٤٣.....في المعراج.....
- ٤٤٣.....في غزواته ﷺ.....
- ٤٤٣.....رجل يبول في المسجد.....
- ٤٤٤.....يتجوّز في صلاته لسماع بكاء طفل.....
- ٤٤٤.....في بيته.....
- ٤٤٤.....رحمة لأعدائه ﷺ.....
- ٤٤٥.....رحمته ﷺ بالجماد.....
- ٤٤٥.....رحمته ﷺ بالحيوان.....
- ٤٤٥.....عند وفاته ﷺ.....
- ٤٤٦.....يوم القيامة.....
- ٤٤٧.....مراجع الكتاب.....

للاتصال بالمؤلف



١ - البريد الإلكتروني للمؤلف hashmawy57@hotmail.com



٢ - موقع المؤلف على شبكة الإنترنت www.Hassanashmawy.com



٣ - الصفحة الرسمية للمؤلف على الفيسبوك [mercytomankind2013](https://www.facebook.com/mercytomankind2013)



٤ - القناة الرسمية للمؤلف على اليوتيوب [Dr Hassan Ashmawy](https://www.youtube.com/DrHassanAshmawy)



٥ - واتساب ٠٠٢٦٣٧١٢٤٠٠٩٢٢